جودي مابرو

حقائق غائبة خلف الحجاب

تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط

ت. معين الإمام



جودي مابرو

مؤلفة الكتاب:

"أنا أمنع كل شيء: الرقابة وحرية التعبير في

اكسفورد بين الحربين."

تعيش وتعمل في اكسفورد.

لوحة الغلاف: غوستاف كليمت.

"العذراء" - ١٩١٣ -

تصميم الغلاف: د. مالك سلمان

حقائق غائبة خلف الحجاب

* حقائق غائبة خلف الحجاب

* جودي مابرو

* ترجمة: معين الإمام

* الطبعة الأولى كانون الثاني ١٩٩٧

* الناشر: دار نون للدراسات والنشر والتوزيع

اللاذقية هـ: ٤١٤٧٤٢

* تنفيذ: رام للطباعة دمشق هـ: ٥١٢٢٧٥٩

جودي مابرو

حقائق غائبة خلف الحجاب

"تصورات الرحّالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط"

ترجمة : معين الإمام

TITLE: VEILED HALF - TRUTHS

WESTERN TRAVELLERS CONCEPTIONS

OF MIDDLE EASTERN WOMEN

SELECTED&

INTRODUCED BY JUDY MABRO

PUBLISHERS I.B TAURIS & CO LTD

LONDON - NEW YORK

DATE OF PUBLICATION 1991

إلى ميسون الإمام

معين

مقدمة

كانت النساء المسلمات موضوعاً لجدل كثير في الصحافة الغربية مؤخراً ، خصوصاً عندما طالب عدد من الفتيات في فرنسا وإنكلترا بحقهن في ارتداء الحجاب داخل المدرسة . وقد عكس هذا النقاش الطويل والحاد في فرنسا – وفي إنكلترا بدرجة أقل – نظرة غربية ترى في الدين سبباً وحيداً للاضطهاد الذي تتعرض له النساء المسلمات، أما العنصرية في أوروبا فلم تلق الاهتمام الذي تستحق رغم أنها قد تكون عاملاً مساهماً في إثارة الموضوع .

وعلى الدوام اعتبرت أوروبا نفسها أنها "تعلم" بأن النساء المسلمات –تحديداً– يعانين من الظلم والاضطهاد ، وهي قضية تناولتها لسنين طويلة كتب الرحلات والأدب والفن في الغرب حتى غدت حقيقة لا تقبل النقاش، ولا تزال ردود الفعل الغربية على الحجاب و"مؤسسة" الحريم قوية وعنيفة اليوم كما كانت دائماً في الماضي .

وحتى لو كان الحجاب أحياناً مجرد وشاح من قماش يغطي الرأس، إلا أنه ظلّ رمزاً قوياً وقادراً على أن يغشى الأبصار ويدفع البعض لتعميم أحكامهم الخاطئة المتحيزة . وبلا مقدمات تظهر على السطح فجأة جملة من الأفكار الجاهزة حول الإسلام والنساء المسلمات كما حدث مثلاً عندما قام مراسل "الغارديان" بتقصي حالة تلميذتين محجبتين في "الترينغهام". فقد طلب التحدث إلى والد الفتاتين معتبراً أن الإسلام دين يسيطر عليه الرجال، وأن النساء المسلمات مجرد كائنات مستكينة ومستسلمة. لكن إحدى الفتاتين أخبرته أن والدها مشغول وأنها على استعداد للحوارمعه.يقول المراسل: **"تحدثت فاطمة لمدة أربعين دقيقة كاملة ومع أن عمرها لا يزيد عن خمسة عشر عاماً، إلا أن طلاقتها وثقتها بنفسها يلفتان الأنظار حتى فيمن يبلغ ضعف عمرها. إنها سيدة نفسها وتعي ما تقول".** (الغارديان،

١٩/١/١٩٩٠). وفي أيار من عام ١٩٨٩ ظهر برنامج تلفزيوني حول أفغانستان تضمن مقابلة مع بعض الطالبات في جامعة كابول، ذكرت الطالبات فيها أن رغبتهن الأولى هـي تحقيـق السلام في وطن مزقته الحرب، وإذا تطلب الأمر التوصل إلى حل وسط من أجل السلام فليكن ذلك.

ودهش المراسل لأن من الطبيعي أن يحتل وضع المرأة الأفغانية الأولوية على السلام بالنسبة لفتيات هن قبل كل شيء نتاج للحكم الشيوعي، وعندما سأل: "ولكن هل أنتن حقاً على استعداد لارتداء الحجاب؟"، كانت إجابتهن جميعاً نعم، إذا أسهم ذلك في تحقيق السلام! وخلال العقد الذي خصصته الأمم المتحدة للمرأة بين عامي ١٩٧٥-١٩٨٥ ركزت الحركة النسائية الغربية بإصرار يفتقد بعد النظر على قضايا مثل ختان الفتيات والحجاب وذلك في محاولتها لإقناع نساء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أن تلك هي القضايا المحورية في النضال من أجل تحرر المرأة. لكن ما أن شارف العقد على نهايته حتى بدا أن هنالك نوعاً من التسليم بأن المشكلة ليست عل هذه الدرجة من السطحية؛ وأن المرأة الغربية ليست في موقع يؤهلها لأن تحدد القضية المحورية بالنسبة لنساء الشرق الأوسط وأفريقيا؛ وأن في خلع الحجاب أو نبذ عادة ختان الفتيات لن تحصل المرأة هناك بشكل فوري على حقها في الاستقلال الاقتصادي والغذاء والأمان والتي تعتبر في مقدمة الأوليات التي يجب التعامل معها.

شكّل الحجاب والحريم عبر القرون رمزين فتُنت بهما أوروبا ونفرت منهما في آن معاً. فقد كوّنا عائقاً حال بين المراقب الغربي وبين رؤية النساء في الشرق والتواصل معهن مما ولّد لديه شعوراً بالإحباط وسلوكاً عدوانياً من جهة، ومن جهة أخرى كانا حلماً داعب خياله، ونوعاً من "الفنتازيا"، وأملاً بالمغامرة بحثاً عن الشهوة وعن الغريب والشاذ، بعد كل ما سمعه حول "الجمال من خلف الحجاب"،و "درة نساء الحريم". ولم

يختلف الأمر بالنسبة للأوروبيات حين زرن الشرق، فقد كن على نفس القدر من الغموض والعدائية، وكما فعل الرجال، نظرن إلى الأمور بمنظار أوروبي عرقي متعصب وإن اختلفت الأسباب كما سنرى لاحقاً.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تركيز الرحالة الغربيين على موضوعي الحجاب والحريم أدى غالباً لإخفاقهم في فهم الجوانب الحياتية الأخرى لنساء الشرق الأوسط، وذلك من ناحيتين اثنتين: أولاً، إن مفهوم "الحريم" كما عرفه الغرب كان أمراً نادراً للغاية وشاذاً وغريباً عن واقع حال الأكثرية الساحقة من نساء الشرق اللواتي إما يعشن الفقر في الأرياف ويحملن أعباء الجزء الأكبر من العمل الزراعي، أو يعملن خارج المنزل في المدن للمساهمة في ميزانية العائلة. إن لفظة "حريم" تعني ببساطة ذلك القسم المنعزل من المنزل حيث لا يسمح للرجال الغرباء بالدخول. وكما سنرى فيما بعد فإن دلالات الكلمة أخذت في أوروبا أبعاداً مختلفة جداً عن معناها الأصلي. ثانياً، إن الافتراض الذي وضعه الرحالة بأن النساء المحجبات هن بالضرورة أكثر تعرضاً للاضطهاد، وأكثر استكانة، وأكثر جهلاً بالمقارنة مع السافرات قادهم إلى تبني آراء مبالغ فيها حول الحياة المكبلة بالقيود التي تعيشها نساء "الشرق" مقارنة مع الحرية التامة التي تتمتع بها النساء في الغرب. وإذا كان من البداهة التسليم بان المرأة تتعرض للظلم في كلا المجتمعين بشكل أو بآخر، إلا أن الادعاء بأن نمط الحياة الغربي هو المتفوق بالضرورة أدى إلى فشل الرحالة في تمييز الحالات المتشابهة عند كلا الطرفين.

عندما بدأت قراءاتي التحضيرية لكتابة هذه المختارات أثار اهتمامي بشكل خاص ذلك الكم الهائل من كتب الرحلات التي وضعها كتاب مغمورون ولفظتها المطابع الأوروبية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. فقد تملك الفضول الأوروبيين للتعرف على "الآخرين"، لكن فقط إلى الحد الذي يعزز إيمانهم بتفوق ثقافتهم الغربية. وخدمت

تلك الكتب بالإضافة إلى صور وعروض "المصباح السحري"، نفس الأهداف التي من أجلها تُنتج الأفلام التلفزيونية الوثائقية في أيامنا هذه. وبالفعل فإن عدد الكتب كان كبيراً لدرجة أن كثيراً من الكتاب استهلّوا مؤلفاتهم بالاعتذار للقراء عن الكتابة حول موضوع كثر تداوله. وفي الواقع كان هنالك الكثير من التكرار، كما أن بعض المؤلفين -في حالات أخرى- انتحلوا آراء من سبقهم ونسبوها لأنفسهم. لقد تجاهلت كتب الرحلات -ولاتزال- تنوع المظاهر الحياتية للمنطقة، وتبنت -نتيجة نقص المعرفة "بالآخر" المختلف والخوف منه- موقفاً شمولياً تركز على الظواهر الخارجية فقط. وبلغت درجة الافتتان بالشرق وبنسائه على الأخص حداً جعل حتى الكتب الأكاديمية حول الآثار مثلاً تجد لزاماً عليها التعليق على الموضوع. في حين قامت دور النشر أحياناً بإضافة رسومات مثيرة لنساء الشرق لزيادة مبيعاتها من الكتب.

عندما وصل هؤلاء الرحالة، والسياح، وعلماء الآثار، والجغرافيون، وعلماء الطبيعة، والرسامون وغيرهم إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط شاهدوا النساء المحجبات للمرة الأولى. أما اليوم فإن الكثيرين قد رأوا المحجبات في المدن الأوروبية وكان رد فعلهم الشائع هو ما وصفته المقالة التالية التي ظهرت في مجلة "ماري كلير"، في شهر أيلول عام ١٩٨٨. والمقالة تعزف على نفس نغمة الادعاءات القديمة التي وصلتنا من الرحالة الغربيين:

تأتي معرفة معظم الغربيين بالحجاب من خلال مشاهدة جماعات من النسوة القبيحات الهزيلات وقد اتشحن بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدم، يتجولن ببطء في متاجر العواصم الغربية. منظرهن يوحي بالشذوذ والتنافر وهن يدخلن ويخرجن من السيارات

الفارهة التي تبدو وكأنها واقفة إلى الأبد خارج محلات "ماركس اند سبنسر" في حي "ماربل آرش" في لندن. لكن هؤلاء النسوة قد يكن رشيقات ورائعات الجمال في بلادهن، يلفهن نفس الغموض والسحر الذي يلف هضاب الصحراء القاحلة في شبه الجزيرة العربية ذاتها.

يبدو لي أن الكاتب هنا يتناول عدة قضايا مشوشة ومختلطة حول النساء المحجبات: فهن لسن جميعاً على نفس القدر من الغرابة والجمال الذي صورته المخيلة الغربية؛ ومع ذلك يمكن أن يكن رائعات الجمال ورشيقات ويلفهن الغموض والغرابة حين يكشفن الغطاء. ويستحسن أن يفعلن ذلك في بيئتهن الطبيعية حيث لا يظهر التنافر والشذوذ. بكلمات أخرى، يهتم الكاتب بالنساء كموضوعات جنسية لا أكثر، ويحيطهن بالغموض والسرية لأن هذا الموضوع رائج ويعد الكاتب بأرباح كبيرة. ولدى قراءتي لهذه المقالة المعنونة "جزيرة العرب خلف الحجاب" والمرفقة بصور مثيرة كي تلائم مجلة تهتم بالأزياء، أذهلني التشابه الكبير بينها وبين ردود فعل كثير من السياح الذين زاروا الجزائر ومصر وباقي أقطار الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، وكتبوا مطولاً عن المظهر الخارجي والأمور الجنسية للنساء اللاتي عرفوهن أو حلموا بهن.

وانطلاقاً من الأفكار المسبقة المستقاة من الروايات الرومانسية، وقصائد الشعر، وكتب الرحلات، وحكايا الكتاب المقدس، كان رد الفعل المباشر لكثير من الأوروبيين عدوانياً. تجسد، بعد انقضاء لحظات الإثارة الأولى لوجودهم في بلاد الكتاب المقدس، و "ألف ليلة وليلة"، في سلوك غير حضاري مثل التعدي على حرمات البيوت، والتجسس على النساء وهن يجلسن فوق أسطح المنازل، أو يستحممن في الأنهار؛ وإلغاء ثقافات برمتها بحجة أنها في طور الانحطاط والانحلال؛ وفي إحدى الحالات تم دفع مبلغ من المال لإحدى الفتيات كي تجري عملية الختان لمعرفة ما يحدث عندها!! لقد تملك المراقبين الغربيين شعور بالعداء تجاه النساء المحجبات والمدن والبيوت المغلقة

التي نبذتهم ورفضت التعامل معهم، وتمكنــت أحيانــاً مـن قلـب الأدوار بـين المراقِـب والمراقَب؛ إذ إن النساء القابعات خلف النوافذ المغلقة، والعيون المختفية خلف النقـاب المسدل لم تكن محرومة بدورها من متعة البصر، كما كتب "مالك علوله" عن المصوريـن الفرنسيين في الجزائر:

لم تكن تلك النسوة المحجبات بالنسبة للمصور مجرد لغز محير فقط، بـل كـن بمثابـة اعتداء صارخ عليه. إذ إن النظرة الأنثوية التي تنساب من خلال الحجاب كانت نظرة مـن نوع خاص، فـالعين هنـا تمـاثل آلـة التصويـر، وكمـا يسـدد المصـور عدسـته علـى المـرأة المحجبة لالتقاط صورة لهـا، كذلك تفعل هي حين تسدد بدورها نظراتهـا إليـه، ويصبـح هو نفسه هدفا مكشوفاً لعينيهـا، أي أن المصور يصبح مصوَّراً.. عندهـا فقـط يسـقط في يـده ويفقد زمام المبادرة ولا يجد من سبيل للرد علـى هـذا التحـدي الهـادئ والطبيعـي سـوى اللجوء إلى أسلوب الاعتداء المزدوج: فضح المخبأ تحت الحجاب، وتقديم تجسيد مشـخص للمحرّم[1].

في ذلك الكتاب يشير "مالك علوله"، إلى آلاف البطاقات البريدية المصورة الـتي صنعهـا الفرنسيون في الجزائر وزعموا أنها تمثل النســاء والعـادات والتقـاليد المحليـة، واسـتخدموا فيها على نطاق واسع النوافذ المغلقة بقضبان حديدية لإظهار أن المرأة هناك سـجينة خلـف تلك القضبان. أما تقديم أجساد النساء بشكل خلاعي فغرضه حرمـان المـرأة مـن كـل شـيء فيما عدا طبيعتها الشهوانية لإثبات أن المصور قد نجح في مهمته وكشف المســتور، رغـم أن تلك الصور قد فُبركت داخل "الاستديوهات" بعد عمل "الديكورات" اللازمة:

---

[1] – الحريم في العصر الاستعماري

بهذا الأسلوب يفرض موضوع المرأة السجينة داخل منزلها نفسه بطريقة "طبيعية"... وإذا كان الوصول إلى النساء عن طريق النظر مستحيلاً (كونهن محجبات) فإن السبب هو أنهن سجينات! هذا التعادل الدرامي بين التحجب والسجن يبدو ضرورياً لبناء "سيناريو وهمي" كان من نتائجه ذوبان المجتمع الحقيقي الذي يسبب الإحباط، لصالح الوهم: مجتمع الحريم.[٢]

وعلى نفس المنوال تماماً، استولى هاجس الحريم والحجاب على رحالة القرن التاسع عشر (رجالاً ونساء)، فكتبوا عنهما مستخدمين صور السجون والقيود في كل مكان حتى وإن كانت خارجة عن الموضوع. ووصل الأمر إلى درجة أن رنين "خلخال"، أو مصراع نافذة، أو حتى صورة لجدار مثلاً كانت كافية لتداعي الأفكار حول النساء السجينات، واستثارة ردود الأفعال المعادية لنظام الحياة المغلق في "الشرق" المناقض للحياة المنفتحة والودودة في الغرب. وبسبب عدم القدرة على اختراق العائلة في الشرق (وهو أمر يستطيع القيام به أيّ رحال أجنبي بسهولة في أوروبا) أفاضت أقلام الكتاب في إطلاق الأحكام الأخلاقية على تعدد الزوجات، والحريم، وتردي المستوى الخلقي للنساء (الشهوانية، الافتقار إلى المبادئ الأخلاقية، الميول السحاقية...الخ)، وموقفهن المؤسف من الأمومة، وغبائهن... كانت هذه المواقف نتيجة حتمية للعنصرية والاعتقاد بتفوق العرق الأوروبي. وفي الحقيقة إن وصف الحياة المعاشة في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية قد يملي استعمال نفس الأساليب، إلا أن واقع كون النساء "متواريات" عن الأنظار في الشرق الأوسط، استثار رد فعل من نوع خاص تركز على الحريم. كما يجب أن لا يغيب عن البال عند قراءة كل الادعاءات حول انهيار الأخلاق الفاضح عند نساء الشرق أن معظم اللواتي شاهدهن الرحالة ودَوَّن لهم اكثر تمتعاً

[٢] – المصدر السابق، ص ٢١

بالحرية كن من الومسات والراقصات في الأماكن العامة. يشير قسم كبير من الأدب الغربي إلى موضوع الحريم كما لو أنه أمر شائع وموجود في كل مكان من الشرق الأوسط، بشكل مطابق تماماً لما صورته لوحات المستشرقين وقدمته الكتابات التي تصف "الحرملك" داخل قصور استانبول. ويعد هذا مماثلاً لتقديم الحياة اليومية في قصر "باكنجهام" مثلاً، أو اللوحات التي تصور السيدات الأرستقراطيات في العهد الفيكتوري كنموذج عام لحياة الأسرة الإنكليزية العادية وعاداتها وتقاليدها. فقبل أن يغادر السياح الأوروبيون أوطانهم كانوا "يعلمون" مسبقاً أن عالم الحريم هو ذلك العالم الشهواني الذي تُحشر داخل أسواره النساء الجميلات والشبقات والكسولات معاً وهن متكئات على الأرائك الوثيرة، يدخنَّ النراجيل طيلة النهار، وينتظرن قدوم "السيد" كي يختار واحدة منهن، في حين تنهمك اللاتي لم يقع عليهن الاختيار في سلوكيات لا يمكن وصفها (وإن كانت قد وصفت –في حالات أخرى– بأدق التفاصيل). وفي حين أن معطيات الواقع تقول إن الأغلبية العظمى من نساء المنطقة يعشن في القرى، وبالرغم من أن حياتهن باتت معروفة باختلافها جذرياً عن عالم الحريم، وهو موضوع كُتب عنه مطولاً نظراً لسهولة رصده من قبل المراقبين الغربيين، إلا أن ذلك لم يضع النساء في الريف موضع الاحترام الذي تستحقه. والأمر ذاته حدث بالنسبة لنساء المدن الفقيرات اللاتي يعملن خارج البيت. وسلك الكتاب في هذا المجال سبيلين، فقد استرسلوا –من ناحية– في الأوهام عن "الصبايا السمر" حول آبار الماء وفي أذهانهم صورة "ريبيكا" أو "مريم العذراء"، أو كانت تلك النسوة في نظرهم من ناحية ثانية مجرد كائنات وضيعة وجاهلة تنوء بأعباء العمل المرهق. ومع ذلك استمر التعميم الشامل حول النساء السجينات قائماً.

وعلى الرغم من أن الأدلة التي تجمعت خلال القرن التاسع عشر كانت كافية لإثبات أن النساء المسلمات يتمتعن – بعيداً عن القصور و "الحرملك" – بحرية الدخول والخروج من البيت، ويمارسن داخله قدراً معتبراً من حق التصرف في شئونه، إلا أن كثيراً من

الأوروبيين ظلوا على تعلقهم الوثيق بالفكرة القائلة بأن النساء في حالة يرثى لها، وأن "الحرملك" هو مكان الحرمان. إن كلمة "حريم" (من حَرَمَ، وحُرْمَة أي المحَرم أو الممنوع) تعني إما نساء البيت، أو عدداً من غرفه حيث يمضي النساء والأطفال أوقاتهم، ولا يسمح للرجال بدخولها باستثناء الزوج وبعض الأرحام القريبة. ومع ذلك فإن الطبعة الأولى من معجم "روجيه" التي صدرت عام ١٨٥٢ وضعت الكلمة تحت معنى "مجون" أو "دعارة" مع مرادفات "الماخور". واستمر الأمر على هذا المنوال حتى صدرت طبعة "افريمان" المعجمية، عام ١٩٥٢ واستخدمت كلمة "شقة" أو "مكان للسكن" كمعنى ثانٍ لها. أما طبعة عام ١٩٦٢ فقد أسقطت كلمة "مجون" أو "دعارة" كمدخل للمعنى واستبدلته بـ نساء المنزل" و "خلوة الحب". ومع أن الطبعات الحالية وضعت الكلمة بشكل صحيح تحت معنى "نساء البيت" و"العزلة" إلا أن معجم روجيه الذي صدر عام ١٩٧٢ (غالي برس: لندن) عاود استعمال المعنى القديم ألا وهو "المجون" أو "الدعارة".

كان باستطاعة السيدات فقط من بين الرحالة زيارة الحريم، وكانت ردود الفعل لديهن مشوشة مرة، ومتطرفة في انتقاداتها مرات. وأنا هنا لا أفكر في نساء من طراز "لوسي دوف غوردون" التي عاشت في مصر لمدة سبع سنين وتوفيت هناك بمرض السل عام ١٨٦٩، ولكن أتحدث وفي ذهني ذلك العدد المتزايد من السائحات اللاتي أُخذن لزيارة الحريم ضمن رحلات سياحية منظمة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما محصلة هذه الرحلات فكانت زيارات خاطفة تميزت بسوء الفهم المتبادل بعد لقاءات متكلّفة من خلال الترجمات. ونادراً ما فكرت السائحات بشكل متعمق حول الأثر الذي يتركه وجودهن خلال تلك المقابلات، وهو أمر يعني -بالتعريف- أنهن لا يراقبن الحياة اليومية العادية، بل ما كان يحدث خلال المقابلة المصطنعة. وفي حين سخر بعض الكاتبات من ردود الفعل لدى النسوة اللاتي زرنهن لإظهار مدى الصبيانية والجهل الذي كن فيه، شعرت كثيرات بأنهن مؤهلات لإطلاق ما شئن من أحكام موثوقة؛ فإذا لم تكن النساء الشرقيات على نفس القدر من الجمال والحرمان الذي ظُنَّ سابقاً، فهن إذن أمهات سيئات وغير متعلمات

وعلينا أن نرثي لحياة الضجر التي يعشنها! ووصل الأمر ببعض الكاتبات إلى حد رفض زيارة الشرق من حيث المبدأ، على اعتبار أنهن على علم مسبق بكل ما يحدث فيه، كما فعلت أي-اتش.ميتشل عام ١٨٩١ حين علقت قائلة بأنها قد تلبي الدعوة إذا أسهمت في مساعدة "أخواتنا المسكينات" في النجاة من الأسر، لكن الذهاب إليهن ورؤيتهن في سجنهن المقيت لهو أكبر من أن يتحمله مسيحي"[٣].أما الإنكليزية "هارييت مارتينو" المدافعة عن حقوق المرأة فقد زارت اثنتين من نساء الحريم وعلقت قائلة بأنها لا يمكن أن تتذكر اليومين اللذين أمضتهما في الزيارة دون أن يعتصر قلبها حزن أكثر شدة من ذاك الذي يتملكها بعد زيارة مدارس الصم والبكم أو مستشفيات الأمراض العقلية، أو حتى السجون.[٤]

في الواقع، بدأت سيدات المجتمع المصري من الطبقتين الوسطى والعليا تأليف وإصدار الكتب التي كانت توزع ضمن الأوساط النسائية المصرية في وقت مبكر منذ ستينات القرن التاسع عشر، ثم ظهرت الصحف النسائية أيضاً بحلول العقد الأخير من القرن. مثلت تلك المرحلة كما تصفها "مارغو بادران" "الحركة النسائية غير المرئية". حيث لم تصل أصوات النساء إلى أسماع العالم الخارجي بسبب عزلة المرأة وعدم الاختلاط بين الجنسين. ومن المؤكد أن قلة قليلة من الرحالة الغربيين استطاعت التعرف على حقيقة ما يجري والإطلاع على نتاج الأدب العربي النسائي في القرن التاسع عشر من شعر وقصص ومقالات حول العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع، والسير الذاتية النسائية وغير ذلك. كما شاركت النسوة في المظاهرات الوطنية ضد البريطانيين خلال ثورة ١٩١٩في مصر، ثم تخلى قسم كبير منهن بعد ذلك مباشرة عن ارتداء النقاب.

كتبت "ليلى أحمد" حول مواقف النساء الأمريكيات عام ١٩٨٢ من الحريم، وجدت الأكثرية منهن "يعلمن" أن النساء المسلمات -تحديداً- مضطهدات، هذا مع

---

[٣] - اقتبست بواسطة "لي ثورنتون" في "المرأة داخل السجن الشرقي".

[٤] -"الحياة الشرقية"، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

اعترافهن الصريح بعدم معرفة أي شيء عن الإسلام أو المجتمعات الشرق الأوسطية. وبعد ذلك قامت بمناقشة وجهات النظر المختلفة حول الحريم:

يمكن تعريف "الحريم" بأنه نظام يعطي الرجل حق الممارسة الجنسية مع أكثر من امرأة واحدة. كما يمكن تعريفه، على نفس القدر من الدقة، بأنه نظام يعطي النساء من أرحام الرجل (الزوجات، الأخوات، الأم، البنات، العمات والخالات) حيّزاً مكانياً لتقاسم العيش المشترك وقضاء معظم الأوقات. بالإضافة إلى أنه يسهل لهن عقد لقاءات اجتماعية دورية مع غيرهن من النساء.[٤]

فضّل الغرب على الدوام التعريف الأول طبعاً، وعندما رسم الفنانون الغربيون النساء وهن مجتمعات معاً، كان الحمام التركي مكاناً نموذجياً لذلك. ومما يلفت النظر هنا قلة اللوحات الفنية الاستشراقية التي صورت النساء كأمهات قبل نهاية القرن التاسع عشر. مقارنة مع العدد الكبير من اللوحات التي صورت النساء الغربيات بصحبة أطفالهن في نفس الفترة. ويعود جزء من السبب في ذلك إلى أن البيئة "الغريبة" تقدم للفنانين إطاراً مناسباً لعرض ما لا يُسمح لهم بعرضه ضمن أطر البيئة المحلية:

فالاستفزاز الذي يثيره منظر فتاة شبه عارية أمام مدخل بيت في الجزائر مثلاً يعتبر أمراً غريباً ومُدهشاً، بينما يعتبر نفس المشهد لنفس الفتاة أمام مدخل بيت باريسي نوعاً من البذاءة والفحش.[٥]

---

[٤] -"التعصب العرقي والتصورات حول الحريم"، دراسات نسائية، ٨ : ٢ ، ١٩٨٢ .

[٥] - "بيتر غاي": "التجربة البرجوازية"، الجزء الأول، ص ٣٩٢.

ومع هذا لم تكن التصورات الشائعة حول نساء الشرق، السبب الوحيد وراء تكريس مثل تلك المواقف، بل كانت أيضاً نتيجة للأفكار الأوروبية السائدة حول دور المرأة. فتطور الأيديولوجية البرجوازية كان يعتمد على فكرة المواجهة بين عالمين: عالم الرجل (الذكر)، وهو علني وعام، والعمل فيه محتقر ومكروه؛ وعالم المرأة (الأنثى)، وهو عالم خاص، يتميز بالتضحية ونكران الذات، وتربية الأطفال، والعمل فيه محبب. والتركيبة البرجوازية في مجملها تعتمد على فرض المثل العليا حول الزواج من امرأة واحدة، واعتبار النساء كائنات جنسية مسالمة. ولهذا فإن تقديم النساء المقيمات داخل "الحرملك" كنساء عاديات مهمتهن رعاية الأطفال والاعتناء بشئون المنزل قد يقوّضّ جميع أركان الحياة العائلية الغربية. وفي قرن من التحولات المستمرة والمتلاحقة، حيث ثقافة الطبقة الوسطى السائدة (كما يصفها بيتر غاي) "تحركها الضغوط والدوافع المتناقضة"، يصبح تكريس الانفصال بين هذين العالمين أمراً حيوياً نظراً للتهديد المستمر الذي يتعرضان له. في القرن التاسع عشر وجد الأوروبيون أنفسهم في زمن اضطرهم للتكيف مع كثير من التغيير في حياتهم اليومية إلى درجة أنهم حاولوا تجميد الأمور داخل قوالب مغلقة للحد من حيرتهم وذهولهم. فالتصنيع، والمواصلات، والاضطرابات السياسية، وزيادة حجم التجارة العالمية، والاستعمار، وفترات الازدهار الاقتصادي والكساد، والصراع بين الفلسفة والدين في القارة، وبين العلم والدين في إنكلترا، كل ذلك أسهم في التغيير الذي أصاب المجتمع، كما أدى إلى تبلور شعور عام لدى الأوروبيين راوح بين الغطرسة والإعجاب بالذات وبين القلق وعدم الاطمئنان لمكانتهم العالمية. كان على البشرية أن تتكيف مع مفهوم جديد للزمن بعد ظهور القاطرات، والسفن البخارية السريعة، والخدمة البريدية، بالإضافة إلى الفتوحات الجديدة في مجال الدراسات الجيولوجية والاركيولوجية في النصف الأول من القرن، وكذلك كتاب "أصل الأنواع" لداروين الذي ظهر عام ١٨٥٩ بعد سنوات معدودات من "معرض الآثار" الذي أقيم عام ١٨٥١ في "كريستال بالاس" في لندن وكان بمثابة نقطة الذروة في القرن كله:

من المفارقة أن يقوم مجتمع يتوهم نفسه القمة الفريدة للحضارة، باستضافة معرض "الحفريات" التي حطمت ذلك الوهم المريح. فالنبع الثقافي الذي ينهل منه البريطانيون (في العهد الفيكتوري) هو مجرد رافد من روافد التاريخ العديدة، وقد لا يكون حتى أكثرها إنجازاً، ناهيك عن أنه ليس أطولها بقاءً. والأمر المؤكد أن الثقافة المسيحية-اليهودية لن تستطيع بعد اليوم أن تحتل مركز المسرح العالمي كما كانت تفعل باستمرار؛ فهي مجرد حدث عابر في دراما معقدة بدأت فصولها منذ أزمنة مغرقة في القدم.

ومثلما بدأ الإنتاج اليدوي المنزلي يخلّي مكانه منذ أواسط القرن الثامن عشر، لصالح إنتاج المصنع، كذلك طوّرت العقيدة البرجوازية مفهومها حول العالمين المنفصلين. فلقد قامت العائلات التي اغتنت حديثاً ببناء الفلل والقصور حيث تعيش النساء بعزلة عن العالم الخارجي بعد التوقف عن العمل خارج المنزل. كانت الفكرة الرائجة حول "السيدة المهذبة" قوية وشديدة التأثير، و"التهذيب" يتطلب أن تقوم نساء الطبقة الوسطى بمحاكاة سيدات المجتمع الراقي، وذلك بالامتناع عن ممارسة العمل المأجور إلا في الظروف القاهرة. والطريقة التي تمضي بها النساء أوقاتهن في تعلم الفضائل الأنثوية وفي تبادل الزيارات أضحت معروفة تماماً بعد أن تناولها العديد من الروايات المعاصرة لتلك الفترة . فكل ما تكتسب النساء من تعليم كان محصوراً في أضيق الحدود، وغرضه النهائي جعلهن أمهات وزوجات صالحات، كما أن أية غريزة جنسية اعترف المجتمع بوجودها فيهن كانت تخدم نفس الغاية أيضاً.

ومع هذا، لم تكن النظرة للنساء على هذا النحو في البدايات المبكرة من القرن الثامن عشر: **"فحتى أربعينات القرن، اعتبرت النساء دوماً بؤرة للشهوة الملحة والرغبة الجسدية... واقترنت بالجسد والرغبة والدوافع والأهواء الجامحة نتيجة الحساسية وشدة التأثر عندهن".**[*] وبدءاً من منتصف القرن الثامن عشر أخذت تلك الصورة بالتحول التدريجي لصالح النموذج المنزلي؛ فالمرأة ملاك

---

[*] - "ماري بوفي": "التطور غير المتكافىء "، ص ٩-١٠.

البيت، تحفظه ملجأ بعيداً عن قسوة العالم خارجه. وجاء "جان جاك روسو" ليضع في روايته المؤثرة "اميل" (١٧٦١) أصول التعليم المناسب لـ "صوفي" المرأة المثالية في نظره. وكان هذا التعليم كله على علاقة وثيقة الصلة بالرجال: **على النساء أن يسعدنهم، ويكن نافعات لهم، وأهلاً لحبهم واحترامهم؛ تعليمهم عندما يكونون صغاراً، ورعايتهم حين يكبرون، ونصحهم ومواساتهم وجعل الحياة ممتعة وحلوة بالنسبة لهم.**

ثم كرست "الداروينية" في القرن التاسع عشر تلك الأفكار حين أكدت أن الارتقاء الخاص بالمرأة يجعلها كائناً يتكيف مع حمل وإنجاب الأطفال، وما عدا ذلك فهي مخلوق واهن وضعيف المقدرة على التلاؤم مع متطلبات الحياة العقلية. وبالطبع فالفكرة القديمة التي تطالب بإبقاء النساء تحت سيطرة وحماية الرجال لم تختف تماماً، كما أن الفكرة الجديدة كانت مجرد أمر مثالي . ومع أن الرغبة الجنسية قد قبل وجودها عند بعض النساء، إلا أنهن اعتبرن "سيئات الأخلاق" ينتمين إما إلى الطبقة الاجتماعية الدنيا (عاملات المصانع مثلاً لا يقبلن - بسبب سوء أخلاقهن - كخادمات في المنازل)، أو أنهن "غريبات"و "شاذات" مثل الغجريات ونساء الجنسيات الأخرى، أو أنهن ببساطة مريضات عقلياً. وغني عن القول إن جملة القيم البرجوازية هذه اعتبرت صالحة للطبقة الوسطى فهي إذن صالحة للجميع خصوصاً وأنها تترك الرجال أحراراً بسبب "أهوائهم الأقوى" .

عندما وصل الرحالة إلى الشرق الأوسط لم يقارنوا حياة النساء هناك مع حياة النساء في أوروبا مقارنة الند للند. فقد كانوا -بدون استثناء تقريباً- يقصدون نساء الطبقة الوسطى الأوروبية. وحتى في هذه الحالة لم تكن المقارنة نزيهة. فمن الواضح أن كثيراً من الكتاب لم يعرفوا شيئاً عن الحياة اليومية المخزية التي تعيشها نساء الطبقة العاملة في أوروبا. وحين قابلوا النسوة المحجبات "السجينات" ودَّ الكثيرون رؤيتهن والاستحواذ عليهن، وركّزوا في نفس الوقت على الاختلاف الكبير بين النساء في المجتمعين. أما النساء من الرحالة فقد كن

على استعداد لوصف المساواة التي يتمتعن بها في أوروبا بشكل زاه وبراق، متجاهلات في ذلك كل الإحباطات والسأم والبؤس الذي عانت منه الكثيرات، وكان على الأغلب دافعاً وراء الرحلة إلى الشرق.

وحتى هذه المتعة في الواقع حالت دونها مشكلة العثور على مرافق من الرجال. فكتاب "مابل شارمان كروفورد" مثلاً "عبر الجزائر" الذي صدر عام ١٨٦٣، تضمن فصلاً تمهيدياً بعنوان "التماس إلى السائحات" اشتكت فيه المؤلفة من :

انه يجب الاعتراف صراحة بأن غرابة الأطوار في الرجل أو الطرافة في شخصيته تقابلان عادة عند أغلبية الناس بالإعجاب، في حين أن أقلية ضئيلة فقط ترى في أي خروج على دور المرأة المعهود أمراً يمكن القبول به أو حتى تبريره . فنحن نصفق باستحسان لجداتنا حين يتجاوزن التقاليد المرعية في زمنهن، ونحن نعترف بحق النساء الصينيات والتركيات في العيش بحرية ومن غير حجاب. لكن في الوقت الذي نرى بوضوح حماقات أسلافنا، أو تلك التي ترتكبها الأمم الأخرى، نقف باحترام أمام جميع القيود التي يفرضها المجتمع الذي نعيش فيه على حرية المرأة، ونتمسك بها بشكل غير معقول.

وما تنتقده الكاتبة هنا هو المحافظة على القاعدة القائلة بعدم جواز سفر السيدة من دون مرافق لها، وأثرها في الإبقاء على القيود المكبلة للمرأة. ثم تتابع قائلة :

إذا كان استكشاف البلاد الأجنبية لا يمثل المهنة الأكثر نفعاً أو الهدف الأسمى لوجود المرأة، فهو على الأقل أكثر إصلاحاً لها وتسلية من حياكة الصوف، أو التطريز الذي تجد فيه كثير من السيدات وسيلة وحيدة لتمضية أيام الفراغ المملة.

وبحسب تصور الرجل الأوروبي للعالم، كانت النساء والسكان المحليون في البلاد المستعمرة يُمثلّون ويعاملون معاملة الأطفال القاصرين؛ **"في حاجة لحماية ورعاية السلطة الذكرية - الإمبريالية بسبب ضعفهم وبراءتهم وقصورهم"*** وإذا كان الرجال الأوروبيون يعترفون بحق النساء التركيات في الحياة بحرية وفي خلع الحجاب - كما قالت "مابل شارمان كروفورد" - فهم يبذلون قصارى جهدهم لإبقاء المرأة الأوروبية ذاتها داخل الحدود المرسومة لها. وذلك في محاولة لاستخدام النساء التركيات (أو الشرقيات عموماً) لقلب النظام الاجتماعي رأساً على عقب في نفس الوقت الذي يدعون فيه المطالبة بتحررهن من سلطة الرجل. لأن النسوة المحليات اعُتبرن الحافظ لقيم الأسلاف التقليدية وبالتالي يجب تشجيعهن على التواطؤ مع الغرب في سبيل إعادة تأسيس حياة العائلة الشرقية على الطراز الغربي المتفوق على ما عداه . في بعض الأحيان سبب الولاء العرقي من جهة، والانتماء الجنسي الأنثوي من جهة أخرى، حالة من التمزق الوجداني لدى النساء من الرحالة. فقد تعامل معهن السكان المحليون وكأنهن من الذكور، وأمضين معظم الأوقات في التحدث إلى الرجال دون النساء مما أدى إلى معرفة مشوهة لوضع المرأة الشرقية تمت من خلال الرجل. أما في الحالات الأخرى التي قمن فيها فعلياً بزيارة النسوة المحليات في البيوت، ووجدنهن مكبلات بالقيود وغارقات في الجهل والضجر، فقد أعاد ذلك إلى الأذهان وضع المرأة في المجتمع الأوروبي ذاته. وكما سنرى لاحقاً، شبهّن النساء اللاتي قابلنهن بالأطفال كما فعل الرجال تماماً. أما أولئك اللاتي أقمن في الشرق لمدة أطول أو عملن في الإرساليات التبشيرية مثلاً، فقد شعرن بنوع من التعاطف مع النسوة الفقيرات في ما يواجهن من مشكلات، وإن كن قد أخفقن في التعرف على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك المشكلات، والتي كانت غالباً ما تتمثل في نقص الرعاية الطبية والافتقار إلى المياه النظيفة، لا في الجهل أو تدني المستوى الأخلاقي فقط. هذا بالضبط ما كان

* - "جوانا دي غرو": "الجنس و العرق : بنية اللغة والتصور في القرن التاسع عشر".

يحدث في أوروبا أيضاً حيث الطبقة الوسطى تعتبر كل نساء الطبقة العاملة أمهات سيئات وزوجات فاشلات بسبب عادة الإدمان على شرب المسكرات المزعومة (الجن تحديداً)، أو الفساد الخلقي وعدم المقدرة على التصرف بحكمة في الشئون المالية.

تشترك المدافعات عن حقوق المرأة في تحمل مسؤولية المواقف الخاطئة التي اتخذتها أوروبا حيال الشرق نتيجة للتعصب العرقي والمطامح الاستعمارية. وما أن تشارك نساء العالم العربي في النضال الوطني حتى تسارع النساء الأوروبيات للإشارة إلى مدى خطأ تلك الخطوة:

أيتها النساء المقاتلات بشرف وعظمة من أجل الحرية، عليكن نسيان النزاعات السياسية الآن، فأماكن مهمة أعظم شأناً من المطالبة بحكومة وطنية في بلادكن. انسوا كل شيء ما عدا تعدد الزوجات، فهو لطخة العار المشينة التي تدنس اسم الوطن. [٦]

إن ما يدهش المرء عند قراءة جميع الأحكام الشمولية والعامة التي أطلقت على النساء في شمال أفريقيا والشرق الأوسط هو السهولة التي صدق بها الرحالة الأوروبيون ما قاله الرجال المحليون عن نسائهم، الأمر الذي أدىّ لتبني تلك الأحكام السطحية والأفكار المسبقة، ورفض الاعتراف بحقيقة التنوع الهائل في الأوضاع التي تعيشها النساء، وصرف النظر عن الفروقات الواضحة ما بين الريف والمدينة أو التفاوت الشديد في توزيع الثروة.

تعلق سارة غراهام – براون على ذلك كما يلي:

---

[٦] – "ترويردج هول" : "مصر في الظل"، ص ٦٤.

كما سيكون واضحاً، هنالك الكثير من التنوع في الأدوار الاجتماعية والاقتصادية التي تلعبها النساء وذلك تبعاً للعمر والطبقة الاجتماعية والظروف الخاصة بالعائلة والمجتمع، لأن أسلوب الفصل بين العام والخاص المستخدم عادة في وصف هذه الأدوار قد لا يكون أوضح الأساليب في التعرف عليها. وكما تقترح الخبيرة في علم الإنسان "روكسان دوسن" فإنه من الأجدى تدقيق النظر فيما أسمته "الآفاق الاجتماعية" لجماعة معينة من النساء. هذه الآفاق تتحدد بواسطة عدة عوامل أهمها الظروف الاقتصادية والضوابط الاجتماعية التي فرضت أصلاً لتتوافق مع تصورات الرجال حول ما يشكل قواعد السلوك القويم للنساء في المجتمع.*

وعندما يقابل الرحالة امرأة لا تتطابق أوصافها مع تصوراتهم حول خضوع واستكانة المرأة الشرقية، فإنهم يعتبرونها الاستثناء الذي يثبت القاعدة، وذلك بنفس الطريقة التي يتعامل بها الرجال الأوروبيون مع ما يسمى بالأقلية "المنحرفة" من النساء في أوروبا. (وهن في الواقع يشكلن الأغلبية). وخير مثال على ذلك ما ظهر في رسائل "مدام ميشو" و "مدام بوجوليه" التي أرسلت من مصر بين عامي ١٨٣٠- ١٨٣١

عندما دخلنا منزلاً في إحدى القرى المصرية، سمعنا صوت فلاحة تصرخ بغضب في وجه زوجها. وبالطبع تعتبر تلك النغمة المتسلطة في النساء المسلمات أمراً غير عادي لأن

* -" التصورات حول النساء"، ص ٨٦.

القرآن يأمر النساء بالطاعة ! لكن المترجم طمأننا إلى أن ذلك لا يمثل القاعدة بل الاستثناء؛ فالنساء المصريات عادة خاضعات كالإماء.[7]

في مسرحية "مدام بترفلاي" التي عرضت مؤخراً، تسأل نجمة الأوبرا "سونغ" عن سبب قيام الرجال عادة بلعب دور النساء في أوبرا "بكين"، ثم تجيب قائلة: لأن الرجل وحده يعرف الطريقة التي يجب على المرأة أن تمثل بها! لقد عرف الرجال "دوماً" كيف يجب على المرأة أن تتصرف. نعم هناك أنماط مختلفة من النساء، وأساليب متعددة يتبعنها، لكن الرجل وحده يحدد كل شيء في كل زمان ومكان، في الشرق كما في الغرب.

إن أكثر ما يصدم المرء عند قراءة كتابات الرحالة التي تصف حياة النساء في الشرق خلال القرن الماضي، هو حجم النفاق حول مكانة المرأة في الغرب. فما هو المدى الذي يصل إليه الاختلاف في حياة المرأة في كلتا المنطقتين، والذي يؤدي إلى هذا التفاوت في الأوضاع الاقتصادية والسياسية، أياً كانت المظاهر الخارجية والأساليب المختلفة التي تنظم أمور الأسرة؟ وهل الديانة المسيحية السبب في جعل وضع المرأة الأوروبية على هذه الدرجة من الاختلاف وذلك باعترافها – كما يدعي كثير من الكتاب – بالقيمة الحقيقية للمرأة؟ قبل البدء في قراءة ما كتبه الرحالة عن نساء الشرق، علينا أولاً أن نلقي نظرة على وضع المرأة في أوروبا والأفكار المتعلقة بطبيعتها والتي حملها الرحالة معهم إلى الشرق.

مع تنامي تأكيد الأيديولوجية البرجوازية المطرد في القرن التاسع عشر على إبقاء النساء داخل المنزل، بُذل الكثير من الجهد لتحقيق تعارض محكم بين عالمي الرجل/المرأة أو العام/الخاص، وذلك بالتركيز على غريزة الأمومة لدى المرأة كوسيلة لاكتناه كيانها الكلي. تلك الغريزة التي لا تدفعها فقط لتربية ورعاية الأطفال، ولكن تؤهلها أيضاً لممارسة تأثير أخلاقي بفضل طبيعتها المحبة والمضحية. فكثير من الرجال وجدوا من اليسير عليهم قبول ما كتبه مثلاً الرسام الشهير "دولاكروا" في مفكرته بعد زيارته للجزائر:

---

[7] – "مراسلات الشرق"، ص ٨٣.

إنها رائعة الجمال ! تماماً مثلما كان الحال في زمن هوميروس! النساء داخل الخدع منهمكات في رعاية الأطفال، أو غزل الصوف، أو تطريز أقمشة بديعة الألوان. تلك هي المرأة كما أفهمها.[8]

بالطبع يبقى الحفاظ على هذه التركيبة الاجتماعية بعالميها المنفصلين (والمتساويين) أمراً مستحيلاً ونوعاً من المثالية المتعالية، كما أنها لم تكن مرغوبة من الناحية الاقتصادية، لأن المرأة تشكل جزءاً هاماً من القوة العاملة، رغم أن كثيراً من الرجال عارضوا أو رفضوا قبول النساء في بعض الحرف والمهن التجارية. وكان بإمكان الجدل الطويل حول مكانة المرأة تجاهل كل هذا طالما لم تتهدد البنية الأساسية للمجتمع. لكن مع مرور السنين في القرن التاسع عشر بدأ مفهوم العالمين المنفصلين يتعرض بصورة متزايدة لخطر داهم، الأمر الذي جعل "ماري بوفي" في "التطور غير المتكافئ" تتحدث عما أسمته "القضايا الحدودية" للإشارة إلى مدى التحديات والتغيرات التي تجري في إنكلترا. ومع ذلك ظلت الكثيرات من نساء الطبقة الوسطى يعشن حياة منعزلة ومكبلة بالقيود، كما أن معظمهن وضعن ما لديهن من طاقة في خدمة الأعمال الخيرية، ويعد ذلك حينها أمراً مقبولاً لأن الانهماك في مثل تلك الأعمال هو امتداد طبيعي للعمل في المنزل، وهو أيضاً عمل غير مأجور، ويعكس طبيعة المرأة بكل ما فيها من تضحية ونكران للذات. أما اللاتي كن أقل حظاً فقد

---

[8] – "اقتبست بواسطة "اسيا جبار" في "نساء الجزائر داخل مخدعهن".

اضطرهن الفقر للعمل في وظائف منخفضة الأجر كمربيات مثلاً حيث يكتنف الغموض وضعهن الوظيفي. وفي الواقع كان ذلك قضية من "القضايا الحدودية" التي استخدمتها "ماري بوفي" للتدليل على الخطر الذي يتهدد البنية الثنائية للمجتمع. العالمان إذن منفصلان لكن متساويان، على هذا الشكل صوّرت الأمور في أوروبا. ومن النادر أن نجد كاتباً مثل "بيير-جوزيف برودون" يجسد الموقف المعادي للمرأة.

فقد كتب عام ١٨٤٦:

بالنسبة لي، كلما فكرت بالأمر أكثر، كلما استحال تصور مصير للمرأة وتبريره خارج إطار البيت. إذ لا توجد منطقة وسطى ما بين البَغْي وربة المنزل (ربة المنزل لا الخادمة). إذن ما الذي يحط من قدر المرأة حين تأخذ هذا الخيار؟ وتبعاً لأي معيار يكون دور المرأة عندما تعهد إليها مهمة إدارة شؤون المنزل وكل ما يتعلق بأمور الاستهلاك والادخار، أدنى مرتبة من دور الرجل في توجيه العمل أي إدارة الإنتاج والمقايضة؟[٩]

وبالرغم من هذا، قبلت معظم النساء مثل هذا الرأي نتيجة قوة الاعتقاد في أوساط الطبقتين الاجتماعيتين العليا والوسطى بالرسالة الخاصة التي تؤديها المرأة. وعندما وصل الرحالة شمال أفريقيا والشرق الأوسط وأخبروا كل من قابلهم أن الزواج في الغرب قائم على المساواة التامة، كانوا إما يؤمنون فعلاً بما يقولون، أو كانوا يطلقون أحكاماً عامة تعتمد على خبرتهم المحدودة. وفي الحقيقة فإن كثيراً من الانتقادات التي وجهوها إلى المجتمعات التي زاروها في الشرق يمكن أيضاً أن

---

[٩] - "سوزان غروغ بل" و "كارين . م . اوفن" : "النساء ، العائلة، والحرية": وثائق، ص ١٩١.

توجه إلى مجتمعاتهم الغربية ذاتها! اعتبرت النساء في القرن التاسع عشر مشكلة عويصة. فهن، أولاً، لم يقبلن دوماً الدور المرسوم لهن في المجتمع. وهن، ثانياً، يشكلن أغلبية عددية في مجتمع لا يعترف إلا بالزواج من امرأة واحدة، ويقدس حرمة المنزل، ويرفض استقلال المرأة الاقتصادي. وكانت الحقائق على أرض الواقع أبعد ما تكون عن ذلك. ففي عام ١٨٤٩ أثار "هنري ماثيو" قضية الدعارة التي تمارسها العاملات في مهنة الخياطة في لندن، مشيراً إلى أن السبب يعود إلى الفقر المدقع وانخفاض الأجور. وعندما نظم اجتماعاً لحوالي ألف من العاملين في صناعة الملابس في نفس السنة، صعد إلى المنبر "اللورد آشلي" و"السيد سيدني هيربرت" وهما مصلحان اجتماعيان مجهولان بالنسبة لـ "ماثيو" وأعلنا على الملأ أن حل المشكلة يكون بالهجرة. وكان من الواضح أن الزيادة في عدد السكان من النساء تقدر بحوالي خمسمائة ألف امرأة في انكلترا وويلز، بينما تعاني المستعمرات البريطانية، لحسن الحظ، من نقص يقدر بنفس العدد تقريباً.[١٠]

وكان "و.ار.غريغ" يعتبر أن الهجرة سوف تحل أيضاً مشكلة الدعارة المنتشرة في أوروبا. وحول نفس القضية يقول "تشارلز بوث" في دراسة له عن الفقر في لندن نشرت في ثمانينات القرن:

تُضاف إلى العضوات الدائمات لهذه الجماعة المتنوعة من النساء، طائفة أخرى تلوذ بهذه الحياة بين الفينة والأخرى كلما أجبرت الظروف أفرادها على ذلك: العاملات في مهنة الخياطة ومصممات الأزياء، مثلاً، يعدن إلى مزاولة عملهن المعتاد عندما يشتد الطلب في المواسم؛ فتيات من الأحياء الفقيرة يحصلن على لقمة العيش بهذه الطريقة، أو نسوة معدمات، أو زوجات أهملهن الأزواج، أو

---

[١٠] - "أي . ب . تومسون" في مقدمته لـ "ماثيو المجهول"، ص ٥٢.

أرامل يعانين من ضغط العوز والفاقة، والأسوأ من كل ذلك أولئك اللاتي يدفعهن إلى هذا المسار زوج فاسد أو أب سيء.[11]

وفي فرنسا أيضاً ازدهرت تجارة البغاء بشكل خطير نتيجة لحياة الفقر التي تعيشها النساء، بالإضافة لازدواجية المعايير الجنسية بالنسبة للرجل والمرأة، والمطالبة بأن يصل الرجل إلى مخدع الزوجية مزوداً "بالخبرة" المناسبة! في حين كان على النساء المهاجرات من المستعمرات وكذلك نساء الطبقة العاملة أن يشكلن النقيض الذي يظهر نقاء الزوجات والبنات من الطبقة البرجوازية. يصور "جورج ميريدث" في روايته "واحد ممن قهرونا" (١٨٩١) مهراجا من الشرق يقوم بزيارة لندن ويتجول في شوارعها ليلاً. ويعلق المهراجا قائلاً: "**إن المجتمعات التي تحرم تعدد الزوجات تقدم واجهة محتشمة وخلفية بشعة!**.

و "الخلفية البشعة" تتألف من عدة مستويات تبدأ بالمومس العصرية التي تحرص على العيش بعزلة وتترفع عن عرض جسدها على العامة وتنتهي بأفقر العاهرات وأكثرهن انحطاطاً. في المقطع التالي يقدم "د. ايفان بلوك" الخبير في علم العلاقات الجنسية في أواخر القرن التاسع عشر وصفاً لصالات الشراب والملاهي في ألمانيا وفرنسا حيث تمارس "الدعارة السرية":

...منظرها الداخلي الذي يوحي بالغموض، وغرفها الصغيرة المنفصلة والمضاءة بمصابيح خافتة ملونة، ونوافذها المغطاة بستائر سميكة، والصور المثيرة المعلقة على الجدران، ومقاعدها الضخمة الوثيرة... كل ذلك يعطيها مظهر المواخير الصغيرة."[12]

ويعطيها أيضاً مظهر "الحرملك" كما تتصوره المخيلة الشعبية!

---

[11] – " القضية الكاملة ضد معاناة النساء"، ص ٧٠

[12] – "الحياة الجنسية في عصرنا"، ص ٣٤١.

إذن، تعتمد الأيديولوجية البرجوازية مبدأ غض الطرف وتجاهل ما يجري على أرض الواقع. والازدواجية في المعايير الجنسية تعترف للرجل بـ "هواه الأقوى"، بينما تنكر على المرأة إشباع رغبتها: إلا في حالة كونها شريكاً مستكيناً في بيت الزوجية أو بغياً يطلبها الرجال في بيت الدعارة. أشار "إيفان بلوك" إلى البغاء "كظل ملازم لما يسمى بالزواج التقليدي – ظلّ يكبر ويكبر كلما كان المفهوم الذي يؤطر الزواج أكثر اقتصاراً على النخبة. وأكثر تشدداً، وأكثر ضيقاً"[13]

وباعتبار أن النساء ما كنَّ يوماً مجرد كائنات جنسية مستسلمة.ولأنهن بعد الزوج يُحاصرن بالقانون والأوضاع الاجتماعية من كل الجهات لإرغامهن على البقاء داخله، فقد خلف كل ذلك العديد من الضحايا. ومنذ بداية القرن التاسع عشر تطور علم أمراض النساء ليصبح تخصصاً طبياً منفصلاً، وعرّف عام ١٨٤٩ بأنه "المعتقدات حول طبيعة وأمراض النساء"[14]. هذا التخصص الحديث تعامل (ويتعامل) مع المرأة على أنها حالة خاصة بسبب دورها في الإنجاب، وفي نفس الوقت ساعد في إضفاء الشرعية على الآراء التي تقول باختلاف الأدوار التي يلعبها الرجال والنساء ي المجتمع. كان الأطباء المتخصصون في الأمراض النسائية والنفسية (وجميعهم من الذكور) يتولون بشكل متزايد رعاية أولئك الضحايا"، كما كان الرجال في الأوساط الطبية على "علم" بأن النساء يُظهرن عادة أهواءهن الجنسية حتى خلال ما سمي بالأوقات "غير المناسبة" مثل حالتي الولادة والاكتئاب. واعتبر ذلك مرضاً يحتاج العلاج، لأن السماح للأمهات أو الفتيات غير المتزوجات

---

[13] – المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

[14] – "أورنهلا موسكوتشي" : "علم المرأة"، ص ٧

بالتصرف على أساس كونهن كائنات جنسية فاعلة يؤدي إلى تهديد فكرة الاكتفاء بزوجة واحدة. ففي منتصف القرن التاسع عشر كان هنالك جدل كبير في الأوساط الطبية حول استعمال الكلورفورم (البنج) في حالات الولادة، وكان أحد الأسباب في ذلك أن النساء عندما يكن تحت تأثيره يُستثرن أحياناً ليصلن إلى مرحلة الشبق الجنسي. وهو أمر تحدث عنه "و.تايلر سميث" الذي شارك فيما بعد في تأسيس "جمعية طب الولادة" :

قد أجرؤ على القول إنه بالنسبة لنساء هذه البلاد فإن مجرد احتمال وجود مشاعر من هذا النوع تكون عرضة للاستثارة والتجسد في أفعال ظاهرية لا يمكن السيطرة عليها، لهو أمر أكثر فظاعة من تحمل أشد أنواع الألم الجسدي حدة[١٥].

إن الاكتئاب الذي يعقب بعض حالات الولادة والذي سمي "جنون النفاس" سبب من ٧-١٠٪ من الحالات التي أدخلت مستشفيات الأمراض العقلية خلال تلك الفترة من القرن التاسع عشر، وهناك أيضاً ذُهل الأطباء حين وجدوا المريضات يُظهرن متباهيات رغبتهن الجنسية. وشخّص الرجال في الأوساط الطبية فترتي الحيض وانقطاع الطمث باعتبارهما مشكلتين، لأن الشهوة الجنسية عند المرأة كانت تعد مرضاً يتطلب العلاج. وها هو "د.ويليام اكتون" يعلن آراءه في أواسط القرن حول طبيعة المرأة الجنسية :

إن أغلبية النساء (لحسن الحظ) لا يعانين كثيراً من أية إحساسات جنسية مهما كان نوعها، فالرغبة التي تسيطر على الرجال عادة، لا تتملك النساء إلا في الحالات الاستثنائية.[١٦]

---

[١٥] - اقتبس بواسطة " ماري بوفي" ، المرجع السابق ص ٣١.

الحالات الاستثنائية طبعاً كان لها معنى واحداً عند "د.اكتون" وأمثاله من الأطباء: الجنون! مع أن العلاج الذي وصفوه يوحي بأن الجنون هو أقرب إليهم! "د.تايلر سميث" مثلاً وصف "علاجاً" للرغبة الجنسية عند انقطاع الطمث: "حقن الماء المثلج داخل الشرج، إدخال الثلج في المهبل، وضع العَلَق على الفرج وفتحة الرحم!". أما الحيض فكان يعتبر مشوشاً لوظائف الدماغ وقد أوصى الأطباء بتأخيره عن طريق إبقاء المراهقات في الحضانات، و ...رهن على أخذ حمام بارد، وتجنب الفرش المحشوة بالريش، والابتعاد عن قراءة الروايات، وعدم أكل اللحوم، وارتداء السراويل الداخلية!

في عام ١٨٥١ ذكر "ادوارد . ج . تيلت" أن الحيض المتأخر هو "السبب الرئيسي في تفوق النساء لإنكليزيات، ومتانة بنيتهن ورجاحة أحكامهن، و..استقامة مبادئهن الأخلاقية."[١٧]

وتستعمل العلاجات المذكورة أعلاه حين لا تكون "المريضة" في حالة خطرة، أما الحالات الأشد خطورة فعلاجها الإدخال في مشفى الأمراض العقلية.واقتنع أحد أعضاء جمعية الطب الولادي خلال ستينات القرن بأن ممارسة العادة السرية هي سبب الجنون ولذلك قام بإجراء عمليات الختان "لمساعدة النساء في السيطرة على أنفسهن".[١٨]

ومع ذلك لم يكن الوحيد في استخدام هذا العلاج كما تظهر القصة المرعبة التالية: في عام ١٨٤٩ أخضعت فتاة عصابية في السابعة من العمر لعملية ختان لعلاجها من

---

[١٦] – "بيتر غاي " : "التجربة البرجوازية"، الجزء الأول ، ص ١٥٣.

[١٧] – "الين شو التر" : "الداء الأنثوي" ، ص ٧٥.

[١٨] – المصدر السابق.

العادة السرية في ولاية اوهايو. واعتبرت العملية ناجحة: "**فقد توقفت الفتاة عن ممارسة العادة السرية لأنه كما قالت لم يعد هنالك شيء الآن.**"[19] وفي الولايات المتحدة وبريطانيا كان أطباء النساء في ثمانينات القرن يستأصلون المبيض السليم لعلاج حالات مرضية مثل الجنون المبكر والصرع.[20] في مثل هذه الأجواء ليس مستغرباً أن تكون ردود الأفعال على "الشهوانية الشرقية" على مثل تلك الدرجة من العنف والارتباك. صورت المرأة في روايات العصر الفيكتوري مراراً وتكراراً على هيئة المريضة المختلة عقلياً، وخلال العقود الأخيرة من القرن كانت حالات الهستريا وفقدان الرغبة بالطعام والأمراض العصبية تزداد باستمرار، كما كانت المرأة العصابية الملازمة لفراش المرض صورة معتادة في الروايات وفي الحياة اليومية. والحل الذي ينصح به عادة لعلاج مثل هذه الحالات هو الراحة التامة والابتعاد عن تأدية أي دور فاعل في الحياة. وفي الواقع ذكر عدد من الأعضاء العاملين في مهنة الطب أن سبب الحالات الهستيرية التي تصيب النساء هو محاولة الخروج على الدور المرسوم لهن. بالإضافة إلى ذلك كان الأطباء على قناعة أكيدة بأن اختلال الأجهزة العصبية والتناسلية عند النساء يجعلهن أكثر عرضة للاختلال العقلي من الرجال. وكان من المسلم بصحته على نطاق واسع أن الانحلال الخلقي والعناد والأنانية أمور شائعة عند كل النساء المصابات بالهستريا، والرأي التالي للدكتور "سير جورج سافاج" يعد نموذجاً لما هو سائد في القرن التاسع عشر: "**الخصائص المميزة لجميع الحالات الهستيرية هي الميل إلى البلادة، وضعف الإرادة، وتعود العادات السيئة....**"[21]

وصفت "شارتون بيركنز غيلمان" في روايتها القصيرة "ورق الجدران الأصفر" بأسلوب تراجيدي الأثر الذي يخلفه فرض علاج الراحة الإجبارية على المرأة والإيعاز لها بضرورة

---

[19] -"بيتر غاي"، المصدر السابق، ص ٣٠٤.

[20] -"اورنيلا موسكوتشي"، المصدر السابق، ص ١٠٥.

[21] - "مايكل كلارك": "رفض المقاربة النفسية للاختلال العقلي عند علم النفس البريطاني في أواخر القرن الـ ١٩".

"لم شتات نفسها" حين تطلب "عملاً مناسباً مليئاً بالإثـارة والتغيـير". والروايـة تسـتند إلى تجربة واقعية "لغيلمان" في أمريكا مع أخصائي في الأعصاب نصحها بتكريس نفسها للعمل المنزلي وعدم محاولة الكتابة مجدداً. أما "شارلوت برونتي" فقد مُنعت من الكتابة في مرحلة من مراحل حياتها بسبب واجباتها المنزلية وعانت من حالة هستيرية تطورت إلى ما يشـبه فقـدان البصـر. "فلورنـس نـايتنغيل" أيضـاً عـانت فـترة مـن الاكتئـاب، وروايتهـا الذاتيـة "كاساندرا" قدمت وصفاً لمجتمع فيه الأمهات والبنات مقيدات داخل "السجن الذي يدعى العائلة"[٢٢].

كثير من نساء بريطانيا والولايات المتحدة كن يعملن من أجل كسب المال. متجاهلات في ذلك جميع الآراء السائدة حول الموضوع. وكان مـن المقبـول أن تعمـل نسـاء الطبقـة العاملـة خارج المنزل . وفي الواقع فأن أسـلوب حيـاة الطبقتـين الوسـطى والعليـا كـان يعتمـد علـى عملهن هذا. في إنكلترا كانت الخدمة في البيوت المهنة الأكـثر اسـتخداماً للنسـاء في العصـر الفيكتوري. وفي فرنسا كما في إنكلترا أصبحت المهنة مقتصرة على النساء فقط. لكـن إذا ما اضطرت سيدة من الطبقـة الوسـطى للعمـل مـن أجـل كسـب العيـش، فـإن الفكـرة الشائعة تعتبر أن نكبة من القدر حلت بها، وأنهـا سـوف تعـاني الأمريـن. أمـا حـين يكون العمل خياراً لا إكراه فيه فإن المعاناة عندئذ تصبح أشد.

وحين أرسـلت "شـارلوت برونتي" بعضاً من بواكـير إنتاجهـا الشـعري إلى الشـاعر "روبرت سوثي" لمعرفة رأيه عام ١٨٣٧ أقر بأنها تملك الموهبة لكنـه لم يشـجعها علـى الاستمرار:

لا يمكن للأدب أن يكون هماً من هموم الحياة لدى المرأة، ولا يجـب أن يكـون كذلـك... فأحلام اليقظة التي تغرقين بها عادة قد تولد حالة من التشوش تصيب العقل، وكما تبدو

---

[٢٢] -"إلين شوا التر" ، المصدر السابق ، ص ٦٣.

لك جميع المنافع العادية في العالم عديمة الجدوى وعديمة الفائدة، ستكونين غير مؤهلة لها ولا منسجمة مع أي شيء آخر."[٢٣]

عندما نشرت "شارلوت برونتي" رواية "جين اير" عام ١٨٤٧ لاقت نجاحاً فورياً، لكن الأصوات المعارضة بدأت تشير إلى أن بطلة القصة "جين اير" لم تظهر الخصائص المميزة للمُثل الأنثوية. فقد كانت فخورة بنفسها، تتملكها مشاعر الهوى والرغبة والغضب، وهي أمور لا يمكن قبولها في عصر لواء السيطرة فيه معقود لأتباع الكنيسة الإنجيلية. وحتى تلك اللحظة لم يعرف أحد أن المؤلف كان امرأة، لأن "برونتي" استخدمت اسما رجالياً، مستعاراً هو "كورير بل". ومن المؤكد أن كثيراً من أعمال الكتاب الرجال مُنع بسبب "مخالفة الآداب العامة" نظراً للطريقة التي قدمت بها المرأة وعلاقتها المتبادلة مع الرجل. في أواسط القرن كانت تلك التهمة تلقى جزافاً، فأصابت "فلوبير" عام ١٨٥٧ في فرنسا حين نشر "مدام بوفاري"، و "بودلير" عندما نشر مجموعته الشعرية "زهور الشر". في نفس السنة صدر في إنكلترا قانون المطبوعات الذي يحرم نشر الأدب الفاضح .وفي سبعينات وثمانينات القرن تعرضت معظم روايات "توماس هاردي" لحذف كثير من المقاطع أو حتى للرفض الكلي: فرواية "بعيداً عن الجمهور الغاضب" حذفت سطور كاملة منها،ولم تقبل أية مجلة نشر رواية "تس دوبرفيل" في نسختها الأصلية. أما رواية "عمدة كاستربريدج" فقد صدم المقطع الذي تحدث فيه "هاردي" عن رجل باع زوجته الشعور العام في بريطانيا، واتهمه النقاد بتجاوز حدود المعقولية في الرواية. ومع هذا كانت عملية بيع الزوجات

[٢٣] – اقتبست بواسطة "ريبيكا فريزر" في "شارلوت برونتي" ص ١٠٩–١١٠.

تحدث فعلا في إنكلترا خلال القرن التاسع عشر في أسواق المواشي، "حيث تقاد المرأة تبعاً للعادات الشعبية وهي تضع عليها ما يشبه اللجام." [٢٤]

قائمة الكتب التي "خدشت الحياء العام" في بريطانيا قائمة طويلة، وسلطة دور النشر في تحديد ما يجب على الناس قراءته كانت قوية. إن ما "يخدش الحياء العام" في الروايات التي ذكرت آنفاً كان تقديم شخصية المرأة في هيئة تهدد صورتها المثالية كملاك في المنزل - المراة الماضية العزم، المستقلة، الشديدة الانفعال. وراود القلق الكثيرين حول تأثير مثل هذه الكتب على الفتيات في سن البلوغ، حتى أن أحد الاقتراحات - التي أُشير أليها سابقاً - لتأخير الحيض هو ابتعاد الفتيات عن قراءة الروايات.

إذا ما نجحت النساء في طبع ونشر نتاجهن الأدبي فهذا يعني أنهن سيكسبن نفس ما يكسبه الرجال، لكن استعمال الأسماء المستعارة الرجالية كان يبدو ضرورياً بدءاً من أربعينات القرن التاسع عشر. إن العائدات المالية لرواية واحدة يمكن أن تعادل ما تكسبه المربية في سنة كاملة، فأجر المربية كان منخفضاً لدرجة أن اعلاناً عن وظيفة شاغرة لمربية أطفال تعمل بالمجان تقدم لها حوالي ٣٠٠امرأة في ستينات القرن." [٢٥]

وعلينا انتظار العقد الأخير من القرن حتى تبدأ فرص العمل لنساء الطبقة الوسطى في إنكلترا (وفرنسا) بالانتشار . ولذلك وجد كثير من السيدات خلال معظم سنوات القرن في الوصف التالي (١٨٦٥) صورة مشابهة لظروف حياتهن:

---

[٢٤] - "صموئيل بيات منيفي" في "زوجات للبيع" وثق ٣٠٠ حالة مسجلة من هذا النوع بين عامي ١٨٠٠-١٩٠٠.

[٢٥] - ".جوزفين . أي . بتلر": "تعليم واستخدام النساء" ، ص ٣".

... ها أنا أجلس هنا ، متمتعة بالصحة والقوة والمعرفة لكني غير قادرة على فعـل شـيء .. أي شيء .. يسيطر علي الخوف من المخاطرة بتحطيم قلـب أمـي! هـا أنـا هنـا ، أملـك القـدرة والإرادة، وأتوق لإعداد نفسي لتحقـيق أقصى الغايات، لكنني مقيدة بالتوافه والأشياء عديـمة الفائدة التي تفرضها الأعراف والتقاليد ... إنني سيدة فعلاً![٢٦]

صحيح أن كثيراً من السيدات الشابات كن من المتعلمات، لكن التعليم الذي تلقينه كان محدداً في المواضيع "المناسبة" وبالتالي فان نظرتهن إلى العالم من حولهـن كـانت محـدودة، أما إذا أتين من عائلة متزمتة دينياً، فالوضع عندئذ يصبح أكثر سوءاً – فالمطالعة ممنوعـة، وقراءة أي عمل من الأعمال الأدبية محرم، ولا يسمح بممارسة أي نوع مـن أنـواع التسـلية. فرنسا مثلاً شهدت نضالاً مستمراً للتخلص من تأثير رجال الاكليروس على النساء، وأسست مدارس للبنات من أجل هذه الغاية عام ١٨٨٠، لكـن حتـى هنـا كـانت المنـاهج الدراسـية محددة تتناسب مع الشابة المنتمية للعائلة البرجوازية.

وجد الرحالة الذين تشبعوا بالأفكار السائدة خلال العصر الفيكتـوري، في أنفسـهم ميـلاً للاعتقاد بأن حياة نساء الطبقة الوسطى الأوروبية المسـيحية تشـكل الطـرف الآخـر المقـابل والمناقض لحياة نساء الشرق الإسلامي. ولأن حياة النساء في الشرق لم تكن مطابقة لما وصفـه الرحالة، ولأن حياة النساء في الغرب كانت مكبلة حتى نهاية القرن بقيود عديـدة، إذن لم تكن الأوضاع في المنطقتين مختلفة بنفس القدر الذي رغب كثير من الناس في التـأكيد عليـه. فالنساء الفقيرات في كلا المجتمعين يعانين من العمل المضني داخل وخارج المنزل، وحقيقـة كون المرأة في الشرق ترتدي الحجاب لا تعني بالضرورة أنها أكـثر شـقاء ومعانـاة. ولم تكـن النساء في الواقع ضحايـا مسـتكينات في مجتمـع ونقيـض ذلـك في المجتمـع الآخـر. عندمـا

---

[٢٦] – "شارلوت . ام . يونغ": " امرأة العائلة الذكية" ، ص ٣.

اضطرت "الليدي ماري مونتاجيو" تحت إلحاح النسوة في "الحمام التركي" لخلع ملابسها والانضمام إليهن، وحين رأين "المشّد" (الكورسيه) الذي ترتديه، اعتقدن- كما قالت- أنها "مسجونة" داخل آلة مغلقة لا يمكن أن تفتح إلا من قبل زوجها، وهكذا يحق للنساء في الشرق والغرب تبادل الاتهامات بأنهن سجينات- وبالطبع فأن جميع تلك التهم كان صائبة بدرجة أو بأخرى.قلة قليلة من الرحالة الذين وصلوا إلى الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا وجدوا أنفسهم في موقع يمكّنهم من التواصل الفعلي مع النساء اللاتي يعشن هناك، أو كان لديهم أي قدر من الاهتمام يدفعهم للتعرف على رأي الناس الذين يراقبونهم بمجتمعهم هم. بعد حملة نابليون مباشرة، كتب المؤرخ المصري "الجبرتي" حول ما خلفته الأحداث من ردود فعل بالغة الأثر في الإخلال بتناغم الحياة اليومية في مصر. أن الجيوش الغازية لا تترك ذكريات تخلد إنجازاتها في سبيل تحرر المرأة، بل على العكس فهي تخلف إرثاً ثقيلاً من الاغتصاب والدعارة. يقول "الجبرتي" حول الآثار التي خلفها وجود الجيش الفرنسي في القاهرة:

خلال هذه السنة [أيار/مايو١٨٠٠-أيار/مايو١٨٠١].. تبُّرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسبلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية مع وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش. فتتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، [٢٧] وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزَيَّوهُنَّ بزي نسائهم

[٢٧] - أورده شارل فيال في كتابه "شخصية المرأة في الرواية والقصة في مصر"، ١٩١٤-١٩٦٠، ص ٤-٥.

وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حلّ بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فيحوزة الفرنسيس ومن والاهم، وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن، وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن - ولو شمتهم أو ضربته بتاسومتها. فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نذرائهن واختلسن عقولهن لميل بنات الأعيان، وتوزوجوهن رغبة في سلطانهم ونواحهم فيظُهر حالة العهد بالاسلام وينطق بالشهادتين، لكنه ليس له عقيدة يخشى فسادها.*

إن ما أزعج المؤرخ هنا طبعاً هو حقيقة كون الجنود الفرنسيين ينشرون الفساد بين النساء المصريات، ويدفعون بهن خارج حياة العزلة التقليدية، ويشجعون الأفكار المتعلقة بالحرية. لقد حاول الرجال- أوروبيين كانوا أو عرباً - على الدوام السيطرة على نسائهم. وأظهر المقطع السابق أيضاً كيف حاول الجنود الفرنسيون فرض قيمهم الخاصة على المجتمع المصري- ولم يكن ذلك حتماً نتيجة أية رغبة في تحسين ظروف المرأة هناك. كما وضع الدعاوى الغربية المتعلقة بالفسق الملازم للإسلام تحت ضوء مختلف. فمن السهولة بمكان اغتصاب امرأة ثم نعتها بالفسق بعد ذلك. بحلول الوقت الذي ذهبت فيه "لوسي دوف غوردون" للعيش في مصر عام ١٨٦٢، أصبح لدى المصريين فرصة كافية لمراقبة الإنكليز والفرنسيين. أتت لوسي من خلفية اجتماعية راديكالية في إنكلترا ونما لديها شعور متميز بالتعاطف مع العرب فأمضت ساعات طوالاً في التحدث مع المصريين في مدينة الأقصر، لتكتشف أن أكثر ما يصدم المصريين هو الطريقة التي يعامل بها الإنكليزي النساء، لا بسبب إعطائهن مزيداً من الحرية، لكن بسبب الأسلوب الذي يتحدث به الرجال الإنكليز فيما بينهم عن النساء . والطريقة الفظة وغير المهذبة في تعاملهم مع زوجاتهم ومع النساء عموماً. في رسالة إلى الوطن كتبت "لوسي" ما يلي:

* - انظر "تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للعلامة "الشيخ عبد الرحمن الجبرتي"، في ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني، ص ٣٤٦، دار الجيل، بيروت، (بدون تاريخ).

كم سيدهش الأوروبيون لسماع رأي "عمر" الحقيقي في الأسلوب الذي يتصرفون به أمام النساء، فقد أشار إلى أحد الرجال الإنكليز الذي طلق زوجته ثم فضح سوء أخلاقها. أتمنى لو رأيتم كيف بصق على الأرض بازدراء ... فهنا من النذالة تماماً ألا تعتبر نفسك مسؤولاً في حالة الطلاق.[٢٧]

وفي حين أن الرجال الإنكليز والعرب على حد سواء يعتبرون النساء "الجنس الأضعف"، إلا أن أحكامهم تبقى متباينة في هذا المجال:

من المستحيل تخيل مدى الإزعاج الذي يسببه للمسيحي تطبيق القوانين الأخلاقية بعدالةتامة على الجنسين معاً، وكذلك سماع العرب الذين يعرفون آدابنا السلوكية ينعتون الإنكليز بأنهم غيورون و ذوو بأس على نسائهم". إن عدم الاتصاف بالعفة خطأ بالغ لكن يجب تطبيق ذلك على الرجال والنساء على حد سواء. لقد تحدث "سليم أفندي" بهذه الروح، وبدا أنه يميل إلى تسامح أكبر مع النساء بسبب جهلهن وضعفهن.[٢٨]

كانت "لوسي دوف غوردون" حريصة كل الحرص على التأكيد بأن هذه المحادثة تدور مع العرب تحديداً، في حين أنها قد لا تكون صحيحة مع الأتراك مثلاً. وصحيح أن هذه الأفكار لا يتبناها جميع العرب، لكن، من ناحية أخرى، من المفيد أن نتذكر وضع "المرأة الساقطة" في المجتمع الإنكليزي.

---

[٢٧] - "رسائل من مصر، ص ١٧٦" .

[٢٨] -" المصدر السابق، ص ١٣٥-١٣٦".

يستخدم "السير جون مالكولم" في كتابه "مشاهد من بلاد فارس" (١٨٤٥) أسلوب الحوار لإظهار كيف ينظر الرجال الإنكليز والفرس إلى الطريقة التي يتعامل بها كل منهم مع النساء. يبدأ "مالكوم" الحوار "بهجوم شرس" على وضع النساء في إيران مقارنة مع "الأمم المتحضرة في أوروبا". ومع التسليم بأن الزوجات والبنات الشرعيات يملكن بعضاً من الحقوق، إلا أنه تساءل عن مصير أبناء الجواري والأعضاء الآخرين من الحريم. ورد الفارسي بالسؤال عما يحدث للأطفال غير الشرعيين في إنكلترا واستشهد بكتاب لـ "ميرزا أبي طالب" الذي تجول في إنكلترا وذكر أن "قسماً كبيراً من نسائكم وأطفالكم يعيشون في حالة مخزية لا نجد أسوأ منها في بلادنا"، لكن من الجائز أن يكون "أبو طالب" مبالغاً، وهو ما تعود الرحالة على فعله دائماً، ويستمر الحوار حين يُبدي "مالكولم" أسفه لحقيقة أن النساء الفارسيات لا يمكنهن اكتساب "تلك المعرفة الضرورية عن العالم، كي يقدرن على أداء واجباتهن"، ويرد الفارسي قائلاً: "أنا لا أعرف بالتحديد ماذا تعني بمعرفة العالم، ولا أفهم بوضوح ما هي الفوائد التي تجنيها النساء من تلك المعرفة. فنحن نعتبر الحب وطاعة الزوج والاهتمام اللائق بالأطفال والقيام بالواجبات المنزلية، المهنة الفضلى للنساء".

وحين أجاب "مالكولم" بأن ذلك يجعل منهن أما جواري لتنفيذ رغبات الزوج، أو خادمات يشقيهن العمل في المنزل، كان الجواب صحيحاً تماماً، لكنه لم يكن وصفاً لواجبات النساء لا يوافق عليه كثير من الرجال الأوروبيين.

عندما كانت "ماتيلدا بيثام ادواردز" تسافر في شمال أفريقيا خرجت في نزهة مع بعض الشابات الفرنسيات ممن التقت بهن هناك، وطلبت والدة الفتيات أن ترافقهن حتى يعدن بأمان إلى المنزل، لأنه من غير اللائق أن يتجولن في الطرقات بمفردهن مع وجود كل هؤلاء الجنود في المدينة:

هنا تكمن السخرية في تحرير أوروبا للفكر! فنحن نرثي لحياة العزلة والقيود التي تعيشها نساء شمال أفريقيا، بينما نجد النساء الفرنسيات في سن الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين لسن أهلاً للثقة في التنزه بمفردهن خلف حديقة المنزل! بالتأكيد أن رساماً كاريكاتورياً عربياً يمكن أن يستخلص شيئاً من حالة كهذه![29]

رحالة آخر هو "جون رينيل موريل" سمع الكثير مما قاله الفرنسيون ضد العرب في الجزائر، لكنه حذر قرّاءه من القبول الأعمى بهذا التهجم:

عند تلقي هذه وغيرها من العبارات التي قالها الكتاب الفرنسيون عن العرب، من الضروري توخي أقصى درجات الحرص. لأنه من مصلحة المحتلين تقديم ضحاياهم في أبشع صورة ممكنة، لكي يبرروا وحشيتهم ومفهومهم الخاص عن العدالة.[30]

وأخيراً كان الأكاديمي الفرنسي "فولني" الذي بدأ رحلته إلى مصر وسورية في أواخر القرن الثامن عشر من أكثر الرحالة تهيؤاً واستعداداً. وهو يقول بأنه من أجل فهم طبيعة وسكان بلد ما، من الضروري الإقامة هناك، وتعلم اللغة، وممارسة العادات المحلية، لكن حتى ذلك ليس كافياً لحصول الرحالة على المعرفة الحقة:

ليس عليهم (الرحالة) مغالبة جميع الأهواء التي يواجهونها وحسب، بل عليهم أيضاً التغلب على الأحكام المسبقة التي حملوها معهم: فالفؤاد محابٍ، والعادة غلاّبة، والحقائق خادعة، والوهم هيّن. ولهذا يجب على المراقب أن يكون حريصاً لكن ليس خائر القلب، وعلى

---

[29] - "شتاء مع طيور السنونو"، ص ١١٦.

[30] - "الجزائر ، ص ٣٠٣".

القراء الذين لا يستطيعون الرؤية إلا من خلال عين الوسيط، أن يهتموا برأي الدليل وألاّينسوا رأيهم الشخصي."[31]

قلة هم الرحالة الذين استطاعوا الوفاء بمتطلبات القائمة الأولى، ناهيك عن الثانية. فمواجهة الأحكام المسبقة لم تكن واحدة من النصائح المفيدة التي قدمت لرحالة القرن التاسع عشر، وهذه المختارات تظهر كم كانت المحاولات للقيام بتلك المهمة واهية. أما نحن كقراء فعلينا أن نتبع نصيحة "فولني" بمتابعة آراء الكتاب وعدم نسيان آرائنا الشخصية.

[31] – "سي.اف.فولني"، "رحلة في مصر وسوريا"، ص ٣٩.

"كل ما أردنا ، أو أملنا أو حلمنا به"

عندما بدأت قراءاتي التحضيرية لكتابة هذه المختارات لفت انتباهي عدد الكتاب الذين تذكروا قصص "ألف ليلة وليلة" حين شدوّا الرحال إلى الشرق للمرة الأولى، وعكفت أدون إشاراتهم لتلك القصص،وسرعان ما استسلمت لأن الأمر من الكثرة بحيث يحتاج إلى مجلد كامل. فقد ذخر العديد من روايات القرن التاسع عشر بإشارات وتلميحات إلى قصص "ألف ليلة وليلة" ("رنا قباني"، "أساطير أوروبا عن الشرق")، كما كانت صورة الشرق المثير بألوانه الصارخة وقسوته الوحشية في الخيال الشعبي الأوروبي تطبق دون تمييز على مناطق جغرافية شاسعة. في رواية "كرانفورد" "للسيدة غاسكيل" مثلاً، كان لوصول "السيد بيترز" من الهند وقع مثير للغاية في القرية، حيث روى حكايات "أشد غرابة من حكايات السندباد البحري" واعتبرت تسلية الأمسيات كما لو أنها من قصص "ألف ليلة وليلة". ولدى قراءتي لروايات الرحالة فوجئت بأنهم لم يستعيدوا قصص ألف ليلة وليلة عندما يكونون في بغداد فقط، ولكن في أية بقعة يجدون أنفسهم فيها في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا – مدينة كانت، أو قرية، أو واحة في مجاهل الصحراء.

وفي الحقيقة فإن ذكريات الطفولة،والرغبة في الإفلات من واقع مجتمعهم الخانق سيطرت على خيال الرحالة إلى الحد الذي تذكروا فيه تلك القصص حتى في

أوغـندا، والهند،ويوغسلافيا. [1]المقتطفات التالية هي مجرد نموذج بسـيط للفكـرة الأحاديـة عن الشرق التي حملهـا الرحالـة معهـم حـين بـدأوا رحلتهـم. وأحـد المقـاطع اقتطـف مـن رواية "اسكاروس القبطي" (نشرت عام ١٨٧٠) كتبها قنصل عـام سـابق لأمريكـا في القـاهرة، وكان يزعم أن وظيفته الرسمية وإقامته الطويلة في المنطقة تعطيانـه درايـة خاصـة. ومـع أن الراوي في هذا المقطع كان زائـراً أمريكيـاً للقـاهرة، إلا أن المؤلـف أقحـم نفسـه ليسـجل في المقدمة "إن الحقائق في الشرق أشد غرابة من الأحلام في الغرب".

أتذكر رغبة من عهد الطفولة بأن تكون جميع قصص "ألف ليلـة وليلـة" واقعيـة، لأكتشـف يوماً من الأيام أن لا شيء أكثر صدقاً من الخيال الشعري، لأنه كما يقول "براوننغ":

كل مارغبنا، أو أملنا، أو حلمنا به
من خير سوف يبقى،
الخير ذاته
لا أشباهه

وحالما وصلت الجزائر بدأت أسمع قصة بعد قصـة يمكـن إضافتهـا إلى حكايـات الألـف ليلـة وليلة: كلها جديدة، وحقيقية، وعلى نفس الدرجة من الغرائبية." [2]

ربما يشعر القارئ بالضجر من تكرار الإشارات في روايات الرحالة إلى الموضوع الشائع الـذي ذكر للتو، لكن في الحقيقة ليس من السهل تجنبـه. ففـي أيـة مدينـة إسـلامية–ولهـذا علاقـة بالعقلية المحافظة لشخصية المسلم–تشعر بأنك على اتصال في كل زاوية وركن بحقـائق "ألـف ليلة وليلة". كل شيء تراه تقريباً يفسّر قصة ما، أو يوضح مسـألة استعصت علـى الحـل...في

[1] – "دي بيركيت: "نساء عانسات خارج الحدود"، ص ٤٥".

[2] – "ماتيلدا بيثام أدوارد": "شتاء مع طيور السنونو"، ١٨٦٧، ص ١.

الحقيقة أنت محاط من كل جانب بخصائص وشخصيات "ألف ليلة وليلة". الشخوص القديمة التي ألفها خيالك تصبح حقيقية، تحمل معها ذكريات تبحث عن الزمان والمكان اللذين قابلتها فيهما: الجانب الظليل من كومة القش حيث قابلت للمرة الأولى "قمر الزمان" و"بدور"؛ الركن المنعزل تحت الشجيرات الصغيرة حيث يراك الشحرور غارقاً في حديقة "الحصان السحري"، ولا يشعر بأنك على قيد الحياة إلا حين تقلب الصفحة؛ وحتى داخل حجرة التمريض تلك، حيث تمتزج فيها حتى اليوم مغامرات "السندباد البحري" بنكهة نبات "الأروروت"،تنسى بأن هنالك أشياء مثل نور الشمس والمرح والبهجة خارج أبوابها"[٣]

أدارت الفتاة عينيها البراقتين المليئتين بالحيوية، وألقت نظرة على المربية المسنة ودمتفت قائلة: "آه يا خالة، أليس هذا غريباً، ألا يبدو لك الأمر وكأنه صفحة انتزعت من "ألف ليلة وليلة"؟ نعم ، هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين وُصفوا هناك – السقّاء الأعور، المرأة المحجبة، "الحكواتي" العجوز الجالس تحت الشجرة، والعبد الشرير الخارج لتوه من "الحرملك"[٤].

هنا يقيم كل اللاتي يفخر سموه بهن.. هنا، في هذه السراي تسكن العائلة الكبيرة من حريم السلطان. يا للذكريات التي تثيرها رؤية هذه المشاهد الرائعة التي تحدث هنا. كم هو ممتع منظر الفاتنات اللاتي أتين من القوقاز، والأرخبيلات، والجبال، والصحراء والبحار: مسلمات ومسيحيات ويهوديات وغيرهن من السبايا اللاتي ربحهن الباشوات في المعارك، أو قُدمن كهدايا من الأمراء، أو اختطفهن القراصنة، يعبرن كالظلال تحت هذه القباب الفضية. إن الوصول إلى بوابات السراي القديمة قد يكون حلم الحياة كلها للذين قرؤوا وصف "ألف ليلة وليلة" لقصور الخلفاء والسلاطين.[٥]

---

[٣] "جون اورمزبي": " نزهة خريفية في شمال أفريقيا" ١٨٦٤ ،ص٢٥٢-٢٥٤.

[٤] "ادوين دوليون": "اسكاروس القبطي"، ١٨٧٠، ص ١٨.

[٥] – "ويليام. جي. جي. سبري": "الحياة على البوسفور، ١٨٥٩، ص ١٠.

نعم، كنت في بغداد، مدينة السحر، وأحلام الصبا، والموطن المتألق بالأبهة والمتعة. حيث عاشت "زبيدة" الجميلة في قصر متلالىء البلاط، مرمري الأدراج، في زحمة من الأرائك المطرزة وستائر الدمقس،والأقمشة الحريرية الملونة، والأغطية الأرجوانية التي نسجتها أشهر مغازل الشرق؛ هناك رأيت جماعة من الفتيات المتزينات بالحلي يرقصن على أنغام القيثارة والعود والقانون، ويغنين بصوت شجي كصوت "إسرافيل" لُيبعدن الهموم والضجر عن سيدتهن المتخمة بالسعادة.

وبملء إرادتي أسلمت كياني للتأثير المنوم للمشهد، وفي ما يشبه الحلم رأيت "علاء الدين" مع فانوسه السحري، والدراويش العور يقصون حكاياتهم الساحرة؛ والصيادين وهم يخدعون الجني الغبي، وهارون الرشيد وجعفر يتجولان بالعباءة عبر الشوارع المعتمة في العاصمة؛ والبيوت التي تشع ألقاً وتلفها مظاهر الثراء والرفاهية، وينيرها العديد من المصابيح الذهبية بأضوائها الخافتة، وتتردد بين جنباتها أصداء ألحان عذبة ومتنوعة تريح النفس، وأصوات فرحة لمسرات وحفلات منتصف الليل.[٦]

عندما ذهبت "غيرترود بل" في شبابها إلى فارس للمرة الأولى، كتبتْ بالنفس ذاته أيضاً، بعد أن شدّتها "الروح الرومانسية" التي بحثت عنها طويلاً حتى وجدتها هناك. وحين أُعيد طبع مشاهداتها عام ١٩٢٨ ضمن كتاب بعنوان "صور فارسية" علق "أي . دينيسون روس" في المقدمة على التأثير السحري الذي "مارسته قصص ألف ليلة وليلة علينا جميعاً". وعلينا الانتظار حتى مرحلة متأخرة من حياتها، كما يقول "روس"، حين اضطرت للتعامل مع هذه المناظر الطبيعية الساحرة في الشرق كأشياء واقعية، ولاعتبار السكان الرومانسيين الذين يقطنون مدنه وصحاريه بشراً حقيقيين من لحم ودم. والفقرة التالية مأخوذة من رسالة بعثتها لابن عم لها خلال رحلة مبكرة عام ١٨٩٢ :

---

٦ – "ألفس جي.ايه.زام": "من برلين إلى بغداد وبابل"،١٩٢٢، ص ٤٢٨.

ما الذي أستطيع إرساله إليك سوى تلك الانطباعات العابرة التي توقفت وتجسدت هنا. أستطيع أن أخبرك عن التاجر الفارسي الذي أمضينا يوماً كاملاً في مزرعته الممتدة على طرف الجبل، لا نأكل سوى الطعام الإيراني في الإفطار والغداء والعشاء. التاجر مشهور بكرمه؛ ففي كل مساء تأتي جماعة من أصدقائه دون موعد مسبق و يخرج لاستقبالهم -كما أخبرني- ويمدّ أمامهم مائدة عامرة ويروي لهم الحكايات طوال الليل، ثم يفرش واحداً من بيوت الاستقبال في الحديقة بالوسائد والحشايا لينام الجميع هناك حتى طلوع الفجر، حيث يذهبون إلى أحد الحمامات العامة في القرية. ألا يشبه هذا سحر "ألف ليلة وليلة"؟ نعم، فكل الأشياء الساحرة هنا لا تزال على حالها ولم تتغير.[٧]

الفقرتان التاليتان لمؤلفين فرنسيين في نهاية القرن، يعالجان فيهما بشكل مباشر الفكرة الغربية عن نساء الشرق. الأولى تعكس ما يدور من حوار بين رجال مسنين حول حي القصبة في الجزائر، والثانية تحذر الرجال الأوروبيين من صعوبة الوصول إلى هؤلاء النساء "الشَبِقات".

(حي) القصبة!

هذه الكلمة التي أسرتني حين كنت طفلاً، ولاحقتني طوال السنين مثيرة الكثير من الغموض، والعديد من الصور الضبابية المقلقة. كان لنطقها رنين خاص، وكلما ذكرها أصدقاء والدي المسنون كانوا يضحكون ويتغامزون بطريقة خاصة.

القصبة! علمت مؤخراً بالمعركة الدامية التي جرت بين العرب والجنود الليلة الفائتة. النساء أيضاً يمكن رؤيتهن هناك، لكن أي نوع من النساء، لم يكن لدي أي فكرة، لكن دون

---

٧ - "رسائل غيرترود بل"، ١٩٤٧، ص ٣٢.

شك كن مخلوقات غير طبيعية، وعلى قدر كبير من الاختلاف عن غيرهن من النساء. تخيلته (الحي) .

عرين الخطر والسحر،ومشهداً خارجاً مباشرة من "ألف ليلة وليلة".[8]

..بقي لنا أن نذكر شيئاً حول النساء، وما سنقوله لن يتطابق مع الأفكار التي تتبناها فرنسا حول النساء الشرقيات. بالرغم من كل ما كتب عن الشرق، يبقى الرجال الفرنسيون سعداء باعتقادهم أنهم سيقابلون هناك المحظيات الشهيرات بجمالهن المتألق كنجمة الصبح بانتظار عشاقهن. لا يزال الرجل الأوروبي يظن أنه سيجد في أفريقيا قصراً بديعاً تطل شرفته على المدخل المفضي إلى الشارع، وبداخله سجينة فاتنة تنتظر فارساً فرنسياً مغواراً يأتي بدرعه المتلألئة لإنقاذها، فالأوروبيون ينسون أن الحريم هن دائماً تحت حراسة مشددة وأن "المشربيات" أمام الشبابيك تجعل التواصل مع من خلفها مستحيلاً ولا تسمح حتى بتبادل النظرات.[9]

نشر "روبرت هيتشنز" تقريراً عن رحلته إلى الأراضي المقدسة عام ١٩١٣، تضمن وصفاً رومانسياً مبالغاً فيه للمشاهد السحرية وحكايات الجن الخرافية التي صادفها، بالإضافة إلى تلميحات متكررة للحجاب والغموض الذي يلف المنطقة هناك. وهنا يتحدث بالتحديد حول اشتهاء الرجال الأوروبيين للنساء "الأجنبيات".

مرة بعد مرة، كلما تجولت وحيداً في الواحة، كانت النساء بثيابهن الأرجوانية والسوداء، وقد عصبن رؤوسهن بمناديل حمراء وبرتقالية، وغطين صدورهن بالتمائم

---

[8] – "الجزائر المعاصرة"، ١٨٩٣، ص ٢٨".

[9] – "ليون ميشيل": "تونس"، ١٨٨٣، ص ١٧١.

والأحجبة وأطواق الخرز، يخطرن بهدوء عاريات الأقدام وقد وضعن بين شفاههن ورود "أريحا" المدهشة بلونها القرمزي. كنت أتذكر "هاييتي" والقرى النائمة في أحضان "الجبال الزرقاء" في "جامايكا"، حيث تبدو الحياة دوماً كالحلم، على الأقل بالنسبةللرجل الغربي."[١٠]

في عام ١٩٤٨، نشر "مايكل اشر" كتابه "بحثا عن طريق الأربعين يوماً"، سّجل فيه وصفاً لرحلته الغريبة عبر الصحراء في "السودان"، وكيف قابل "الناجين من العالم الضائع"، ولا يملك المرء إلا أن يُدهش لاستخدام العبارة. فمن ذا الذي يجد ذلك العالم الضائع؟ وهل يعلم الناجون منه بأنهم كانوا ضائعين؟ المقتطفات التالية من الكتاب تقدم تحليلاً يثير الاهتمام بمشاعر "آشر" نحو العرب حتى قبل أن يبدأ رحلته إلى السودان، وإدراكه بأن التصورات حولهم كانت من اختراع الثقافة الغربية التي ينتمي إليها، واكتشافه اللاحق بأن رجال الجمال الصحراويين كانوا في الحقيقة يماثلون بشكل دقيق تصوراته المسبقة عنهم. في هذا الكتاب، كما في كتب سابقة ألفّها رجال رأوا في الصحراء سحراً يخلب الألباب، تظهر النساء بشكل عابر لمجرد إضافة لمسة ملونة على منظر الصحراء. لكن في التأملات الأولى هنا يتركنا الكاتب مع صورة "موكب من النسوة يرتدين أقنعة تشبه وجوه مصاصي الدماء نصادفه أحياناً في شوارع لندن!!

عندما ذهبت إلى السودان للمرة الأولى، لم أحلم أبداً أن أجد هناك الناجين من العالم الضائع. حسبت أنني أعرف العرب: عالمهم يسكن أعماق ذاكرتي، ظلّ هناك مذ قرأت في طفولتي نسخة مبسطة من "ألف ليلة وليلة"، وعرفت في صباي "لورنس العرب"، وتلوت في شبابي أشعار "جيمس ايلروي فليكر". ومع هذا لم أكن أعرف أن الصور التي نقلتها تلك الأعمال

---

[١٠] - "روبرت هيتشنز": "الأراضي المقدسة"، ١٩١٣، ص١٨٥.

الرومانسية كانت تركيبية، اُخترعت ومُزجت ألوانها في مختبرات ثقافتنا الغربية، ولمْ يكن لها سوى صلة واهية بالشخوص الحقيقية التي تلوح باهتة بعيداً عن الأفلام السينمائية والعبارات الرومانسية...

وحين أقمت في "دونغولا" رأيت هذا العالم أمامي كل يوم. كان يبدو مكاناً غامضاً، مخيفاً، لا نهائياً وبعيداً عن البشر كبعدهم عن سطح القمر. ومع هذا كنت أعرف أن بشراً يعيشون هنا، لأنني رأيت بعيني قوافل الجمال: حشوداً هائلة من الوحوش السائبة تزحف كحشرات عملاقة فوق الرمال المنبسطة، ومن خلفها يسير رجال ذوو مظهر رهيب، يقودون جمالهم ببراعة مستخدمين سياطاً جلدية تلهب ظهورها، رافعين عقيرتهم بأغنيات غريبة: أنفاس عالم غرائبي! كانت حياة رجال الجمال أولئك تختلف جذرياً عن حياة قبائل الأنهار الذين عشت بينهم من قبل.فهم لا يتجنبون الصحراء، لأن حياتهم تعتمد على آبار المياه والجمال، حياة الترحال المتواصل فوق السهول الشاسعة لوطنهم الأم.

...وحين علمت أن رجال الجمال أولئك هم "العرب"، أطلقت الكلمة بشكل فوري سلسلة معقدة من التداعيات في ذهني. ذكريات تشكلت بعد رؤية جماعات من الأشخاص بأرديتهم وكوفياتهم البيضاء الناصعة يسيرون، لا فوق رمال الصحراء، ولكن عبر شوارع لندن في الصيف، يتبعهم موكب من النسوة يرتدين أقنعة تشبه وجوه مصاصي الدماء. اقترنت هذه الصور بصور أخرى مبهمة لأبراج آبار البترول، والقصور الإسمنتية، وأساطيل السيارات الأمريكية الفارهة. لكن هذه الأخيرة حجبت طبقة لا شعورية من التداعيات أكثر قدماً – شخصيات "ألف ليلة وليلة" التي تخيلناها في طفولتنا مفعمة بالحيوية؛ رجال بملامح الصقور، غامضون، بعماماتهم الملتفة وخناجرهم المعقوفة؛ أو رجال على ظهور الجمال، يغطون وجوههم بكوفيات بيضاء، ويحملون بنادقهم العتيقة، أو الخيام السود في الصحراء، وشخوص باهتة تتحرك تحت أشجار النخيل في الواحات – أشباح لا تزال تكمن في أعماق ذاكرتي. وحسبت أن هذه الأشباح تتبع عالماً اخترعته أوهام الطفولة.

وحتى لو افترضت أن ذلك العالم وُجد يوماً من الأيام فقد بهتت معالمه الآن وتلاشت. لكني عرفت أن هذا العالم الخيالي موجود فعلاً في السودان. صحيح أن فيه تجاراً أثرياء يزورون باريس ولندن بانتظام، وأن الشاحنات التي تسير بالديزل.

وأجهزة التلفزيون والهاتف، وحتى الملاهي والمراقص منتشرة هناك، إلا أن كل هذه كانت غريبة عن بعض السكان ولا تخطر على بالهم حتى في الأحلام. ثم اكتشفت وكلي سعادة ودهشة أن رجال الجمال الصحراويين كانوا أكثر قرباً مما أتصور إلى تلك الطبقة اللاشعورية القديمة في خيالي.[11]

خلال السنين، وصل الرحالة إلى الشرق بحثاً عن أشياء كثيرة للإفلات من واقعهم. "تشارلز بايتون" مثلاً، ذهب إلى شمال أفريقيا من أجل العلاج الصحي والحياة البسيطة غير المعقدة. في حين وصف "موريس برنارد" مفاتن الجزائر بعبارات جنسية فاضحة. "ايفيلين ووه" سمى كتاب رحلاته الأول "التصنيف"؛ لأن "كل الأماكن التي زرتها كانت مصنفة بالكامل". أما مدى ما يعكس وصفه للنساء الأرامل خلال الرحلات البحرية من حالته الذهنية، وما يملك فيه من روح الدعابة، فيظل أمراً قابلاً للحدس والتخمين.

كنت أتوقُ دوماً لرؤية البربرية الشرقية؛ لأجلس متربعاً وأدخن "النارجيلة" التركية؛ وأوطدّ أواصر الصداقة مع أي مسلم معمم؛ لأعيش قليلاً في بلاد لا يزعجني فيها سعاة البريد، أو جامعوا الضرائب، أو صبية يحملون إلي البرقيات العاجلة - بلاد

---

[11] - "مايكل آشر": "بحثاً عن طريق الأربعين يوماً"، ١٩٤٨، ص ١٨-١٩، ٢٩-٣٠.

تحل فيها الجمال مكان القطارات والعربات، وأنعم فيها بأشعة الشمس الدافئة، وأشعر بالراحة دون خوف من نزلة برد، أو التهاب قصبات أو روماتيزم.[١٢]

الجزائر! تلك الكلمة الموسيقية التي تشبه همس الأمواج وهي تداعب رمال الشاطئ البيضاء، وعذوبة صوت النسيم في واحات النخيل. الجزائر! بإغراءاتها وهدوئها، مدينة تُعشق لصفاء سمائها، وألق بحرها اللازوردي الرائع، وروائحها الغامضة، ودفء أنفاسها حين تحتضن زوارها في عناق طويل! مدينة يشعر فيها كل شخص بأنه موجود في محيطه الملائم – الفنان العاشق للون والضوء؛ والأكاديمي الذي تسحره معجزات الطبيعة ودراسة الإنسان؛ والفيلسوف الراغب بدراسة الأديان والعادات؛ والسياسي الباحث عن حلول للمسائل الصعبة والمعقدة؛ وعالم الآثار المنقب في بقايا العصور السالفة، والإنسان العادي الذي تشده المسرات والاحتفالات؛ وأي واحد تضجره الحياة الرتيبة ويحتاج لبعض الراحة والمتعة والحرية.[١٣]

هؤلاء الأرامل، إذن، قرأن إعلانات شركات السفن البخارية وسافرن على متنها (إلى الشرق)، فوجدن هناك جملة الشعارات المعروفة ذاتها – عبارات شبه شعرية يمكن تفسيرها جنسياً – التي تولّد في الأشخاص البسطاء والسطحيين حالة من الزيف والافتتان. "الغموض، التاريخ، الفراغ والمتعة" كلمات قالتها احداهن في بداية الرحلة. إن السلسة الوردية من التداعيات تبدأ عادة بالصحراء، والقمر، والأهرامات، والنخيل، وأبي الهول، والجمال والواحات، والمؤذنين في المآذن العالية يكبروّن لصلاة العشاء، وا لله، "وهيتشنز"، و "مسز شيريدان"، لا تنتهي إلا بالإشارة إلى شيخ القبيلة، والاغتصاب والحريم– لكن العقل الذي يؤمن بمبدأ الشك لا يتبع تلك التداعيات إلى هذه النهاية المحرّمة، بل يعرف الاتجاه الذي

---

[١٢] – "تشارلز . ايه . بايتون: "طحالب على حجرمتحرك"، ١٨٧٩، ص ١".

[١٣] – "موريس برنارد": "من الجزائر إلى طنجة"، (بدون تاريخ)، ص ١".

تسير فيه ويعجب بالمشهد من بعيد. إن فكرة الاختطاف الفعلي مرفوضة كلياً – فما الذي ستقوله الصديقات في "نادي البريدج" أو في نقابة الخياطة، عند العودة إلى أرض الوطن؟!– لكن حين تشجع الأفكار الأخرى عليه (الاختطاف) يصبح لها جاذبية آسرة وشرعية كاملة.[١٤]

الصور المستعارة من الكتاب المقدس كانت شائعة ومتكررة أيضاً في كتب الرحلات، تماماً مثل الإشارات والتلميحات إلى "ألف ليلة وليلة" . فقد جاب المصورون والرسامون أنحاء فلسطين ونقلوا مشاهد من الحياة اليومية استخدمت في تأويل الطبعات المختلفة من الإنجيل. وعندما وجد الرحالة إن تلك المشاهد مطابقة لما جاء في نسختهم من الكتاب المقدس، استنتجوا إن الحياة هناك لم تتغير خلال الألفي سنة الماضية. ووظُفت فقرات مقتبسة من الإنجيل تصور امرأة قرب بئر الماء مثلاً، وأخرى تطحن حبوب القمح، أو رجلاً يحرث حقله، لتعزيز مثل ذلك الاستنتاج. وقامت شركة "توماس كوك" بتنظيم رحلات سياحية إلى الأراضي المقدسة، حيث جدد الزوار إيمانهم وثبتّوا اعتقادهم بتفوق الديانة المسيحية. وما سنورده لاحقاً يمثل نبذة صغيرة مختارة مما هو شائع في كتب الرحلات المتعلقة بالأراضي المقدسة.

بدأت "فلورنس نايتنغيل" رحلة على النيل عام ١٨٤٩ عندما كانت في التاسعة والعشرين. وكانت تلك السنة صعبة بالنسبة لها حيث ناضلت بحثاً عن هدف حقيقي لحياتها دون التسبب في أية إساءة لوالديها. وخلال إقامتها في مصر شعرت بكره شديد للإسلام، فقد كانت تقول: "**ماهي الفرصة المتاحة أمام أمة متعتها الدين؟**" وحالما وصلت إلى الإسكندرية أرسلت انطباعاتها الأولى مكتوبة إلى الوطن.

---

[١٤] – "ايفيلين ووه": "التصنيف"، ١٩٨٦، (ط. أ.، ١٩٣٠)، ص ٤١–٤٢.

نعم يامواطني الأعزاء، لقد وطأت قدمي أرض الشرق للمرة الأولى،وأستطيع أن أخبركم عن العالم الجديد الخارج لتوه من الشعر القديم، وصور الإنجيل، والضوء والنور، والحياة والجمال وكل ما تعبر عنه تلك الكلمة. إنه يومي الأول في الشرق، وكان من أكثر الأيام إدهاشاً، وأنا على ثقة بأني لن أنساه إلى الأبد."[15]

"ماتيلدا بيثام ادواردز" التي وجدت قصص "ألف ليلة وليلة" مجسدة أمامها في الجزائر، كما رأينا في المقتطفات الأولى من هذا الفصل، استعادت ذكريات أيام الأحد في طفولتها عندما توجهت إلى الريف الجزائري. "والتر هاريس" حين أعاد سرد تفصيلات رحلاته في المغرب، قدم وصفاً مذهلاً للنساء البدويات، ومزج الصور المأخوذة من الكتاب المقدس بالأوهام الرومانسية. "السير فريدريك تريفيس" طاف أرجاء فلسطين عشية قيام الحرب العالمية الأولى وحاول جاهداً تجاهل كل علائم التغيير هناك لإبقاء النساء في صورة مماثلة لـ"ريبيكا" و "مريم العذراء" . وفي نفس الفترة جال "مود هولباخ" في بلاد الكتاب المقدس وقدم تبريراً ممتعاً لاستخدام لغة الإنجيل القديمة في وصف الحياة هناك. أما قصة "كاثلين رودس" التي خصّت بها تلميذات المدارس فقد أُعّدت في مصر ونشرت في وقت متأخر عام ١٩٣٧. وبالرغم من حقيقة كون النساء الإنكليزيات استخدمن القطار خلال تنقلاتهن في الشرق، إلا أنهن وجدن المشاهد خارجه مشابهة تماماً لما ورد في "العهد القديم" من الكتاب المقدس.

لا تذكرك الأوضاع في الأرياف "الجزائرية" كثيراً بقصص "ألف ليلة وليلة" بقدر ما تذكرك بقصص الإنجيل والقرآن. فمئات النصوص المقدسة المبهمة التي سمعتها أيام الآحاد في طفولتي

---

[15] – "فلورنس نايتنغيل": "رسائل من مصر"، ١٩٨٧، (ط .أ.، ١٨٥٤) ص ٢١.

تأخذ فجأة هنا معاني جديدة وحقيقية وجميلة وتفسيرية. وكل حادث مهما كان تافهاً يعيد إلى الذهن عظة جميلة من عظات كاهن الأبرشية. وأكثر المناظر الطبيعية بساطة تعطي القوة للعديد من التشبيهات البلاغية التي ألفنا عدم اكتمالها.[١٦]

حياة مدهشة تلك التي يعيشها هؤلاء البدو، فهم يرتحلون من مكان إلى مكان، يقضون شهراً هنا وعاماً هناك، ويمضون أيامهم على نفس منوال أجدادهم عندما وجُدت "ريبكا" قرب البئر. حياتهم ببساطة" ريفية وشاعِرية وقذرة!" أيتها القذارة، ماذا يفعل الفنانون بدونك؟ أية إضافة أنت إلى المناظر الطبيعية! غَسلّوا امرأة بدوية، وفكواّ خصلات شعرها المتشابكة، أعطوها ثياباً نظيفة لتبدو حسنة المظهر، عندها سيذهب جمالها كله. أن أكثر المناظر شاعرية في العالم هو منظر "الدّوار" عند حلول الظلام. بعد غروب الشمس بقليل، تتوهج السماء الشرقية بشفق قرمزي وفضي، عندها تشق النساء والفتيات طريقهن ببطء عائدات من البئر يحملن جرارهن المليئة فوق رؤوسهن. ومن قمة التلة ينساب ثغاء الخراف وخوار البقرات، يقودها صَبية صغار يرقصون على أنغام الناي المصنوع من القصب. ولم يكن صوت تلك الأنغام خشناً ولا صاخباً، بل كان خفيضاً ناعماً. في حين يأتي صوت الطاحون من الخيام حيث تجلس النساء ويدرن رحاها دون كلل، ويرتفع من المخيم المبعثر هنا وهناك عمود ملتف من الدخان الأزرق في الهواء الساكن. كم هي رائعة حياة البدوي![١٧]

عند النظر من نافذة عربة القطار إلى السهول ، لن يرى المشاهد مبنى حديثاً واحداً في الأفق. قد تختلف القرى البدائية عن بعضها لكنها لم تتغير كثيراً منذ أيام السيد المسيح، لا سيما حين تستبدل صفائح الكيروسين بجرار الماء الفخارية... على الطريق القديم- مجرد درب حفرته آثار الأقدام في الوحل- هنالك امرأة تركب

---

[١٦] - "ماتيلدا بيثام ادواردز": "شتاء مع طيور السنونو"، ١٨٦٧، ص ٢٢-٢٣).

[١٧] - "والتر. بي . هاريس" بلاد السلطان الأفريقي"، ١٨٨٩، ص ٥٦).

حماراً، ويبدو شكل رأسها لطيفاً بالغطاء الذي ترتديه وكأنها خرجت لتوها من لوحة إيطالية تصور رحلات القديسين.[18]

كانت مياه النيل مدخلي الأول إلى بلاد الكتاب المقدس، وبلا مقدمات تدفقت كلمات الإنجيل من فمي للتعبير عن المشاهد العامة للحياة اليومية، رغم أني قد أهملت دراستها لسنين طويلة. إذ لا يبدو أن هناك لغة أخرى تناسب المقام! وكما تضطر بشكل لا يقاوم لاقتباس الشعراء العاشقين للطبيعة حين تكون وسط تلال ووديان "ويستمورلاند"، كأشعار "تينسون" التي أجادت في وصف البحيرات المهجورة في موطنه "لينكولنشاير" ، أو "مدينة الأبراج الحالمة"لـ"ماثيو أرنولدز" والقنوات المائية المجاورة، كذلك ستجد روحك سبيلاً للنطق بلغة التوراة في الشرق، إذا ملكت شيئاً من الروح الشعرية، وتعلمت الإنجيل في الطفولة، حتى لو كنت هناك في محيط غير مناسب مثل باخرة سياحية مكتظة على النيل، أو فندق يزدحم بالسياح – فماذا يحدث يا ترى لو استطعت الهروب إلى الصحراء المقفرة، أو الشواطئ المهجورة حول بحيرة طبرية؟![19]

كان لدينا في المنزل إنجيل قديم كبير الحجم ومليء بالرسوم الملونة. كنت أحب في صغري النظر إلى تلك الصور- كانت تمثل كل شخصيات "العهد القديم"؛ يوسف، إبراهيم، وغيرهما... يرتدون أثواباً طويلة ويركبون الحمير عبر الدروب المغبرة، بينما يلعب في الطرقات الضيقة صبية صغار بأثوابهم الطويلة التي تشبه ملابس النوم. هنالك أيضاً صور تمثل النساء يذهبن إلى الآبار لملء جرار الماء ويرجعن وهن يحملنها على رؤوسهن، والسماء

---

[18] – "سير فريدريك تريفيس": "الأرض المهجورة"، ١٩١٣، ص ٢٤).

[19] – "مود . ام . هولباخ": "طرق الإنجيل في بلاد الإنجيل" ١٩١٢،ص٩–١٠).

الزرقاء ممتدة فوقهن. حسناً! فالمشاهد التي نراها من خلال نافذة القطار تشبه تماماً تلك الموجودة في إنجيلنا الضخم المزين بالرسوم التوضيحية!"[20]

الفقرة الأخيرة في هذا الفصل تأتي من كتاب نشرته عام ١٩١٥ "جمعية الرسالة الدينية"، يعبر فيه "آرثر كوبينغ" عن دهشته لأن مصر تبدو مصريّة أكثر من اللازم. وبطريقة عجيبة استطاع بلحظة تجاهل القطار الذي يسافر به ليبرر زعمه لقرائه بأن الحياة هناك لم تتغير أبداً.

إن روحي الغربية تستمع برومانسية الشرق.والآن إن مصر لي كي أراها!

كان منظراً طبيعياً، لا من نجيل وأشجار، لكن من وحل جاف بلون الرماد،مع مناطق متباعدة مزروعة بالخضرة – يبدو المشهد وكأنه جزء من عالم آخر، قديم جداً. لم أحلم أبداً أن أجد مصر مصرية لهذا الحد. يمكن رؤية الناس هنا وهناك بلباسهم الفضفاض ذي اللون الداكن، وأرجلهم العارية، يتحركون بهدوء ووقار وبطء في رتل واحد عبر الدروب والمزارع .. قوافل من الرجال والنساء والجمال. في حين أن بعض الشيوخ الذين يركبون الحمير والعصي الطويلة في أيديهم يشبهون الشخوص في الحلم. وفوق ذلك، بما أن القطار يكون غير مرئي بالنسبة للناظر من نافذته، ليس هناك من اثر للحضارة الغربية الحديثة. بعض الأراضي المهجورة تبدو ملونة بلون باهت بفعل الرطوبة...تلك المخلوقات التي تتحرك ضمن المشاهد الطبيعية هذه – لم يكن من الصعب معرفتها، كانت منهمكة في أعمال قديمة قدم التاريخ!"[21]

---

[20] – "كاثلين رودس": "تلميذة في مصر"، ١٩٣٧، ص ٢٢).

[21] – "آرثر . أي . كوبينغك "صحافي في الأراضي المقدسة"، ١٩١٥، ص ١٣-١٤).

عند قراءة هذه الكتابات التي "تصف" الناس والمجتمعات، يبدو من المهم تذكر نقطة ألمحنا إليها سابقاً في المقدمة: الشعبية الواسعة لأدب الرحلات في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، عندما كان الأوروبيون يتلهفون لمعرفة "الآخرين". إن الجلوس في بيت في أوروبا وقراءة حكايات "ألف ليلة وليلة" وقصص الكتاب المقدس، والتعرف على شخصياتها التي اُفترض أنها تسكن بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، يجعل من السهل على الأوروبي تنمية إحساسه بالتفوق، ووضع النساء الشرقيات في مرتبة أدنى على نحو مزدوج: مرة لأنهن نساء، ومرة لأنهن شرقيات. تلك المواقف كانت تتمدد طبعاً من قبل بعض الرحالة لتشمل نساء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أيضاً.

الأسرار المكنونة

أثار الشرق بروحه الرومانسية وأسراره التي لا سبيل إلى فهمها الرحالة الأوروبيين عند وصولهم إليه. تماماً مثلما أثارت فكرة الكنوز المخبأة فيه أناساً طالما اعتقدوا بأنهم سيجدوا المفتاح لامتلاكها، وأنها- إذا ما نجحوا في ذلك - ستكون نفيسة بالقدر الذي توهموه. كانت أولى العقبات التي واجهت الرحالة الفضوليين الذين وصلوا إلى الشرق حديثاً هي الجدران والبراقع. وإذا أخذنا بالاعتبار أوهامهم حول ما يكمن خلفها، أدركنا مدى الإحباط الذي أصابهم حين شعروا بعزلتهم هناك. وأكثر من ذلك، حين اكتشفوا أنهم أصبحوا مراقبين من قبل العيون المختفية خلف النوافذ المغلقة والبراقع المسدلة، بعد أن قدموا إلى الشرق كمراقبين لما يحدث هناك.

اتخذ كثير من الكتاب مواقف عدائية تجاه "المجتمعات المغلقة" التي وجدوا أنفسهم فيها وتبنوا نظريات حماسية قارنت بين فضائل ومزايا الإسلام والمسيحية وكذلك بين الحياة في الشرق وفي الغرب، مستخدمين في ذلك صور السجون المظلمة لوصف الشرق، والمباني المفتوحة المغمورة بالضياء والنور لوصف الغرب.. في حين وظُف الحجاب للإشارة إلى الإسلام كدين تخصص في إخضاع المرأة، بعد أن تم تجاهل الحقيقة التي تؤكد أن أوضاع المرأة في العديد من المجتمعات المسيحية لايمكن تمييزها عن

وضاعها في المجتمعات الإسلامية. الفقرة التالية التي كتبت عام ١٨٥٤ تعتبر مثالاً لذلك لنوع من التفلسف.

قد تكون فكرة تشبيه التضاد بين النمطين الحياتين الشرقي والغربي غير كاملة، حين نعتبر أن الحياة في الشرق تشبه الشعر بينما تشبه الحياة في الغرب النثر. فالسحر الخرافي وتدرج الألوان الرومانسية سوف يلفّان دوماً الشرفات المفرّجة في دمشق، ويحومان معانقين مآذن القاهرة. لكنهما يتحولان إلى ظل متجهم وشفق شاحب حين نتذكر الأسلوبية الكئيبة للشعر الجرماني والاسكندنافي. ولسوف يسلم فرسان المائدة المستديرة، بكل ما في الخيال والحلم من بهجة وروعة، أكاليل النصر إلى صلاح الدين، وهارون الرشيد وبكوات المماليك. هنالك ثروة من المعجزات والأعاجيب، وألوان من الروعة والمهابة في الحياة والفكر الشرقيين يستحيل أن تتواءم مع الستر الضيقة، والتطريز بالإبرة، والسراويل الضيقة وغيرها مما يميز الحياة في الغرب. لقد عبرت الفروسية والبسالة خيام العرب بادئ ذي بدء تحت تيجان البارونات الشماليين وملأت صدور "القوط" القاسية المكسوة بالدروع الفولاذية بالنبل والشجاعة. ولهذا فان تاج مملكة الخيال يتبع المآذن الشاهقة،والنوافير المترقرقة، وأشجار النخيل السامقة، وعلي بك المملوكي على صهوة جواده العربي الأصيل. وبالرغم من كل هذا يجب أن لا نبخس الأوروبيين حقهم، ففي ورشات "مانشستر" ومراسم باريس، اعتقد بأنك سترى معجزات تجعل "علاء الدين" يخجل بمصباحه. انظر إلى "فُلكان" إله النار الروماني فينطفئ مصباحك من تلقاء نفسه..

إن العقل الإنساني يترك بصماته على إبداعاته العظيمة وإبداعاته المتواضعة على حد سواء. فملابس الإنسان،والطريقة التي يسقف بها بيته و.. باختصار كل ما يعكس ذاته هو صورة تتطابق مع شخصيته، مع الأخذ بالاعتبار طبعاً وجوده في الزمان والمكان. ولهذا فان الحالة الاجتماعية لجماعة معينة من الناس يمكن أن تُعرف من أسلوبها في فن العمارة وفي فن

الخياطة أيضاً، وأكثر من ذلك فهما يعطيان فكرة عن الجو المناخي الذي تعيش فيه،والمهن الشائعة بين أفرادها والميول والمشاعر القومية لديهم. ولذلك فالتباين في شكل البيوت الإسلامية من جهة، والأوروبية من جهة أخرى، يعكس نوعاً من العداء القومي بين المسلمين والأوروبيين. فالبيوت الأوروبية تدفعها غريزة غامضة من حب التواصل والمشاركة الاجتماعية للخروج على شكل البيوت الشبيهة بالقلاع المحصنة التي كانت تُعزل داخلها العائلات في العصور الوسطى المظلمة، ولهذا يشعر سكانها برغبة في العيش معاً في تجمعات إنسانية واسعة، حيث الفرد والعائلة يصبحان جزءاً من الجسم الاجتماعي. ليس لهذه التجمعات هيئة ولا تنظيم، فهي تتماسك بفعل المواقف الإرادية الفاعلة، وتشكل معبراً طبيعياً وضرورياً من الانعزال العدائي للبربرية إلى التجمعات الإنسانية الكاملة، التي تشير إليه وتؤكده كل الميول السامية للحضارة الحديثة. وبنظرة واحدة إلى بيت إسلامي يظهر الفرق الشاسع بين النمطين، فهو صغير عادة ولا يتسع سوى لعائلة واحدة .وفي حين تسمح بيوتنا الأوروبية للضوء والنور بدخولها عبر نوافذها العديدة الواسعة، يتلمس المسلم في البيت طريقه في عتمة أبدية لأن جدرانه تشبه جدران السجن. هاتان الحقيقتان الرمزيتان تعبران عن خصائص كل من الحياة الشرقية والغربية. فالعرق البشري الأكثر تقدماً، الذي يعيش حياة أكثر اجتماعية، يتطلب مبانٍ فسيحة أشد اتساعاً تضم جماعات بشرية متعددة .. عرق يكتشف في كل يوم متعة وفائدة في التواصل الاجتماعي بين أفراده، ويقبل في البداية ترابطاً مادياً بينهم وذلك تمهيداً لتوسع أشمل لهذا المبدأ العظيم، بغية الوصول إلى تحقيق مصالح مشتركة أكثر رفعة وسمواً. أما في الحياة الشرقية حيث لا يحظى المرء بأي تواصل اجتماعي خارج الحدود الضيقة لعائلته الخاصة، وحتى التواصل هنا يكون ناقصاً بسبب حالة الاستعباد التي تخضع لها المرأة .. في حياة كهذه لا يمكن توقع سوى بيوت تجمع صفات القلاع والأبراج المحصّنة.من الطبيعي إذن الاستدلال من مساكن أفراد هذين العرقين البشريين، بل حتى من عدد نوافذ تلك المساكن، أن أحدهما ذو طبيعة اجتماعية منفتحة محبة للبحث والاستقصاء، وليس من العجيب أن الأسرى العرب في "مرسيليا" قارنوا بين

المنازل الفرنسية والسفن الضخمة التي تخترقها النوافذ والفتحات من كل جانب. ألا تكفي الجدران العارية العالية، بنوافذها القليلة الصغيرة التي تشبه الفتحات في بيوت الحمام، ألا تكفي للإعلان بأن قاطنيها لا يكترثون بما يحدث خارج حدود عائلاتهم، ويزدرون النظر إلى العالم خلف أسوارها، ويتلهفون لابقاء أسرارهم بعيدة عن أعين الناس الدَنِسة؟ إن المواطن الغربي المحب للبحث والاستقصاء والذي لا يهدأ له بال حتى يعرف الحقيقة يحتاج إلى أفق رحب يغمره النهار بضوئه الساطع ليتفحص ما حوله، ويعرف ما يجري من أحداث وأخبار. لكن الأمة التي تملؤها الغيرة، وتحاصرها الفردية والمصالح الشخصية الضيقة لا تتحمل أن تعرض عزلتها وأسرارها على الملأ والغرباء، والنظام التسلطي الأبوي لا يمكنه تحمل نظام التعاون الأخوي في حياتنا الاجتماعية.[1]

الفقرات التالية كتبت خلال فترة تقارب المائة عام بدءاً من سنة ١٨٢٨، وهي تظهر الإحساس بعدم الأمان الذي عانى منه الرحالة في الشرق.

"ادمونتو دو اميتشي" الذي زار المغرب عام ١٨٧٧- كاتب معروف في أدب الرحلات وقد تُرجم كتابه "القسطنطينية" إلى الإنكليزية عن الطبعة الإيطالية الخامسة عشرة. وهو هنا يصف في الواقع منزلاً من الداخل يبالغ فيه في تصوير العتمة وجو القذارة الذي يلف المكان، منتشياً برؤية جارية سوداء، "مخلوق انثوي مغرٍ". لكن دوره كمراقب انتهى حين وجد نفسه محط الأنظار في قاعة مزدحمة بالنساء المحجبات. والأمر نفسه تماماً حدث لـ"الكسندر دوماس" ومرافقه حين قاما برحلة عام ١٨٣٠ ووجدا نفسيهما في خيمة ابتكرت النساء فيها طريقة بارعة لمراقبتهما.تعمّد أكثر من كاتب تشبيه المدن بالنساء، مستخدمين الحجاب كرمز للتخفي والكتمان. "روبرت هيتشنز" شبه دمشق وجنين بالمخلوقات

[1] "جون رينيل موريل": الجزائر، ١٨٥٤، ص ٩٤-٩٦.

الاسطورية التي كانت تغوي بغنائها البحارة وتهلكهم، وفي شطحة من شطحات خياله جره الوهمَ لرؤية جبال "المؤاب" كأنثى تعذّب عشاقها:

كثير من المرات، ربما، خلال رحلاتي التأملية، كانت المشاهد التي أراقبها تمتلئ فجأة بالحيوية عند رؤية العيون السوداء (التي كانت تتساءل، دون شك عما أفعله في تلك الأحياء التي لا يطرقها الغرباء) تختلس النظر إليّ عبر "اليشمق" الأبيض.والنوافذ ذات المصاريع الخشبية السميكة التي تغلق كل فتحة في البيت التركي. مرة أو مرتين شغفت اذناي ضحكة مكتومة من أولئك اللاتي يراقبنني من خلف الأستار– لقد كانت أصواتاً ممتعة، كما يبدو، وعلى الأقل لم تهجر كل المسّرات المكان.[٢]

عندّما كانوا يقومون بتأدية شعائرهم الدينية، تفحصتُ باهتمام بالغ إحدى الخيام من الداخل والتي لم تتغير منذ عهد إبراهيم (عليه السلام)، والتي منها حمل "إسماعيل" تقاليد أرض كنعان إلى أعماق الصحراء العربية. كنت أراقب أحد الجوانب المصنوع من صوف خروف أسود، عندما حسبت فجأة أنني أرى نصلاً لخنجر يخترق جدار الخيمة وينزلق إلى الأسفل قاطعاً الصوف بمقدار بوصتين تقريباً ثم اختفى. وتبعه إصبعان رشيقتان باظافرهما المطلية بالأحمر تبعدان شقي الفتحة التي اخترقها النصل. ثم ظهرت عين سوداء متلألئة تنظر عبر الإصبعين. أنها امرأة عربية رغبت في رؤية "النصارى" دون أن يروها ، ولم تجد طريقة أفضل لإشباع فضولها دون التمرد على الأعراف التقاليد من تلك الفجوة الصغيرة التي كانت تظهر منها عين جديدة كل خمس دقائق خلال الوقت الذي جلسنا فيه في خيمة "الطوالب".[٣]

---

[٢] – "تشارلز ماكفرلين": "القسطنطينية عام ١٨٢٨"، ١٨٢٩، ص ٣٢-٣٣.

[٣] – "الكسندر دوماس و ايه ، دوزات": خمسة عشر يوماً في سيناء، (بدون تاريخ) ص ١٧٠-١٧١.

حين كنا على مشارف البلدة، بدا أننا فعلاً قد اكتشفنا أخيراً المدينة الشرقية التي حلمنا بها- حيث الحلاقون كالفلاسفة، وصانعوا المعجنات هم أبناء الملوك، وحيث العفاريت تظهر آمنة وهي تتنكر بزي الحطّابين ، والأشباح الجميلة تعيش في الآبار دون أن يزعجها أحد. قنطرة كبيرة من أوراق الشجر تفضي إلى البوابة التي ترتفع أمامها عتبة تشكلت من شجرة نخيل، والفتحات عبر الجدران يمكن من فوقها رؤية البيوت البيضاء التي لا يمكن استكشافها إلا بالخيال- وهذا هو السر الكبير وراء الانطباع الذي يولده. حشد من الناس يملأ الشارع الرئيسي ذا السقف المنخفض ، حيث توجد مكاتب الحكومة ويجلس داخلها موظفون أقباط بوجوههم الشاحبة، ينظرون عبر نوافذها المغطاة بمصاريع خشبية من دون زجاج عازل، وأرتال من الرجال المسلحين بالعصي يجلسون خارجها- رجال من قوة الدرك الخاصة على أهبة الاستعداد لإطاعة الأوامر.

وخلف المكاتب الحكومية هناك مساحة خالية ينتصب فيها ضريح أبيض تظلله شجرة جُميز، وفيما وراءها تمتد متاهة من الدروب الضيقة، وبيوت لا تظهر عليها أي علامة من علائم الحياة التي تعج داخلها. إن أكثر ما يميز هذه البلدات الريفية المصرية هو هيئتها الفظة وغير المضيافة. ومعظم الطرقات مجرد مزالق ضيقة محصورة بين الجدران الصماء، تشرف عليها من علٍ كوى كفتحات الرمي، كلما رأيت عيناً تطل منها بين الحين والآخر لا تعرف أهي حورية أضناها العشق ترمي بنظرتها إليك أم لص يهم بتسديد طلقاته عليك.[٤]

دمشق تشبه النساء اللاتي آراهن كل صباح يخطرن أمام مخيمنا، وقد غطين أثوابهن المطرزة بحجاب قطني بائس. نساء دمشق يخبئن كنوزهن ليظهرن في هيئة مزرية أمام الأوروبيين الذين يروهن للمرة الأولى. البيوت المنخفضة المتقابلة والخالية من النوافذ تشكل عملياً الأزقة

---

[٤] - "بايل سنت جون": "حياة القرية في مصر" ، ١٨٥٢، ص ١٢٣-١٢٤.

الضيقة القذرة التي لا تقابل فيها سوى الكلاب الجربة التي تنام قاطعة علينا الطريق، أو بعض النسوة اللاتي يعبرن بسرعة لتفادي نظراتنا.*

كنا ذاهبين لشرب الشاي عند مغربي مسلم. دخلنا عبر ممر ضيق يفضي إلى فناء صغير معتم، لكن جميل- جميل وقذر، كأقذر منزل في "حي القصر". وفيما عدا الفسيفساء التي تزين الأرضية والأعمدة، كان كل شيء كالحاً تقشّر طلاؤه، وأصبح دبقاً بفعل القذارة. هنالك غرفتان معتمتان في الطابق الأرضي، وفي الطابق الأول يوجد بهو مضاء، وفي أعلاه يقوم الحاجز الذي يفصل السطح. أجلسنا المغربي أمام باب غرفة نومه،وقدم لنا الشاي والحلوى، وشراب محلي، ثم رش علينا ماء الورد،وقدم لنا أطفاله- ولدين جميلين شحب وجهاهما وارتجفا رعباً كأوراق الشجر حين عانقانا- وعلى الجانب المقابل من البهو كانت تقف جارية سوداء في حوالي الخامسة عشرة ترتدي ثوباً شبيهاً بالقميص الفضفاض فُتحت أطرافه حتى الوركين وحزمت خصرها بحزام. وأقسم أنها، بقدها الأهيف الرشيق أكثر مخلوق انثوي إغراء بين كل ما رأيته في المغرب. كانت تقف مستندة إلى أحد الأعمدة وقد عقدت ساعديها على صدرها، تنظر إلينا بعدم مبالاة. ثم خرجت من الباب جارية سوداء أخرى في حوالي الثلاثين، طويلة القامة، صارمة الملامح، قوية البنية، منتصبة كالنخلة، وبدت أنها الأثيرة لدى سيدها ، لأنها تقدمت نحوه دون كلفة وهمست في أذنه بضع كلمات، وأخرجت عوداً صغيراً من القش كان عالقاً في شعر لحيته، ثم ضغطت بكفها على شفتيه بطريقة حميمة وكسولة جعلت المغربي يبتسم. حين كنا ننظر إلى الأعلى كنا نرى الحاجز الذي يفصل السطح ومن خلفه رؤوس النساء اللاتي كن يختفين فور وقوع بصرنا عليهن.

من المستحيل أن تكون كل تلك النسوة من حريم البيت نظراً لكثرة عددهن، فزيارة المسيحيين كانت قد أعلنت دون شك في كل أنحاء الحي، ولذلك أتت الصديقات من بيوت أخرى إلى هذا السطح لرؤية الزوار الغرباء. ثم رأينا ثلاث نساء يعبرن كالأشباح وقد غطين رؤوسهن تماماً واختفين عبر

* - "اس . ايه . آر" : "دمشق ولبنان" ، ١٨٦١، ص ٩.

الباب الصغير. كن ثلاث صديقات لم يستطعن الوصول إلى السطح فأضطررن للدخول عبر الباب، وبعد هنيهة، ظهرت رؤوسهن من فوق الحاجز المحيط بالبهو. باختصار، تحول المنزل إلى مسرح وكنا نحن المشهد، أما النظّارة المحجبات فكنّ يثرثرن ويضحكن ضحكات خفيضة. تظهر رؤوسهن وتختفي فجأة كما لو أنها تحلق بعيداً في الفضاء. كل حركة من حركاتنا تسبب همهمة مكتومة، وفي كل مرة يرفع أحدنا رأسه تحدث جلبة واضطراب في الصفوف الأولى خلف الحاجز. كان من الواضح أن النسوة على السطح يستمتعن كثيراً، ويجمعن مادة خام تكفي أحاديثهن لمدة شهر، ويجدن صعوبة في كبح جماح أنفسهن عن الفرح والبهجة لوجودهن بشكل غير متوقع أمام مشهد ممتع وغريب وفريد. كنا راضين ونحن نقوم بهذا الدور لمدة تقرب من الساعة، وان خيم علينا الصمت والضجر، وهما أثران يولدهما البقاء لبضع الوقت داخل أي من بيوت المغاربة المسلمين مهما أظهروا من كرم الضيافة! [٦]

هنالك إحساس خاص يثيره الصمت- شعور بأن الحياة تصطخب هناك خلف البيوت المغلقة والنوافذ الضيقة المسدودة بقضبان الحديد. عبر الجدران يمكن سماع همهمات نساء يغنين أغنيات حزينة أو يتجادلن، وأحياناً يمكن أن ترى من خلال باب بيت مفتوح جماعة من النساء المسلمات البدينات، يتربعن في فنائه ويبدون بمظهرهن الخليع ووجوههن المطلية بالألوان كالأوثان البربرية. وكلما تجولت في المدينة، درباً بعد درب، ودرجاً بعد درج، وركناً بعد ركن، تجد النساء بحجابهن الأبيض يرمين عليك نظرة فاسقة ومليئة بالسخرية في آن واحد. [٧]

البيوت مرمّية على طول الشاطئ، متلاصقة، واحد بجوار الآخر، والأسطح مبعثرة بدون انتظام، لكن متصلة ومنبسطة وبلون رمال الصحراء. لا يوجد أشجار ولا بقعة خضراء داخل المدينة. النوافذ العديدة مجرد كوى بسيطة مغطاة بالقضبان الحديدية والمصاريع الخشبية،

---

٦ - "ادموندو دو اميتشي": "المغرب" (بدون تاريخ)، ص ٣١٧-٣١٨.

٧ - "الجزائر المعاصرة"، ١٨٩٣، ص ٢٨.

تطل من الجدران ومن خلف الشرفات الضيقة كعيون عمياء لا ترى شيئاً ولا تقدم أي دليل على الحياة المصطخبة خلفها. هذا هو الانطباع الأول الذي يسيطر عليك في مدينة "بوشهر"- حتى قبل أن تطأ قدمك الأراضي الإيرانية. وكمن يناطح جداراً صلداً، تجد نفسك في البداية في حيرة أمام السرية المطلقة للمدينة التي تعيدك دوماً إلى حيث بدأت، وكأنها تصرخ بأعلى صوتها بأنها لن تخبرك شيئاً، وان كل ما فيها مخبأ وتحت الحراسة، وأنك غريب ولن تستطيع الدخول إلى أعماق قلبها وأفكارها. كل شيءمحفوظ وصامت وفي حرز حصين كالمرأة الفارسية بحجابها الذي يغطيها بإحكام.[8]

عند هبوط الظلام، تخرج أحياناً بعض النساء من الأبواب الضيقة المفتوحة في جدران البيوت. يعبرن الشارع بسرعة خاطفة كالأشباح.أحياناً يكن بمفردهن، وأحياناً أخرى يصطحبن فتيات صغيرات من أسرتهن، أو عبداً سودانياً أبنوسي البشرة. ويقفن في جماعات بعيداً عن الرجال، بلباس ينسجم لونه مع ظلمة الليل الحالكة. يبدو المنظر رومانسياً. بعضهن ينزعن النقاب في عتمة الغسق ليظهر من خلفه سحرهن. لكن ما أن تتملكك الدهشة حتى يُسدل النقاب مجدداً. نظرت بطرف عيني وبدا لي أن كل امرأة أراها تلقي عيناها البراقتان الواسعتان نظرة جريئة وجسورة نحوي من خلف النقاب .. نظرة امرأة تعرف أن بإمكانها أن ترى دون أن تُرى. لقد شعرت دوماً أن هناك شيئاً غريباً يلف هذه العيون الواسعة الكئيبة. فقد كانت دائماً سوداء ودائماً لامعة. عيون واسعة، حالمة، شهوانية لا تطرف، تملأ المرء بفضول متقد لمعرفة ما الذي تفكر فيه صاحباتها.[9]

ما إن تنعطف خارجاً من الشارع العام في الحي الفرنسي حتى تجد نفسك فجأة في الشرق، حتى قبل أن تتلاشى تقريباً الأصوات المألوفة للحياة الغربية التي تركتها قبل لحظات. يبدأ المرء صعود هذه الأزقة الملتوية -هي في الواقع أدراج أكثر منها أزقة- بإحساس

[8] - "اف . بي . برادلي- بيرت": "عبر بلاد فارس"، ١٩٠٩، ص٢٤-٢٥.

[9] - "جون فوستر فريزر": "بلاد النساء المحجبات"، ١٩١١، ص ٧٥-٧٦.

من يقتحم عالماً آخر. الدروب المتعرجة تحدّها أطراف البيوت التي لا تبدو أنها تحمل أياً من صفات المساكن الآدمية. فنوافذها عبارة عن شقوق في الجدران، مغطاة بالقضبان الحديدية ولا يمكن الوصول إليها، وكذلك الأبواب المنخفضة المخبأة في الزوايا الظليلة. أحياناً تلامس هذه البيوت بعضها البعض مشكلة قنطرة فوق الأزقة التي تشبه السلالم. أو معبراً يذكر بمدخل الزنزانات، يفضي إلى فسحة تضم السوق، حيث تعرض للبيع سلع يحار المرء في معرفة فوائد استخدامها. يجلس التجار كالمومياوات وسط بضائعهم المتنوعة: خيوط من "قرون" الفلفل والسمك المجفف معلقة جنباً إلى جنب مع الأثواب الحريرية والأحذية المطرزة، بينما تتكوم على الأرض أكياس الحِنّة، التي تستعمل في طلاء الأقدام والأصابع الرشيقة، محاطة بقطع اللحم وتيجان مضفورة من أزهار البرتقال. تفوح من جميع أنحاء الشارع رائحة عطور الشرق الحارة التي لا يمكن وصفها – رائحة مخلفات عضوية متعفنة ممتزجة بأريج الأزهار وعبيرها! أشكال بشرية لا يمكن تحديد معالمها، تماماً كالمباني التي تسكنها، تذرع المكان جيئة وذهاباً حول هذه البضائع الغريبة التي تلبي معظم حاجاتها المحدودة. لها عيون واسعة مكحولة تنفذ نظراتها عبر النقاب الأبيض الذي يغطي الوجه كما يغطي كأس الزهرة الزهرة، يساومن لشراء الأشياء التي رغبن بها بأصوات تشبه تغريد البلابل....

وهكذا، على دروب المتاهة تلك يمكن أن تقابل كل ما يجسده الفقر من قذارة وأسمال باليه. والفقر هنا لا يستدعي حزناً ولا يعتبر عيباً، فمعيار الرفاهية مختلف في الشرق، واسباب الترف التي نسعى إليها تُزدرى فيه.

ذاك الرجل الذي يرتدي "برنساً" رثاً ويدل مظهره على فاقته الشديدة، قد يخبئ ثروة خلف بابه العتيق الذي يغلقه وراءه كباب السجن. وهذه الجدران المحرَّمة تحتجز داخلها اللغزين الغامضين للشرق – نساءه وثراءه، كلاهما يُحرسان بيقظة شديدة بعيداً عن عيون الغرباء، وكلاهما يشكلان مدلول لفظة "مدفون"! لأن المغربي المسلم لا يُفشي أبداً الأسرار المتعلقة بحجم أو نوعية ممتلكاته.[١٠]؟

"روي ديفرو": "جوانب من الحياة في الجزائر"، ١٩١٢، ص ٦-٨

كما لدمشق. حين ترى من بعيد، سحرها الذي يخترق النفس بقوة وعنف رغم أن فيه رقة ورومانسية، كذلك لبلده "جنين" الصغيرة سحرها لكن بطريقتها الخاصة المتميزة. مئذنتها الصغيرة وقبابها، وأسطحها المنبسطة المطلة على الأشجار. نظرت إليها طويلاً ذلك اليوم حتى خيم الظلام، ولم أتوقف عن الإحساس بأنها تدعوني هامسة بصوت كصوت تلك المخلوقات الاسطورية التي كانت تغوي البحارة تهلكهم: تعال! سأريك كم أنا رومانسية، ففي دروبي العجيبة يكمن السحر، وبين ظلالي، حيث تنحدر الينابيع، يرقد الجمال متخفياً.[11]

في حين أن سلاسل الجبال التي تحمي وادي الأردن والبحر الميت قاسية ورهيبة وموحشة بسبب طبيعتها الجرداء، تبدو جبال "المؤاب" دائماً وكأنها تحتفظ لنفسها بكيان منفصل أخاذ. مع أنها بادية للعيان بوضوح، إلا أن غلالة رقيقة تبدو وكأنها تلتف حولها لتظهر من خلالها في شكل متحفظ نبيل يدل على نقاء عجيب ووقار مهيب يمكن لها أن تُعبد من أجلها حقاً، لكن يجب أن لا نقترب منها كثيراً. ورغم كل هذه المهابة والجلال هنالك تألق رومانسي مؤثر في منظرها، ولا توجد جبال تعادل في رومانسيتها جبال "المؤاب" المتعرجة، ولا يوجد غموض يماثل غموضها، حيث تنتصب هناك مشرفة على البحر الميت قرب تخوم الأرض، التي "قادهم إليها". ومن وراء تلال "يهودا" الزرقاء تغرب الشمس، ويخبو آخر شعاع منعكس من مياه نبع "أليش"، في حين تبهت لون السحابة الخضراء المتصاعدة من الواحات المتداخلة وتتحول إلى ظلال داكنة تمتزج فيها الألوان الرمادية والبنية والسوداء، وتتلاشى الألوان الزاهية للأزاهير، وتعود أشجار السرو إلى رشدها، فقد بدأت جبال المؤاب بالتقهقر متراجعة، وهي تلف ببطء غلالتها من حولها، إلى منطقة أخرى لم يعرفها إنسان، تقع ما وراء أصواتنا وخطواتنا، لكن لهفتنا الغامضة تظل تشدنا إليها أبداً.[12]

[11] – "روبرت هيتشنز": "الأراضي المقدسة"، ١٩١٣، ص ١٤٤.

[12] – "روبرت هيتشنز": "الأراضي المقدسة"، ١٩١٣، ص ١٩٤–١٩٥.

الفقرات الأربعة الأخيرة من هذا الفصل كتبت كلها بواسطة النساء. "غيرترودبل"، في الفقرة المقتبسة من عمل مبكر لها (نشر عام ١٨٩٤)، لاتزال رومانسية الشرق تملأ كيانها، وهي هنا تشبهه بالمرأة المحجبة العابثة. "هيلين غوردون" سافرت برفقة صديقتها "ليزيت" إلى الجزائر عام ١٩١٢، وما كتبته هنا يمثل ردود الفعل الأولى على الجزائريين، فقد أصابتها الطرقات المسدودة والجدران الصماء بالاحباط، وحين أبصرت النوافذ المغلقة عرفت معنى ما أسمته "بالنظرة الجوفاء"، وكما سنرى لاحقاً، لم تكن الكاتبة الوحيدة التي عزت "انعدام الرؤية" إلى النساء القابعات خلف النقاب المسدل والنوافذ المغلقة. "لوسي مارغريت" التي كتبت فقرتها عام ١٩٣٧، كانت أكثر صراحة في تسجيل ردود فعلها على تحولها في الشرق من مراقِبة إلى مراقَبة. في حين أن "كوليت" تلاعبت باللغة وحاولت التوصل إلى تفاهم مع الحياة خلف جدران "السجن". لقد خابت توقعات الأوروبيين، ولم يكن سوى عدد قليل منهم على استعداد للقبول بالحقيقة التي تؤكد بأن بشراً عاديين من لحم ودم يعيشون في الشرق حياة يومية عادية. وعندما لم يجد الرحالة ما يبحثون عنه، سارعوا للتعبير عن خيبة أملهم بطريقة خشنة وفظة.

الشرق حافل بالأسرار ولا أحد يعرف أهميتها أكثر من الشرقيين أنفسهم. ولأنه متخم بالأسرار الغامضة فهو مليء بالمفاجئات المدهشة. العديد من الأشياء الجميلة هناك تظهر على السطح: اشراقة اللون، وسناء الضوء، وكآبة العزلة والتوحد، وصخب الحياة وحركتها. تلك هي نماذج مما كان يطفو على سطح الحياة الشرقية قبل أن تأخذ نمطها الانعزالي الحالي: لكن سحر الشرق في جوهره ذو طبيعة أكثر دهاء. فهو يومض أمامك من خلال مدخل مفتوح في جدار بيت أصم خال من النوافذ، قد تمر به في الشارع، أو من تحت حجاب متسولة تزدري غرورك، أو من العيون الداكنة اللون لطفل ينظر إليك باحتقار، عندها يصبح الشرق امرأة تكشف خمارها وتبرز فوراً جواهرها أمام عينيك المبهورتين، ثم تختفي مرة أخرى مثلما

ظهرت وعلى محياها طيف ابتسامة تهزأ بذهولك. يبدو لك للحظة أنك تنظر إليها وجها لوجه، وما أن تبدأ التساؤل حول ما إذا كانت ملاكاً أو شيطاناً حتى تختفي من أمامك، فهي لا تستطيع الانتظار لأنها مغرمة بالمفاجئات، ولسوف تحتفظ بأسرارها الغامضة وسحرها المعذب لعشاقها. وعندما تظن بأنك أمسكت أخيراً ببعض من جمال الشرق وحسنه المراوغ، يعيدك من حيث بدأت مع الشخوص المحجبة وواجهات المنازل الصماء![13]

بعد أن أخذنا قسطاً من الراحة بدأنا استكشاف المدينة، فقد أذهلتني منذ البداية وتركتني في حالة من الحيرة والارتباك. الأزقة الضيقة وجدت أصلاً للوصول إلى البيوت المتجمعة في كتلة كبيرة من الأبنية دون نظام أو معنى. في كثير من الأحيان كنا نختار زقاقاً نتوقع منه شيئاً لنجد بعد قليل أنه مسدود بباب مسكن خاص، أو بجدار أصم. ما الذي يكمن هناك؟ نلقي أحياناً نظرة على نافذة صغيرة مغلقة بقضبان الحديد ويعود بصرنا حاسراً فالنافذة خالية لا حياة فيها، لكننا في أحيان أخرى نكافأ برؤية ساعد يزينه سوار، أو وجه نصف منقب يختفي بسرعة عن نظرنا.[14]

تحت قناطر "جادة فرنسا" (في تونس) تدخل النساء المحجبات من العامة الحوانيت، ولا أدري لم اشعر أمام هؤلاء اللاتي يلففن الحجاب من قمة الرأس حتى أخمص القدم، بعيونهن التي لا تُرى ولكنها دائماً تَرى ، لا أدري لم أشعر بأنني عارية.[15]

هاهي الأزقة السرية في (مدينة) فاس. السرية؟ ربما يكمن السر الحقيقي في أنها لا تخفي شيئاً وكل ما يبدو لك أنها تخبئه يغريك: الجدران العالية بلون الصلصال الوردي؛ الأبواب المغلقة التي علقت عليها مطرقتان صغيرتان (واحدة في مستوى الراكب، والأخرى في مستوى

---

[13] – "غيرترود بل": "صور فارسية"، ١٩٢٨ (ط١٠ ١٨٩٤)، ص ٣٤-٣٥.

[14] – "هيلين. سي. غوردون": "امرأة في الصحراء"، ١٩١٥، ص ٧.

[15] – "لوسي بول مارغريت": "التونسيات"، ١٩٣٧، ص ٦٧.

الراجل) لقرع الباب بالطرق على لـوح حديـدي مسـمر عليـه؛ البسـاتين المسيجة كالسـجون، بجمالها وروعتها والتي صممت بطريقة لا تمكـن أحـداً مـن الوصـول إليهـا، تزهـو بالأزهـار والأشجار بأوراقها اللامعة. لكن في كل مرة يُفتح واحدٌ من الأبواب نُصاب بخيبة الأمل: طفـل كئيب صامت يسيل أنفه، يحدّق في شيء ما؛ أو امرأة خضّبت قدميها بالحناء تغسل الثيـاب؛ أو حمار طالت معاناته، يقف وسط برازه ولسان حاله يقول: "سأحتمل مزيداً من الألم.. جزءاً يسيراً فقط".[١٦]

[١٦] - "كوليت": "ملاحظات مغربية"، ١٩٥٨، ص ٤٤-٤٥.

الموت يخرج للنزهة

الأماني المحطمة والآمال الخائبة تظهر بسرعة حين يكون الأمر متعلقاً بالنساء، فقد اهتمت كتابات الرحالة بتسجيل حالتهم الذهنية أكثر من أي شيء آخر. عنوان هذا الفصل مأخوذ من "غي دو موباسان" الذي طاف شمال أفريقيا في نهاية القرن الماضي. وعند وصوله إلى القيروان في قلب الصحراء هطلت أمطار غزيرة، وهو هنا ينظر إلى المدينة وهي تنفض عنها رذاذ المطر:

كم هي حزينة هذه المدينة الضائعة وسط الصحراء، في هذه البقعة القاحلة، المهجورة، المنعزلة. في الشوارع الضيقة الملتوية كان العرب يراقبوننا ونحن نعبرها، وعندما كنا نقابل امرأة، تسير كالشبح الأسود بين الجدران التي حوّل المطر لونها إلى الأصفر، كانت تبدو وكأنها الموت خارجاً في نزهة.[1]

استخدمت صور الأشباح والموت بوفرة عند الكتابة عن النساء اللاتي يمشين في الشوارع، وبما أن المقابر كانت مكاناً تجتمع فيه أحياناً جماعات من النساء لزيارة قريب دُفن هناك، فقد استخدمت هذه الصورة بكثرة أيضاً. كما صورت النساء حين يلفهن الحجاب بلونيه

[1] - "حياة الترحال"، ١٨٩٠، ص ٢٠٤.

الأسود أو الأبيض كمخلوقات خاملة عديمة الأهمية، تفتقد إلى الوجود الحقيقي وفي حالة الاستسلام التام، وأحياناً قدّمت كمخلوقات خفية نوعاً ما بسبب عدم إمكانية رؤيتهن دوماً. وبهذه الطريقة جُردت المرآة من إنسانيتها وحرمت من شخصيتها وفاعليتها.

النساء في هذه الكتابات كن أسلاف نساء "مايكل أشر" اللاتي رآهن "بأقنعة تشبه وجوه مصاصي الدماء" في شوارع لندن!

... الساحة التي تطل عليها نافذتي مفتوحة من أحد جوانبها، وهي تظهر المشهد الذي سأتحدث عنه، فهي مكتظة بتشكيلة مذهلة من أكثر الأزياء تألقاً. ثياب المغاربة واليهود بألوانها المبهرة تختلط ببزات الجنود الفرنسيين المتعددة الألوان والأشكال. في حين أن مجمع الألوان الصارخة هذه يخفف من حدته بساطة "البرنس" العربي، والحجاب الأبيض الحزين الذي ترتديه المغربيات اللواتي يبدون به وكأنهن مدفونات في الحياة وعلى أجسادهن ثياب القبر! نعم، القبر الذي لا تشعر فيه الأرواح الهائمة المعذبة بهيئتها الباليه بنفس القدر من الوحشة واليأس اللذين يسيطران على هؤلاء النساء، على الأقل من وجهة نظر رجل إنكليزي غريب!.[٢]

... وأخيراً لاحت المغربيات الجميلات يلفهن الثوب الأبيض.. ولولا أن بريق العيون الساحرة لا يمكن أن يخفيه نقاب، لبدون كالأشباح تماماً. كن يخطرن جيئة وذهاباً بصمت وغموض بين حشد من الناس لكن دون أن يشاركن في أي من أمورهم.[٣]

... ومن خلفهم – هل هي مومياء أم شبح؟– ظهرت سيدة مغربية تجر قدميها جراً،

---

[٢] – "جورج مكدونالد": "مريض في شتاء الجزائر"، ١٨٦٤، ص ٧٩٤.

[٣] – "القس . أي . و . ال . دافيس": الجزائر عام ١٨٥٧، ١٨٥٨، ص ٧٧–٧٨.

بثوبها الهزلي البشع الذي يتألف من بنطال أبيض طويل يصل إلى الكاحل وشال أبيض من القطن والحرير المنسوج يلتف حولها، مشكلين معاً غطاء للرأس وعباءة في آن واحد.[4]

في بستان ظليل خارج البلدة، مدّ رجل ذو لحية طويلة وملامح معبرة، سجادة على الأرض بكل هدوء وجدية؛ كان رأسه مغطى بقطعة كبيرة ملتفة من القماش ، العمامة؛ جسمه ذو البشرة البرونزية بلونها البني الغامق، يلفه رداء فضفاض بأكمام واسعة يصل حتى القدمين. خلع الرجل نعليه الحمراوين، ووقف على السجادة بهدوء وخشوع، بعد أن توجه نحو الجنوب – الشرقي حسب السنة الثابتة ثم سجد أمام ا لله تعالى. وفي مكان آخر جلس واحد من "أولاد البلد" متربعاً في حالة من التأمل يدخن "الجوزه" ويشرب القهوة منتشياً، وانسل قرب الجدران أمامنا مخلوق يشبه الشبح مغطى من قمة الرأس حتى القدمين – اللتين لا يظهر سواهما – بعباءة تهدلت طياتها العديدة؛ أُخبرنا بأن المخلوق واحد من أفراد "الجنس اللطيف![5]

ما زلنا نسير صعداً. نحن الآن في الظلال الرطيبة للحي العجيب الذي يسكنه الأهالي المحليون. ياللرجال والنساء الذين نراهم في الشوارع! زنجيات تلفهن من الرأس إلى القدم أثواب ذات مربعات زرقاء وبيضاء كبيرة، يخطرن بأحمال ثقيلة على رؤوسهن وقد دفعن سواعدهن قليلاً خلف أجسادهن كي تتوازن؛ ونساء مغربيات كالأشباح يغطين وجوههن بالمناديل وتضيع أجسادهن داخل السراويل القطنية الضخمة، ويلفهن "الحيْك" الأبيض الفضفاض الذي تشده أيديهن المخفية تحته إلى الصدر وكأنهن في حفلة تنكرية، يمشين بهدوء متسللات قرب الجدران البيضاء كالأطياف : شبح أبيض أمام حائط أبيض!.[6]

---

٤ – موريسبرنارد:من الجزائر الى طنجة،(بدون تاريخ) ص ٣٧-٣٨

٥ – "سي . بي . كلونزنغر": "مصر العليا : سكانها ومنتجاتها"، ١٨٧٨ ، ص ٢-٣.

٦ – "موريس برنارد": "من الجزائر إلى طنجة" ، (بدون تاريخ) ص ٣٧-٣٨ .

ومن أجل تكملة كآبة الصورة ، تبدو النساء - ازاهير جماهيرنا !- في فارس كأشباح سوداء لا شكل لها، يتسللن بصمت في ظل الجدران ...ووسط زحمة الناس، هنالك عدد من الأشباح السوداء. نعم، هؤلاء هن بنات حواء، أو على الأقل بعضهن اللاتي رفعن قليلاً النقاب الأبيض الذي يغطي وجوههن كي يراقبن المشهد. لكن لم تعرف مخيلتي مخلوقات بهذا الشكل المشوه الذي يشبه منظر سطح الأرض في اليوم الأول من خلقها![٧]

الألوان الزاهية لا تعرفها النساء في فارس، إذ يرتدين، وهن يزحفن خلسة عبر الدروب الفرعية، ثوباً طويلاً أسود يشبه الكفن يغطيهن من الرأس إلى القدم، ويلتف بإحكام حولهن ولا يوجد فيه أي منفذ ما عدا رقعة من الشاش الأبيض أمام العينين، كما أنه لا يكشف شيئاً من الجسد خلفه سوى قدمين في "جزمة" بشعة بلون أصفر فاتح. ولا يمكن لأشد الأزواج غيرة أن يبتكر زياً أكثر منه بشاعة وغلظة.

ما من غريب نظر إلى امرأة فارسية ورأى ذلك الجمال الذي تبالغ في وصفه القصائد الشعرية والقصص الرومانسية مدعية بأن الجمال والسحر يختبئان خلف هذا الحجاب المسدل بإحكام!.[٨]

غدت مقارنة النساء المحجبات بالموت والأشباح أمراً مبتذلاً إلى حد تطلب إيجاد صور أخرى لجلب اهتمام القارئ أو الناشر. وكان على الكتاب أن يبحثوا في مخيلتهم، أو في كتب الرحلات الأخرى، عن تشبيه أكثر بلاغة ينتج لغة قادرة على التحقير والازدراء بشكل غير مألوف من قبل. "ريتشارد بيرتون"، مثلاً، لم يكن سائحاً عادياً، لكن المقتطفات التالية من تقرير له عن رحلة حج قام بها عام ١٨٥٢ توضح إلى حد بعيد موقفه من النساء عموماً ،ومن الشرقيات على وجه التحديد.

---

[٧] - "اوستاش دو لوري و دوغلاس سلادن": "غرائب بلاد فارس"، ١٩٠٧، ص ٢-٣.

[٨] - "اف . بي . برادلي . بيرت" :"عبر بلاد فارس" ، ١٩٠٩، ص ٤٢.

السكنى في غرف تواجه هؤلاء الجـواري، ورؤيتهـن طـوال الوقـت في الليـل والنهـار، أعطياني فرصاً متكررة لدراستهن. فقد كن عينة عادية لسلالة حبشية من ذوات العجيزة الدهنيـة، الـتي تتصـف بالأكتـاف العريضـة، والكشح الضـامر، والأطـراف الدقيقـة، والأوراك الضخمة. لم يكن في ملامحهن أي جمـال، مـا عـدا الخصلات الأخـيرة الظاهرة لشعرهن الأجعد المختفي تحت المنديل، وهنالك شيء من الحُسن في الحواجب، والعيـون، والجزء الأعلى من الأنف، وشيء من القسوة والشهوانية في الشفاه المتدلية والفك الأسفل الكبير والفم البارز، وإجمالاً ففيهن مزيج مـن الفتنـة والعذوبـة والحـدة، ولهـن طريقة مميزة في المغازلة.[٩]

بعد أن ترجلّنا، وضعنا الرواحل في عهدة جماعة من الصبية للاعتناء بها، وكان هـؤلاء مـن أولاد المزارعـين القرويـين، ومـا إن وقـع بصرهـم علينـا حتـى صرخـوا "بخشـيش، بخشيش!" بعد أن حثتهم أمهاتهم علـى ذلـك. أعطيتهـم راضيـاً بضـع "بـارات" بهـدف إقامة علاقة مع مخلوقات انتمي وإياها إلى نفس الجنس، وان كانت تشبه بشـكل مرعـب وعجيب قرود البابون عديمة الذنب!!!.

كانت الأمهات أسلافاً تلائم تلك الذرية: الجسد الطويـل النحيـف بأطرافـه الهزيلـة، وأكتافه المرتفعـة، والظهـر المسـتقيم، والأثـداء المتهدلـة، والسـواعد الـتي تشـبه أرجـل العنكبوت، والأقدام المسحاء. خصلات الشعر الطويل المتشابكة، والوجه المتغضـن، وعظـم الوجنة الناتئ، والشفاه الداكنة، والعيون ذات النظرة الجوفاء الـتي تلمـع وكأنهـا تريـد التأكيد على البشاعة المحيطة، والصوت الذي يزعق وكأنه في نوبـة مـن الغضب الدائـم. حوريـات جهنـم هـؤلاء كـن يرتديـن أثوابـاً طويلـة ذات لـون أزرق لإخفـاء حاجتـــها إلى التنظيف.

٩ – "السير ريتشارد. اف. بيرتون":"سرد شخصي لرحلة حج إلى مكة والمدينة"، ١٩٠٧(ط.١، ١٨٠٥) الجزء الأول ص ٥٩.

أما الأطفال القذرون فقد كانوا يلفون ذراعاً من نفس القماش حول خصورهم.... [10]

لم يكن بيرتون الكاتب الوحيد الذي صور النساء كحيوانات والشواهد التالية تستخدم صور الخيول والبط والغوريلات والنمل وحتى الأرانبّ! ! أضفت هنا الفقرة التي كتبها "كولين ثوبرون" عام ١٩٦٧ لأنه يعيد مرة أخرى الصورة التي تشبه النساء بالبط!

الحليُّ الشخصي الذي تتزين به نساء الطبقة الأرستقراطية (في مصر) رائع وأنيق جداً. لكن لا شيء يعادل المنظر المقزز للنساء الفقيرات في الشوارع العامة. فبالإضافة إلى الأسمال البالية التي يرتدينها يضعن قناعاً من قماش أبيض يتدلى من الأنف يشبه في مادته ولونه القلادات التي توضع على أعناق خيول عربات الأجرة أحياناً في لندن!. [11]

الأزياء التي ترتديها السيدات في الشرق عموماً عند ركوب الدواب هي بالتأكيد أكثر الأزياء التي نعرفها بشاعة. فالسيدة الشرقية تركب بطريقة الرجال(تضع رجلاً في كل جانب). تلفها العباءة القطنية الزرقاء بطياتها الواسعة وقد أخفت وجهها (طبقاً لأوامر القرآن الصارمة) خلف قناع أسود أو أبيض، وحشرت قدميها في جزمة واسعة صفراء، حُشرت بدورها داخل خفين بنفس اللون، وتبدو ركبتاها في مستوى ذقنها تقريباً وهي تمسك بالشعر القصير لرقبة البغل الذي تمطيه- فالسيدة الشرقية تشكل أكثر المناظر التي يمكن أن نتخيلها غرابة وخشونة. ولا يكون مظهرها أفضل كثيراً حين تكون راجلة. لأنها، بسبب الجزمة البشعة والخفين تضطر لأن تمشي متدحرجة كمن يزحف بطريقة خرقاء تذكر الناظر قسراً بالبطة التي تتهادى نحو بركة الماء، أو بكومة من الثياب فوق طوالتين سميكتين لكن قصيرتين.

---

[10] - "السير ريتشارد بيرتون": "سرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة"، ١٩٠٧، (ط١٠، ١٨٥٥) الجزء الأول، ص٤٠٦-٤٠٧.

[11] - "تي . آر . جوليف": "رسائل من مصر"، ١٨٥٤، الجزء الثاني، ص ٩.

ولتكملة الصورة، يجب أن يترك الأمر لأولئك السيدات الأوروبيات اللاتي حالفهن الحظ ونجحن في الدخول إلى عالم الحريم الخاص، وذلك لمعرفة ما إذا كان حديث ونغم "زميلاتهن" المسلمات أكثر رقة وجمالاً من مظهرهن الخارجي؛ فالجمال كثيراً ما يختفي خلف واجهة بغيضة. لكن إذا كنا سنحكم على الجنس اللطيف في البلاد الإسلامية من خلال المسيحيات المقيمات هناك فاني أخشى ألا يكون الحكم مرضياً.[١٢]

تعاني قبائل هذه المنطقة وتلك التي تسكن منطقة "وهران" من الفقر. وفي كل سنة يبذل الكثير من الجهود في الجزائر من أجل أفراد هذه القبائل عن طريق الأسواق الخيرية وجمع التبرعات. ومع ذلك فالتسول يزداد بصورة خطيرة، ربما بسبب أن هؤلاء التعساء البائسين قد بدأوا يعرفون بأنهم لن يتُركوا ليموتوا جوعاً. كانت هناك امرأة تمضغ كسرة خبز وسط هذا الحشد البغيض. كان منظرها مؤلماً، فهي تقترب في بشاعة ملامحها من النوع المعروف من الغوريلا: الوجه العريض المسطح، الخالي من أي دليل على الذكاء.ولم تعرف نساء القبائل "التطور" إلا من الناحية الجنسية الشهوانية، واللمحة الإنسانية الوحيدة في وجوههن تأتي من العينين.

لقد تحولت في الحال إلى واحد من المؤمنين بنظرية "داروين"![١٣]

"سوق الصوف" أصابني بشيء من خيبة الأمل، إذ أن الدمقس (الدامسكو) الذي أخذ اسمه في الماضي من دمشق، أصبح ما يعرض منه هناك الآن يأتي من مانشستر.

هذا السوق الذي يبدو وكأنه "محلات لافاييت" دمشق، مزدحم بالنساء المحليات، يسرن فيه بعجلة من أمرهن كالنحل في خلية مضطربة. منظرهن يؤكد أن ولع النساء الشديد بالتسوق هو نفسه عند المتخلفات حضارياً كما هو عند أكثرهن حضارة ورقياً. بعض النسوة ينقبن

---

[١٢] - "ويليام كينيث لوفتوس": "رحلات وابحاث"، ١٨٥٧، ص ٦٨-٦٩.

[١٣] - "المحترم. لويس وينغفيلد": "تحت أشجار النخيل في الجزائر وتونس"، ١٨٦٨، الجزء الثاني، ص ١٨٤-١٨٥.

بشغف بين بالات القطن كما تفعل الدجاجات حين يكتشفن مرعى جديداً. البعض الآخر يقلب بين الأنسجة والأقمشة بسرعة كمن يبحث عن فأر. ومن ناحية المساومة أثناء الشراء فالسيدة المسلمة يعيقها الحجاب، فهو يخفف من حدة كلامها وبنفس الوقت يضبط نبرة صوتها العالية. حسبت في البداية إن احداهن، وكانت ترتجف وترتعش كالشخوص في السينما الصامتة وتزعق بصوت حاد، قد طعنها البائع بسكين، لكن الترجمان أكد لي بأنها كانت فقط ترفض دفع ما يعادل قرش من الحساب. وكانت تقسم با لله ببساطة (واسمه منزه في الإسلام) حول أحقيتها بتخفيض ذلك المقدار من الحساب.[١٤]

أن أكثر المناظر غرابة، وبالنسبة لي أكثرها إثارة للشفقة في تلك النزهة، هو منظر النسوة المسكينات اللاتي كنا نصادفهن من وقت لآخر. فقد كانت تلفهن من الرأس إلى القدم "مِلْحَفَة" صفراء شاحبة تشبه الكيس. ولو كان هناك انشوطتان منتصبتان فوق الرأس، لكان التشابه مع الأرانب تاماً، خصوصاً وأن حركاتهن تعيقها طيات الثوب الطويل الذي لا يجرؤن افتراضياً على رفعه فوق أقدامهن، حتى في الحالة التي يضطررن فيها للسير بسرعة...المحيط الذي أعيش فيه الآن لا يدع مجالاً للشك بأن التقاليد الاجتماعية تمسك هؤلاء الأرانب المساكين بقبضة من حديد.

فافا و نانا وشاشا وحنّه هي أنسب الأسماء لنساء تعودن الانحناء بذلّ والاختباء في أي ركن منعزل، والوثوب بسرعة وعصبية عبر المداخل والزوايا؛ نساء قبلن كرهاً أن يمشين بعجلة في الشارع، وجوههن إلى الحائط وظهورهن لنا، لا يبالي ولا يهتم بهن أحد. وكما كان الأمر مثيراً للشفقة والحزن فهو مثير للسخرية أيضاً، إلى حد لم أستطع فيه أن أمسك نفسي عن ابداء بعض التعليقات على هذا السلوك الغريب والسخيف، وكان الرد حاداً وجاداً: "بالطبع يخفين أنفسهن، فهن خجولات!"[١٥]

---

[١٤] - "سير فريدريك تريفيس": "الأرض المهجورة" ، ١٩١٣، ص ٢٣٤-٢٣٥.

[١٥] - "هيلين . سي . غوردون": "امرأة في الصحراء"، ١٩١٥، ص ١٥٩-١٦٠،١٦٣.

هنالك امرأة تسير متخفية تحت إزار يلفها بالكامل، وحين تمشي بقدميها المفلطحتين وسروالها الفضفاض، فان منظر جزمتها الصفراء يزيدها شبهاً بمنظر بطة هائلة الحجم. وتحت الإزار هنالك نقاب ذو حواف ذهبية يتدلى من أسفل عينيها. وفي أحيان أخرى ترتدي حجاباً يشبه الكفن، قماشه مطبوع برسوم الأزهار، لا يزال يستعمل حتى الآن في الجزيرة العربية والقدس القديمة.[١٦]

الفقرتان التاليتان (كتبتا عام ١٨٨٨) تشبّهان النساء المصريات بالمناطيد. وفي الفقرة الثالثة يستخدم "جون فوستر فريزر" كل ما تقع عليه يداه من ذم وقدح وتقريع للإساءه إلى النساء المسلمات واليهوديات في تونس.

هنا يمكن رؤية جميع ألوان الطبيعة في كل تشكيلة من الأزياء الشرقية. رجال في أثواب فضفاضة من أكثر الألوان هدوءاً وتناسقاً، يعتمرون الكوفية، أو العمامة البيضاء،أو الطربوش الأحمر. أما النساء هنا فيرتدين نقاباً أسود اللون يغطي كل الوجه ما عدا العينين، وثوباً قطنياً أسود أو كحلي اللون يستر كل الجسد. وهناك، أرى سيدة ترتدي نقاباً من "الموسلين" الأبيض، وتركب حماراً جميلاً أبيض يقوده خادم أنيق اللبس. لايشبه منظر تلك السيدة، بعباءتها الحريرية الفضفاضة التي رتبت بطريقة خاصة، شيئاً كما يشبه فقاعة هوائية ضخمة أو منطاداً مملوءاً بالهواء!.[١٧]

تمر الجمال أمامنا محملة بالبضائع الآتية من مكة والمغرب وهي تضع أخفافها بحذر شديد في الوحل على صيحات قائدها التحذيرية، في حين أن الحمير التي يقودها صبية صغار،

---

[١٦] - "كوليت ثوبرون": "مرايا لدمشق"، ١٩٨٦(ط١٠. ١٩٦٧) ص ١٤٠.

[١٧] - "القس تشارلز . دي . بل": "شتاء على نهر النيل"، ١٨٨٨، ص ٢١.

محملة بنساء كالمناطيد يجلسن متربعات على مقدمة السرج وقد انتشرت العباءة السوداء خلفهن كالشراع!.[18]

إن كنت مغرماً بالبدينات فتعال إلى تونس!

نساء بدينات حقاً، مكتنزات وقصيرات القامة يتمايلن ويتهادين، ولسن مجرد مائلات إلى السمنة. الرجل التونسي- مسلماً كان أم يهودياً- مغرم بالأجساد الضخمة. يحب زوجته أن تبدو كالمنطاد الذي ملئ عن آخره بالهواء؛ بدينة إلى درجة لا تقدر معها على المشي إلا دحرجة كالعرجاء.ولا يناسب التونسي النموذج الجرماني الانثوي ذي الخصر الضامر و القدّ النحيل. وأية اخصائية في التجميل ستودي بمؤسستها إلى الإفلاس إذا ما حاولت بيع مستحضرات مضادة للسمنة في تونس للتخفيف من حجم الأجساد الهائلة للتونسيات "المليحات" التي تشبه أجسام فيلة الماموث.

كما أن أي معرض جوال للبدانة، يأس القائمون عليه من العثور على ما يكفي من الأجساد الشحيمة لعرضها فيه، يمكن أن يذهبوا إلى تونس ويجدوا حمولة سفينة كاملة منها. لكن عليهم ألا يحملّوا كثيراً من التونسيات في سفينة واحدة لأنهن سيغرقنها حتماً! الفتاة التونسية نحيلة كغيرها من الفتيات، لكن ما إن تبلغ سن الزواج حتى تبدأ في التهام "الكسكس" وهي وجبة مغربية شعبية مليئة بالنشويات والدهون. وكلما كانت "فاطمة" أكثر سمنة وترهلاً، كانت أكثر اغراء وإغواء في عيون"حامد" .

والتونسي لا يحب المرأة المتعلمة، وكل فتاة رياضية تمارس لعبة الغولف أو الهوكي أو التنس تعتبر في نظره غير لائقة وغير محتشمة، وصحيح أنه يجب العيون الجميلة، لكنه يعشق الجسد الشحيم أيضاً. معظم المسلمات يسترن سحر وجوههن بنقاب أبيض رقيق يتدلى من تحت العينين مباشرة. والمرأة التونسية المسلمة تلف جسدها بالسواد، وكأن زوجها قد

---

[18] - "سي . اف . موبرلي بل": "من الفرعون إلى الفلاح"، ١٨٨٨، ص ٤٨-٤٩.

وضعها قبل أن تذهب إلى السوق في كيس أسود ثم شده بإحكام حتى انشق قرب الرأس كي تستطيع الرؤية من خلاله!.[19]

بعض الكتاب الآخرين عثروا مصادفة على فكرة تشبيه النساء بكومة من الثياب المتحركة، حيث تظهر معها أحياناً الأطراف كأعضاء غريبة منفصلة عن الجسد. واعتبرت الثياب أحياناً "حاويات" "تختزن داخلها القدرات العاطفية والعقلية والروحية". وهنا تحرم المرأة من كل شيء ما عدا تلك الثياب التي تشبه "الحاوية" . "سي.بي.كلونزنغر" طاف أرجاء بلدة في مصر العليا وشّبه النساء "ببذات من الثياب المتجولة" وادعى سماع "صوت أنثوي خفي صادر من أحد المنازل" . أما "سلفاتور أبونتي" فقد خجل من الاعتراف بأن تجربته الشخصية لم تسمح له بتأكيد القول بأن نساء "صنعاء" جميلات وممتعات، وعوضاً عن ذلك فقد كتب يقول: أحياناً ، وكما يحدث في عالم الرسوم المتحركة، تتجول كومة صغيرة من الثياب المتعددة الألوان بين السابلة من العرب، ثم يقول أحدهم تلك هي امرأة! هذا كل ما عندي حول الموضوع!

"ها هم "الحريم" يخرجن للتريض! منظرهن يشبه كومة من الأسمال المتحركة، وعيونهن الداكنة اللامعة هي الدليل الوحيد على انتمائهن إلى الجنس البشري، فيما عدا -ربما- شكل أرجلهن التي تظهر بوضوح عند هبوب الريح، حين يركبن الراحلة بطريقة أسيادهن من الرجال وكل شخص ذي أصل طيب وأخلاق فاضلة حريص على غض بصره حين يعبرن- فكم من المزايا يتمتع بها من به حَوَل في عينيه!؟."[20]

---

[19] - "جون فوستر فريزر": "أرض النساء المحجبات" ، ١٩١١، ص ١٨٨-١٨٩.

حالة أخرى من نفس النوع يمكن أن أصنع منها شيئاً لو كان عندي ميل للقصص الرومانسية. هذه المرة رأيت امرأة مغربية تشبه "بالة" من القطن، مزودة بعينين سوداوين في جزئها العلوي، وقد أبدت بعض الاهتمام بما أفعله. وإذا كنت أستطيع تقديمها كفتاة شابة وجميلة، افلتت من أسر "حريم" مغربي عجوز وقاس، وتتوسل بعينين واسعتين دامعتين طلباً لعطف رجل مسيحي، لو كنت أستطيع فعل ذلك، لكانت الحادثة مهمة، ولكان العنوان "فاطمة الضحية" مرضياً حين يكتب على رأس هذه الصفحة!

لكن الحقيقة تدفعني للقول بأنه لم يكن هناك شيء يسوغ ابتداع نظرية ممتعة من هذا القبيل، لا في تعبيرات وجه تلك السيدة، ولا في مظهرها. إذ لم أكتشف في نظرة "عينيها السوداوين الرقيقتين" أي تعبير خاص سوى فضول عادي باهت. واستطعت أن أعرف بأنها على الأقل في منتصف العمر، وكان أنفها، وهو الملمح الوحيد الذي أستطيع أن ابدي فيه رأياً، يظهر من خلال عصابة الموسلين التي ترتديها، وكأنه لفافة صغيرة من "السجق" موضوعة في قدر لسلقها!.[21]

خطونا الآن داخل زقاق ضيق معتم، والتوى الطريق والتف وكأنه يتبع في وجهته كل النقاط التي تشير إليها البوصلة. تجولنا في تلك المتاهة بلا خطّة مسبقة أو دليل وبدون خوف أيضاً، فقد كنا نحمل في جيوبنا المسدسات والخناجر، والناس الفقراء الذين يسكنون هنا ليس لديهم نزعة عدوانية كما هو الحال مع قطاع الطرق اليونانيين في الإسكندرية. بل هم على العكس من ذلك يشتبهون بوجود ميول عدائية لدينا، فقد كانوا يتراجعون بجبن أمامنا، في حين ينظر إلينا الأطفال الصغار بارتياب ورعب، ويهربون صارخين . بعد ذلك تشعب الطريق، واتجهنا إلى اليسار على سبيل التجربة. ثم سمعنا صوتاً أنثوياً خفياً صادراً من أحد البيوت يسألنا بارتياب عما نريد، فقد "علقنا" في زقاق مسدود وعدنا من حيث أتينا. عندها صادفنا مخلوقاً

---

[20] - "جي.و.كلايتون": "رسائل من النيل"، ١٨٥٤، ص ٥٩-٦٠.

[21] - "جون اورمزبي": "نزهة خريفية في شمال أفريقيا" ، ١٨٦٤، ص ٢٧-٢٨.

ملتفاً بكامله بثياب واسعة بنية أو رمادية مخططة، وحين وقع بصرنا عليه اندفع بسرعة داخل باب بيت مفتوح. مخلوق آخر من نفس الفصيلة لم يجد ملجأ يهرب إليه فوراً فضغط جسده قريباً إلى الحائط حتى نمر، ساحباً الثياب بعنف فوق وجهه. وحين انعطفنا باتجاه زاوية في الزقاق فوجئنا بمخلوق ثالث لمحنا وجهه لكنه وبسرعة البرق غطى رأسه بحجابه. وأردنا أن نتصرف بأدب فلم يبد علينا أننا رأينا شيئاً وأفسحنا له الطريق كي يمر. وبعد لحظات تملكنا الفضول (أنا وذلك المخلوق) فالتفتنا إلى الوراء في نفس اللحظة، وتلاقت نظراتنا. وكشفت العينان السوداوان الواسعتان لنا أنه تحت هذا الحجاب هنالك قلب دافيء يخفق كقلبنا، وربما يخفق لنا. فلم إذن هذا الخوف والهروب والقلق؟ ماالجرم الذي ارتكبناه؟ هل نحن لصوص أم أعداء، أم من الصيادين الذين يضعون الخطط للامساك بغزال لطيف؟! لا، فحياؤنا واحتشامنا يمنعنا من ذلك. نحن رجال عاديون، والمخلوق الذي رأيناه كان امرأة... بعد ذلك قابلنا حشداً من "بذاّت" الثياب المتحركة والذليلة هذه، كانت تتشاور وتتحاور في خوف ورعب كالطرائد أمام الذئاب، وقد أدارت ظهورها لنا.

النقاب الذي ترتديه سيدات المدينة الجريئات والذي يسمح للعيون، مرايا القلوب، بأن تُرى، لا تلبسه النساء في بلدات الأقاليم، إذ تكون أيديهن دوماً على استعداد قرب طرفي "الشق" المفتوح أمام الوجه، كي تخفي وجوههن بسرعة وقت "الخطر"، والخطر يعني أن يدخل رجل في مجال الرؤية. أما المرأة التي لا تفعل ذلك فيُشك بأمرها حتماً. لكن في مناسبات أخرى، كالدخول إلى عيادات الأطباء مثلاً، نستطيع رؤية الوجه كاملاً حيث تنسى المرأة حينذاك أنها تضع النقاب. وهذا لا يعني طبعاً أن النساء ذوات المظهر الجذاب يكن على استعداد للكشف عن وجوههن في حين أن المسنات لا يفعلن ذلك حين لا يواجههن خطر وجود رجل غريب. أذهلنا، إذن، منظر "بذات" الثياب المتحركة، ولنلق الضوء الآن على طريقة النساء في الركوب. فنساء الشرق ما زلن ماهرات في الفروسية كما كن سابقاً أيام مريم العذراء، ويجلسن بثبات وأمان على السرج، حيث يُعقد الركاب ليكون مرتفعاً، حتى أن المرأة يمكن

أن ترضع وليدها وهي تمتطي ظهر الدابة!.[٢٢]

"دوغلاس سلادن" و "نورما لوريمر" عثرا على صورة السفينة بكامل أشرعتها لوصف النساء التونسيات، في حين فكر أخرون بالساحرات أو بجماعة "الكلو-كلوكس كلان". مرة أخرى، هذه مختارات صغيرة من ذلك النوع من الكتابات.

النساء في الشرق أكثر شرقيةٍ من الرجال. كلهن يتمسكن بشدة بالأزياء الوطنية. والسيدة نادراً ما تخرج من المنزل،وفي الحي العربي من المدينة (التي تحتلها فرنسا) ليس من اللائق أن يصعد الرجل إلى سطح منزله حتى لا يختلس النظر إلى زوجة جاره. ولم يمض وقت طويل منذ أن بدأت السيدات العربيات في تونس زيارة الأطباء. والسيدات الأرستقراطيات اللاتي تقابلهن في الشوارع هن زوجات التجار الأثرياء، يبدون وكأنهن بقع من الألوان الشرقية البديعة، لأنهن يرتدين نقاباً من القماش الأسود السميك مطرزاً بجميع ألوان الوشاح الروماني، بدون ثقوب للعيون، وعند المشي لا يستطعن الرؤية إلا بإمساك طرفه ومده لمسافة قدم أمامهن. وحين يندفعن نحوك كسفينة عتيقة ضخمة بأشرعة من حرير، تعلم بأنك عبرت "بوابة الشرق". لكن، هن أيضاً يشعرن بأن التقاليد تحاصرهن، إذ لا يجوز مثلاً أن يتوقفن في الطريق للتحدث أو للتسوق، وهو حظر بدأن بتحديه خلال الأيام التي تقوم فيها "محلات بيتيت لوفر" بعمل تنزيلات على أسعار بضائعها. نساء الطبقة الدنيا لسن أقل شرقية من أخواتهن، إذ يرتدين ثوباً أبيض يغطي كل الجسد، ويلففن وشاحاً أسود حول الوجه، بدون ثقوب للعينين أو الفم، ما عدا شقاً مخبأً بين طيتين فيه. وعلى بعد عدة أذرع يبدون كالزنجيات. وهو أمر مثير للسخرية إذ أن الزنجيات كالبدويات، لا يرتدين النقاب. النساء

---

[٢٢] - "سي.بي. كلونزنفر": "مصر العيا": سكانها ومنتجاتها،١٨٧٨، ص ٤٠-٤٢.

العربيات من الطبقة الدنيا منظرهن غريب ومضحك حقاً، فمع أنهن يغطين الوجه بحرص شديد، إلا أنهن لا يبدين اهتماماً بستر الساقين المعروقتين المكشوفيتين حتى الركب. وأثر هذا التنافر يبدو أشد عند نساء الأرياف بخلاخيلهن الفضية الضخمة.

النساء العربيات بشكل عام، في الزي الذي يخرجن فيه إلى الشارع، يشبهن أكوام الثياب؛ وقد يكون ذلك وسيلة لاخفاء سحرهن، وان كنت أشك في هذا باعتبار من رأيت من النساء العربيات واليهوديات مصادفة في الطريق أو من خلال صورهن على البطاقات البريدية، حيث يكشفن عن ساقين تشبهان رجلي الدجاجة! من المعلوم أنه في بلد مسيحي لا يمكنهن فعل ذلك، لأن أزواجهن سيسارعون لإجبارهن على ستر الأرجل والكشف عن الوجوه- لا سيما حين يمتلكن وجوهاً كهذه!.[٢٣]

أخبرني مرافقي... أن المرأة العربية من الطبقة العليا حين تخرج من المنزل (وهي لا تفعل ذلك أبداً، إلا إذا كانت مسنة وقبيحة، وحتى في هذه الحالة لا تخرج إلا بصحبة خدمها) فإنها لا تكتفي بستر جسمها كله بثوب أبيض بشع وغير مخيط، وتخفي وجهها بقناع أسود فقط، لكنها فوق ذلك تلقي على رأسها وشاحاً مقصباً طويلاً وعريضاً من الحرير النفيس اللامع والمخطط، تلفه كالشال حول عنقها وكتفيها ثم ترد القسم الخلفي منه إلى الأعلى فوق رأسها بطريقة لا تسمح لها إلا برؤية موضع قدميها. ولكي يكون الوصف صحيحاً فان الوشاح يُرفع من أحد أطرافه على مبعدة ذراع من الوجه بحيث يكون مطوياً. وعندما ترتدي المرأة ثياباً كهذه (وقد رأيت بنفسي العديد منهن يفعلن ذلك) فأنها حين تسلك الأزقة الضيقة ذات الجدران البيضاء تبدو كالسفينة الشراعية تماماً. وبهذه الطريقة فإن رأسها، كما سترى إذا استطعت إدراك ما أعنيه- يكون محتجباً بالكامل. وعندما ترى خيالاً كهذا "يُبحر" بهذه الطريقة تظن أن شخصاً ساذجاً يلعب "الغُميضة"، أو أن الوجه المختفي تحت الظُلَّة الممتدة يجب أن يكون مشوهاً بشكل مرعب، أو على الأقل يفتقد الجمال. أما لماذا يسمح العربي

---

[٢٣] - "دوغلاس سلادن": "قرطاج وتونس"، ١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٣٢٤-٣٢٥.

لامرأته أن تكشف عن ساقيها العاريتين حتى الركبتين بينما يصر على أن يكون وجهها منقباً بالكامل، فهذا ما لم أستطع أن أحزره!.[٢٤]

... بين الحشد أيضاً هناك نسوة يرتدين حجاباً أسود اللون ويشكلن مشهداً مأخوذاً من موكب جنائزي، أو عجائز مقوسات الظهر، إذا ما أُلبسن قبعة مخروطية الشكل وعباءة

حمراء فسيتحولن فوراً إلى ساحرات شريرات!.[٢٥]

.. ربما لحسن الحظ لا يمكن معرفة هوية أو شخصية النسوة المحجبات هنا، فهن لا يكتفين بارتداء "اليشمق" التركي الذي يستر الوجه جزئياً، ولا النقاب المصري الذي يحجبه كلياً، لكنهن أيضاً يلبسن رداءً واسعاً يغطيهن من الرأس إلى القدم يشبه الزي الذي ترتديه جماعة "الكلو-كلوكس كلان" فيما عدا فتحات الرؤية المعروفة التي تستبدل هنا بقطعة من القماش المثقب. هذا الرداء يستر كل الجسم ما عدا الكفين والكاحلين. ويفرض شكلاً خارجياً مشوهاً حتى على أكثر القدود رشاقة. النساء الوحيدات اللاتي يعفون من اتباع آداب الاحتشام التقليدية هذه هن العاملات المأجورات لغسل الثياب، والزنجيات العجائز الدميمات، وهؤلاء يكتفين بقميص نسائي قصير بني اللون، وبحركة مفاجئة لاظهار أولوية الاحتشام بالنسبة لهن، يرفعن الجزء السفلي من القميص ويغطين به الفم حين يقابلن صدفة رجلاً أجنبياً!.[٢٦]

عليّ إنهاء هذا الفصل بفقرة صغيرة كتبها قبل وقت قصير (١٩٨٧) "تشارلي باي-سميث": ".. **جماعات من الفتيات، يخرجن يداً بيد، كالحلقات المتصلة في "حزام العفة"، للنزهة في مراكز التسوق الغربية الطراز. أما الرجال في الإسكندرية فيجلسون على مقاهي الرصيف للترويح عن أنفسهم بعد عناء عمل النهار.**"[٢٧]

---

[٢٤] - "نورما لوريمر": "قرب مياه قرطاج"، ١٩٢٥، ص٧٠.

[٢٥] - "سير فريدريك تريفيس": "الأرض المهجورة"، ١٩١٣، ص٥٢-٥٣.

[٢٦] - "لورنس غرافيتي- سميث": "الشرق الساطع"، ١٩٧٠، ص ١٧٢.

[٢٧] - "النيل الآخر"، ١٩٨٧، ص٢٨.

وذلك لإظهار أن البحث لا يزال جارياً عن تشبيهات بلاغية لمّاحة لوصف نساء الشرق.
وإلا فلم الربط بين الفتيات المتشابكات الأيدي وحزام العفة؟

خلع الحجاب

في أحد الموانئ العربية سئل سائح مرة عن رأيه في نساء الشرق، وكان رده: "لم أر أياً منهن". لقد عرف مؤلفوا كتب الرحلات أن قراءهم يبحثون عن إجابة لهذا السؤال، وأن عليهم هم أن يجدوه بأية وسيلة كانت. "وليام سبراي" أقام في تركيا لفترة ونشر ذكرياته عام ١٨٩٥. والفصل المتعلق بحياة "الحريم" في كتابه أسهمت به - كما يقول - زوجته التي استطاعت زيارة العديد من النساء في "الحريم". والفصل قُدمّ بشكل جولة في منزل أحد الباشاوات الأثرياء.

... الجماعات التي تريثت قليلاً ثم انعطفت داخلة من المشى، أعطتني حين مرت أمامي الفرصة لمقارنة ومراقبة وجوه بعض من جميلات حريم الباشا.

ها هن الشركسيات، ببشرتهن الجميلة الناعمة، وعيونهن الزرقاء- الرمادية، وأنوفهن المقوسة قليلاً، وشعورهن الذهبية، ينجحن في إثبات كل ما سمعته بين الحين والآخر عن جمال المرأة الشركسية. جميلة أخرى تمر أمامي. علمت أنها من جورجيا. سمراء رقيقة القسمات، لها فم صغير جميل، وابتسامة عذبة تشرق على وجه ساحر يشع منه الذكاء. فتاة أخرى لفتت انتباهي، بطولها الفارع، وعينيها الزرقاوين. وشعرها الداكن. علمت أنها فارسية الأصل، سُبيت ربما حين كانت صغيرة، من قبيلة تسكن الهضاب الفارسية البعيدة. يالجمال

عينيها وسحر أهدابها الحريرية، وهذه المؤالفة في الفتنة لديها؛ وجه جميل يشع ذكاء ومشية تتهادى بها بكبرياء شامخة الرأس كالملكة التي تشعر بمدى أهميتها.

واحدة أخرى، تركية الأصل، وجهها كالبدر، لم أتمالك نفسي عن ملاحظة قدها البديع الذي تزيده كمالاً ثنيات الرداء الذي تلبسه. عيناها المتلألئتان، وشعرها الطويل الداكن،وجبينها اللؤلؤي، وأنفها الجميل، ويداها الناعمتان الرقيقتان البديعتان، كل ذلك يجعلها صورة في حلم رائع . لقد أبدعت الطبيعة في رسم وتلوين عيون وأنوف وجبهات وملامح هؤلاء السيدات، لكن شخصيتهن تشكلت تدريجياً نتيجة للتغيرات داخلهن والتي فرضتها الظروف المحيطة، لتعطيها مزيجاً رائعاً من الإبداع في الشكل والعاطفة المتقدة في المضمون. لماذا كانت عيونهن بهذا السحر؟.

ومن أين أتت مادة الشمس؟

وديان جو رجيا وقفقاسيا أفضل من يخبرنا بذلك.[1]

"ايميلين لوت" واحدة من العديد من السيدات الإنكليزيات اللاتي دفعتهن الظروف الصعبة للعمل كمربيات. قرأت "لوت" قصيدة "لالا روخ" "لتوماس مور" فامتلأت نفسها بهجة وسروراً. وكانت "دار لونغمان للنشر" فوضت "مور" لكتابة حكاية عن الشرق، ولاقت "لالاروخ" نجاحاً فورياً عندما نشرت عام ١٨١٧، لأن الناشرين قدروا اهتمامات الذوق الأوروبي العام بشكل صحيح، وتُرجمت القصيدة إلى العديد من اللغات. حملت "لوت" معها أثر هذه القصيدة الرومانسية بالإضافة إلى جميع الأحكام المسبقة والمتحيزة ضد الشرق حين سافرت عام ١٨٦٠ إلى القاهرة للعمل كمربية لابن إسماعيل باشا (خديوي مصر: ١٨٦٣-١٨٧٩).وعند الوصول صُدمت "لوت" بالغرفة المتواضعة التي خصصت لها، واكتشفت أن عليها تناول وجباتها مع "فلاحتين ألمانيتين وضيعتين" أثار غباؤهما

[1] -"ويليام جي.جي.سبراي": "الحياة على البوسفور"، ١٨٩٥، ص ١٤٨-١٥١.

استياءها. كتابها بجزئيه يصف إقامتها هناك بكثير من النقد القاسـي؛ والمقتطفات التاليـة منه نموذج صغير يغاير بوضوح تام المشاهد المتوهجة لنساء "الحريم" في الفقرة السابقة.

كانت هناك إماء سود، زنجيات منظرهن يثير الغثيان بجبهتهن المنخفضة فوق حواجبهن، وهي علامة أكيدة على المكر والحقد والخداع والخيانة. ولا يختلفن كثيراً عن أولئك اللاتي اتين من جزيرة "كريت" بمنظرهن البشع وعيونهن الكبيرة المتقلبة النظرات والخالية من أي تعبير، وهي سمة لا يمكن أن تخطيء في دلالتها على الافتقاد إلى الذكاء والتي تجعلهن أقرب إلى الحيوانات؛ أنوفهن العريضة القبيحة، وأفواههن الواسعة، وعظام الفك الناتئـة، والشفاه السوداء الغليظة، وأصابع اليدين الطويلة بأظافر مكورة كحبات البندق، برتقالية اللـون بفعل الحناء، والرجلان الطويلتان الهزيلتان. والكعاب البارزة، والأقدام المسحاء الكبيرة. أما لـون البشرة فيختلف بشكل كبير؛ بعضها أسود لامع، وبعضها أسمـر. وجميعهـن يملكـن أسـناناً رديئة وهو أمر نادر الحدوث عند الزنجيات. وباختصار فإن شـكلهن كريـه وبغيـض. وليـس لهن من عمل طوال اليوم سوى الاستلقاء بكسل وتراخ على الأرائـك والحشـايا الموضوعـة علـى الأرض، أو الجلوس على أربع كالمدى المطويَـةّ، وكـأن قـدري قـد حكـم علـي برؤيتهـن إلى الأبد. منظرهن وأفعالهن تجعلهن أقرب للبهائم منهن للبشر.

كان رأسي يصدع بالثرثرة الدائمة لأكثر من مائتي امرأة وطفل تبربر كالقرود، بعضهـا بالعربية، وبعضها بالتركية في حين أن الحبشيات والنوبيـات علـى الـدوام يصرخـن ويهتفـن بأكثر الكلمات بذاءة في لهجتهن المحلية، لأنهن لا يعتبرن، مثل الأوروبيات أن :

الكلمات الوقحة لا يمكن الدفاع عنها . فقلة الحياء من قلة العقل، ومن تتحدث أمـامي عـن أشياء مقززةكما فعلت الكثيرات من قبل ومـن بعـد، فسـوف تمـلأ مخيلـتي بصـور مقرفـة... تجعل الصخب والضجيج أشبه بما يجري حين يفتح باب مصحة عقلية على مصراعيه.

أرجوك، عزيزي القارئ، أن تتخيل نفسك محاطاً بهذا الخليط المتنافر من الكائنات، تبربر وتثرثر أمامي بلغة مبهمة (لم أكن حينها أفهم العربية أو التركية) مكشرة عن أنيابها كالسعادين من الرابعة فجراً حتى العاشرة ليلاً بدون توقف، عندها سيكون لديك فكرة عن الحياة داخل "عالم الحريم" الذي صوره خيال الشعراء في الغرب والشرق كالجنة الاسطورية![2]

كثير من كتب الرحلات تضمن فصلاً بعنوان "الحريم" أو "أداب السلوك والتقاليد في الشرق". وتلك كانت اللحظة التي طالما انتظرها القارئ- "الآن سوف نتحدث عن النساء"! الفقرتان التاليتان هما محاولتان لاخبار القارئ عن الفلاحات المصريات.

ليست "الدلتا" بالمكان الذي يجد فيه المرء نماذج للجمال والرشاقة. وبالطبع فملامح النساء تفتقر إلى التناسق: البشرة سمراء، والفم واسع،والأنف أفطح، والوجه خال من التعبير ونظرات العيون جامدة. الأثواب الطويلة التي ترتديها الفلاحات تتهدل فوق أجسادهن، يبدون بها من بعيد وهن يحملن جرار الماء فوق رؤوسهن كحوريات الغابات والينابيع، لكن ما أن يقتربن حتى تزول صورتهن الوهمية تلك. وحين يتحدثن يقمن بإشارات مفاجئة وفظة،ولصوتهن نبرة حادة كالزعيق، ونغمته خشنة وجافة.[3]

الضخامة هي الصفة المميزة لجمال الريفيات في مصر. فالوجه بيضوي يشبه وجه "باخوس"، وشكل العيون وتعابيرها ونظراتها فيها شيء من الشهوانية، تخفف من غلوائها - كما هي الحالة عند الرجال- سماكة الجفون وطول الأهداب. في حين يزيد من جمود

---

[2] - "إميلين لوت: "حياة الحريم في مصر والقسطنطينية"، ١٨٦٥، الجزء الأول،ص ٢١٤-٢١٦.

[3] - "مدام ميشو" و "مدام بوجوليه": "مراسلات الشرق ١٨٣٠-١٨٣١"،١٨٣٥،ص ٨٢.

تعابيرها سواد الكحل حولها. قد يكون من الصعب تخيل عيـون أجمـل مـن تلـك الـتي تتـلألأ أمامنا أحياناً في القرى المصرية؛ عيون رائعة تعد بالسعادة السماوية، لكن ما ينقض هذا الوعد هو منظر الشفاه البارزة الغليظة بلونها البني الداكن. وفيما عدا الانحناء في الظهـر، والتهـدل في الاثداء التي أرهقها الإرضاع، ليس هنالك من يفوق الفلاحـات المصريـات جمـالاً. فالأحذيـة الباريسية الراقية لم تقيد بعد هذه الأقدام البديعة، والأيدي الناعمة الملطخة بروث البقر، لو وجدت صاحباتها في أوروبا لغمرها العشاق بالقبل.... إنهن الإلهـام المجسد لمثـال طالمـا جدّ الرسامون في البحث عنه.... [٤]

في وقـت متـأخر مـن القـرن المـاضي كـان "الكونـت غليتشـن" ملازمـاً في كتيبـة "حـرس عسكرية" تابعة للجيش البريطاني وشارك معها في حملة "فيلق الهجانة" (١٨٨٤–١٨٨٥). وهو هنا يسهم بانطباعاته حول الناس المجتمعين في سوق موسمية ريفية قـرب "دونغـولا". لاحظْ كيف اقتصد في وصف الرجال "بوسامتهم الاخاذة" مقارنة مع النسـاء اللاتـي يبـدون قبيحات عموماً، في الوقت الذي لم يخبرنا شيئاً عماتفعله تلك النسوة هناك.

يقدم السوق هذا أكثر المشاهد غرابة وأصالة. فعلى منحدر مفروش بالحصى جلس حشد مـن الرجـال والنسـاء وأمـامهم سـلال تحتـوي علـى الـذرة، والكعـك، والزبـدة، والزيـت، والبيض،والخبز، وأنواع مختلفة من الخضـار مثـل "الباميـة"، والكـراث، والفـول، والعـدس والخيار، وسلع قطنية متقنة ومبهرجة (من مانشستر) والحبال، وجلود الخراف، والجبنة، أما قراب الماء فقد غابت من السوق. كانت الجلبة مرعبة وبالطبع كان أشدها صادراً من النسـاء اللاتي سترن "جمالهن" بأثوابهن المحلية المكونـة مـن مـلاءات قـذرة ملوثـة بـالدهن. جميع النساء بشعات بشكل مرعب... زنجيات بلون الفحم الأسود، ونساء بوجوه صفـراء شـاحبة لا

---

٤ – "بايل سنت– جون": "حياة القرية في مصر"، ١٨٥٢، الجزء الأول، ص ٤٩–٥٠).

يمكن وصف دمامتها. كنَّ خليطاً من كل عرق وجنس في أفريقيا وآسيا وحتى من جنوب أوروبا. كانت شعورهن مصففة حسب الطريقة المألوفة: فرق في منتصف الرأس، وجديلتان مضفورتان على جانبيه مزينتان بالودع الأصفر والخرز الأزرق وتقطران بالدهن والقذارة. أما أزواج أولئك النسوة فيشكلون منظراً مغايراً تماماً، فقد كانوا رجالاً ذوي وسامة أخاذة. يستعرضون الحشد جيئة وذهاباً بكثير من الجلال والمهابة، ولا يتنازلون عن وقارهم إلا حين يشعرون بأن التصافق قد يؤثر على ما في جيوبهم! [*]

أورد "دوغلاس سلادن" في كتابه "قرطاج وتونس" فصلاً كاملاً كتبته امرأة قامت بترتيب زيارة إلى "الحريم". وكان بمقدوري أن أضع هذه الفقرة في فصل آخر من "المختارات"، لكن بسبب توقع المؤلفة أن تجد هناك "لالا روخ"، بالإضافة إلى ردود فعلها على النساء اللاتي قابلتهن، قررت وضع الفقرة في هذا الفصل. كثير من الزوار الأوروبيين تصرفوا بطريقة بشعة، ولم يعرفوا أبداً آداب الزيارة، وهو موضوع سنعود إليه لاحقاً في الفصل الثاني عشر. وكانت "اي.ام.ستيفنز" نموذجاً لهؤلاء.

تجربتنا الوحيدة مع الحريم لم تكن سارة. تاجر يهودي في السوق سألنا يوماً إذا ما كانت لدينا الرغبة بزيارة "حريم" أحد وزراء الباي. فهو يعلم -كما قال- سيدة فرنسية ستسر بمرافقتنا في تلك الزيارة. لم نتحدث حول دفع أية مبالغ من المال، لكننا سمعنا حكايا غامضة حول الهدايا القيمة التي تتوقعها نساء الحريم الفضوليات والحمقى والسجينات في الأبهة الفخمة التي يحيطهن بها سيدهن. ولذلك ترددنا، لكن إصرار اليهودي ازداد.

- إن عالم الحريم رائع!

- لكن هل من الضروري أن نحمل معنا الهدايا!

---

[*] - "الكونت غليتشن": "مع فيلق الهجانة في أعالي النيل"، ١٨٨٩، ص ٥٠-٥١.

- لا، لا. مجرد أشياء صغيرة للأطفال.

واستسلمنا لكلام اليهودي المعسول. وانتظرنا بضع دقائق نقّب خلالها في دكانه عن معروضات تغرينا ولانستطيع مقاومتها. أرادنا بتوسلاته البليغة أن ندفع ثلاثة أضعاف قيمتها الحقيقية، ثم جاءت سيدة فرنسية أنيقة الملبس تبدو أنها من الطبقة الوسطى وتولت أمر مرافقتنا. كان سلوكها لطيفاً لكن به شيئاً من التعالي. تبعناها صابرين خارج الدكان ثم نزولاً عبر الشارع الضيق المشمس بجدرانه العالية المطلية بماء الكلس والذي يفضي إلى خارج منطقة الأسواق. كانت الفرنسية صديقة لزوجات الوزير الثلاث، واحداهن -كما قالت- فتية وجميلة جداً.

كان طيف "لالا روخ" الرشيقة بثوبها الرائع المطرز وجواهرها الشرقية، ماثلاً أمامنا. قرعنا باباً مرصعاً بالمسامير، فتح في البداية قليلاً، وبعد أسئلة وأجوبة بالعربية من خلال الفتحة الضيقة، انفتح الباب على مصراعيه،وعبرنا ما يشبه غرفة الانتظار على يميننا، ثم دخلنا الفناء، وهو لا يختلف كثيراً عن باحة القصور في صقلية؛ له صف من الأعمدة الكئيبة، ويتألف من طابقين. هنالك عدد من النسوة القذرات داخله، مع طفل أو طفلين. كانت النسوة مشغولات بالغسيل في إحدى الغرف المؤدية إلى الفناء، لكن تركن ذلك وقدمن للتحديق بنا وسؤال دليلتنا السياحية عدداً كبيراً من الأسئلة.بذلنا ما بوسعنا من مجاملات تناسب المقام- ابتسمنا بأدب، ولاطفنا الأطفال، معتقدين أن هؤلاء النسوة هن من خدم الوزير، وان كنا قد عجبنا لواحدة منهن، فتية وضخمة الجثة، قُدمت الينا. كانت مخلوقاً مبتسماً ممتلىء الجسم، قرمزي الوجنتين، في الثامنة عشرة من العمر، وان كان شكلها يعطيها عمراً يناهز الثلاثين، بعينين سوداوين واسعتين، مهدبتين برموش سوداء ثقيلة. كان حجم ذراعيها العاريتين عظيماً، وكانت ترتدي سروالاً طويلاً وسترة وخفين باليين دون أكعاب وتتزين ببعض المجوهرات. وليس هناك ما يدل على أن مركزها الاجتماعي يتميز بمثقال ذرة عن الباقيات.

أشارت الدليل علينا بصعود الدرج، وتبعناها متسلقين سلماً منجداً يفضي إلى مخادع النساء. وكان هناك فهد محنط من نوع "الكوجر" يربض على قمة السلم، الذي يقود إلى قاعة استقبال صغيرة مفتوحة على غرف النساء. تبدو على القاعة إمارات الرفاهية، كما اختفت هنا مظاهر القذارة والفوضى التي تطغى على الفناء، لكننا لم نستطع مجاراة الدليل في حماسها حين كانت تشير إلى هذه التحفة المرصعة باللآلئ، أو تلك القطعة من الأثاث، أو الستائر أو الخزف ... في الواقع كانت الأسقف المقوسة المطلية والموشاة بالذهب فخمة ومترفة. عموماً كان كل ما هو عربي في البيت نفيس وجميل، وكل ما هو أوروبي رخيص وكريه....

لم تظهر الزوجات بعد!

– لكن أين الزوجات؟

– هذا الأسبوع سيشهد عيد المولد النبوي. ولذلك فهن منهمكات في التحضير للعيد. سوف يكن هنا في خلال لحظات.

انتظرنا بفارغ الصبر. ثم دخلت فتاتان على محياهما ابتسامة، ولم تكونا أفضل مظهراً من تلك التي قابلتنا في الفناء، قُدمتا إلينا على أنهما زوجتا الوزير. إحداهما قبيحة بشكل واضح، والأخرى مليحة لكن بها شحوباً، وعيناها الواسعتان السوداوان تلتمعان في وجهها، بينما تدلت فوق جبينها الضيق غرة من الشعر المهدب وكان معهما ولد صغير جميل يحدق بنا بفضول، ثيابه أفضل حالاً بكثير من ثياب الفتاتين فقد كان يلبس سترة مطرزة وبنطالاً أزرق لامعاً. كانت تلك لحظات حرجة. –فمضيفتانا إن صحت التسمية– لا تعرفان الفرنسية ونحن نجهل العربية ماعدا كلمة التحية "بالسلامة!"، والسيدة الفرنسية على استعداد للترجمة. غصنا بيأس في التساؤل حول من تكون والدة الطفل، وتبين أن تلك الأجمل هي الأم. مزيد من الابتسامات ومزيد من التردد والتوقف والصمت. ثم أخذنا نثني على المنزل ونمتدحه، الأمر الذي فك عقدة لسان مضيفتنا. وأُخضعنا للاستجواب! – من أين أتينا؟ ولِمَ لمْ نتزوج حتى الآن؟

وكم عمرنا؟ وهكذا... حتى أجسامنا أخضعت لفحص دقيق، كما أن بعض الحلـي الـذي تزيـن به إحدانا صدرها نال الإعجاب وخصوصاً حليـة صغيرة على شكل رأس العبد بعينـين مـن ياقوت تعلقها بسلسلة، وكذلك القميص الأبيض المطرز الذي أرتديه، فُحص فحصاً دقيقاً، مما جعل الأمر يبدو محرجـاً فـاضطررت لتغيـير مجـرى الحديـث. تذكـرت كـل مـا سمعتـه عـن المجاملات التي تسيطر على أحاديث العـرب وقـررت أن يكـون كلامـي شـخصياً كمـاتعودن، وقلت للمترجمة: "أرجو أن تقولي لهما كم هي جميلة عيناهما في رأينا".

- "لكن عيني الانسة على نفس القدر من الجمال!"

قلت بتواضع: "لكنني أظن أنهما صغيرتان، ولا يمكن مقارنتهما بجمال عينيهما".

- عينا الآنسة تعوضان عن الحجم بالعاطفة والبريق

هـذا الأخـذ والـرد في المجـاملات يمكـن أن يسـتمر إلى مـالا نهايـة. لكـن تذكرنـا أن رجالنــا في الانتظار، فقد رأينا كل ما نريد، ولم نكن نرغب بالهاء السيدتين عن الغسل والطبـخ، ولذلـك قمنا بتوديعهما. وحـين نزلنـا السلم رأينـا غرفـة صغيرة عاريـة مـن الأثـاث لكنهـا نظيفـة ومرتبة، غطت أرضيتها "حصيرة" هادئة الألوان وقد جلس فوقها شقيق الوزيـر وهـو يـدرس "شريعة الإسلام". ودعنا مضيفاتنا مرة أخرى في الفناء حيث كانت جميع الأنظـار تحـدق بنـا فاحصة منقبة . ووضعنا فرنكاً أو اثنين في يد الطفل الذي كان يقف ممسـكاً بسـروال أمـه، ثـم تبعنا المترجمة الفرنسية خارجين إلى الشارع المشمس مـرة أخـرى. سـألت واحـدة منـا: "أيـن الزوجة الجميلة الشابة"، وعلمنا أنها الفتاة الضخمة الجثة ذات الوجنتـين الحمراويـن الـتي حسبنا أنها الخادمة! هذا ما تبقىمن أحلامنا حول "لالا روخ"![٦]

"فصل كتبه "اي.ام.ستيفنز" في كتاب "دوغـلاس سلادن":"قرطاج وتونس"،١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٥٩٤-٥٩٥.

في وقت مبكر وقبل جميع هؤلاء الكتاب، أرسلت الحكومة الفرنسية قبل ثورة عام ١٧٨٩ "سي.اس.سونيني" إلى مصر، ونشر مشاهداته في السنة السابعة من عمر الجمهورية. كان "سونيني" ضابطاً ومهندساً وعضواً في العديد من الجمعيات الأدبية والأكاديمية، أعطى قرّاءه جملة معلوماته عن الجمال الجسدي للمحظيات المصريات.

حتى لو كان ما يقال صحيحاً بأن عدداً كبيراً من المحظيات يملأن المحلات العمومية في مصر، فليس صحيحاً أنهن يقدمن المتعة المجانية للرحالة، أو أنهن يُدفعن للدعارة دفعاً بواسطة رجال همهم إمتاع الأجانب، أو أن الرحالة لحظة وصولهم يأخذهم رسل شجعان إلى معبد تمارس فيه كاهنات شابات ما يشئن من طقوس وأفعال بحرية تامة! إن قصائد المديح التي تغنت بسحرهن، وقدودهن المتمايلة، وأوراكهن البديعة، وخصورهن الفاتنة، ورغبتهن الوحيدة في إرضاء الرجال وغوايتهم، ليست سوى سلسلة من الأغلاط والأوهام. تماماً مثلما هي خاطئة روح التسامح التي تُقابل بها التصرفات الغادرة المخادعة لهؤلاء النسوة وتضفي عليها نوعاً من السمو والجلال والتقدير - الفكرة التي تؤكد أنهن لا يجدن السعادة إلا في العشق، ولا يأبهن بمن يعاشرهن من قبل، فيسلمن أنفسهن مجاناً للرحالة!

هؤلاء التعيسات اللاتي نجدهن في البيوت العمومية المصرية يكسبن عيشهن كالمومسات في أوروبا، وذلك ببيع أجسادهن للمتعة. فهن يغوين الرجال ويستثرن شهوتهم ثم يسلبن أكبر قدر ممكن من أموالهم بنفس مهارة العاهرات عندنا. ومن جهة أخرى، قد تبحث من غير طائل بين كل نساء مصر العليا (الوجه البحري) عن الجمال الفتان الذي سمعت بأنهن يملكنه، لكنك لن تجد سوى نسوة فقيرات معظمهن قبيحات يرتدين الأسمال ويملؤهن الضجر. والصفاقة معلم أساسي في المحظيات، لأنهن الوحيدات في هذه البلاد اللاتي يخرجن سافرات ويتحدثن مع الرجال في الأماكن العامة، والأمر المثير

للغثيان كثرة الأمراض الفظيعة التي تصيبهن. وبكلمة واحدة، يجتمع فيهن كل الرعب المصاحب للخلاعة دون أي من مفاتنها ! هذه حقيقة أولئك النساء اللاتي لا يُفتن بهن إلا المتوحشون. إن الشبان الذين أغوتهم الصور الزائفة لربات الجمال المصريات ويودون القدوم لعبادتهن هنا سوف يندمون على ذلك. لأنهم لن يجدوا غير نسوة كريهات لن يُسروا لرؤيتهن، ويمكن لمعظم المومسات في أوروبا أن يكن فاتنات بالمقارنة معهن!.[٧]

"وليام بيري فوغ" و "رايدر هاغارد" سافرا إلى الشرق عامي ١٨٧٤ و ١٩٠٠ على التوالي، لكن خاب أملهما في العثور على الجمال الشرقي، وتحدثا عن ذلك مراراً في مناسبات عديدة. "ايه.سي.انشبولد" ألفت العديد من الكتب، وهي هنا تتحدث عن "العامل الأنثوي" الحاضر في حفلة من حفلات الزواج، مميزة الفروق "الجسدية" لأولئك اللاتي حصلن على نعمة الثقافة الأوروبية. "سوزان فويلكان" اقامت في مصر من عام ١٨٣٤ حتى ١٨٣٦، وهي تقدم هنا نظرية تقول بأن جميع النساء العرب متشابهان بشكل أو بآخر.

ترتدي المرأة العباءة الفضفاضة المألوفة والمصنوعة من قماش قطني أبيض أو كحلي، وتغطي وجهها بقناع أبيض به قطعة قماش مخرّمة أمام العينين. والتنكر هنا كاملاً لدرجة أن الرجل قد يمر بزوجته أو أخته في الطريق دون أن يعرفهما. ويقال بأن هذا يسهّل كثيراً لأولئك النساء المسلمات ممارسة الخداع الذي يملن بشغف إليه. وفي الأسواق، لا سيما تلك المتخصصة في بيع الملابس والمنسوجات الحريرية، ترى العديد من النساء يساومن البائعين، لكن يستحيل على الرجال من المارة معرفة ما إذا كن جميلات أو قبيحات، بيضاوات، أو سمراوات، إلا إذا قمن برفع طرف النقاب. أما داخل "الحريم" في المنزل، فيقال أن السيدات

---

٧ – "سي.اس.سونيني": "رحلة بالمركب وعلى الأقدام عبر مصر"، ١٧٩٨، الجزء الثالث، ص ١٤٦–١٤٨.

الثريات يرتدين ثياباً فاخرة ويسرفن في التزين بالجواهر والحلي. لكن في كل رحلاتي عبر البلاد الإسلامية لم أصادف امرأة جميلة حقاً حتى الآن. والشركسيات والجورجيات اللاتي نلن الإعجاب لسواد عيونهن الواسعة الصافية وأهدابها الحريرية الطويلة التي انتشى بها الشعراء الفارسيون، هن مجرد وجوه مليحة تفتقد التعليم والذكاء. لأن الرقة والنقاء والذكاء مفاتن لم يسمعن بها، وهي أيضاً لا تعجب أسيادهن الشهوانيين![8]

كان حشد المسافرين على السفينة خليطاً ما رأيت لتنافره مثيلاً. ففي المقدمة هنالك العديد من الحجاج المتجهين إلى مكة. وفي المؤخرة تجمهر على السطح جماعة تضم عدداً من الأمريكيات العانسات؛ ورجال بالطرابيش من الشرق الأوسط، وجنود أتراك بملابس ميرية رثة، وكاهن ماروني بقبعة عالية؛ وأربع نساء تركيات تلفهن أثواب سوداء، ويضعن "اليشمق" بألوانه المتعددة. أما أكثرهن شباباً وأحسنهن منظراً فكانت ترتدي نقاباً من قماش شفاف تماماً، ومع ذلك وجدت من الضروري أن ترفعه من حين لآخر لرؤية المناظر أمامها، في حين أن الثلاث الأخريات، ويبدو أنهن أكبر سناً نظراً لضخامة أجسامهن، كن أكثر التزاماً بالتقاليد واكتفين برؤية الشاطىء اللبناني من خلال "اليشمق". ومع أنهن منقبات إلا أنه لم يبدُ عليهن الاعتراض على كشف الساقين اللتين غالبا ما يحاول الجنس اللطيف سترهما، ولهذا فان أكثر واحدة في العائلة ضخامة -فالسيدات الأربع حتماً من نفس "الحريم"- قامت بحركة بسيطة كشفت فيها عن ساقين بجوارب صفراء لم يقسم لي قدري أن أرى مثلهما ضخامة من قبل. ها هي تجلس هناك مستغرقة في التفكير، وها نحن نقف هنا ننظر ونتعجب. وفي الحقيقة أحضر ابن أختي الشاب آلة تصوير وصور النسوة الأربع. لكن هل تصدقون بان الآلة رفضت التقاط الصورة! ومن بين كل الصور التي عدنا بها إلى الوطن، كانت تلك الوحيدة التي ظلت سوداء قاتمة لم يظهر بها شيء[9].

---

[8] – "وليام بيري فوغ: رحلات ومغامرات في مصر والجزيرة العربية وفارس، (بدون تاريخ)، ص ١٧٢.

[9] – "اتش. رايدر هاغارد": "رحلة حج شتائية"، ١٩٠١، ص ١٩٥-١٩٦.

لفت انتباهي ثوب من الحرير القرمزي اللامع يلف جسداً مكتنزاً كامل النمو، يعرض حجمه الهائل، ويحيط منطقة الخصر منه بوشاح ضيق. ومن خلال طيّات الجزء الأسفل من الثوب تظهر ساقان سمينتان وقصيرتان لا تعرفان شيئاً من الرشاقة. الرأس صغير مسطح، وملامح الوجه يعوزها الجمال وقد تدلت فوقه شراريب مبعثرة، والعينان باهتتان غائرتان تنظران شزراً. كانت امرأة متزوجة ووليدها لا يتجاوز الشهرين من العمر. مثل ذلك الوجه هو ما سيراه الزوج الواثق حين تنتهي مراسم الزفاف ويمتع نظره للمرة الأولى بجمال عروسه الأسطوري!

لكن تلك المرأة لا تشكل النموذج الأنثوي الوحيد، فالنموذج الأكثر شيوعاً هو المرأة المتوسطة الطول، الممتلئة الجسم، اللطيفة المنظر، المتناسقة القوام، ونقطة ضعفها الوحيدة افتقارها إلى الثقافة الجسدية. أما لون البشرة فهو داكن، والعيون سوداء واسعة تميل عادة إلى الأعلى عند زاويتها كعيون اليابانيين. والأنف جميل مع أنه عريض، والفم مستقيم في خطوطه وليس في شفتيه ارتخاء إلا عند نوبات الغضب والانفعال، والشعر أسود أملس يمشط إلى الأعلى مع عقدة ملتفة وخصلات مبعثرة متهدلة. يستطيع المرء بسهولة تمييز أولئك اللاتي حصلن على نعمة التعلم من الثقافة الأوروبية. فهن مهذبات ومنظمات، ويقفن منتصبات القامة دون انحناء، ويجلسن على المقاعد والكراسي لا على الأرض ، وتعابير وجوههن فيها الكثير من العمق، والملكات العقلية والمزاجية، وقوة الملاحظة لديهن- وهي أمور مستترة لدى الأخريات- تظهر واضحة في الرغبة الصامتة التي تلتمع بها عيونهن السوداء..."[١٠]

أفزعني منظر المرأة العربية الأولى التي رأيتها ... لكنني تعودت بسرعة رؤية هذه الأنماط "الشبحية"، التي لا يمكن أن تُميّز بها سوى السينين ـ وهما عادة جميلتان جداً. النساء هنا إجمالاً طويلات القامة وأجسادهن التي ما تعودت أبداً الخضوع لأي نوع من أنواع القيود، تنمو باستقامة وطراوة كنخلات البلد الباسقة. كنا نستمتع برؤية النساء والصبايا عند مرورنا

---

١٠ - "ايه.سي.انشبولد": "تحت شمس سوريا"، ١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٤١٦-٤١٧.

بالقرى وهن يأتين إلى النهر لتزويد العائلة بالماء. ولم تغادر أياً منهن ضفة النيل قبل أن تلقي بنفسها عارية في مياهه، تغوص وتسبح بخفة السمكة راسمة دوائـر فـوق سـطح المـاء. والهـم الوحيد الذي يشغلهن هو الإبقاء على النقاب الأسود الصغير في مكانه على الوجه، بدعـوى أن ليس هناك من فرق جوهري بينهن فيما عدا ملامح الوجه، ولهذا فإذا ما ظل الوجه منقباً،ولم يسمح البرقع لملامحه بالظهور فشرفهن إذن محفوظ... والأمر العجيب حقاً هو السرعة الـتي تطارد بها أولئك النسوة بعضهـن بعضـاً، ثـم الغـوص والهـروب للمطـاردة مـن جديـد. اللـون البرونزي لبشرتهن ليس بغيضاً، لكن النساء العربيات لسن جميلات عمومـاً، فالوجـه المـدور الأوروبي لا نجده عند أي منهن، مـع أن أسـنانهن ناصعـة البيـاض وعيونـهـن جميلـة سـوداء متلالئة، هذا إذا استطعن تجنب آثار الرمد في الطفولة. إن عادة المشي بأقدام عارية، بالإضافة إلى العمل الشاق الذي يقمـن بـه، تجعـل القدمـين واليديـن تكـبر في الحجـم، لكنهـا لا تفتقـد التناسـق، فحركـات اليديـن الـتي تـدل علـى الحالـة المزاجيـة، مفعمـة بالحيويـة وتنـم عـن نبل،ومتسقة دائماً مع العواطف التي يردن إظهارها.

في كثير من المرات أعجبت بطريقة هؤلاء النسوة في المشي، بكـل مـا فيهـا مـن مهابـة وهـن عائدات معاً مـن النيـل، تملؤهـن البهجـة، ويحملـن الجـرار المليئـة بالمـاء، وأيديهـن ممتـدة بالاتجاه المعاكس على مستوى الكتف تحمل بدورها جراراً أصغـر، ثـم يطـير النقـاب الرقيـق والرداء الأزرق الطويل الذي يغطي الجسم اللدن مع هبوب الريح. في بساطة أولئك النسوة، وفي طبيعتهن المزاجية والجسدية، يعيد المرء اكتشاف جمال ونبل الحوريـات الضاحكـات اللاتـي تفتحن كالأزاهير في مخيلة العصور الوثنية القديمة.

إن خصوصية النسـاء العربيـات تكمـن في الاتسـاق الجسـدي والخلقـي الـذي ينتـج نموذجـاً متفرداً. ولو كان لـدي القـدرة لأخضعـت هـذه الحقيقـة للفحـص الدقيـق، لكـني الآن سـأترك للباحثين والأكاديميين أمر استقصائها والتحقيـق فيهـا، طبعـاً إذا اسـتطاعت هـذه الصفحـات المتواضعة إن ترقى لمستوى اهتمامهم. حياة هؤلاء النساء ليس فيها تنوع ولا تغيير، فـالوجوه

كلها لها نفس التعبير، ولهذا تبقى النساء هنا متماثلات، ولا يملكن سوى حرية النظر. انظر إلى عيونهن فتعرف كم هي جميلة، معبرة ومليئة بتراخ مثير ومستفز. ولا تستخدم ملامحهن المخبأة خلف النقاب في أية علاقات اجتماعية... ويأأيها العقلاء، كل هذا يعني أننا يجب أن نحرر جنسنا اللطيف، وبذلك يمكن أن نرى هؤلاء النسوة يتفتحن كالزهر في ضوء شمس الحرية مهما اختلفت طبيعتهن.

بعد ذلك حين رأيت الفلاحات في بلدات الأرياف، عرفت كم هو صحيح رأيي الأول؛ ففي البلدة أو في الريف، وبين ربات البيوت أو الخادمات، ليس هنالك من فروق نمطية بينهن فجميعهن يحملن نفس الأهواءونفس المرح الصخّاب.[11]

بعض الكتاب اعتقد أن الدين الذي تؤمن به النساء يؤثر نوعاً ما على مظهرهن الجسماني. "ايه.و.كينغليك" اتهم البدويات بارتكاب أثم عظيم حين لا يبذلن مزيداً من الجهد كي يبدون جميلات. ويقول بأنهن لو تحولن إلى المسيحية فإن مظهرهن سيتحسن.

أما الفقرة التي كتبتها "غيرترودبل" فهي مهمة لأنها تشير إلى العزلة المحيطة بالمرأة المسيحية التي تملك "جمالاً استثنائياً".

النساء البدويات لا يعتبرن كنوزاً عزيزة المنال كالزوجات والبنات الأخريات في الشرق. وفي الحقيقة يبدو أنهن يتمتعن بحرية تامة بعيداً عن القيود التي تفرضها الغيرة؛ وتظاهرهن بوضع النقاب أمامي يبدو واهياً، وهن لا يثبتن "اليشمق" على الوجه -في اعتقادي- كما ينبغي أبداً؛ وحين رأينني في البداية امسكن بطرف ردائهن الواسع ورفعنه بيد واحدة فوق الوجه، لكن نادراً ما يواظبن بثبات على إخضاعي لمثل هذا الحرمان. يالتلك المخلوقات

[11] - "سوزان فوبلكان" في كتاب "رشدي فقير":"مظاهر الحياة اليومية في مصر"، ١٩٧٥، ص ٥٩، ٦١.

التعسة. فقبحهن يحزن، والشراسة المرعبة التي تعطي وجوه الرجال شيئاً من قوة الشخصية،تصبح في النساء المسكينات دمامة مقيتة. وفي الحقيقة فان كل المحاسن التي نعطيها للنساء- وهذا أمر يخجلنا- تنحصر في أولئك اللاتي يملكن قسطاً من الجمال والرشاقة. باستثناء إشارتنا طبعاً إلى حب الأم لابنها ، هؤلاء النسوة من العرب دميمات جداً ويفتقرن إلى الرشاقة لدرجة يبدو لي فيها أنهن يلائمن عالماً مثالياً آخر لا علاقة له بعالمنا هذا. وقد يكون فيهن الكثير من الصلاح والطيبة طالما نحن في صدد الحديث عن الفضائل الصغرى، لكنهن أهملن بشكل فاضح الواجب الأساسي للمرأة في هذه الدنيا الزائلة وهو أن تبدو جميلة، ولا أستطيع أن اصفح عنهن من أجل ذلك؛ ويبدو أنهن يشعرن بعبء هذا الذنب ولذلك تجدهن أحياناً نادمات حقاً. كنت أملك السيطرة التامة على عواطفهن،ففي أية لحظة كنت أستطيع أن اجعل قلوب العذارى تقفز من صدورهن،وكذلك قلوب العجائز بإعطائهن حفنة من التبغ. ومع هذا صدقوني، لم ينفذ مخزوني من التبغ فقط في الأمسية الأولى التي أمضيتها بصحبتهن . البدويات لا يتبعن ديناً معيناً وقد سبب لهن ذلك جزئياً دمامة وقبحاً. وربما لو تعلمن من المسيحيات كيف يصلين لغدت أرواحهن أكثر لطافة ، وأجسادهن أكثر رشاقة وجمال.[١٢]

قال انطونيوس الورع الذي حج إلى بيت المقدس في أيام جوستنيان:

إن اليهوديات في هذه المدينة قد أخذن كل الجمال حتى لم يبق منه شيء لسواهن في البلاد الأخرى. ذلك الجمال وهبته لهن السيدة العذراء عليها السلام التي يعتبرنها أماً لهن. ونفس الشيء يقال في أيامنا هذه عن المسيحيات المقيمات في القدس وبيت لحم. وبالتأكيد فان جمالهن متفوق على جمال الفلاحات المسلمات في القرى المحيطة.والفتيات النصارى أكثر شبهاً الإيطاليات منهن بالعربيات، وهن عموماً مليحات جداً.

---

١٢ - "ايه. و . كينغليك": "إيثون"، ١٩٨٢ (ط.أ. ١٨٨٤،)، ص ١٣٣-١٣٤.

لكن هناك طرقاً أخرى لتفسير هذا الأمر غير نظرية الأسلاف الصليبيين. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن العرق المختلط، نصف الآري، قد وجد في سوريا منذ القدم بسبب الأسلاف الإغريق أو الرومان أو الفرنجة، والعيون الزرقاء التي توجد في سوريا قد تكون نتيجة لاختلاط لاحق بالدماء الأوروبية. وأعتقد أنه يجب إعطاء هذه الحقائق قيمة أكبر من مجرد مقارنة هذه العيون مع العيون الزرقاء والخضراء للصور الباهتة في "الكرنك" الذي بناه الكنعانيون.[13]

هنالك جو من الجلال يلف المكان، وهو يأتي حتماً من وجود نسبة كبيرة من السكان المسيحيين. وحين دخلنا إحدى القرى وجدنا السكان جديرين بالاحترام، فالقذارة والبذاءة المسيطرين على معظم الأماكن في الشرق لا وجود لهما هنا. وعندما مررنا بالنبع، ربما يكون نفس النبع الذي نهلت من مائه السيدة مريم، كان منظر النساء حوله بديعاً ولطيفاً. كانت وجوههن المشرقة مليحة، وحتى هذا اليوم فإنهن يستحقن السمعة الحسنة التي تمتدح جمالهن. هذا ما فعلته السيدة مريم حين وقفت في أمسيات عديدة تتجاذب أطراف الحديث مع جيرانها، وقد ملأ الشعور بأنها والدة المسيح صدرها.[14]

في العاشرة انفض الجمع وبدأ يوسف مدّ "اللحف" كي أنام. لم أر حتى ذلك الوقت مضيفتي، وهي امرأة جمالها استثنائي، طويلة القامة، في وجهها الدائري بعض الشحوب،وعيناها الواسعتان تلتمعان كنجمتين. كانت ترتدي ثوباً عربياً أزرق اللون، ضيقاً وطويلاً يلف كاحليها حين تمشي، وتضع نقاباً من القطن كحلي اللون تلفه بمنديل أحمر حول جبينها ويسقط خلفها ملامساً الأرض تقريباً. أما ذقنها ورقبتها فتزينهما أشكال لطيفة موشومة بصبغ أزرق نيلي على عادة البدويات. أحضرت مضيفتي الماء وصبته على يدي، ثم مشت في الغرفة بصمت وجلال، وبعد أن أنهت خدمتها خرجت من الغرفة بصمت كما

[13] - "سي . آر . كوندر": "فلسطين"، ١٨٩٩، ص ٩٤-٩٥.

[14] - "ادوارد.اس. دي. تومبكينز": "عبر مملكة داوود"،١٨٩٣،ص ٢٤٨-٢٤٩.

دخلت، ولم أرها بعد ذلك. يقول أحد الشعراء ما معناه- وكان قد دخل السجن في مكة: "دخلت علي وحيتني وحين ودعتني ودعتني روحي معها". لا تظهر زوجة يوسف أمام مخلوق، ومع أنه مسيحي لكنه يبقيها داخل عزلة أشد قسوة من تلك المفروضة على المسلمات، وربما هو على حق في ذلك.[١٥]

الفقرتان التاليتان تعكسان موقفاً تكرر مراراً تجاه المظهر الجسدي لليهوديات في شمال أفريقيا. أما عند الكتابة عن اليهوديات في فلسطين فقد وجد الكتاب أنفسهم ممزقين بين مشاعرهم المعادية للسامية وبين رغبتهم بوصف جمال اليهوديات حسب التعابير التوراتية. كاتب الفقرة الثالثة يعكس هذه المشاعر، فبعد أن أظهر اشمئزازه من اليهوديات في استانبول انتشى بالمظهر التوراتي لليهوديات في فلسطين.

لليهوديات نفس المنظر المرعب الذي تملكه الجزائريات. وفرصة الانتقاد هنا شائعة؛ لأن مسلمات وهران بدلاً من أن يسترن الوجه بالنقاب تحت "الحَيْك"، وينزلن الحجاب من الرأس كي يغطي الجبهة حتى الحاجبين، فأنهن لا يلبسن "الحيك" ولكن يمسكن بالحجاب باليد ويغطين الوجه كاملاً بعد أن يتركن عيناً واحدة فقط ظاهرة للعيان. يتطلب الحفاظ على المظهر المألوف بعض الجهد، كما يجلب الكثير من الانتباه؛ والتخلي عنه لا يرجع عادة إلى التكاس أو الفضول أو المباهاة....[١٦]

تسد الأزقة الضيقة، بشكل مفاجىء، كائنات بدينة تلمس بأردافها وأكتافها الجدران

---

١٥ - "غيرترود بل":"البادية والحضر"،١٩٨٥، (ط.أ.،١٩٠٧)،ص ٢٠-٢١.

١٦ - "القس جوزيف ويليام بليكزلي": "أربعة شهور في الجزائر"، ١٨٥٩، ص ١٦٤-١٦٥.

على جانبيها حين تتمايل في مشيتها وهي ترتدي غطاء للرأس مستدقاً في قمته، يكون

عادة فضياً أو ذهبياً، ويبدو مثل القبعة التي تلبسها الساحرات، مع وشاح يتدلى من الخلف إلى الأسفل. أجسادها الضخمة عبارة عن كتل مكتنزة من اللحم العارم، تحت القمصان الملونة الفضفاضة التي تضمها. أما الفخذان البشعان فيحتويهما سروال أبيض يلتصق بالجسم، في حين أن ربلات الساقين منتفخة حتى الكاحلين من كثرة الشحم،وتبدو فوقها الجوارب وكأنها غمد فضي أو ذهبي .

تمشي تلك الكائنات بخطى قصيرة وثقيلة، مرتدية أحذية بلا أربطة تجعلها تجر قدميها جراً لأنها تغطي نصف الأقدام فقط، فتخرج معها الأكعاب وتدخل مع كل خطوة. هذه المخلوقات الغريبة المنتفخة هي اليهوديات، اليهوديات الفاتنات[١٧]

عند مرورنا في الحي اليهودي كنا نقابل فتيات ذوات جمال مميز. هؤلاء اليهوديات يختلفن إلى حد بعيد عن اليهوديات القبيحات في استانبول، لأنهن حافظن بأمانة مدهشة على تعابير وملامح الوجه التي تجسد الخصائص الأساسية للنموذج اليهودي. وما علمناه من الوثائق التاريخية، وتماثيل المبدعين القدماء نجده حياً هنا. العيون الواسعة الداكنة، اللطيفة والرقيقة، اللوزية الشكل ، والجمال المهيب والجامح في الوقت ذاته. من المؤكد أن "ايستر" حين قابلت "اهاسيروس" كانت تبدو تماماً مثل هؤلاء.[١٨]

صفحات عديدة كتبت حول المظهر الخارجي للمرأة الشرقية، والكثير منها يصف بشكل مطول ومفصل ثيابها وحليها والوشم على وجهها وغير ذلك. حيث أن مظهر النساء في اللباس التقليدي قاد الرحالة للاعتقاد بأن ذلك يجسد ثقافة استمرت دون

---

١٧ - "غي دو موبسان": "حياة الترحال"، ١٨٩٠، ص ١٤٦-١٤٧.

١٨ - "يوجين ميلشوار دو فوغ": "سورية وفلسطين"،١٨٧٦، ص ٣٠-٣١.

تغيير عبر القرون- فالعيون المكحولة استحضرت صورة "ايزابيل" أو الآلهـة الفرعونيـة والثوب المتهدل الأزرق يذكر بصورة مريـم العـذراء وهكـذا ... إن الوصـف الـذي قدمـه "اوستاش دو لوري" و "دوغـلاس سـلادن" يعتـبر تقريـراً نموذجيـاً للمكيـاج وتـسريحة الشعر مدعماً بأدق التفاصيل التي يمكن أن يستخدمها مصمم للأزياء في المسرح. "يزوبل بيرتون" استعارت مواقفها الثقافية لتلوين وتصميم أزياء النساء السوريات التي وصفتها.

ماذا يعني أن تُكحّل المرأة عينيها كما تفعل اليهوديات؟ ببساطة : هذه هي الطريقة المفضّلة - حالياً وفي الماضي - لتجميل الوجه عند نساء هذه البلاد. التكحيل هو صبغ الجفون بـالكحل الأسود ثم تخطيطها بالقلم بعد ذلك لتأخذ العين شكل اللوزة. هذه العادة قديمة قدم التـاريخ، ويمكن مشاهدة آثارها حتى في أقدم المدافن الفرعونية، فهي تضفي علـى العـين بريقـاً مميـزاً، وعلى الوجه مظهراً حانياً ومحبباً.[١٩]

ماهي إذن مواصفات الجمال الخاصة بالمرأة الفارسية حين تُنزع عنها مبالغات قصائد الشعر الشرقية؟ إن النموذج الجمالي المقبول عموماً في بلاد فـارس يتصـف بالوجـه الممتلـئ البيضـوي والعيون السوداء الواسعة اللوزية الشكل والتي تملك ما يكفي من بريق وغموض ولا تحتـاج إلى الكحل الذي يحيط بها دائماً، والجفون السميكة الناعسة خلف الرمـوش الطويلـة الـتي تلقـي بظلها على الوجه؛ والحواجب المقوسة المنتظمة التي يُمدُّ انحناؤها بالصبغ وتسـتدق تدريجيـاً عند الصدغين، مع أنهما يلتقيان تقريباً فوق بداية الأنف، حيث تُرسـم ببراعـة بقعـة زرقـاء على شكل نجمة للفصل بينهما. والأنـف صغير ومعقوف قليـلاً، ويضيـع أحيانـاً بـين ألـوان الخُزامى القرمزية على الوجنات، وهي طبيعية كانت أو صناعيـة، تضـاهي في حدتهـا بريـق الشفتين العارمتين بالشهوة. والبشرة حليبية بيضاء، واذا ما فشلت الطبيعة في جعلها بيضـاء فإن المساحيق تتكفل بذلك. والمرأة الفارسية ترسم بالألوان على وجنتيها بقعة زرقـاء أخـرى،

---

[١٩] - "و.ام. تومسون": "الأرض والكتاب المقدس"، ١٨٩٠٤٦١.

نجمية الشكل، كالتي ترسمها على الحاجبين. ونادراً ما تكتفي بما وهبتـه الطبيعـة لهـا مـن جمال. وقبل بضع سنين أصبحت مساحيق التجميـل "موضـة قديمـة"، وبـدأت نسـاء الحريـم بوضع رغوة الصابون العادي على الوجه وتركها حتى تجف وبذلك تتألق البشرة وكأنها طليت "بالورنيش" وكان من المقبول بـه أن يشـرق الوجـه "كـالبدر"؛ لكـن الصعوبـة الواضحـة الـتي تعترض هذه الطريقة أفقدتها انتشارها، واستعادت مساحيق التجميل رواجها الأبدي. للمرأة الفارسية شعر ناعم جداً، غزير وطويل وهو عادة بلون أسود فاحم. ومع ذلـك فهـي لا تـتردد بصبغة بالحناء لجعله أصحر، أو بالوسمة لاعطائه لون مائل إلى الزرقة، أو بكليهمـا معـاً في كثير من الأحيان. والشعر الذهبي لا يحظى بالإعجاب- فالقلة مـن النسـاء الشـقراوات يخجلن بشعرهن الأشقر الـذي لا يعجـب الأزواج أبـداً. والفارسـيات مغرمـات أكـثر مـن غيرهن بصبغ الشعر. وفي "الحمّام" فقط تغسل الفارسية شعرها أو تصبغه، ويبقى الشـعر على حاله ولا يُلمس أبداً في الأيام الأخرى. وفي نفس الوقت تستغل الفرصة فتصبغ كفيهـا وأصابع يديها الناعمتين الصغيرتين، وكذلـك أصـابع قدميهـا الجميلتـين وكاحليهـا. أمـا طريقتها في تصفيف شعرها فمميزة، تفرقه عند منتصـف الجبـين ليتهـدل علـى جـانبي رأسها مشكلاً خصلاً صلبة بطـول خمـس بوصـات تقريبـاً علـى جـانبي الوجـه لتكـون في نهايتها عقدتـين فـوق الوجنتـين. وأحيانـاً يقـص الشـعر بشـكل "غـرة" مسـتقيمة فـوق الجبين، بينما يفرّق الشعر الأسود في عدد لا يحصى من الضفائر الصغيرة المشدودة تنتهي بشرائط من "ترتر" لمّاع أو "شـرابات" مـن لؤلـؤ تلامـس الأرض. وبمـا أن الشـعر الطويـل يحظى بكثير من التقدير، تقوم الفارسية، مثلها مثل المرأة الإغريقية، عدوتها القديمة، بإطالة ضفائرها باستمرار مستخدمة في ذلك الشعر المستعار، وان كانت ترفض اسـتعمال شعر الخيل لهذا الغرض... ربما يكون السبب وراء إحاطة وجههـا بمنديـل مـن الشـاش الأبيض هو أنها تريده شبيهاً بالهالة التي تحيط بـالبدر في الليلـة الرابعـة عشـرة. هـذا القماش يجب أن يحيط الوجه بشكل أقرب ما يكون إلى الدائـرة الكاملـة، في حـين يظهـر الشعر على الجبين وكأنه جناحا غراب أسـود، كمـا أنـه يخفـي الأذنـين ويـترك عقدتـي

الضفيرتين تظهران. أما طرفا المنديل فيتقابلان تحت الذقن، حيث يجمعان معاً بواسطة حلية على شكل "بروش"، ثم يتدليان فوق الحنجرة والأكتاف، وهذا ما يعطي نساء فارس المظهر الكهنوتي للآلهة الفرعونية.[20]

فناء الدار حاشد بالحضور، والبهاء يلف كل ما فيه؛ أشجار البرتقال والليمون والياسمين؛ الشرفات؛ والنباتات المتسلقة بشكلها الزخرفي المتألق. تجلس النساء، كما جرت العادة، متربعات على صف من الأرائك المحيطة بالفناء، بلباسهن البديع المصنوع من كل أنواع الحرير وألوانه، صدورهن العامرة البارزة مزينة بالحلي والجواهر التي تغطي بصورة خاصة رؤوسهن أيضاً. النساء هنا يرتدين كل ما تقع عليه أيديهن بغض النظر عن تناسق الألوان أو تناسب الأشكال، وهن مغرمات بشكل خاص بخياطة مجموعة من الأقراط فوق "التربان" (قلنسوة صغيرة دون حواف)، حجارتها الكريمة متألقة وإن كانت متنافرة. وهذا التجاهل للتناسب والتناسق في الألوان لا تحتكره اليهوديات فقط، لكنه يمتد ليشمل جميع النساء في سورية بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمين إليها، وكأنهن يتعمدن ارتداء الألوان المتنافرة- ثوب أزرق وسترة خضراء وغطاء أصفر للرأس، فكل الألوان؛ وردية أو حمراء، زرقاء أو أرجوانية، متشابهة عندهن، لا يميزن بينها فروقاً، ويشعر المرء أمامهن وكأنه يجلس في حديقة. ثم تتوج كل هذه الألوان المتنافرة بمجموعة من الألماس تفتقد التناسق قد يزيد ثمنها على عشرين ألف جنيه. بعضهن يملك جمالاً مفرطاً لكنهن جميعاً متشابهات في المظهر الخارجي. وبعيداً عن الجمال والقبح، عليك الانتظار حتى تتعود رؤية تلك الوجوه وتألفها كي تستطيع أن تميز بينها.[21]

من الملاحظات التي يزج بها الكتاب دوماً في الفقرات التي تتحدث عن الأزياء (كما تظهر الفقرة الأولى التالية) هي أنه مهما كان لباس المرأة جميلاً، فهو يفسد مظهرها

---

[20] - "أوستلش دو لوري" و "دوغلاس سلادن": "عجائب من بلاد فارس"، ١٩٠٧، ص ١٠٤-١٠٦.

[21] - "ايزوبل بيرتون"، "الحياة من الداخل في سوريا وفلسطين والأراضي المقدسة"، ١٨٧٥، الجزء الأول، ص ١٤٢-١٤٣.

لأنهاتجر أطرافه على الأرض جراً. وهذه التهمة لم توجه أبداً للرجال- إذا لم يتوقـع أحـد منهم بالطبع أن يظهروا وكأنهم خارجون لتوهم مـن إحـدى اللوحـات الإيطاليـة الـتي تعود إلى عصر النهضة. المربية "ايميلين لوت" ذهبت أبعد من ذلك وصرحت بأنه مهما كانت درجة الأناقة التي تظهر بها النساء الشرقيات، فهـن أصـلاً غـير نظيفـات. في الفقرة الثالثة يطبق الكاتب هذه الصورة على الشرق كله بشكل مطلق.

في طريق العودة إلى القرية قابلنا بدوياً يقود حصانه، وامرأته التي تسير على مسافة خلفه. كان الحصان محملاً بعدلين وأكداس لا يمكن وصفها من الثياب ومعدات الخيم. كانت الكوفية السوداء تتدلى فوق وجه البـدوي، بينمـا ألقـى علـى كتفيـه عبـاءة سـوداء وبنية يلامس أحد طرفيها الأرض، ويتدلى طرفها الآخر من فوق يده. وجهه الذي لوَّحته شمس الصحراء كان داكن اللون به عبوس وإشراق وقسوة ويفتقر إلى الرقة التقليدية الـتي تطبع وجه العربي عموماً. اما المرأة فكانت ترتدي ثوباً طويلاً بدوياً كحلي اللـون بأكمـام واسعة يمكن أن تشكل غطاءً للرأس. شعرها البني القاتم كـان غزيـراً ومجعـداً بتموجـات خفيفة، وقد افترق إلى قسمين كثيفين عند الصدغين، يتدليـان بضفيرتين ثخينتـين فـوق الصدر. عيناها بلونهما الأزرق _الرمادي ورمشهما الداكن، يغطي جفنيهما الكحـل ممـا يعطي محجريهما شكلاً أوسع وأكبر. أنفها صغير، رغم أنه يعرض قليـلاً عنـد فتحتيـه، إلا أن قصبته تنتصب في منتصف الوجه لتعطيه مظهراً رقيقاً.

الشفة العليا صغيرة، والسفلى ناتئة، في حـين يعطـي الوشـم حـول الفـم شـكلاً مغريـاً للشفاه والذقن. لقد كانت جميلة، بقدهـا المشـوق الشـبيه بالتمـاثيل ومشـيتها وكتفيهـا المـائلين وصدرهـا النـاهد المكتـنز الـذي تلتصـق بـه الطيـات التقليديـة لثوبهـا الطويـل الفضفاض. لكن نهاية الثوب حول قدميها العاريتين قذرة وممزقة من كثرة ما جرته على الأرض، فذيل الثوب الطويل الذي ترتديه البدوية الحسـناء وتجره عـلى الأرض خلفها

قذر إلى درجة يضيع معها لونه الأصلي.[22]

من المستحيل تقريباً تخيل السرعة التي تُنجز فيها صاحبات السمو الأميرات،وكل نساء الحريم، والخادمات، وحتى أدنى فتاة في حجرة غسل الأطباق، تحولهن من فتيات قذرات إلى "فاتنات الشرق!"، وهذا ما يحدث حين تصل التلغراف الكهربائي إلى الحريم معلنة قدوم صاحب السمو الخديوي اسماعيل باشا. يبدو الأمر وكأنه عرض إيمائي يلمس فيه المهرج بعصاه السحرية نساء الحريم فيسري داخلهن تيار كهربائي. وبغمضة عين يستبدلن الملابس القذرة الملطخة المتجعدة بملابس من حرير تشع بهاءً، تزينها الجواهر الماسية المتلألئة. هذا التحول الخاطف لا ينجز عادة على طريقة المهرجين في المسرحيات الإيمائية وذلك بتغيير الملابس كلها، ولكن بارتداء الثياب الفاخرة الجديدة فوق الملابس الرثة القديمة.[23]

تبدو المدينة الشرقية النموذجية وكأنها غطت نفسها فجأة، امتثالاً لأمر أصدره ملك الملوك. بطبقة خارجية رقيقة غربية الملامح تلفها كغلالة شفافة أُلقيت بلا مبالاة فوق ثوب رث قديم. وكأن أرملة ترتدي أسمالاً مبهرجة لبست فوقها عباءة من قماش رقيق وجميل. المدينة في الشرق سوف تظل في أعماقها آسيوية دائماً، أما التأثيرات الغربية فستبقى قشرة رقيقة على سطحها. جو الشرق بقي ذاته لم يتغير ولا يمكن تغييره تحت تلك القشرة الخارجية.[24]

بالنسبة للحجاب الذي أثر تأثيراً بالغاً على تصور الغربيين للنساء في الشرق، كان

---

[22] - "ايه.سي.انشبولد": "تحت شمس سوريا"، ١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٤٤١-٤٤٢).

[23] - "إيميلين لوت": "حياة الحريم في مصر والقسطنطينية"، ١٨٦٥، الجزء الأول، ص ٢٥٦-٢٥٧.

[24] - "اف.بي.برادلي.بيرت":"عبر بلاد فارس"، ١٩٠٩، ص ٢٧٤.

رد فعل الرحالة عليه عجيباً وغريباً. فقد كان نفس الكاتب يبدي حيناً أسفه لما يمثله الحجاب من قيود على النساء، وفي اللحظة التالية يوصي النساء الدميمات بارتدائه . أما ما تمثله الثياب الغربية- "الكورسيه" والمشد مثلاً- من تضييق وضغط فلم تخطر على بال الرحالة قط، إلا في حالة التجربة التي مرت بها "الليدي ماري ورتلي مونتاجيو" في الحمام التركي (أشير إلى الحادثة في مقدمة الكتاب).

يبدو أن النقاب يشكل أهم أجزاء ملابس النساء: فاهتمامهن الأول ينصب دائماً على إخفاء وجوههن. وهنالك العديد من الأمثلة حول نساء فوجئن وهن عاريات فغطين بلهفة وجوههن دون إظهار أدنى اهتمام بتغطية الأجزاء العارية من أجسادهن. والفلاحون في مصر لا يُلبسون بناتهم قمصاناً حتى يصلن إلى سن الثامنة. وكنا كثيراً مانرى فتيات صغيرات يركضن عاريات ويحدقن فينا حين نمر: لم تكن واحدة منهن سافرة، فكلهن محجبات، لأن الحجاب جزء لا يستغنى عنه عند الجنس الأنثوي، وهو عبارة عن قطعة من القماش طويلة مثلثة الشكل تثبت على الرأس وتنسدل منه لتغطي الوجه كله ماعدا العينين.[٢٥]

من المستحيل وصف البؤس المخيم على أكواخ الطين التي يتشكل منها عدد من القرى، وكذلك حالة التعاسة الاستثنائية التي يعيشها الأهالي على طول ضفتي النيل. وضع النساء خصوصاً هو أكثر الأوضاع بشاعة ومدعاة للأسف، حيث يضعن منديلاً فوق الرأس، ويلبسن ثوباً واسعاً أزرق اللون من قماش خشن، وقطعة قماش سوداء طويلة- النقاب- تُرفع وتُسدل كالستارة لإخفاء معظم أجزاء الوجه، ولا سيما ذلك الجزء من مقدمة الفم الذي غدا لونه بنياً بفعل اللعاب. راقبت العديد من النساء يغسلن أسمالاً رثة في مياه النيل، وكن على درجة كبيرة من الحذر لإخفاء وجوههن عندما يلاحظن وجود أشخاص غرباء في الجوار. هؤلاء

[٢٥] - "ام.نيبور": "رحلات عبر البلاد العربية"، ١٧٩٢، الجزء الأول، ص ١١٨.

النسوة في الواقع يظهرن نفس الخجل الذي يصيب نساء الريف الجميلات عندنا حين يفاجئهن شخص وهن بملابس النوم داخل الغرفة التي يتزيّن فيها.[٢٦]

يالمنظرهن الجميل، هؤلاء النسوة بثيابهن السوداء الحريرية، التي يبدون بها كالأشباح. الحجاب الطويل هنا لا يغطي كل الجسد كما هي العادة عند المسلمات، فهن يضعنه فقط فوق شعورهن ويتركن ملامح الوجه الرقيقة، والقلادات الذهبية، والسواعد التي تزين معاصمها أساور سميكة مبرومة من الذهب الخالص، يتركنها عارية دون غطاء. وهن بما يملكن من أصالة مصرية حافظن على نفس شكل الوجه الرقيق، والعيون الواسعة التي تميز الآلهة القديمة التي نُقشت صورها بشكل بارز على الجدران الفرعونية.

لكن بعض الشابات -للأسف- نبذن الأزياء التقليدية ولبسن الأزياء "الإفرنجية" من أثواب وقبعات مزينة بالأزهار. ويالها من أزياء يزدريها الفلاحون حتى في أفقر قرانا! لماذا لايقوم أحد بإخبار أولئك الشابات المسكينات اللاتي باستطاعتهن أن يكن فاتنات، بأن الحجاب الأسود بطياته الجميلة يعطيهن فتنة وشكلاً مميزاً، في حين أن هذه الأزياء المستوردة التي يبدون فيها وكأنهن في مهرجان الصوم الكبير لا تستدعي منا سوى الشفقة.[٢٧]

النساء هنا يرتدين -في الشارع- قناعاً غريباً أسود من السّبيب الرقيق المنسوج (شعر الخيل). وهو يخفي -عملياً- الوجه لكنه يسمح بمرور الهواء بحرية، ومن خلاله يستطعن رؤية كل ما حولهن، وخلف هذه الستارة التي تعطي مظهراً ودوداً، يبدو الصبا والشيخوخة، والجمال والقبح متشابهاً وفي مأمن من تحديق الفضوليين ونظرات الازدراء. كنت أضحك أحياناً عندما يحدث طارىء يضطر احداهن لكشف نقابها،وأرى خلفه وجهاً

---

[٢٦] - "ويليام راي ويلسون": "رحلات في مصر والأراضي المقدسة"، ١٨٢٣، ص ٧٧.

[٢٧] - "بييرلوتي": "مصر"، (بدون تاريخ)، ص ١١١.

أكثر سواداً من القناع نفسه.[28]

عدنا الآن إلى القاعة التي خلعنا داخلها في البداية معاطفنا. كانت النساء يرتدين أثواباً حريرية وصوفية. رائحة البخور تعبق في المكان، وفناجين القهوة المرة الساخنة تقدم لنا مع النراجيل. ثم تتقدم امرأة وتدلك جسمك كما تفعل بالعجين، وعندها يغلبك النعاس وكأنك منوم مغناطيسياً. وإذ تستيقظ على جلبة الموسيقى والرقص تجد الفتيات يطارد بعضهن بعضاً، ويأكلن الحلوى، والمكسرات ويستمتعن بكل أنواع المسرات... أنت على حق، ليس في ذلك ما يستهويك. بل على العكس تماماً، فمنظر هؤلاء النسوة الجالسات على الأرض، بخصلات شعورهن المصبوغة بلون برتقالي لامع، وأصواتهن الخشنة بكل ما تحدثه من ضجيج، هو في الواقع كريه ومنفر. ترى، كم عليهن إن يشكرن الظروف لوجودهن داخل مؤسسة الحجاب؟[29]

ربما يكون للحجاب مزيتان. ففي بلاد لاتحظى فيها النساء عادة بأي اهتمام، من المؤكد أنه وسيلة بارعة لإظهار الدلال والغنج، وان كانت لا تستخدم إلا نادراً بسبب بقائهن دائماً داخل لالبيت، فالخيال النشط يذهب بعيداً وراء الواقع.الحجاب اذن يثير الرغبات، وهو حين يخفي كل شيء يبقى الأمور في مجال الحدس والتخمين . أما المزية الأكثر فائدة للحجاب فهي إخفاؤه الكامل للوجه. عندنا مثلاً تضطر الفتاة الدميمة للبحث طويلاً وربما إلى الأبد عن زوج يقبل بها. أما الحجاب هنا فهو ينقذ النساء من خيبة أمل كهذه، لكنه يصيب بها الأزواج. وهنا لا يمكن لك أن ترى وجه المرأة التي ستتزوجها، والمفاجأة التي تصيب الزوج حين يرى وجه عروسه للمرة الأولى بعد حفلة الزفاف، إذا كانت سارة حيناً، فهي مؤلمة في أحيان كثيرة. وصحيح أنه يمكن له أن يجد العزاء في الطلاق الفوري، أو في العثور على زوجة أخرى، لكن على الأقل تتأكد المرأة بأن دمامتها لن تجبرها على البقاء عانساً حتى

---

[28] – "وليام بيري فوغ": "رحلات ومغامرات في مصر والجزيرة العربية وفارس"، (بدون تاريخ)، ص ٢٢٣.

[29] – "ايزوبل بيرتون": الحياة من الداخل في سوريا وفلسطين والأراضي المقدسة، ١٨٧٥، الجزء الأول، ص ١٤٥–١٤٦.

النهاية.[30]

في عام ١٨٣٦ نشر "اي.و.لين" "السلوك والعادات عند المصريين المعاصرين"، وهو كتاب اعتبر في الغرب مرجعاً يبين كيف يعيش المصريون، وكان له أثر كبير على العديد من الرحالة اللاحقين. شعر "لين" بكامل الحرية في تحليل "النمط الأنثوي المصري" وفي ما يسميه "انحطاطه السريع".

من الواجب علينا وصف الملامح والشكل العام للنساء. فبين سن الرابعة عشر والثامنة عشر يكن عموماً آية من آيات الجمال، لكن بعد اكتمال نموهن ينحدر جمالهن بصورة مأساوية؛ فالصدر بفقد جماله، ويكتسب، نتيجة لطبيعة المناخ المحرضة على الاسترخاء، شكلاً مفرطاً في تهدله وتسطحه، حتى حين يحتفظ الوجه بسحره الكامل؛ ورغم أن الزمن في كثير من الأحوال الأخرى لا يشوه عموماً شكلهن بقسوة وسرعة، لكن حين يبلغن الأربعين من العمر فان الكثيرات ممن كن يملكن جاذبية كبيرة يصبحن دميمات بكل ما تحمله الكلمة من معنى.[31]

"أما "لوسي دوف غوردون" فقد حاولت أن تعطي صورة أكثر توازناً في واحدة من "رسائلها".

"من بين كل الافتراءات التي سمعتها عن الشرق، يُعتبر القول بأن نساءه يتحولن إلى أكياس عتيقة حين يبلغن الثلاثين، أكثرها زوراً وبهتاناً. وقد يكون الأمر صحيحاً بالنسبة للفلاحات الفقيرات، لكن النسبة هنا لا تتعدى تلك الموجودة في ألمانيا مثلاً؛

---

[30] - "جي.بارثيلمي سنت-هيلير": "رسائل حول مصر"، ١٨٧٥، ص ١٤٧-٨.

[31] - (ص ٣٦).

وقد رأيت في الشرق الأوسط عدداً معتبراً من السيدات الجميلات أو على الأقل المقبولات من حيث الشكل ممن وصلن إلى سن الخمسين.[٣٢]

وبالرغم من هذا، فإن القول بأن المرأة الشرقية تصبح عجوزاً شمطاء ذاوية إذا بلغت الثلاثين غدا موضوعاً مبتذلاً تناقله الرحالة واحدهم عن الآخر. الفقرات التالية تظهر القليل من المشاركة الوجدانية أو الإدراك بأن الفقر، في أي مكان من العالم، ليس أفضل الوصفات للمحافظة على الشباب والجمال. أما الفقرة الأخيرة التي تضمنها كتاب ساخر لـ "جيمس كليو" صدر عام ١٩٥٥، فقد داومت على تقديم نفس الفكرة.

بعد هذا الوصف الطويل، سيسر القارئ حين يعلم بأننا نقترب من موضوع مشوق، وهو السؤال الأول الذي يواجه الرحال - "كيف تبدو النساء هناك؟" إن الحقيقة تفرض علي القول بأن النساء البدويات في الحجاز لسن جميلات بأي حال من الأحوال. ومع أن "بني عمرو" يتباهون ببعض الفتيات المليحات، لكنهن لا يرقين إلى مستوى الحسان الناهدات في نجد. وأنا هنا أحذر جميع الرجال الذين يأتون إلى الحجاز بحثاً عن وجه ساحر "لفتاة بدوية" كما ظهرت في كتابي، أحذرهم من مرارة خيبة الأمل؛ فالثوب عربي، لكن التي في داخله تبدو كالساحرة الدميمة بالنسبة للغربي، وعيون نساء الحجاز فيها الكثير من الضراوة، وملامحهن قاسية ووجوههن مهزولة، وككل سكان الجنوب، تذوي المرأة بسرعة، وعند بلوغها سن الشيخوخة تبدو حقاً كالساحرة. عجائز ذاويات في الخيام، في حين لا يُرى الرجال هناك إلا نادراً.[٣٣]

---

٣٢ - "رسائل من مصر"، ١٩٨٦، (ط .أ.، ١٨٦٥)، ص ٢٠.

٣٣ - سير ريتشارد .اف.بيرتون": "سرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة"، ١٩٠٧، (ط .أ.، ١٨٥٥)، الجزء الثاني، ص ٨٥.

ذلك الملك الذي كان مغرماً بالعذارى الفقيرات لا يتكرر كل يوم؛ فنادراً ما أجد أناساً يتعاطفون معي في إعجابي بربات الجمال القذرات هؤلاء، إذ يجب الاعتراف بأنهن قذرات بقدر ما يسبب لهن العمل الذي يزاولنه من قذارة. ولا يعني هذا بأنهن يملكن ولعاً خاصاً بها؛ فهن يغتسلن يومياً، وثيابهن نظيفة كما ينبغي لها أن تكون بالنسبة لمن لا يملكن سواها. لكن بالرغم من كل جهودهن، فهن دائماً قذرات بشكل أو بآخر، ورائحة الصباغ الذي يستخدم في ثيابهن مقززة، ولا يستطيع سوى الرحالة الذين يملكون أنوفاً تعودت شم الروائح الغريبة، المغامرة بالاقتراب منهن. ومن الجدير بالملاحظة أن لا شيء أكثر ندرة من رؤية فلاحة مسنة عليها وقار الشيخوخة. فكلهن تذبل وجوههن مبكراً ويبدون كالعجائز الشمطاوات. ليس هناك طفولة جميلة لأي من الجنسين في مصر؛ والأمر العجيب حقاً هو كيف تصبح هذه المخلوقات التعسة البارزة البطون التي تغطيها القذارة والقروح والذباب، والتي تزحف هائمة بين أكوام الروث في القرى، كيف تصبح شباباً معافين وصبايا فاتنات؟[٣٤]

أما بالنسبة لنساء هذه المنطقة فنقول إن النتيجة الواضحة لجفاف الهواء، والحرارة الدائمة تقريباً، وطوفان الضياء المتواصل الذي يغمر ويحفّز كل شيء، هي إن المرأة هنا بالمقارنة مع مثيلتها في أوروبا تُدفع لتطور مبكر، ونضج سابق لأوانه، وبالتالي، وهذه هي النقطة الرئيسية والعامل المؤثر، إلى انحطاط مبتسر وشيخوخة مبكرة. وبإبراز إحدى الخواص الظاهرة والاستثنائية، نجد أن هذا المناخ يمدد ويجفف ويذوي ويغضن البشرة بسرعة ومقدار لا نعهدهما في مناطقنا الأكثر اعتدالاً ورطوبة. فالمرأة تحت هذه الظروف المرهقة تهرم بسرعة. بين سن التاسعة والعاشرة تكون المرأة في سن النضج وتتزوج غالباً في مثل هذا العمر أو بعد ذلك بقليل. وتكون في أفضل حالتها في سن الخامسة عشرة،ويبدأ الانحطاط في سن العشرين، وتبدأ إمارات الكبر في الخامسة والعشرين...

إن القول بأن "مرور السنين لا يذوي شباب المرأة" هو بالتحديدمناقض لخصائص العرب.

---

[٣٤] - "بايل سنت جون": "حياة القرية في مصر"، ١٨٥٢، الجزء الأول، ص ٩٤-٥١.

وإلا لما انتشر مبدأ تعدد الزوجات فوق هذه البقعة الشاسعة من سطح الأرض. في مناخنا البارد والرطب والغائم تسود ظروف مختلفة تنتج أثاراً مختلفة، فعندنا تصل المرأة ببطء إلى سن النضج، و تخوض معركة عنيفة، وهذه هي النقطة الهامة، ضد هجوم السنين، و لا يملك الرجل أية مزايا يتفوق بها على المرأة في هذا المجال، و عندما تصل إلى سن الزواج لا تكون طفلة ذات عشر سنين، بل امرأة ناضجة في العشرين تتمتع بشخصية قوية تؤمن لها حقوقها بعد أن حصلت على ما يكفي من المعرفة، و النتيجة هي أن الرجال عندنا لا يشعرون بضرورة تعدد الزوجات، و حتى إذا ما أرادوا فإن النساء لا يسمحن لهم بذلك. هكذا تماما ! إن الطبيعة هي التي جعلتنا نؤمن بفكرة الزواج من امرأة واحدة، و لا يمكن لدين أن يقبل في أوروبا و يشرع قوانين تحابي الممارسة المعاكسة. لأنه من الواضح، وكل الرجال يوافقون على هذه النقطة، إن مبدأ الاكتفاء بزوجة واحدة هو أنسب نظام لنا. أما انتشار العادات العربية في الجزء الأوروبي من تركيا فهو الاستثناء الذي يثبت القاعدة.[٣٥]

الفلاحون من الناحية الجسدية- مع بعض الفروق البينة لصالح فلاحي الوجه القبلي مقارنة مع فلاحي الوجه البحري- سلالة قوية البنيان، فمتوسط طول الرجل يتراوح بين خمسة أقدام وثمان بوصات وخمسة أقدام وتسع بوصات. وكذلك متوسط طول المرأة معتدل نسبياً. وقبل سن التاسعة أو العاشرة تكون أطراف الأطفال هزيلة جداً وبطونهم بارزة،ولكن عندما يبدؤون بالنمو تتحسن أشكالهم بسرعة، وفي سن النضج تملك الأغلبية منهم أجساداً متناسقة، ووجوهاً بيضاوية مليحة، وعيون سوداء متلألئة، وأنوفاً مستقيمة، وثغوراً واسعة لكن حسنة الشكل، وشفاهاً مكتنزة، وأسناناً ناصعة، وأكتافاً عريضة، وأطرافاً جميلة. وبدءاً من سن الثانية عشرة -وهو العمر المعتاد للزواج- وحتى الثامنة أو التاسعة عشرة، تأخذ كل النساء تقريباً شكلاً رائعاً، والكثيرات منهن جميلات حقاً؛ لكن ما إن يتجاوزن "سن المراهقة حتى يذوين بسرعة"، وكقاعدة عامة يصبح مظهرهن أفضل قليلاً من منظر العجائز اللاتي تملأ

---

[٣٥] - اف.برهام زنكي": "مصر الفرعونية ومصر الخديوية""، ١٨٧٣، ص ٣٧٧-٣٧٩.

التجاعيد وجوههن، قبل أن يصلن إلى سن الثلاثين- وهي حقيقة استخدم كاتب معاصر كل تحرره وفلسفته لجعلها عذراً لتعدد الزوجات...."[٣٦]

النساء اللاتي ينزلن إلى النهر بين الحين والآخر لتعبئة الماء في جرار فخارية يحملنها (تعبئة وحمل الماء هما عصب الحياة والمهنة الأساسية في مصر هذه، وهي بلاد دون أمطار وبلا ينابيع متدفقة وتعيش على نهرها فقط) هؤلاء النساء يمشين ويقفن برشاقة لا تضاهي حجابهن الأسود الذي يتجرجر على الأرض حتى خلف أشدهن فقراً، تماماً مثلما يسحب الرداء الملكي. في هذه البلاد المشرقة، بأراضيها التي تبدو عن بعد بلون وردي، من العجيب أن نرى اولئك النسوة، بألوان ملابسهن الكئيبة، كثياب الحداد، في الحقول الزاهية، والصحراء القاحلة. مخلوقات تعمل كالآلات، كلهن جاهلات، ومع ذلك يملكن بالغريزة-كما فعلت قبلهن فتيات الإغريق- حساً بالنبل في الحل والترحال. لا تستطيع أي من نساء أوروبا ارتداء مثل هذه الأقمشة السوداء الخشنة بهذا التناسق المهيب، ولا أن ترفع ساعديها العاريين لوضع الجرار الثقيلة المملوءة بماء النيل فوق رأسها، ثم تغادر ضفة النهر بزهو وخيلاء وقدها اللدن ينتصب تحت حملها الثقيل. الرداء القطني الذي ترتديه النساء هو دوماً بلون أسود كالحجاب تماماً، مزين ببعض التطريز الأحمر أو موشى بالترتر الفضي، ومن خلال فتحة ضيقة تمتد من الصدر إلى منطقة الخصر، يظهر الجسم بلون العقيق، والثديان المكوران بلون برونزي باهت، وهما اللذان كانا على الأقل خلال عهد الصبا الزائل بديعين في شكلهما. لكن الوجوه في الحقيقة، حين لا يحجبها عنك نقاب ، هي بشكل عام مخيبة للآمال. وبسبب العمل المرهق، والأمومة المبكرة، والإرضاع، سرعان ما يشخن ويذوين. لكن إذا ما صادفت شابة فستجدها دوماً تجسيداً للجمال، بقدها الأهيف الطافح بالحيوية."[٣٧]

رأيت اثنيتن أو ثلاث نساء استطعن المحافظة على جمالهن حتى بلغن الثلاثين، لكنهن كن الاستثناء، وفي حالة التعميم يجب تجاهل الاستثناءات. يا للورود المسكينة

---

[٣٦] - "جي.اس.ماكون: "مصر كما هي"، (بدون تاريخ)، ص ٢٣.

[٣٧] - "بيير لوتي": "مصر" ، (بدون تاريخ) ص ١٢١-١٢٢.

الذابلة! إن العزاء الوحيد للشيخوخة المبكرة بالنسبة للسيدات الثريات ذوات الشأن في الخيام الضخمة هو إخفاء آثارها المدمرة بالأصباغ. أما بالنسبة لأخواتهن الفقيرات فليس هناك طريقة لمواجهة قدرهن إلا بالاستسلام. لكن ما الذي يعوضنا نحن الأجانب عن كل هذه الوجوه المتغضنة والأجسام التي شاخت قبل أوانها والتي نراها في الصحراء؟ إن جمال الصحراء لا يتركز كله في نسائها؛ ونساء الصحراء حين يكن في حالة من التناغم مع جو العزلة المسيطر عليها، لا يحتجن إلا إلى ملامحها الطبيعية. هذا ما نريده، وهو بعيد كل البعد عن المعنى الدقيق للجمال.[٣٨]

نساء الشرق، حتى الشابات منهن، يملن إلى الدمامة أكثر من الحسن، بغض النظر عن الأساطير المستوحاة من عزلتهن، ومن عيونهن السوداء خلف الحجاب الواسع الفضفاض. ويصبحن هرمات في سن الثلاثين، وذلك حسب مفهوم الشيخوخة عند الأوروبيين، الذي يعني تجعد الوجه وترهل الجسم.[٣٩]

صرح "فيفانت دينون"، وهو رسام قدم إلى مصر مع حملة نابليون: "سوف أؤجل متعة رسم المصريات حتى يأتي يوم نستطيع التأثير فيه على قيم الشرق الأخلاقية ونجعله يسمح بإلغاء الحجاب"، ثم اكملَ خلع حجاب النساء، وقال واصفاً صدورهن:

حسب ما استطعت أن أرى، فان الفتيات في سن الزواج- ولا ينطبق هذا التحديد الصارم عليهن جميعاً حتى الآن- يذكرن المرء بملامح التماثيل الفرعونية التي تمثل الإلهة "إيزيس". أما المرأة العادية التي تهتم بإخفاء الأنف والفم أكثر من أي جزء آخر من جسمها، فلا تكشف عن جمال وجهها، ولكن تظهر شكل أطرافها المتناسقة بمشية هي أقرب للرشاقة منها للشهوانية، وعندما تتوقف أثداء النساء عن النمو تبدأ بالترهل،

---

[٣٨] - "مدام جين بوميرول": "وسط نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ص ٤٠.

[٣٩] - "جيمس كليو": "سيدات الحريم"، ١٩٥٥، ص ٥١-٥٢.

والجاذبية الأرضية تشدهما إلى الأسفل لدرجة يصعب معها التأكد من المدى الذي قد تصل إليه."[40]

إن الحرية التي سمح بها الرحالة لأنفسهم بتشريح أجساد النساء "المحليات" (ولم يحدث هذا في الشرق فقط) أتت طبعاً من موقفهم العام تجاه الشعوب المستعمرة. وكما أن رسم امرأة جزائرية يعد أمراً مدهشاً وغرائبياً، بينما رسم امرأة باريسية في نفس الوضع يعد أمراً بذيئاً، كذلك كان وصف وتشريح أجساد نساء الشرق يعتبران أمراً مقبولاً تماماً. وكان هذا هو الفصل الأخير في إجراءات خلع الحجاب. الفقرات التي كتبتها "سوزان فولكان" و"لويس باسكال" تعتبر نماذج لمئات مثلها. أما "سي.اس.سونيني"، الذي كتب عن المحظيات في بدايات هذا الفصل، فتسحره هنا الانحرافات الجنسية وأجساد النساء. وفي المقتطفات التالية يصف عملية إزالة الشعر. مستخدماً لغة رقيقة نوعاً ما لإخفاء الطبيعة الداعرة لتقريره.

إن التعسف في استعمال الحمّامات الساخنة يشوه عموماً أثداء النساء. والفتيات من سن العاشرة وحتى السادسة عشرة فقط نستطيع إخضاعهن للمقارنة في التفاصيل الجمالية مع النساء الغربيات. فالتشوه واضح لدرجة إن منظر كثير من المرضعات يبدو شاذاً وغريباً .

توقفت مراراً في الشوارع أمام تلك المشاهد، وفي كل مرة كانت المفاجئة حقيقية.... هذه الطفلة تجلس منفرجة الساقين أمام أمها وتنحني طالبة ثديها؛ والأم تقدم للطفلة من علٍ المصدر الذي ستنهل منه غذاء الحياة. وعندما يبدأ الأطفال بالمشي يصبح الأمر أكثر سهولة- فهم يقفون أمام

[40] - "رحلة في مصر السفلى ومصر العليا"، ١٨٠٢، الجزء الأول، ص ١٤٦-٧.

أمهاتهم الجاثمات ويمسكون بأيديهم الصغيرة زجاجة الحليب الطبيعية ويرضعون منها بأفواههم الصغيرة. عندما تعرف كل هذا تستطيع أن تتخيل مدى الإفراط في تمدد هذا العضو بين النساء من سن العشرين وحتى الثلاثين في هذه المناطق الحارة.[41]

النساء لا يغطين وجوههن ولا يتجنبن النظرات، بل على العكس يبدو أنهن يشجعنها ويظهر عليهن السرور حين يحدق المرء فيهن. لباسهن الوحيد سروال فضفاض من القطن الأبيض. أما أثداؤهن فهي عارية تماماً، تبرز بثقة وثبات متحررةً من الحمالات البغيضةالتي تشوه أشكالها في أوروبا.[42]

بالنسبة للنساء (وأنا هنا أتحدث عن المتزوجات فقط، أما الفتيات فيتركن أجسادهن على حالها حتى يوم الزفاف، حين ينتزعن الغطاء الذي زودتهن به الطبيعة دون رحمة) اللاتي يتلهفن للحفاظ على أجسادهن ناعمة ملساء في كل جزء منها، لا يستعملن الموسى التي يقال بأنها تترك أثاراً صلبة يبذلن ما في وسعهن لتجنبها. بل يقمن بكل ما هو ضروري للظهور بمظهر مكتمل الجمال. فيخضعن لعملية مؤلمة لنزع الشعر وذلك بصنع مادة مكونة من العسل المطبوخ مع زيت يستخرج من أشجار الصنوبر أو بعض الصمغ، وعندما تجف توضع على الجسم وينزع بها الشعر. ومن حسن الحظ أنه لا ضرورة لتكرار هذه العملية المؤلمة، لأن الشعر الجديد إذا ما ظهر مرة أخرى يكون خفيفاً وناعماً كوبر الصوف ومن السهل التخلص منه. وبعد بضعة سنوات يتوقف الشعر عن الظهور نهائياً. وإذا ما أخطأت الطبيعة وجعلت لامرأة لحية على وجهها، فهي تستعمل نفس الطريقة لإزالتها!!![43]

---

[41] – "سوزان فولكان" في كتاب "رشدي فقير": "مشاهد من الحياة اليومية في مصر"، ١٩٧٥، ص ٦٢-٦٣.

[42] – "لويس باسكال":"زورق على النيل"، ١٨٦١، ص ١٩٩.

[43] – "سي.اس سونيني": "رحلة في مصر العليا ومصر السفلى"، ١٧٩٨، الجزء الأول، ص ٣٠٦-٣٠٧.

الفقرتان الأخيرتان في هذا الفصل تشتركان في أن كلاً من كاتبيهما امتهن الطب واعتمد على خبرته المهنية في تأليف كتابه. "سي.بي.كلونزنغر" عمل في الوجه البحري في مصر، وفي فقرته هذه يستخدم زيارة لإحدى مريضاته كذريعة لوصف ثياب النساء في مصر حيث قام بخلع ثياب مريضته ببطء حتى كشف عن جسمها كله. "دوق بيرانو" أُرسل كطبيب إلى ليبيا عام ١٩٢٤، وعندما أعيد طبع كتابه عام ١٩٨٥، كتبت "درفلا موري" في المقدمة: **"كان "الدوق"يستمتع صراحة بوصف الأجساد العارية لنساء القبائل، مبدياً إعجابه الخاص بأثدائهن. وهذا الوصف لم يكن علمياً ولم يكن داعراً. فالدوق يقدر قيمة الجمال: سجاجيد جميلة، مناظر طبيعية جميلة، مبان جميلة، ونساء جميلات .**

وقد يكون ما فعله لاغبار عليه، لأنه كان طبيباً، ولو "وصف صراحة أجساد" مريضاته الإيطاليات، فهل يكون هذا مقبولاً أيضاً؟!!

القاعة تغص بحشد كبير من النساء اللاتي أتين بدافع التعاطف مع المريضة؛ لرؤيتها والتخفيف من آثار الحمى التي تهاجمها، مستخدمات في ذلك مواهبهن البلاغية. وكل ما رأيناه، مع ذلك، هو أكوام من الثياب ملقاة معاً، تشبه مشهداً عاماً لجماعة من الناس يحملون المظلات السوداء، يراه الناظر من علٍ. تقدمنا لإجراء الفحوصات ووجدنا المريضة، التي كانت محجبة، مستلقية داخل غرفة مفتوحة بجانب القاعة. وكان علينا أن نسحب يدها بالقوة تقريباً لفحص نبضها، وأخيراً وبعد إلحاحنا في الطلب، وبمساعدة رب الأسرة، برز لسان كريه من خلال شق في الثوب الذي يلفها بالكامل. وتحرك الشق قليلاً كي نقوم بفحص الخد والعين والجبين والنصف الآخر من الوجه بطريقة لا تسمح بظهور ملامحه كاملة. وعندما سألنا المريضة عما تشعر به، أجابت بصوت يشبه همهمة كاهنة آتية من أعماق معبد مغلق.

"سفر الرؤيا"

وأخيراً، انفتح جزء من الثوب أكثر وأكثر. وظهر وجه مخيف برزت فوق حاجبيه خصلة من الشعر المحنىّ بلون الفراء اللامع للثعلب الأحمر، وبانت خلفها خصل أخرى بلونها الطبيعي ذي اللون الفضي -الرمادي. نظرت العجوز بجرأة حولها، وبدأت سرد قصة آلامها التي لا تنتهي بصوت حاد مذعور. بعدها تشجعت الشابات في القاعة بما يكفي للكشف عن يد هنا، وعين أو قدم هناك، لكن كن يسترنها عند أقل حركة منا. وتدريجياً بدأنا نكسب ثقتهن بشكل أكبر، فقد كان كلامنا يقدم العزاء والأمل، وبدأت النساء يكشفن عن أنفسهن لفترات أطول، ثم ثبتت علينا عينان سوداوان نظرة مليئة بالتناقض، فقد كانت العينان واسعتين ومتقدتين، لكن بهما حَوَل بسيط في البؤبؤ. العيون الواسعة هي إحدى نقاط القوة عند المصريات. لكنها في نفس الوقت تشكل نقطة ضعف، لأنها تصاب عموماً بعدد من الأمراض والعيوب الخلقية. وتكحيل العيون عادة شائعة حتى عند قدماء المصريين، ليس بين النساء فقط، لكن بين الرجال في بعض الأحيان.

الشابة التي تنظر إلينا الآن يفترّ ثغرها الجميل الكبير نوعاً ما عن ابتسامة تنطق بالبراءة والصراحة. أما غطاء الرأس المصنوع من نسيج صوفي خفيف وملون، والذي ترتدي فوقه المرأة المصرية العباءة المعروفة، فقد بدأت ترخيه قليلاً، ثم تلفه ثانية بإحكام حول الشعر والإذنين والعنق والجزء الأعلى من الصدر، حيث يبقى الوجه البيضوي، والشعر فوق الجبين، وخصلات الشعر الجانبية مرئية. وخلال عملية إعادة تثبيت الحجاب لمحنا الشعر الذي يتوج الرأس بضفائره العديدة الرشيقة والذي تحفظه المرأة الشرقية عادة بدقة بالغة، كان أسود كريش الغراب يسترسل على كل الجوانب، وتسريحته مشابهة تماماً لتلك التي اتبعتها النساء في مصر القديمة، ولا تنقصها حتى الخصلة

الجانبية. أما الخصلات الخلفية فهي تتدلى حرة فوق الظهر، وتعقد نهاياتها بشرائط طويلة من الحرير الأحمر مزينة بالترتر والعملات الذهبية. وتتدلى من الأذنين حليتان صغيرتان غريبتا الشكل من الذهب، أو الحجارة الكريمة، أو اللؤلؤ، في حين يُشبك حليٌ على شكل سهام صغيرة وأمشاط في الشعر الذي يتهدب فوق الحاجبين وجانبي الوجه، بصفوف من قطع العملة الذهبية والأجراس الصغيرة ورقاقات بديعة من الذهب الخالص مشغولة بأشكال فذة. ولهذا فالمرأة الشرقية تدفع بسخاء من أجل حليها، وهي تزدري الحلي المقلد. والحلي الذي تبتاعه المرأة أيام اليسر قبل الزواج أو بعده، تحتفظ به طيلة حياتها كرأسمال غير موظف وليس عليه فائدة. وقد تقوم في أيام العسر برهنة، لكن لا تبيعه أبداً إلا إذا أجبرتها الحاجة الماسة على ذلك. وبما أنها تحتفظ بهذا الحلي طيلة حياتها، فإنه يصبح بمرور الزمن أقل قيمة من الحلي الرخيص الذي يساير "الموضة" الحديثة في المدن الأوروبية والذي يرمى به عادة بعد بضعة أشهر.الأثداء مغطاة، لكن نسيج القميص الشفاف لا يستطيع حجبها كلياً. وفوق هذا ترتدي النساء ثوباً بأكمام ضيقة يلتف بإحكام حول الجسم ويتهدل بطيات متصلة من الوركين حتى القدمين، ويُشد من الأمام بسلسلة متراصة من العقد الحريرية تمتد من تحت الثديين إلى الأسفل. فالمرأة الشرقية ليست معتادة لحسن الحظ على ارتداء الحمالات التي تقيّد النهدين، ولا تزال متخلفة عن الحضارة الحديثة بعدم استحسان الخصور النحيلة. أما رجلاها فيغطيهما سروال داخلي عريض يثبت تحت الركبتين لكنه يصل في طوله حتى الطرف الأسفل للرداء، ويتحرك بطريقة ظريفة في المنطقة التي تفصل طرف الرداء عن القدمين. لكن هذا السروال لم يعد شائع الاستعمال، ويستبدل عادة بنوع آخر تستدق رجلاه باتجاه القدمين. وبالإضافة إلى الرداء الضيق الذي وصفناه آنفاً، ترتدي النساء في بلدات الوجه البحري عباءة فضفاضة من القطن الخفيف ذات لون أزرق أو مخططة بلون أزرق زاه أو مطرزة في بعض الأحيان. هذه العباءة ليس لها أكمام، ولكن على كل جانب منها هنالك شق طويل يمتد من الأكتاف تقريباً وحتى أسفل الرداء. وبذلك يمكن للساعدين أن ينكشفا في أي وقت. وفي أشهر الصيف الحارة فإن الرداء الداخلي الضيق لا يكون مريحاً، ولذلك فالعباءة والسروال الداخلي هما كل ما ترتديه المرأة في المنزل. ومع هذا، ففي كثير من الأحيان

تخلع ذلك السروال، وعند أية حركة طائشة لليد، ينكشف جسدها كله من الأكتاف وحتى الكاحلين".

داخل الخيمة المنخفضة، التي اضطررت حين دخولها إلى الزحف تقريباً، كانت تجلس امرأة على الأرض تلفها عباءة واسعة يظهر منها رأسها فقط. حيتني بابتسامة افترت عن أسنان بديعة يغاير بياضها الناصع بحدة شفتيها المتلئتين الداكنتين بلونهما النبيذي. أبرزت الابتسامة عظام وجنتيها الناتئة، وانعكست إشراقةً بلون البحر في عينيها الواسعتين الصافيتين بجفنيهما الداكنين، وكان لهذا التغاير اللوني أثره في توسيع شكل العينين باتجاه الصدغين حيث يخبو تدريجياً ويتحول إلى الاخضرار ممتزجاً باللون المائل إلى الصفرة الذي يغطي الوجه كله. إن ما يجعل جمال هذه المرأة "الطوارقية" مدهشاً هو شعرها الأصحر الذي تصففه بشكل لفات عديدة على كلٍ من جانبي الرأس. والتنافر في ألوان "المكياج" على وجهها ذي الملامح المغولية بالإضافة إلى شعرها الكثيف النحاسي، يجعل منظرها مشابهاً لإلهة شرقية ساحرة، فقد فُتنت بوجه الفتاة إلى درجة لم ألحظ معها رائحة جسمها القذر.

لم تكن زيارتي غير متوقعة، واستقبلتني المرأة بطريقة طبيعية، وحيتني بالعربية مستخدمة كلمة "ياسيدي" حين دعتني للجلوس بجانبها، وقبلت بوقار هديتي الأولى التي قدمتها، وكانت مرآة. يداها جميلتان وحركاتها مليئة بالرشاقة عندما حملت المرآة ونظرت إلى صورتها فيها. وعندما قدمت لها زجاجة من مستحضر تجميلي للشعر، خطفتها وصرخت فرحة، ثم شمّت الزجاجة بأنفها مستنشقة العطر بعينين ناعستين وهي تعض على شفتها وكأنها ستغيب عن الوعي من النشوة. وبحركة مفاجئة أمسكت يدي وقبلتها مخلفة عليها بقعة خمرية اللون، ثم طوت كميها حتى الكتفين ودهنت بالمستحضر ذراعيها، دافعة بهما قرب أنفها وهي تهمهم بكلمات نشوانة، وقربتهما نحوي كي استمتع أنا أيضاً بالرائحة المعطرة.

وفجـأة تذكرت بأنني طبيب أتيت للكشـف عن المرض الذي تشـكو منه ومعالجتـه إن أمكن، فأسرعت بوضع المرآة والزجاجة جانباً وبدأت بإخبـاري عـن مـدى سـقمها: فهـي تشعر بأوجاع هنا وهناك، وتعاني من سعال مزعج يمزق الأضلاع- من الواضح أنها كانت تعيد بحذر ما أُمرت بقوله من قبل، لكن حين سألتها تلعثمت بإجابتها وفقـدت صبرهـا مؤكدة أنها تعاني من الآلام في جميع أنحاء جسدها.

كانت ترتدي تحت عباءتها الخارجية نوعاً من "الكندورة" السودانية وهي ثوب بدون أكمام وبه شقان يصلان حتى الوركين. ثم خلعتها لأنها كما قـالت تريدنـي أن أرى مـدى سوء الحالة الصحية لرئتيها. جسمها الفتي كان غضاً ولدناً كالقطة، وملطخاً ببقع زرقـاء وكأن لا علاقة له بالوجه المصفر الشاحب. كانت يداها نحيفتين لكنهما ليستا هزيلتـين، ونهداها الملطخان باللون الأزرق يشبهان الرخام المرقش مـع حلمتـين ورديتـين. خصرهـا كان ضامراً لدرجـة تسـتطيع معهـا أن تحيطـه بيديهـا، لكـن انحنـاء وركيهـا البـارزين يعطيها شكل جرة الخمر الإغريقية الرشـيقة، ورجلاهـا طويلتـان رشـيقتان مسـتقيمتان حتى القدمين الصغيرتين بأصابعهما اللطيفة المصطفة بنفس الطـول كمفـاتيح "الأورغـن". بعد أن فحصتها من الرأس إلى القدم، خلصت إلى نتيجة مؤداهـا انـه مـن النـادر إن أجـد مخلوقاً على هذه الدرجة من الكمال، لكنها لم تُسر حين أخبرتها بذلك، وبـدت للحظـة مقطبة الجبين لكن سرعان ماأشرق وجهها بابتسامة عابثة واسـتلقت عاريـة تمامـاً علـى ظهرها، واضعة رأسها على ركبتي، ثم ألقت علي نظـرة متسـائلة- لكنـني كنـت أراقـب شعرها السـاحر، متوجسـاً أن أرى صفـاً مـن القمـل يجتـاحني خارجـاً مـن تلـك الغابـة الذهبية. وساد صمت طويل كنت أبحث خلاله عن الكلمات. بعد ذلك تفلت فتاة الطـوارق النبيلة تلك بجانب الخيمـة، وسـألتني بصـوت هـامس عمـا إذا كنـت أعـرف كيـف أركـب المهرة! [٤٤].

---

[٤٤] - "دوق بيرانو": "مداواة الأفاعي"، ١٩٨٥، (ط .أ.،١٩٥٥)، ص ١٣٦-١٣٧

الحاج في ذروة النشوة!

كان "سي.دولا جونكوييه" في مصر عام ١٧٩٨ مع حملة نابليون، وحين توقف مع رفاقه العسكريين على مشارف القاهرة، وأحاطت بهم الرمال والحجارة من كل جانب، شعروا بالملل والضيق وسط ذلك الجو الحار اللاهب، وفكروا بالعودة إلى فرنسا. لكن فجأة أخذت الأمور بالنسبة لهم منحى مغايراً باتجاه الأفضل: **"استطاع اثنان من رفاقنا دخول إحدى السرايات وإحضار زنجيتين. وهذا ما شغل أوقاتنا لبضعة أيام، لكن سرعان ما سيطر الضجر علينا مجدداً.**[1]

هذا النوع من التقارير العسكرية الجافة والفظة حول لقاءات حميمة تعقد مع النساء في الشرق، لم يكن أمراً مألوفاً. وباستثناء كتّاب مثل "فلوبير"- الذي روى بالتفصيل مغامراته مع المحظيه المصرية "كوتشوك هانم"- فان الرحّال النموذجي لا يجرؤ على الاعتراف صراحة بقيامه بأية مغامرات جنسية. حتى أن "دوق بيرانو" أظهر الكثير من التحفظ في كتاباته حين وصف المرأة الطوارقية التي حاولت إغراءه. وكان الكتاب الأوروبيون يعلمون جيداً ما يريده قراؤهم ولذلك قدموا لهم الكثير من "المعلومات" حول الحياة الشهوانية التي تعيشها النساء الشرقيات دون أن يتورطوا هم فيها. وفي حين أن

---

[1] - "المقدمة إلى: وقائع الحملة على مصر، كتبها الجنرال "جان-بيير غورو "، ١٩٠٤، ص ٦٩.

النساء من الرحالة أُخذن في رحلات منظمة لزيارة "الحريم"، فإن الرجال منهم أُخذوا عادة لزيارة المواخير، أو ما اعتبروها هم كذلك. وطبقاً لكتاباتهم فقد ظلوا متمسكين بالفضيلة وسط محيط طافح بالإغراءات.

كان بعض اللقاءات العابرة مع النساء دون ريب مختلق ومصطنع، وكُتب عن بعضها الآخر بلغة رومانسية شفافة تناسب "روحانية الشرق"، أو حالة الرحّال النفسية، واستخدم بعضها أيضاً في تكريس الفكرة الشائعة حول شهوانية النساء وعبثهن وغنجهن.

اختار بعض الرحالة لأسباب عديدة أسلوب التخفي والتنكر خلال رحلاتهم متظاهرين بأنهم من العرب. "ريتشارد بيرتون" كان بالطبع واحداً من أشهر هؤلاء. والفقرة التالية كتبها حول رحلة حج قام بها إلى مكة والمدينة.

جلستْ بالقرب منا جماعة من نساء مكة الجميلات، بدا أنهن ينتمين إلى طبقة اجتماعية رفيعة المقام. وأخذتُ اختلس النظرات إلى واحدة منهن. كانت في حوالي الثامنة عشرة من العمر، طويلة القامة، متناسقة الملامح. في بشرتها بعض الشحوب، لكنها ناعمة ومشرقة، منتظمة الحاجبين، حلوة العينين، رشيقة القوام، وليس بها شيء من الجمال البربري: لا الرأس المائلة إلى الخلف؛ ولا العنق الصلب المستقيم؛ ولا الأكتاف العريضة: فشكلها هو ذاك المحبب لدى العرب، بكل ما فيه من نعومة وتثن واسترخاء، وكما يجب على الأنثى الكاملة الأنوثة أن تكون. كانت تضع فوق وجهها "اليشمق" المصنوع من "الموسلين" الشفاف بدلاً من النقاب المألوف،وكانت تقف بجانبها امرأة اعتقد بأنها وصيفتها أو والدتها، فقد بدت عجوزاً لطيفة لا يعرف الشك في تصرفات الآخرين سبيلاً إليها.

سددت الفتاة نظرة إعجاب تقطر دلالاً وغنجاً على "كنزة" الصوف التي أرتديها، فرددتُ بنظرة إعجاب لعينيها بدوري، وبحركة جذابة رشيقة رفعت حجابها قليلاً لتظهر من تحته خصلات ثخينة من شعرها الفاحم الذي يتوج وجهها الجميل المستدير. ثم كافأت إعجابي

الصريح بما كشفته من سحر وجمال برفع "اليشمق" قليلاً حيث لاح من تحته فم تزينه غمازتان و ذقن بديعة مستديرة. وحين نظرت حولي ورأيت أن رفاقي منشغلين عني، قمت برفع يدي تحية لها وأنا أعرف مدى خطورة ماأقدمت عليه، لكنها ابتسمت بشكل عفوي تقريباً، وأشاحت بوجهها عني . . . كنت "حاجّاً" في ذروة النشوة![٢]

أمضى "جون.اف.كين" ستة أشهر في الحجاز مدعياً بأنه مسلم، وهو هنا يصف مقابلة حدثت له صدفة مع اثنتين من الفتيات البدويات.

" كان الجو قائظاً عند الظهيرة، والكل ينام في المخيم. تمددتُ في الضل الرطيب قرب الجدار المنخفض للبئر المهجورة وقتها ومعي بندقيتي وصيدي، كي أدخن و أغفو قليلاً لتمضية فترة مابعد الظهر بعيداً عن الحشرات والروائح الكريهة المنبعثة من مخيمنا القذر. على مسافة قريبة من البئر كانت هناك خيمة يسكنها البدو، وكنت قد دخنت كثيراً وشعرت بالظمأ حين رأيت فتاتين تخرجان من الخيمة وتحملان جرتين فخاريتين. كانتا سافرتين، تقدمتا نحوي ولم استطع منع نفسي من النظر ملياً، بطريقة تجاوزت حدود الإعجاب المألوف، إلى قديهما الأهيف النحيل وحركاتهما الرشيقة. وحين اقتربتا أكثر رأيت أنهما جميلتان، وملامحهما تدل على الذكاء، وعمرهما لايزيد عن ستة عشر أو سبعة عشر عاماً، ومن الواضح أنهما شقيقتان.. يبدو أنني حدقت بهما أكثر من اللازم لأنهما قدمتا نحوي ضاحكتين وهما تقولان: "حظاً موفقاً يا شيخ!

(بين قبائل البدو حتى الجنس اللطيف لا يرجو لك السلام).رددت عليهما كحاج مؤمن: "وعليكما السلام" وحين قامتا برفع الماء من البئر خطر على بالي أن أمد لهما يد المساعدة، لكن ذلك يعتبر أمراً خارجاً على التقاليد والأعراف، ولهذا جلست أرقبهما وهما تملأن جرتيهما. كان لباسهما الجميل عبارة عن ثوب قصير مطرز، كحلي اللون، فاتن المنظر ولا يعيق الحركة.

---

[٢] – "السير ريتشارد.اف.بيرتون": "سرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة"، ١٩٠٧، الجزء الثاني، ص١٩٧–١٩٨.

فجأة فكرت كم سيكون التشابه تاماً بين هاتين الفتاتين وصورة "ريبيكا قرب بئر الماء"، ودفعني الخيال لاعادة تمثيل المشهد معهما. وحين ملأت إحداهما جرتها قلت: "يا لله عليك دعيني اشرب قليلاً من جرتك!" فقالت: "اشرب يا شيخ!". وبعد أن سقتني قالت "بخشيش!"، وهي تضحك بخبث على الغريب الجليل وأسلوبه الجدير بالاحترام! قلت في نفسي: "أوقف حلمك! "ريبيكا حول البئر" أليس كذلك؟! هذه لا تصلح لتكون حتى ساقية في مشرب عام! تخليت عن وقاري، وأعترف الآن بأنني كنت فظاً، لأنني ألقيت على الفتاتين ما بقي في كأسي من الماء قائلاً:

"هاكما البقشيش الذي تطلبانه!" فما كان منهما إلا أن وضعتا الجرتين على الأرض، وأخذتا ترشان الماء علي بأياديهما من الخزان الصغير المخصص لشرب الجمال وهما تضحكان وتصرخان وكأن مساً أصابهما. قمت بدوري بإفراغ ما في جرتيهما من ماء فوق رأسيهما حتى أصاب البلل جسديهما تماماً. لكن لم يفدني ذلك بشيء لأنني هُزمت أمامهما، وبسبب جرحي اضطررت أن أطلب منهما التوقف عن هذا العبث "لأنني جريح". لم تصدقاني في البداية، لكن حين أيقنتا بأنني لا أستطيع الهروب وأن علي الجلوس على الأرض دوماً، توقفتا عن المزاح وأظهرتا فوراً اهتماماً بالأمر وتعاطفاً معي. وبعد سؤالي عن الجرح أعادتا ملئ جرتيهما بالماء، فأعطيتهما الطيور التي اصطدتها، وذهبتا وهما تضحكان جذلاً وتقولان: "حظاً موفقاً يا شيخ!". استلقيت بعد ذهابهما تحت أشعة الشمس في مكان رملي لتجف ثيابي وأمضيت ماتبقى من النهار أجفف البندقية وأدخن في انتظار وجبة العشاء.[٣]

الفقرات الأربع التالية كتبها رحالة فرنسيون بين عامي ١٨٥٥-١٨٨٧، وتعد تقريراً بيانياً يلقي الضوء على آمال الرجال الغربيين وخيالاتهم الجامحة...

---

[٣] - "جون.اف. كين": "ستة أشهر في الحجاز"، ١٨٨٧ ص ٢٣٥-٢٣٧.

ابتسمت الفتاة الحسناء ورمتني بنظرة حانية تقطر شهوة، نظرة يبدو أن ا لله قد خص بها فتيات الشرق! لكن خيم الظلام ولم أعد أدري ما افعل! إن الحوريات هنا لا يطالهن مسيحي، ورغم أن فكرة اعتناق الإسلام قد خطرت على بالي لبعض الوقت، إلاّ أنني لم أفعل شيئا حيالها و ذهبت لأنام في الخيمة مع رفاقي ...[٤]"

توقفت في زقاق ضيق أمام منزل شرقي جميل. لاح من خلال بابه المفتوح سلم عريض مزخرف بالآجر و مضاء من قمته إلى أسفله بنور خفي بدا و كأنه لهب خافت، أو ضوء ساطع تلفه غمامة مشرقة آت من مصدر غامض مجهول. و تحت هذا الضوء الذي تعجز الكلمات عن وصف سحره، تبدو كل درجة من السلم الصقيل الأملس و كأنها في انتظار خطوات شخص ما، قد يكون مسلما عجوزا بدينا مثلا. لكني أظن أنها تدعو عاشقا للصعود عليها. ما خبرت في حياتها كلها، و لارأيت، و لا فهمت، و لا تملكني شعور بالترقب كهذا الذي ملأ كياني أمام ذلك الباب المفتوح، و السلم الخالي الذي يغمره ضوء صادر من مكان لا يرى خارج المنزل، و فوق الجدار الذي يغمره القمر بضيائه. تنتصب الشرفة الواسعة، و من خلف المشربيتين الخشبيتين المزخرفتين تبدو فتحتا النافذتين المعتمتين.

هل تجلس "جولييت" العربية هناك خلف الشرفة، ساهرة، يقظى، تتنصت، و قلبها يخفق بشدة؟ ربما، لكن من المؤكد أن رغباتها لا تتعدى شهوتها الجسدية، و لن تفكر حتما بالقمر و النجوم كما نحلم نحن في هذه الليلة المقمرة. لا يوجد مثيل في كل البلاد الأخرى لهذه الأرض الساحرة بدفئها و أساطيرها، هواها أعذب أريجا، و شمسها اكثر دفئاً و نهارها أشد إشراقاً لكن القلب لا يعرف فيها كيف يعشق. نساؤها الفاتنات الشهوانيات لا يعلمن شيئاً عن الحب كما عهدناه،نفوسهن في بساطتها لم تختبر العواطف الحالمةوالقبلات

[٤] - "إميل جينتيل" : "تذكارات من الشرق"، ١٨٥٥،ص ٧٧ .

الحرّى – كما قيل لنا– ولا تناسب أحلامنا وخيالنا أبداً.[٥]

تقدمت مقترباً من البوابة،حيث جلست جماعة من الصبية حول شيخ أبيض اللحية. مرت أمامنا فتيات جميلات بشعرهن الأسود، وعيونهن المرحة، وأجسادهن اللدنة، وتعابير وجوههن الهادئة، وخطواتهن الرشيقة. كن يضعن حجاباً أبيض عُصب حول الجبين بشرائط ملونة؛ ويرتدين ثوباً قصيراً ثُبّت حول الخصر بوشاح قرمزي يتدلى ليصل إلى الركبتين، تاركاً الساقين الرشيقتين القويتين بشكلهما المثير للإعجاب مكشوفتين، وكذلك القدمين الصغيرتين الجميلتين الرقيقتين. أما على الصدر– فوق أعلى الثوب المفتوح من الجانبين بحيث يترك الذراعين عاريتين تماماً، في حين تُثبت مشابك فضية صغيرة الأكمام المثنية لـ"الكندورة" – فيتدلى شال قصير يصل إلى أسفل الثديين، تقوم فوقه أطواق تضم أحجبة فضية ضخمة لطرد شرور "الجن"، تصدر رنيناً خفيضاً حين يمشين وتهتز مع خطواتهن اوراكهن الشهوانية المثيرة. وبحركة رشيقة من الذراعين العاريتين اللتين تحيط بهما أساور عتيقة التصاميم، يتم الحفاظ على الحقائب الثقيلة فوق الأكتاف، واخفاء القسم الأسفل من الوجه بشدّ طرف الحجاب لتغطية الشفتين.

حين تمر هؤلاء الصبايا بقربي، مبتسمات، وعيونهن السوداء المتقدة تلتمع بنظراتها الفضولية، وتمسني أطراف أثوابهن البيضاء، تخترق كياني رائحة عطرة من نقاء العذارى تنبعث من تلك الأثواب الفضفاضة..[٦]

كنت بين خيام البدو. أخذتْ بعض كلاب الحراسة المزمجرة، بشعورها البيضاء الطويلة القذرة، تركض نحوي وهي تنبح بطريقة مخيفة. كانت الخيول مبعثرة هنا وهناك. الأمسية جميلة والخيام تشكل منظراً ممتعاً.

---

[٥] – "غي دو موبسّان": "حياة الترحال"، ١٨٩٠، ص ٢٣٢–٢٣٣.

[٦] – "جي.مونبارد": "بين المغاربة"،١٨٤٩، ص ١٠٦–١٠٧.

تجولت بين الخيام، ورأيت في داخلها على ضوء النار الموقدة جماعات من النسـاء والفتيـات والرجال العرب ينظرون نحوي.

هؤلاء هن زوجات وبنات أولئـك الرجـال! لمحـت واحـدة منهـن؛ يالهـا مـن صبيـة فاتنـة متوحشة، لم تمسسها الحضارة بعد! أسرعت الخطى كي لا أراها ثانية، لكني وجدت نفسـي بعد دقيقتين أمام خيمتها مجدداً. كان يجلس قربها رجل عربي ينظر إلي، يبـدو أنـه والدهـا دون شك، وكشر عن صفين من الأسنان البيضاء الناصعـة...لم أدر هـل كـان يـود أن يعضـني أو يبتسم لي !

صاح قائلاً : "بونجور!"

– هل تتكلم الفرنسية؟

– نعم ، نحن من الجزائر.

لا أدري لَمِ أحببت ذلك العربي وانجذبت إليه، فقد كان يبدو جديراً بالاحترام.

– هل أستطيع الدخول؟

– إن كنت تود ذلك !

قدمت له لفافة تبغ قبلها وجلستُ.. بجانب الفتاة.

كنت مأخوذاً تماماً وأجبت على جميع أسئلة الرجـل بشـكل يخـالف المنطـق، إذ كنـت أبحث عن عذر للتحـدث إلى الفتـاة الجالسـة بجـانبي، ووجدتـه أخـيراً في جيـبي حيـث أخرجت الغليون المحفور بشكل لطيـف علـى هيئـة جمجمـة! وبعـد أن أضرمـت "بنـت الصحراء" – أحب هذا التعبير – النار في جوانحي ، أشعلت غليوني!

يـا إلهـي ! كفاهـا سـوداوان تمامـاً ، لكـن عيناهـا واسـعتان ودامعتـان تبعثـان بريقـاً مخملياً، وتزينهما رموش طويلة مكحولة، ولو رآهما ظبي لبكى خجلاً بعينيه أمامهـا ! كانت فوق ذلك تضج أنوثة وعذوبة وشباباً، وقد رسمت على محياها ابتسامة عابثة...

ثوبها البسيط يتألف من قطعة قماش أزرق، مثبتـة دون إحكـام فـوق كتفيهـا بواسـطة مشبك ضخم.. وحين ترتدي المرأة القليل من الثياب فهذا يبشر حتماً بالكثير من الوعـود والدلالات...

أصبح الحديث بيننا مملاً، ولا أدري أي دافع مشؤوم جعلني أسأل الرجل:

"هل هي ابنتك؟" نظر إلي ملياً ثم قال: "لا إنها زوجتي".نعم. فهمت كل شـيء، هـذا الغزال يملكه ابن أوى ذاك! أنها زوجته! أيقنت الآن إنني لم أره جيداً في البدايـة، فقـد وجدته الآن بشـعاً بأسـنانه الضخمـة وثوبـه القـذر... وقبـل إن أغـادر مـددت لـه يـدي مودعاً...آه لكم تمنيت أن أحطم كفه!![7]

أعاد "السير هنري لايارد" في سيرته الذاتية، رواية مغامرة قام بها في القسـطنطينية، حين دعته سيدة تركية مع زميـل لـه لزيارتهـا في منزلهـا. وبمـا أنهـا كـانت "فائقـة الجمال" قرر الصديقان تلبية الدعوة. وهذا وصف لتلك الزيارة.

اعتدنا الذهاب عصر كل يوم جمعة إلى "شلالات آسـيا العذبـة" لشـاهدة جماعـات مـن النسوة التركيات، يعجبنا منظرهن الممتع المثير حـين يجتمعـن هنـاك كـل أسـبوع خـلال

[7] - "بول فاغول": "تونس والقيروان"، (بدون تاريخ)، ص ١١٣-١١٥.

فصل الربيع، يجلسن على النجيل الأخضر مـع أطفـالهن، ويسـتمتعن بنـوع مـن النزهـة الخلوية حيث يدخنّ النراجيل، ويتناولن المرطبات والحلوى... كنـا عـائدين مـن إحـدى تلك النزهات في قارب "السيد أليسون" الـذي كـان يمخـر ميـاه "البوسـفور" بقـوة ثلاثـة مجاذيف يدفعها ثلاثة من أقوى الرجال وأكثرهم مهـارة وخـبرة، حـين لاحظنـا وجـود بعض السيدات بدا من ملابسهن المترفة الزاهية أنهن من طبقة اجتماعية رفيعـة المقـام، كن على وشك الركوب في زورق بثمانية مجاذيف. توقفنا بعض الوقت لمراقبتهـن، وحـين خطت واحدة منهن، وكانت أكثرهن أناقة وثراء، داخل الزورق وتبعتها الباقيات اللاتي يبدو أنهن من وصيفاتها، لاحظتْ أننا نراقبها، فرفعت بحـذر نقابهـا وكشـفت لنـا عـن وجه بدا لنا فائق الجمال حين لمحناه، وأشارت لنا بطريقة فسرناها بأنها دعوة لنا كـي نتبعها.

وهكذا حين غادر زورقها درجات الميناء السلطاني، أمرنا رجالنا بملاحقته والبقـاء أقـرب ما يمكن منه مع توخي الحرص والحذر. وبما أن زورقها يملك عدداً أكبر من المجاذيف، فقد واجهنا بعض الصعوبة في مجاراة سـرعته، خصوصاً وان رجالنـا لم يكونـوا راغبـين على ما يبدو في متابعة المطاردة، ولم يبذلـوا في ذلـك قصـارى جهدهـم. وحـين وصلنـا إلى النقطة التي يلتقي فيها "القرن الذهبي" مع الشـلالات العذبـة، والممـر المـائي الآتـي مـن ناحية "حي أيوب" التي انعطف إليها زورق السيدة وكنا على وشك اللحاق به، اصطدم زورقنا بعائق في الماء، كان جثة طافية على سطحه! ترك رجالنا المجاذيف ورفضوا متابعة المطـاردة، لأن ظهور الجثة كان نذير شؤم بالنسبة لهم يحذرهم من القيام بهذه المغـامرة الـتي يمكـن أن يكون لها تبعات خطيرة علينا وعليهم. وقالوا من الواضح أن أولئك السيدات هـن مـن "حريـم" شخص رفيع المقام، وإذا ما قبضت علينا الشرطة، أو شاهد أحـد مـا نفعلـه فسـنتعرض لخطـر كبير. وحين فشلنا في حثهم على متابعة الأمر قنعنا من الغنيمة بالفرار واضطررنا للعـودة إلى منازلنا خائبين.

في صباح اليوم التالي عرّجت سيدة تركية محجبة بإحكام على منزل "السيد أليسون" طالبة التحدث إليه وقد صادف ذلك وجودي عنده. وحين تأكدتْ بأن لا أحد في المنزل سوانا يمكنه أن يستمع لما تقول، أخبرتنا بأنها أُرسلت من قبل نفس السيدة التي رأيناها ولاحقناها بالأمس، وهي تحمل دعوة لنا لزيارتها، كما رفضت أن تكشف عن اسم سيدتها أو من تكون. ولو نذهب -كما قالت- غداً إلى باب الحديقة الصغير في شارع وصفته لنا في "ضاحية أيوب" في ساعة معينة فسوف تقوم السيدة باستقبالنا.

رغم أن المغامرة لن تكون دون مخاطر، كما يمكن أن تكون شركاً نصب لنا، لكننا صممنا على المجازفة. وهكذا ذهبنا في اليوم التالي حسب الموعد المحدد، ولم نجد صعوبة تذكر في العثور على البوابة الصغيرة التي وصُفت لنا، وكانت تقوم في شارع ضيق منعزل في جزء ناء من الحي. وفور وصولنا فتحت امرأة البوابة لنا، ودخلنا دون أن يلحظنا أحد على ما يبدو، ثم قادتنا عبر الحديقة إلى كوخ كبير مبني بالأسلوب المعماري التركي القديم، حيث الأفاريز العريضة ناتئة من السقف، وبعد ذلك ادخلتنا إلى قاعة فسيحة زينت أسقفها وجدرانها المعشقة بالذهب والملأى بالرسوم، بأكثر زخارف فن العمارة الشرقية فخامة وروعة واتقاناً. في حين رصّع السقف بالمرايا، مما أضفى على المكان جواً مترفاً وجميلاً؛ زخارف كانت شائعة في الأيام الخوالي في قصور النبلاء العثمانيين قبل أن تُفسد تأثيرات الحضارة الأوروبية الذوق التركي.

على أريكة واطئة عند نهاية القاعة، جلست سيدة عرفنا فوراً أنها تلك التي رأيناها عند "الشلالات العذبة". لم نكن واهمين إذن في تفسير نظرتهاالخاطفة التي اختلستها نحونا وأرادتها رسالة قرأناها على وجهها حين رفعت نقابها بسرعة وهي تخطو إلى الزورق. كانت شابة وجميلة بشكل استثنائي، بعينيها الواسعتين اللوزيتين، وتقاطيعها الرقيقة المتناسقة، وبشرتها الصافية المتلألئة، رغم أن بها بعض الشحوب يمنعها من أن تصل بجمالها إلى درجة الكمال وهو أمر يميز التركيات من ذوات الأصول الشركسية. كانت تلبس ثوباً بهياً اعتادت التركيات الثريات ارتداءه قبل أن يعتبر مبتذلاً وسوقياً وغير لائق ولا يجاري صيحة الموضة

الفرنسية و أحاط بها عدد من الفتيات الجميلات بثيابهن المترفة وكن على ما يظهر من وصيفاتها.

دعتنا إلى الجلوس على الأريكة بجانبها وجاذبتنا أطراف الحديث فوراً. سألتنا أولاً حول العديد من المواضيع والقضايا بما فيها القضايا السياسية، وقالت بأنها تعرف من نحن، وأنها حين رأتنا عند "الشلالات العذبة" قررت أن تتعرف علينا، لكنها اعترفت بأنها لم تتوخى الحذر حين أشارت لنا بملاحقتها، وهي سعيدة لأننا عدنا أدراجنا حينها. ثم أمرت لنا بالنراجيل والقهوة والحلوى، قدمها لنا بعض من فتياتها وشاركتنا بنفسها في الاستمتاع بها.دخلنا بسرعة في حوار نشط معها. وكانت السيدات فرحات بالسيد "أليسون" فهو يتحدث التركية بطلاقة، وعلت ضحكاتهن الصاخبة للنكات والحكايا التي قصها عليهن. إذ لا يمكن لأحد أن يتفوق عليه في اساليبه التي يستخدمها لامتاع وتسلية الشرقيين.

بعد أن تحدثنا لبعض الوقت أشارت السيدة لبعض فتياتها بالعزف على الآلات الموسيقية التركية المعهودة، وعلى بعضهن الآخر بالرقص الذي أدّينه برشاقة وجمال، لكنه تحول بسرعة إلى نوع من المرح العاصف شاركت فيه جميع الفتيات- حيث كن يتراشقن بالحلوى، ويتدافعن ويسقطن على الأرض وفوق الأرائك وسط ضحكاتهن المجلجلة، مما أدخل السرور على قلب سيدتهن التي كانت تشجعهن على مرحهن الصخّاب هذا.

بعد أن أمضينا قرابة ساعتين ممتعتين مع مضيفتنا الساحرة ووصيفاتها، حان الوقت لنا كي نغادر المكان، وحين قمنا بوداعها طلبت منا وعداً بزيارتها مرة أخرى وقالت بأنها سترسل نفس المرأة التي استخدمتها في الاتصال بنا لإعلامنا بالوقت الذي تستطيع به استقبالنا من جديد."[٨]

---

[٨] - "السير هنري لايارد": "السيرة الذاتية والرسائل"، ١٩٠٣، ص ١٤٥-٨.

ولم يعودا أبداً لزيارتها، لأن عجوزاً إيطالية أخبرتهما "وقد ارتسم الرعب على وجهها" بأن السيدة من البلاط السلطاني وربما تكون شقيقة السلطان نفسه!

عمل "أرمينوس فامبري"، الذي أصبح فيما بعد استاذاً للغات الشرقية في بودابست، معلماً عند عائلة تركية أرستقراطية عام ١٨٥٨. في الفقرة التالية من مذكراته يتحدث عن محاولاته للاتصال بالنساء في المنزل، دون أن يُخبر عنهن شيئاً سوى أنهن جميلات أُعجبن بحماسة الشباب لديه.

بعد الخدم، سبب لي "الحريم" (عالم المرأة التركية) كثيراً من المشكلات. النساء التركيات -والجنس الناعم عموماً- متحفظات بشكل واضح، ولم يستطعن فهم الدافع الذي يجعل "الباشا" أو "الأفندي" يقبل وجود غريب في "السلاملك" قريباً من الحريم، وفوق كل شيء كيف يخطر له أن يعهد بتعليم أطفاله إلى رجل كافر! وحتى اليوم لا زالت النساء التركيات أكثر تعصباً من الرجال؛ لكن في تلك الفترة عند بدايات حركة الإصلاح، كن يظهرن كراهية وبغضاً شديدين لكل ما هو مسيحي. وقد أوضحن لي كرههن بكل ما يملكن من وسائل لمضايقتي. إن الاتصال بين "الحريم" والعالم الخارجي يتم بواسطة "الدولاب"، وهو نوع من الخزانة المستديرة التي تدور حول محور. وكل ما يراد تقديمه إلى "السلاملك" يوضع في هذا "الدولاب". وحين تريد امرأة أن تتحدث مع أي شخص خارج "الحريم" تفعل ذلك من خلال "الدولاب". وحين كنت أسمع صوت امرأة، وأردّ عليه بالعبارة المعتادة: "في خدمتك سيدتي"، يكون الجواب أما الصمت المطبق أو كلمة فظة. وكان علي الانتظار طويلاً حتى استطعت أن أدرب نفسي على الكلام المهذب وتعابير الإطراء الشاعرية، الأمر الذي جعل النساء يتعطفن علي بجواب قصير. وبعد شهور من المحاولات نجحتُ أخيراً في إذابة الجليد. فقد بدأت حماسة الشباب لدي تفعل فعلها، وكانت السيدات ومعظمهن شركسيات فائقات الجمال أهملهن الزوج العجوز المريض قد بدأن تدريجياً بإطراء براعتي اللغوية، كما أخذت دلائل

إعجابهن بي بالظهور رويداً رويداً...[٩]

الفقرتان التاليتان كتبهما "جون فوستر فريزر"، وكـان رحّالٌ غزير الإنتاج كتب عن العديد من البلدان. أما عنوان كتابه حول شمال أفريقيا، "أرض النسوة المحجبات" فيشير إلى بؤرة اهتماماته. ومنذ بداية الكتاب حين أخبر قرّاءه بأن "نساء الصحراء كلهن جميلات" نستطيع إن نستخلص فكرة واضحة عن حالته الذهنية، والنصان التاليان يزيدانها جلاءً ووضوحاً.

..تَم – تَم، تِيم – تِيم ، تَم ... على هذا النحو يسير إيقاع الطبلة! ويُميل عازف الناي رأسه إلى الخلف، وتبدأ الموسيقا بالعويل. اسمها "رملية" أي ابنة الرمال. ملامحها تجسد النموذج الأنثوي للعرب الساميين، بقدها النحيل المغري، ووجهها الأسمر الطويل، وعينيها المكحلتين اللوزيتين، وأنفها الجميل بفتحتيه الصغيرتين البارزتين، وشفتيها المكتنزتين الشهوانيتين. كانت تغلق عينيها حين تتهادى في مشيتها، أما وجهها فكان جامداً خالياً من التعبير كوجه المومياء. لقد ملكت الرومانسية خيالي هذه الليلة، لأنني حين جلست أدخن وأرقب المشهد من خلال الدخان توهمت رؤية فتاة تأتي من غياهب الماضي البعيد، تنفض الخدر عنها وترقص عائدة إلى الحياة من جديد... بشرتها السمراء، وسواد الكحل حول عينيها، وعلامات قبيلتها الموشومة على جبينها وخديها وذقنها، مع رشاقة وقفتها. كل ذلك خلق إحساساً لدي بأن ما أراه لم يكن حالة دنيوية حقيقية، وأن المشهد برمته ليس سوى خيالاً من حلم في عالم سحري غريب.[١٠]

---

[٩] – "أرمينوس فامبري": "قصص كفاحي"، ١٩٠٥، ص ١٢٧–٨.

[١٠] – "جون فوستر فريزر": "أرض النسوة المحجبات"، ١٩١١، ص ١٦.

اتجهتُ نحو "الكومة البيضاء" التي ظلت دون حراك. ضحك "عليّ" وصاح قـائلاً: أحضـرت "الرومي" معي. استدارت "الكومـة" قليـلاً، وارتـدّت القلنسـوة البيضـاء إلى الخلـف، فرأيـت عينين عسليتين واسعتين كعيني غزال فتي تنظران إلي من فوق النقـاب، ثـم مـدت يـداً طويلـة نحيلة سمراء خضبت أظافرها بالحناء وزينت معصمهـا الأسـاور الذهبيـة، فصـافحتُ الكـف الدافئة الرقيقة.

- هل أستطيع الجلوس؟

على طاولة منخفضة توزعت أطباق الحلوى العربية، والعسل والفواكـه والبلـح، بالإضافـة إلى الشاي بالنعناع وجرار الماء البارد الصغيرة. أثار الموقف "عليّاً"، وأسف لأن "زهرة الرمّان" لا تتكلم سوى العربية. كما أسفتْ هي أيضاً، لكنهـا شـعرت بـالفخر لأنـني أتيـت إلى مـنزل شقيقها. كانت خجولة لأنها لم تقابل رومياً في حياتها من قبل ومـا خـبرت عـادات وأسـاليب الغربيين حيث النساء السافرات يقابلن ويتحدثـن ويمشـين مـع الرجـال كالأصدقـاء- عـادات غريبة ومختلفة عن تلـك المتبعـة في عـالم المسلمين.... ابتسـمت "لزهـرة الرمـان"، ورغـم أن الحجاب يغطي كل ما فيها عدا العينين، عرفت أنها ترد علـى ابتسـامتي بابتسـامة. أي سـر غامض يكمن في هاتين العينين اللتين لا تطرفان أبداً، بكـل مـا فيهمـا مـن عمـق لا قـرار لـه، بحاجبيهما الأسودين المقوسين اللذين يزيد الكحل من سوادهما ويصل ما بينهما، ونظراتهمـا الثاقبة التي ترسل رعشة لذيذة في جسد الرجل الحساس؟! قلت "لعليّ" بأني ظمـآن، وترجـم لها ما قلته، فصبت "زهرة الرمان" الماء في كـأس نحاسية مرصعـة بالفضـة قدمتهـا لي بكلتـا يديها. انحنيت لها مع أنني كنت جالساً على الأرض وأخذت الكأس وشربت. ثـم قدمـت لنـا الحلوى، وأكلنا أنا و "عليّ" لكنها بقيت صامتة ولم تأكل شيئاً. وحـين اعـترضتُ قـال "علـيّ" شيئاً، فنكسـت "زهـرة الرمـان" رأسـها. تحـدث "علـيّ" ثانيـة، فرفعـت يديهـا الرقيقتـين وبحركة صغيرة حلّت نقابها فسقط في حضنها! توردت وجنتاها خجـلاً، وظهـر دمهـا الحـار متدفقاً تحت بشرتها السمراء. نعـم، هـي جميلـة. شـعرتُ بنظـرات "علـيّ" المسددة نحـوي

وعرفت غريزياً بأنه يتساءل عما إذا كان "الرومي" يعتقد بأن أخته جميلة؟! كان جمالها من ذلك النوع المتزج بفتنة غريبة كسحر الورود والأزاهير، بوجهها المستدير، وأنفها الدقيق، وشفتيها الصغيرتين المكتنزتين اللتين يثير بروزهما وحمرة لونهما النشوة العامرة، فهي تملك وجهاً يستحضره خيال الرجل حين يطوف محلقاً بعد أن يقرأ أشعار "حافظ" و "عمر الخيام". ترددت قليلاً ثم رفعت رأسها وسددت عيناها الرقيقتان إلي نظرة مباشرة، حائرة، فاحصة وكأنها تعكس ما يدور برأسها الصغير من أوهام شرقية وأسئلة محمومة تحاول فهم ما يجول بخاطر هذا الرجل الغريب القادم من أقاصي الأرض بقامته المديدة وجثته الضخمة. هل كان ما تفعله مجرد إظهار جاذبية وفتنة ودلال امرأة نجحت في التخلي عن الخجل المسيطر عادة على فتيات "الحريم"؟ أم أنها تحاول أن تسحرني بفتنتها الشرقية الطاغية؟ ربما استطاعت تفسير الارتباك الذي أصابني وجعل خديّ يتوردان. لكنها أرخت عينيها فجأة. التفتُ إلى "عليّ" وقلت لو كانت "زهرة الرمان" شقيقة لصديق إنكليزي لما ترددت لحظة في تهنئته على جمالها. وعرفت بحدسها وغريزتها إنني أتتكلم عنها، وسألت أخاها عما قلته، وحين أجابها تخضب وجهها وجيدها واحمرت خجلاً...

يا لها من مخلوق بديع! نظرت إليها فتخدرت حواسي كمدمن الأفيون، وملأ كياني الانفعال والنشوة.

بدأت الشمس بالمغيب، وتذكرت أنني أتيت لمشاهدة الغروب، نهضت واقفاً وأنا أهمس برغبتي إلى "عليّ"، فنهض هو بدوره وقدم لي لفافة تبغ. "زهرة الرمان" انتصبت واقفة هي أيضاً. كم هي طويلة القامة– تقاربني في الطول. سألت عما إذا كانت ترغب بلفافة تبغ روسيّة وقدمت لها العلبة. انحنت ووضعت اللفافة بين شفتيها فاشعلتها لها.

شكرتني بابتسامة مثيرة تخلب الألباب، مفعمة بالشهوة، فيها من الجرأة أكثر مما فيها من الخجل. لقد تخلت عن خجلها، وألقت جانباً بعباءتها البيضاء التي تقيها أشعة الشمس، وكانت ترتدي تحتها ثوباً أسود وأخضر مع حاشيةً ذهبية وسترة سوداء مزركشة، ولم يادر

القماش الشفاف على إخفاء إيقاع حركات صدرها الذي كان يعلو ويهبط. لم تكن ترتدي مشداً، يشوه خصرها اللدن، وكانت عباءتها مشدودة حول جسدها بإحكام جعل وركيها الرشيقين يتمايلان بشكل ظاهر حين مشت عبر السطح إلى الشرفة، برشاقة وتثن ودلال. كانت مشيتها العابثة خير دليل على طبيعتها الكسولة الشهوانية.

لا بد أنها تعلم كل هذا، فلن تكون امرأة لو لم تعرف سحر مفاتنها... هاتان العينان بنظراتهما الرقيقة الخجلى حين تراهما للوهلة الأولى، قادرتان على فعل أي شيء بتهور وطيش للحصول على نشوة الحب.... كانت في الحقيقة فتاة هيفاء فاتنة...

غربت الشمس بكل بهائها خلف رمال الصحراء الذهبية، وخيمت الكآبة على العالم، في حين هبت نسيمات الهواء المثقلة برائحة الطيب القادمة من المزارع والبساتين، ودعا المؤذن لصلاة المغرب من فوق المئذنة، وبدأ الظلام يلف المكان بسرعة...[11]

في عام ١٩١٠ نشر "اوستاش دو لوري" و "دوغلاس سلادن" كتاباً بعنوان "قمر الليلة الرابعة عشرة" وزعما أنه يعتمد على يوميات رجل فرنسي يدعى "ادوارد فالمون" وكان زميلاً لـ "اوستاش دو لوري". عاش "فالمون" هذا في طهران لبعض الوقت وأقام "علاقة مع امرأة محليّة" تدعى "بيبي ماه". وبغض النظر عما إذا كانت اليوميات حقيقية أم لا، فان الصورة التي نشرت في الكتاب وقيل أنها صورة المرأة الفارسية، استخدمت مرة أخرى في كتاب "غرائب من بلاد فارس" لنفس المؤلفين، وفي هذه المرة قالا بأنها "تمثل راقصة شابة من بخارى". ومع هذا يقدم الكتاب بعض اللحظات المختارة بعناية لوصف العلاقة بين "الشرق الشهواني" و "الغرب العقلاني". في النص الأول يلتقي الفرنسي مع المرأة المحلية،

---

[11] - "جون فوستر فريزر": "أرض النسوة المحجبات"، ١٩١١، ص ١٦٤-٧.

فوق السطح في الليل.

.. أمام احتمال كهذا لا يوجد مجال للتردد. نهضت واقفاً، وفي نفس الوقت، وكأن في الأمر نوع من التخاطر عن بعد، نهض مخلوق آخر على الجانب الآخر من الجدار. لم يكن مخلوقاً أسطورياً هبط من السماء، ولا كان شبحاً خفياً، بل كان امرأة فارسية من لحم ودم. بقينا للحظات مسحورين وكأن شللاً أصابنا، ننظر إلى بعضنا وقد فغرت أفواهنا. كانت أول من تحرك، وكادت أن تختفي من أمامي لولا أن أمسكت بكم ردائها ومنعتها من الهرب. لم تجرؤ على الصياح، لأن إثارة انتباه صاحباتها في "الحريم" إلى وضعها المريب هذا يودي بها إلى عار وخسران يلحقان بها إلى الأبد، ولهذا قنعتْ من الأمر بالمقاومة بيد وتغطية وجهها باليد الأخرى. سألتها بلغة فارسية فصيحة وصادقة: "لِمَ تختبئين مني وتدعينني أغرق في الظلمات يا أجمل الأقمار؟ نظرة أخرى منك وسيحترق قلبي"! أنزلتْ يدها قليلاً، ولاحت عيناها– واسعتان سوداوان، عميقتان يملأهما الرعب. فقد بدا واضحاً أنها دهشت لسماع فرنسي ينطق بمثل هذا الكلام. شجعني هذا النجاح الأولي، فقرأت على مسامعها كل ما حفظته من أشياء بديعة قالها شعراء فارس، ولابد أنني أخطأت في استعمال بعض الألفاظ لأنني سمعتها تضحك بصوت خفيض... لقد كان النصر حليفي!

لم تبد أية مقاومة، فتركتُ ذراعيها ولم تحاول الهرب. بعد ذلك همستُ في أذنها بكلمات جميلة لا يمكن نطقها إلا بالفارسية.. كلمات جميلة في معانيها وأكثر جمالاً في لفظها– ولم تخفف لكنتي الفرنسية من جمال تلك الكلمات. بدا أنها تستمتع فعلاً بالاستماع إليها... كلمات حلوة تقع على مسامعها للمرة الأولى دون ريب، إذ أن الغزل الرقيق هو نعمة غير معروفة في عالم "الحريم". تناست آداب الاحتشام وأنزلت يدها بلا مبالاة تاركة وجهها مكشوفاً أمام نظراتي المفعمة بالإعجاب. ورغم أنه من الطبيعي أن تسمح الفتاة للشاب أن يطري جمالها ويبدي إعجابه بها، لكن هذا يعتبر إهانة خطيرة بالنسبة للمسلم. وبما أن المحظور قد وقع، فمن الحكمة الاستمتاع به حتى النهاية، إذ أن أمنا "حواء" حين بدأت

بقضم التفاحة المحرمة من المؤكد أنها تابعت الأمر حتى التهمتها كلها! لكن جارتي المليحة بقيت مستكينة ولم تبد أي استجابة. كانت بالتأكيد مليحة بشكل غريب وأستطيع القول بأنها جميلة. لم أر في حياتي مثل هاتين العينين الرائعتين: عينان واسعتان، رقيقتان، لوزيتان، تلتمعان صافيتين في محجريهما، كنجمتين تعكسان ضوءهما المتلألئ على سطح بحيرة، وتطغيان على كل الملامح الأخرى في وجهها: أنفها الدقيق المستقيم، وفمها الصغير، وبشرتها الصافية كنسيج حريري يبرق تحت أشعة الشمس، ووجهها المدور المحاط بحجاب "الموسلين" الأبيض الذي يغطي رأسها كله ويتدلى فوق كتفيها ليتجمع في طيات عند ذقنها، بواسطة مشبك ذهبي مما يعطيها منظر قمر يطوقه الغمام ويتغنى بجماله الشعراء. كانت هناك خصلتان من الشعر الأسود الفاحم فوق جبينها تتركان حيزاً صغيراً فوق حاجبيها المتدين المقوسين.

بعد مناجاة مطوّلة استنفذت خلالها ذخيرتي من اللغة الفارسية، توقفت عن الكلام، وخيم علينا الصمت تاركاً الكلام للغة العيون أو على الأصح لغة الروح، إذا كان ما يقال صحيحاً بأن إحداهما مرآة تعكس الأخرى .

ما حصيلة هذا التلاقي بين روحين من أسيا وأوروبا؟ أمِنَ الممكن أن يتفاهما؟ يبدو أن الأمر صعب المنال، لكن هذه تظل كلمات فخيمة للتعبير عن مجرد لقاء بريء لم يتعد تبادل النظرات! مع ذلك كان اللقاء مثيراً، وخطراً، ويائساً لا أمل منه أبداً . إذ لا يمكن أن تدخل حرباً ضد "الحريم" فأنت مهزوم لا محالة حتى قبل أن تبدأ.[١٢]

في النص الثاني يبدي "فالمون" بعض الشكوك حول الحكمة من تصرفه ذاك، لكن ليس إلى الحد الذي يمنعه من متابعة "المغامرة".

---

[١٢] - "أوستاش دو لوري" و "دوغلاس سلادن": "قمر الليلة الرابعة عشرة"، ١٩١٠، ص ٤٣-٤٦.

أنا الملام وحدي لعدم التفكير في التبعات المحتملة لمغازلة تلك الفتاة. إذ لم يخطر على بالي قط مقاومة ما كان في البداية مجرد فضول وانقلب لاحقاً إلى انجذاب شديد لهذه المغامرة الشرقية بكل ما فيها من غموض وخطورة. والآن أتردد، وهذا طبيعي، في مد يد العون لمن تحتاجها بعد أن بدأ جدار "الحريم" يتهاوى! أنا بطل رومانسي يستحق الرثاء حقاً!

ملأ كياني ضيق وغضب شديدين... غضبت من نفسي- وفوق كل شيء أثار الإسلام حنقي بتصلبه وتشدده- ونظرت إلى دموع الطفلة المسكينة وهي تنهمر ببطء وكأنها لا تود مفارقة جفنيها، فقد حبستها الرموش الطويلة كحاجز يمنعها من أن تتدفق. ثم تساقطت العبرات واحدة اثر الأخرى، وتجمعت من كل الاتجاهات لتغمر وجنتيها وتنزل أخيراً فوق طيات حجابها الحريري الرقيق. كانت إحدى العبرات كبيرة وثقيلة جعلت رمشها ينحني تحت ثقل حركتها البطيئة لتصل إلى خدها حيث توقفت مترددة للحظة ثم انسلّت بعد هنيهة عبر "الغمازة" التي تزين طرف فمها وانتشرت هناك ثم وصلت إلى شفتيها الوردتين لتختبىء بينهما.

آه كم أحسد تلك الدمعة!؟"[١٣]

وبعد العديد من الأحداث الميلودرامية اجتمعا أخيراً.

رحبت بقدومي بابتسامة باهتة سُررتُ لها، لكنها لم تُجب حين تحدثت إليها. أحسست بأنها لم تعد ذلك الظبي الجريح، فقد اختفى السحر الحزين من عينيها، ورمتني بنظرة فاحصة، ثابتة، خالية، من العاطفة لم اعرف لها معنى، وكأن جدار "الحريم" انتصب قائماً بيننا دون أن نراه.

غمر وجنتها القرمزية المشرقة كالعقيق ضوء خافت، ولاح فوقها ظل لطيف لرمشها الطويل، وظهرت "غمّازة" بجانب فمها الصغير الجميل كحبة فاكهة يانعة. راقبتها

---

[١٣] - أوستاش دو لوري و دوغلاس سلادن: "قمر الليلة الرابعة عشرة"، ١٩١٠، ص ١٢٥.

كالمسحور تملؤني مشاعر غريبة جعلت كل كياني يهتز من فرط الانفعال. وفوق الوسائد الصفراء المذهبة، أرخت شعرها الفاحم كجناحي غراب اسود وقد افترق إلى جدائل عديدة على جانبي جبينها الشاحب، حيث لاح حاجباها المقوسان فوق أنفها واتصلا مع بعضهما بواسطة وشم على هيئة نجمة.

دفعتْ غطاء السرير جانباً بحركة سريعة، وبدا صدرها مكشوفاً أمام ناظري، بخطوطه الفاتنة، وكذلك جيدها العاجي من خلال الطيات الشفافة لردائها الرقيق. وملأت المكان رائحة عطر لطيف من أريج الورد والعنبر لتزيد من حدة الشهوة العارمة التي أذهلتني وهيجت حواسي. ثم مدت يدها الناعمة البيضاء فوق الغطاء المورد، ورأيت على أظافرها الشبيهة بالأصداف الصغيرة رسوماً بالحناء على شكل أهلّة صغيرة، فلم أملك إلا أن أقبلّ تلك الأهلّة المتلألئة. لقد قبّلتُ يدها الم تأت بحركة، وبقي خدها مائلاً يستريح على كتفها، لكن أنفاسها اضطربت وزادت سرعة، وظهر ذلك جلياً من صعود وهبوط القماش الشفاف ومن بريق نجومه الفضية فوق صدرها.

كانت شفتاها الرطيبتان متباعدتين بلونهما الأحمر كحَبَّ الرمان اللامع تحت أشعة الشمس، وارتفع جفناها ببطء ورقة ونعومة وكأنهما حائران، ثم أرختهما فجأة فارتعشت رموشها الحريرية.

مال رأسي نحوها دون أن أشعر، وغدا وجهي قريباً من وجهها إلى درجة لامس فيها طرفُ شاربي خدها، فارتعشت ورفعت رأسها وحدقت عيناها السوداوان الواسعتان في عيني. كانت تعابيرهما هذه المرة مختلفة، فأنا أعرف تلك النظرة،لمحتها من قبل فوق السطح وأثارت مشاعري وأغرت روحي، لكنها الآن تشعّ بلهب جديد ما زال ألقه وسناه غامضين حتى الآن. إلا أن سحره الذي لا يقاوم قد فتح أمامي جنة عدن جديدة. بدأت رأسي تدور، وملأت أذنيّ ألحان موسيقى مثيرة تُبهج الحواس،واحترقت شفتي حين مسّت

شفاه "بيبي ماه" الحارة..[14]

وأخيراً أدرك طبعاً أن الشرق والغرب لا يلتقيـان، ورفـض حتـى مناقشـة المستقبل مـع "بيبي ماه" وقال متسائلاً: "لِمَ أطارد إغراء حلمٍ لن يتحقق أبداً، حـين يكـون واقعنـا ذاتـه مجرد حلم؟!

"ذهـب "ارنسـت غريفـن" إلى طرابلـس للعمـل كطبيـب لـدى جمعيـة الهـلال الأحمــر البريطانية عام ١٩١٢- واكتشف هناك أنه رغم كهولته الرزينة ما زال شديد التأثر بالمفـاتن الأنثوية!

... كنت على وشك الذهاب حين توسل إلي الحاخـام كـي أعـود مريضـاً مـن أفـراد الطائفـة. رافقته عبر البلدة حتى دخل أخيراً إلى منزل يرقد فيـه يهـودي كهـل علـى فـراش مـن قـش. وحين كنت أقوم بفحص دقيق ومؤثر لحالته،وقف ظِلٌ في الباب حـاجزاً نـور الشـمس المشرق الـذي كـان يتدفـق مــن خلالــه. وقبــل أن انظــر نحــوه سمعــت صــوت "مصطفــى" يقــول بانفعال: "عزيزي الطبيب، انظر إلى هذه اليهوديـة الحسـناء!" نظـرت إلى الجسـم الواقـف في المدخل وعرفت فوراً، رغم جهلي بمثل هذه الأمور، أن مترجمي لم يهمل أهم الدراسات علـى الإطلاق خلال إقامته في باريس، لأن الشابة اليهوديـة كـانت جميلـة حقـاً: كتلـة مـن الشـعر الأسود اللامع تتوج رأساً تتوازن بإباء فوق جيد نحيل جميل،وعينان سوداوان تختبئان بحياء خلف رموش هدباء وتطلان من وجه دقيق التكوين. فوجئت الفتاة برؤية الأغراب للمرة الأولى في حياتها، ولم يتوانوا هم عن رميها بنظرات فاحصة مفعمة بالإعجاب. زال شحوب خديهـا فتوردا دافعين موجـة مـن الدمـاء الحـارة إلى عنقهـا، لتطـرد البيـاض مـن صدرهـا وتصـل إلى

[14] - "أوستاش دو لوري" و "دوغلاس سلادن": "قمر الليلة الرابعة عشرة"، ١٩١٠، ص ٢٠٧-٢٠٨.

ذراعيها العاريين الظاهرين من خلال ثوبهـا الخفيـف. أما شـفتاها الحمـراوان فقـد تباعدتـا لتكشفا صفاً متناسقاً من الأسنان، في حين نكسـت رأسـها نـاظرة إلى الأرض برقـة تدعـو المـرء لرؤية قدميها وكاحليها الرشيقتين. في بعض الأحيان حريّ بالمرء تناسـي أن رزانـة الكهولـة قد جمدت دماء الشباب لديه، ولا مفر من الاعتراف بأن انتباهي قد تشـتت بشـكل غريـب في تلك اللحظة ولم أعد أركز على بلوى مريضي.[١٥]

تبدو النساء دوماً هنا فقيرات ومصابات بسوء التغذية. وخلال ذهاب رجالهن للقتال يعشن على حصة هزيلة لا تسد الرمق من الطحين الذي توزعه الحكومـة. أذكـر يومـاً عدنـا فيـه إلى الخيام بعد أن أمضينا وقتاً طويلاً في ركوب الخيل، أنني رأيت حزمة ضخمة من الحطب ملقـاة على الأرض وبجانبها فتاة عربية محنية الظهـر كـانت تبكـي بحرقـة. سـألتُ "محمـداً" عـن الأمر فهز كتفيه بلا مبالاة وأخـبرني بـالا أهتـم موحيـاً إلي بتهكـم أن البكـاء مجـرد تظـاهر أمامي. وبما أنه كان ميالاً دائماً للتصرف بقسـوة وخشـونة مـع الـزوار مـن الجنـس اللطيـف، طلبتُ منه ألا يتدخل وأن يعود إلى عمله في طهي الطعام، فما الذي يعرفه طباخ تغطيه الدهون حول تجفيف دموع المرأة؟! سألتها برقة: "مـا الأمـر يـا فاطمـة؟" رفعـت عينيهـا المتلألئتـين باستحياء ونظرت إلي .(كم أنت كاذب يا "محمد"! بكاؤها ليس ادعـاء، وتلـك دمـوع حقيقيـة تلتمع في عينيها وتعلق كالدرر على رموشها الهد باء). وبرق نقابها عاكساً أشعة الشمس عبر وجهها. قلت بإلحاح: "تكلمي يا فاطمة!" نهضتْ ببطء وروت قصتها باكية: لقد قتل والدهـا في الحرب، وهي جائعة جداً بعد أن أمضت سحابة النهار تجمع الحطـب. والآن – بكـت هنـا بحرقة تقطع نياط القلب–يرفض "محمد" أن يشتريه. صرختُ برعب مستنكراً هذه الوحشـية فكافأتني بابتسامة صغيرة باهتة بعد أن أرخت النقاب، ثم أرتني قدمها التي آذتهـا حجـارة الصحراء كي افحصها. كانت لا تزال كما خلقتها الطبيعة أول مرة، بأصابعها الرشـيقة، قـدم لم تُقيد أو تُحجز داخل حذاء، وعلى قدر كبير من الاختلاف عن الأقدام المتعبة والمشوهة التي

---

[١٥] – "ارنست. هـ . غريفن": "مغامرات في طرابلس"، ١٩٢٤، ص ١٣٤–٥.

تجعل أشدنا قسوة يرتعد حين يرى امرأة أوروبية متحضرة تخلع جوربيها. لكن "فاطمة" كان عندها في الخفاء ما هو أكثر لتقديمه- لو يعلم حضرة الطبيب كم كان الحمل ثقيلاً وكم آلم كتفيّ. ثم اختلستْ نظرة حولها لتتأكد من أن "محمداً" بعيد ولا أحد هناك سوى الطبيب الخبير يمكن أن يرى. وظهرت مساحة مخفية من بشرتها الناعمة يقطعها خدش فظيع، الأمر الذي زادني سخطاً.

صرختُ بحدة: "محمد! يا إلهي ما هذا؟ ولِمَ نحن هنا؟ ألم نأت لمساعدة الفقراء والتعساء؟ لقد قتل والد هذه الفتاة في الحرب ومع ذلك أنت ترفض شراء الحطب الذي جمعته. همهم "محمد" متذمراً وهو يسب ويلعن وقال معلقاً إنه لم يرد تشجيع الأشرار المقيمين حول المخيم، ثم دس قطعة نقود في يد الفتاة وسار مبتعداً.

أمسكت "فاطمة" قطعة النقود بيدها الصغيرة لكنها لم تبد أية حركة تدل على أنها سترحل، بل نظرت إلي متوسلة وهي تمسك حجابها بدلال بين أسنانها البيضاء وتمد يدها بشكل مؤثر على وتد الخيمة .

سألتها عما تريد أكثر من ذلك. وأسفاه! فالطعام صعب المنال وغالي الثمن- بكت مرة أخرى- و "محمد" لم يعطها سوى القليل، ثم رفعت رأسها إلى السماء قائلة: الحمد لله! فحضرة الطبيب يملك قلباً طيباً. ألقيت نظرة عجلى لأتأكد من أن "محمداً" لن يكون شاهداً على ضعفي ووضعت قطعة نقود في يدها. نظرتْ إليها وتنهدت والسرور يغمرها وأمسكت بيدي لتقبلها. سحبت يدي بسرعة كما تقتضي أصول اللياقة واستحضرتُ أفضل ما عندي من اللغة العربية وقلت: "كم أنت جميلة يا فاطمة!".أشرق وجهها بابتسامة رضى، ورحلت في طريقها وإمارات النصر والبهجة تملؤها."[١٦]

---

[١٦] - "ارنست . هـ . غريفن": "مغامرات في طرابلس"، ١٩٢٤، ص ٢٣٢-٢٣٤.

ولختام هذا الفصل ننقل فقرتين، الأولى كتبتها "ايزوبل بيرتون" تتحدث فيها عن الصوت المغري للرجال الشرقيين، والثانية تعبر فيها "غيرترود بل" عن لحظة رومانسية مرت بها.

هنالك شيء في صوت الرجل الشرقي يغوي بشكل غريب. صوت النساء حاد، متنافر النغمات، حروفه تنطق من الأنف بطريقة تزعجك وتثير أعصابك.

أما الرجال العاديون من مسلمين ودروز وأكراد وأفغان وبدو فيتكلمون بنبرة رقيقة ناعمة، ومع أنها تخرج من الحنجرة لكنها تبدو صادرة من الصدر وفيها الكثير من العاطفة والهدوء. نبرة غنية وقوية لكنها متحفظة تتحول إلى موسيقا عند الإلقاء،وتقع على الأسماع كأنين الرياح البعيدة، أو كأناشيد الذين يقودون "الجندول" في البندقية حين تأتي سابحة فوق صفحة الماء تحت ضوء القمر. سمعت ذلك الصوت الفريد مرة أو اثنتين فقط من الأوروبيين وكان ذلك بسبب إقامتهم في الشرق، أو بسبب أمهاتهم الإيطاليات. أما أصوات الأسبان بكل ما فيها من تكاسل ورجولة فتذكرني رقتها بأصوات الرجال الشرقيين...[17].

أتى الشيخ وبصحبته كل الوجهاء لزيارتي، وأخذني للتجول في القرية. كم هم لطفاء وأعزاء! أشعر بالأسف لأني سأتركهم، مع أنني لم أتركهم بعد. فالشيخ "إبراهيم" ما زال يقف في باب خيمتي وأنا أكتب. أعترف بأنه رجل جميل بشكل إستثنائي. الليلة حارة، حارة جداً.[18]

---

[17] - "الحياة من الداخل في سورية وفلسطين والأرض المقدسة" ، ١٨٧٥، ص ٣٦٦.

[18] - "رسائل غيرترود بل، ١٩٤٧، ص ٩٠.

صوت الجنس الصارخ في البريّة

ولّد الرقص ردود أفعال عنيفة لدى الرحالة، وهذا الموضوع يقع في مكانه المناسب تماماً هنا، بين الفصل السابق والفصل اللاحق. فتقاليد أوروبا دفعت الرحالة لتوقع أن يكون الرقص أداءً رومانسياً شهوانياً؛ احتشامها المتكلّف قادهم للعنه؛ وتعصبها العرقي أجبرهم على السخرية منه. "دوغلاس سلادن" الذي يكتب نثراً مثيراً حين يتحدث عن النساء، انهال بالطعن والذم على الراقصات اليهوديات في تونس- وزودنا بعنوان هذا الفصل.

مما يثير الاشمئزاز أنه كلما سألت عما يمكن رؤيته في تونس، يسلّم الناس جدلاً بأنك تود أن تبدأ بالملاهي التي تقدم فقرات من الرقص الشرقي. وأعتقد أن عروض الرقص هذه هي أكثر المشاهد إثارة للملل والاشمئزاز التي يدفعني إليها ولعي بارتياد الأماكن التي تستحق المشاهدة. فليس فيها لهو ولا موسيقا، وقد سئمت رؤية العازفين الشرقيين ينقرون على طبلاتهم المصنوعة من الصلصال بأطراف أصابعهم،ويتمتمون بأصواتهم الأغنيات الرتيبة دونما كلمات. ولا تتحسن الموسيقا إذا ما ضمت الفرقة عازفين على الكمان ذي الوتر الواحد، أو النائحين على الناي المصنوع من القصب، وان كان لهذا الأخير أهمية أثرية حيث ظهر في الأوابد الفرعونية. يجلس المرء عادة يستمع لكل هذا لمدة ساعة قبل أن يبدأ "هز الوسط". ولا

يبالي العرب بذلك، لأنهم يمتعون بصرهم كل الوقت بمشاهدة جمال الأجساد الضخمة للراقصات اليهوديات. الأمر بمجمله مثير للغثيان بالنسبة لي، حين أجلس في الصالة مع العرب أنفسهم الذي ينتهكون تعاليم القرآن (الكريم) بتناول المشروبات الكحولية والنظر بخبث إلى اليهوديات.

حين يسير العربي هابطاً أزقة "القصبه" مختالاً بـ "البرنس" الأبيض، يبدو وسيماً ورومانسياً يجلب اهتمام أية امرأة تقريباً. لكنه يبدو بهيمياً في الملهى، حين يكون متراخياً على كرسيّه ينظر بعيون زجاجية إلى قدح الجعة أمامه- لكن ليس أكثر بهيمية من النساء اللاتي يرقصن أمامه.

المقاعد داخل الصالة ليست مصفوفة كما في مسارح المنوعات الإنكليزية، لكنها على طريقة مقاهي الرصيف، مرتبة حول طاولات صغيرة، لأنه يفترض في كل زبون أن يطلب شراباً،وعليه أن يدفع رسم الدخول. أحياناً تدخل جماعة من الأصدقاء معاً إلى هذه الملاهي، لكن زبائنها الرئيسين والدائمين يفضلون الذهاب فرادى - وهذا في ذاته يشكل ميزة سيئة. العربي يتأنق في ملبسه في الكثير من المناسبات ليغوي النساء. لكن المسكين ليس لديه من يغوي سوى العاهرات اليهوديات. فهو يذهب للملهى بالغ الأناقة، ويسمح في داخله لبائع الورد بإعطائه باقة جذابة من الياسمين يستمتع بها. ثم يجلس إلى الطاولة مع قدح من الجعة ممتعاً نظره بصفّ من النساء البدينات اللاتي سيرقصن بعد قليل.

منظر هؤلاء النساء مرعب، مرعب، مرعب! وجوههن ملطخة بلون قرمزي، وأجسادهن مكسوة بنسيج حريري شفاف- هذا إذا اعتبرنا أنه يكسوهن فعلاً، لأنهن يكشفن عادة الذراعين والصدر- ويرتدين سروالاً من الحرير الأبيض الرديء يغطي ساقين كرجلي فرس النهر. ومع أنهن ينتمين إلى الجنس البشري، إلا أنني لا أجد حتى في عالم الوحوش ما يماثل نظراتهن الخبيثة، لأن الإنسان حين يسيء إلى الحب يجعله الله في مرتبة أدنى من الحيوان.

يمكن أن نسمي هذا بهيمية، لعدم وجود كلمة أفضل في اللغة، لكن ليس هنالك وحش يشبههن، إلا إذا كان قرداً، مسخ الإنسان الذي سقط في الخطيئة. والأصلة العاصرة الضخمة تبدو محببة ورقيقة ورومانسية أمام هؤلاء النساء بأشكالهن الغريبة التي تحدث عنها الكتاب المقدس- رموشهن سوداء بفعل الكحل مما يعطي لعيونهن بريقاً متلألئاً وأصابعهن قرمزية اللون بسبب الحنة- وأعتقد بأنه حتى اللثة أداخل أفواههن الكبيرة المفتوحة والشهوانية خلقت بشكل تجعل الأسنان تبدو وكأنها تكشر لك. تشعر بأنك تريد الهروب منهن كما تهرب من أمام ثور هائج يبحث عن شيء يدمره، ويشبهن الإله "مولوخ" بأجسادهن الضخمة والبشعة والشريرة والمرعبة ، التي تنتظر الرجال لحرقهم أحياءً في أحضانها الشبقة.

تتمنى لو تضع جداراً حجرياً بينك وبين رؤوس الأفاعي تلك، بعيونهن المتقدة وفكهن المفترس، قبل أن يبدأ العرض. وتتأخر البداية بعض الوقت، فأنت تجلس هناك لمدة ساعة أو أكثر أمام هؤلاء اليهوديات الجسيمات، التافهات بنظر الجميع ما عدا العربي. العازفون يدندنون الأغنيات وينقرون بأصابعهم على طبلاتهم. ويفترض في الحاضرين أن يستوعبوا المقاطع الموسيقية التي يعزفونها. ثم يبدأ الزبائن المنتشون بطلب ما يودون سماعه من الموسيقين. وأخيراً يتململ الحاضرون الأجانب يأساً من بدء العرض، وعندما يشعر صاحب المكان بأن التململ حقيقي وجاد، يطلب من الراقصة الأولى أن تبدأ. وتتقدم هي نحو الأضواء في مقدمة المسرح راسمة على وجهها ابتسامة النصر، واثقة من جمالها وقدرتها على إخضاع الرجال، رغم أنها تشبه "بالوناً" يسير بأرجل حين يرفع فوق الأضواء.

و بدون شك، يوحي الرقص الشرقي، الذي يعني هزّ الجسم الشحيم الضخم، بالشهوة ويعبر عنها، هذا إذا استطعت إخضاعه لفحص دقيق؛ لكن ترنح هذه الأجساد البدينة بدون ضابط يفتقد كثيراً إلى الرشاقة. إن شكل الراقصة مقزز جداً بالنسبة للمفهوم الأوروبي للجمال

الأنثوي، لدرجة أنك تحول بصرك فوراً من الراقصة إلى الحضور لتجد أن اهتمامات هؤلاء مثيرة للغثيان أيضاً. إن تذكّر شكل اقل الراقصات بشاعة يشبه استعادة كابوس مرعب، لا سيما حين تقف على المسرح بردائها الشفاف السخيف، وسروالها الضيق المصنوع من "الساتان" الأبيض، كاشفة عن أجزاء رهيبة من الذراعين والصدر المزين بالجواهر المقلدة، ووجه خشن الملامح، ملتهب وملطخ ببقع حمراء وسوداء، ومغطى بطبقة من الصباغ الأبيض- إنهن صوت الجنس الصارخ في البريّة.[1]

في عام ١٧٨٧، وبعد رحلة إلى سوريا،كتب "سي . اف . فولني" حول الرقص العربي، مدعياً أن الوصف التفصيلي سيكون جارحاً لمشاعر القراء الرقيقة، لكنه قدم لهم ما يشتهون قراءته حول "الخلاعة" التي يجسدها ويمثلها الرقص. وفي الحقيقة فإن جميع الكتاب الذين تضمنهم هذا الفصل يقدمون الرقص بهذه الطريقة- وان كان من الأنسب توجيه تهمة الخلاعة إليهم هم. أما وصف "نيبور" فهو يكشف الكثير من موقفه العام حيال النساء.

لا يحتّل الرقص عند العرب بأي حال من الأحوال نفس المكانة التي يشغلها عندنا، نحن الذين نقدره كما نقدر الموسيقا. فهم يعتقدون انه فن موسوم بالعار؛ ولا يستطيع الرجل الانغماس فيه دون أن يلوث سمعته، ولا تحتمله سوى النساء. وقد يبدو هذا حكماً صارماً، لكن قبل أن ندين الرقص، يجب أن نعرف أنه في الشرق ليس محاكاة للحرب، كما كان الحال عن الإغريق، ولا توافقاً بين الأوضاع الجسمانية المتعة والحركات الجسدية، كما هو الأمر عندنا، ولكنه عرض خليع لأكثر أشكال الحب وقاحة. الرقص الشرقي هو نوع من الرقص كان شائعاً في المنطقة الممتدة من "قرطاجة" وحتى "رومة"، وكان انعكاساً لانحطاط المستوى

---

[1] - "دوغلاس سلادن": "قرطاج وتونس"، ١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٤٨٠-٤٨٤.

الأخلاقي هناك. لكنه ازدهر فيما بعد على يد العرب في أسبانيا، ولا يزال يسمى هناك "الفندانغو". وبالرغم من أفكارنا التحررية، نجد من الصعب وصف هذا الرقص دون أن يصاب القارئ بالصدمة. لكن يكفي أن نقول في وصفه بأن الراقصة تمد يديها بحركات شهوانية، وهي تغني بمصاحبة الصنجات، ثم تقف في مكان واحد وتحرك جسمها بطريقة تجعل حتى أكثر العواطف جموحاً تسارع للاختفاء في ظلمات الليل.[٢]

المسلم المحترم الذي ينغمس في ملذات الرقص، قد يلحق العار بنفسه ويفقد اعتباره في نظر مواطنيه. إلا أن النساء يقدّرن أنفسهن حسب درجة تفوقهن به، ويمارسنه دون تردد باعتبار أن من واجبهن المساهمة في إدخال السرور على قلوب أزواجهن بأية وسيلة يملكنها. وحتى حين لا يكون الأزواج حاضرين، في المناسبات التي يجتمعن بها معاً بعيداً عن الرجال في حفلات الزفاف مثلاً، يكون الرقص مجالاً للتنافس الشديد بينهن.

روى لي شخص من "طرابلس" كيف تسلي نساء المدينة أنفسهن في مناسبات الأعياد، ولدي من الأسباب الوجيهة ما يدعوني للاعتقاد بأن نفس العادات تسود أيضاً في تركيا وباقي البلاد العربية. ومع ذلك لا أدعي بأنني واثق بنسبة مائة في المائة؛ لأنه من المستحيل أن تعثر على شاهد عيان رأى ما يحدث في حفلات اللهو هذه. أما صديقي "الطرابلسي" فقد حصل على معلوماته من زوجته التي تخبره بكل صراحة عما يريد معرفته.

لا تتجرأ امرأة على حضور حفلات الاستقبال النسائية هذه إذا لم تكن جميلة وأنيقة إلى أقصى حد. وإذا ما أقيمت الحفلة في منزل عائلة مرموقة، قد يجتمع فيها ما يقرب من خمسين من أجمل جميلات المدينة، يرتدين أفخم الثياب، ويأتين إلى المنزل في موكب يضم أفضل ما عندهن من جوار، حيث تنتظر هؤلاء بعد الوصول في غرفة جانبية للاهتمام بصناديق النفائس التي تخصّ السيدات وتحوي ملابسهن. وبعد أن تجلس السيدات قليلاً،

---

[٢] - "سي . اف. فولني" "رحلة إلى مصر وسورية" ١٩٥٩، (ط٠أ ١٧٨٧)، ص ٣٩٢.

وتقدم إليهن المرطبات، تُستدعى الفتيات للدخول وتسلية الحاضرات بالغناء والعزف، عندها تتقدم أبرز الحاضرات وأجلهن قدراً وترقص لبضع دقائق، ثم تدخل إلى الغرفة المجاورة حيث تقوم جارياتها بمساعدتها على تبديل ملابسها، فتستبدل كل ما كانت ترتديه، حتى خفيها المطرزين بخيوط الذهب والفضة وتبقي فقط على تسريحة شعرها وأساورها المزينة بأفخم المجوهرات. في غضون ذلك تتقدم الباقيات للرقص، وتدخل كل منهن تباعاً إلى الغرفة الجانبية لتبديل ملابسها، وتتكرر العملية لدرجة إن كل سيدة قد تستبدل أحياناً ثيابها عشر مرات في ليلة واحدة، وفي كل مرة ترتدي ثوباً أفخم وأجمل. تبذل السيدات قصارى جهدهن لإثارة الإعجاب؛ ولا تنتهي الحفلة إلا والحسد والغيرة يملآن قلوب جميع الحاضرات.

تبنت نساء اليونان هذه العادة الشرقية المترفة بشكل كامل، فهن يبدلن ثيابهن في جميع المناسبات. وأخبرني صديق أوروبي مقيم في القسطنطينية بأنه رأى سيدة يونانية، وهي زوجة أحد أصدقائه الذي قام بزيارته، قد ارتدت خمسة أثواب مختلفة في غضون ساعتين. هذه الأمثلة تثبت قوة الغريزة والتماثل في شخصية الأنثى في كل أنحاء العالم.

يزدري الرجال هذا النوع من التسلية، ويفضلون عليه مشاهدة الراقصات اللاتي يعملن بالأجرة في الأماكن العامة، أو في البيوت الخاصة في مناسبات الأعياد. تسمى هؤلاء الراقصات "جنكان" أو الغجريات في الأستانة، و"الغوازي" في القاهرة. وهن عادة صبايا متزوجات أو عازبات ينتمين إلى طبقة اجتماعية معزولة ومحتقرة، يتزاوج أفرادها فيما بينهم. ويمتهن الآباء عادة حرفة البيطرة، ويصاحب الراقصات رجل واحد يعزف على "السمنج" أو امرأة مسنة تعزف على الدف، ويبدو أن مهمة المصاحب أيضاً هي مراقبة تصرفات هؤلاء الراقصات اللاتي يقال بأنهن لا يتمسكن كثيراً بأهداب الاحتشام أو الفضيلة. ومع هذا لا يجلب المسلم إذا كان متزوجاً لا الخزي ولا العار لنفسه إذا ما دعا

الراقصات إلى منزله، فهن يذهبنَ لن يدفع أكثر. لكن المسلم الأعزب لا يجرؤ على دعوتهن إلى منزله، ولهذا لم نقابل أياً منهن في بيوت التجار الفرنسيّين الذين يخضعون لقانون فرنسي يرغمهم على البقاء في حالة العزوبة.

في البداية لم نر الراقصات إلا صدفة في بيت عمومي خارج المدينة، لكن قبيل انتهاء إقامتنا في مصر، كانت لنا فرص أفضل لإشباع فضولنا. فقسم كبير من البيوت التي يسكنها الأوروبيون تقوم على طول القناة التي تعبر القاهرة: وهؤلاء "الغوازي" يكسبن تبعاً لذلك أكثر أرباحهن من الرقص قبالة هذه البيوت في القناة عندما تكون جافة، قبل افتتاح الكوبري. في تلك الفترة كنا أحياناً نستدعي هذه الجماعة منهن أو تلك للرقص أمامنا، فقد كنا بحاجة لهذا اللهو لنسلوا الأفكار الكئيبة التي يثيرها فينا احتمال رحيلنا. لكن مع كل ميلنا إلى التسلية، فإن رؤية الراقصات لم تبهجنا في البداية؛ فما يقدمنه من موسيقا وألحان كان بغيضاً، ومظهرهن يبدو بشعاً لدرجة القرف، بأيديهن الصفراء، ووجوههن الملطخة، وزينتهن الرخيصة، وشعرهن المدهون بالمراهم الكريهة الرائحة. لكننا، تدريجياً، بدأنا نتعلم تحمل رؤيتهن، ولأننا نفتقد بديلاً أفضل، بدأنا أيضاً توهم الجمال في بعضهن، وتخيل صوتهن مقبولاً، وحركاتهن رشيقة رغم خلاعتها، وأن الموسيقا التي يعزفنها ليست من النوع الذي لا يمكن تحمله![3]

"فيفانت دينون" و "بايل سنت جون" واصلا الادعاء بخلاعة الرقص الشرقي، تماماً مثلما فعل "المحترم . لويس وينغفيلد"، الذي ذهب إلى حد تحليل التركيب البنيوي- التشريحي لإحدى راقصات قبيلة "أولاد نايل". الكاتبان التاليان لهؤلاء اعتبرا أن الراقصات لا يثرن إلا اهتماماً ضئيلاً لدى الأوروبيين، في حين أن "الكابتن فرد بيرنابي"،

---

[3] - "أم . نيبور": "رحلات عبر بلاد العرب"، ١٧٩٢، الجزء الأول، ص ١٣٧-١٤١.

الذي كان يقوم برحلة على ظهر جواده عبر تركيا، اخبر مضيفيه عما سيفعله "كبير الأمناء" في قصر التاج البريطاني لو رأى عروض الرقص هذه.

أحضرت الفرقة المؤلفة من سبع عازفات آلتين موسيقيتين؛ "اكورديون" وطبلة مصنوعة من الغضار يضربن عليها بأصابعهن؛ ثم قامت اثنتان بالرقص وصاحبتهما الباقيات بالغناء والعزف على الصنجات الصغيرة، والحركة التي يضربن بها على الصنجات أظهرت رشاقة أصابعهن ومعاصمهن. كان رقصهن في البداية مثيراً للغرائز، وأصبح بعد ذلك خليعاً، لا يتعدى حركات تفتقد الرقة والاحتشام وتعبر عن الأهواء الجنسية. وما جعل هذه المشاهد أكثر إثارة للاشمئزاز هو قيام إحدى العازفات كلما أظهرت الراقصات أي قدر من التحفظ بإطلاق ضحكة ماجنة– كما يفعل مهرج تافه في حفلات التسلية عندنا– لمقاطعة مشهد البهجة الغامرة الذي ينهي العرض ....

وبالرغم من الحياة الداعرة التي تعيشها الراقصات، فإنهن يُستدعين إلى "الحريم" لتعليم الفتيات كل ما يسعد الزوج ويفتنه؛ ويعطوهن دروساً في الرقص والغناء وجميع ما يتعلق بإثارة الشهوات. وليس من المستغرب في مجتمع يعتبر في سلوكه الأخلاقي أن الإمتاع الحسي واجب المرأة الرئيسي، أن تكون فيه بائعة اللذة المحترفة معلمة ومربية للجنس اللطيف. فالراقصات يُدعون إلى كل الحفلات الكبيرة، كما يدعوهن أي زوج يريد إدخال السرور على "حريمه".[٤]

لم يكن الهدف من "مستعمرة الغواني"– أو الراقصات– التي أقيمت هنا جذب الأجانب فقط، بل اختيرت في هذه البقعة المنعزلة لتكون نوعاً من "الأكاديمية" حيث تتعلم الصبايا الجاهلات فنون الرشاقة والجمال والإغراء الخاصة بهذا المجتمع الغريب. سيدة

---

[٤] – "فيفانت دينون": "رحلة في مصر السفلى ومصر العليا"،١٨٠٢، الجزء الأول، ص ١٥٤–١٥٦.

بدينة شعثاء- تعودت بحكم الخبرة، عـرض وركيهـا الضخمـين- كـانت مديـرة المقهـى والمشرفة في نفس الوقت على تعليم "الاحتشام" لبنات الغوازي. عُرضـت علينـا تلميذتـان من المبرزات، وأُمرتا بإعادة بعض الدروس على مسامعنا. كانتا بحق مفخرة "الأكاديمية" رغم أنهما لم تتجاوزا العشر سنوات. وفي الحقيقة ليـس هنـالك الكثـير لتتعلمـاه مـاعدا الحب. وكجهاز آلي أعادتا كل حركة من حركات أخواتهن الكبيرات؛ لكن في حـين أطلـق العرب المتجمعون صيحـات الإعجـاب، والتنهيـدات الداعـرة، لم نستطع نحـن أن نمنـع إحساساً بالحزن العميق غمرنا لرؤية الطفولة البريئة تدنس على هذا النحو. أما السـيدة الشعثاء، التي حسبت أننا سنكافئها بسخاء، فقد نظرت إلينا متلهفة. وسـألتنا عمـا إذا أثار المشهد استياءنا، وحيث أنـه لم يكـن لدينـا خـبرة كافيـة في البـلاد، أبدينـا بعـض الاعتراضات التي سخرت منها وأساءت تفسيرها. ثـم غـاصت في شـرح تفـاصيل متنوعـة فيزيولوجية وغيرها مما يمكن الاستغناء عنها هنا. ولتغيير وجهـة الحـوار، استفسـرنا عن أصل هؤلاء البنات الفاتنات، وأُخبرنا بأنهن ابتعن مـن أمهـاتهن الفلاحـات. في ذلـك الوقت ارتبت بالأمر واعتقدت بأنهن اختطفن؛ لكن بيـع الأطفـال ليـس عـادة غير مألوفـة في القرى، حيث الفقر أقوى حتى من عاطفة الأمومة.

يبدو من المستحيل استخلاص فكرة واضحة عن أصل وتاريخ قبيلة "الغوازي" هذه كماتسمى هناك. وبالطبع فإن طبيعة المهنة التي يزاولنها تجعل احتمال نقاء الدم مستحيلاً؛ لكن هنـاك بعض الآثار المحددة لجنس واضح المعالم تظهر هنا وهناك بنقاء ملحـوظ. فـالوجوه والأشـكال للنسـاء المصريـات هنـاك لا يمكـن أن تتفـوق في جمالهـا علـى تلـك الـتي تمتلكهـا "الغـوازي" الأصيلات؛ ومن العجيب انه رغم الحياة الفاسقة التي يعشنهـا، فإن شكلهـن أجمل مـن النسـاء المتمسكات بالفضيلة في بلدهمن. فهل ممارسة العمل المجهد تدمر الجمال أكـثر مـن ممارسـة الرذيلة؟ وهل هؤلاء الغوازي اللاتي يعشن حياة كسل وفراغ بدءاً من سن الصبا؛ ويحيـط بهـن بعض من مظاهر الثراء- أثوابهن المصنوعة من الأقمشة الجميلة، وحليهـن الذهبي والفضـي،

وما يأكلن من طعام منبه لوظائف الجسم، وما يشربن من ماء أكثر نظافة من مياه النيل؛ تشنف الموسيقا آذانهن، وتملأ الأغنيات الغرامية خيالهن، ويتخلين بسبب الصلات الحميمة بالرجال عن العقل مؤقتاً لصالح العاطفة- تحت تأثير كل هذه العوامل، هل تكتسب "الغوازي" تفوقاً عقلياً، يتجلى ظاهرياً، ويقاوم بعنف آثار الشيخوخة المحتومة؟ كانت محظيات الإغريق يحتفظن بجمالهن حتى في الوقت الذي تصبح فيه الجميلات مجرد سيدات كهلات فقدن الجمال ولم يفقدن الاحتشام ولا الاحترام؛ ونفس الأمر حدث مع سليلاتهن المعاصرات في أوروبا.

على كل حال هذه التأملات ليست مرضية بما فيه الكفاية. إذ يمكن مع ذلك تفسير هذا السر الغامض بما يتوافق مع شرف الفضيلة، ويعزز مفاهيمنا حول التعليم النسائي. الحقائق التي توحي بهذه الملاحظات معروفة تماماً للسكان المصريين؛ وليس هناك ضرورة ملحة للإشارة إلى "كوتشك هانم" الشهيرة التي لا أعلم كم من السنين مرت وجمالها يثير إعجاب كل من زار "الجيزة". ولا شك انه ستأتي في يوم من الأيام شابة منافسة تزيحها عن كرسيها وتأخذ مكانها، ثم تجبرها الأيام على التوبة رغماً عنها؛ لكن في تلك البلاد المتساهلة لا تضطر "الغوازي" حين تأفل أيامهن للجوء إلى الفلسفة، أو التقوى، أو المستشفيات، ولا يصبحن هدفاً مكشوفاً للفضائح والأقاويل، إذ أن مهنة جديدة تفتح أبوابها حين تغلق أبواب المهنة القديمة، و "صافية" التي غدت مؤخراً سيدة محترمة ومحتشمة في القاهرة، بعد عشرين سنة من العمل كراقصة في الأماكن العامة، لا تشكل حالة إستثنائية.

ومن المرجح أن ثروتها ساعدتها في العثور على زوج محترم؛ لكنني أجرؤ على القول بأن كثيراً من العرب الذين تسحرهم مواهبها الاجتماعية، وشهرتها المتألقة قد يزدرون أرملة محافظة لها نفس العمر ونفس الثروة. ونحن نرى حالات مماثلة في أوروبا، حيث الرأي العام أكثر تطفلاً وأكثر ميلاً للنقد وإطلاق الاتهامات، وحيث لا يوجد عذر لبقاء السيدات الفاضلات

مكبلات بقيود الجهل والغرارة.

يبدو أن القبيلة، أو "نقابة الراقصات" هذه تمتد جذورها لأزمان بعيـدة احتفظت خلالهـا بملامح لغة واضحة المعالم، ما عدا بضع كلمات غريبة خاصة بها يمكن اعتبارها مجرد كلمات دارجة. وأنا أرجح الاعتقاد بوجود بعض القرابة في النسب بينها وبين الغجر فالرجال الذيـن يقرون بأبوتهم فيها يمارسون نفس المهن التي يحترفها الغجر المتشردون: السمكرة والحدادة والصياغة، وصناعة نوع من الخواتم يقال بأن لها قوة سحرية." [°]

" قبيلة "أولاد نايل" هي مؤسسة الصحراء الأولى بدون منازع، وستظل في ذاكرتي لمدة طويلة حتى بعد تلاشي كل التفاصيل الأخرى لرحلتي هذه. فنساء "القبيلة" هـن "سيدات الصحـراء الرشيقات"، ونسـبها يعـود إلى قبيلـة سـكنت المنطقـة المجـاورة "للأغـوات". في هـذه البـلاد الغريبة حيث لا مساواة بين الرجل والمرأة، أثار دهشتنا موضـوع أكـثر غرابـة. فنسـاء "أولاد نايل" لا يعاملن بازدراء نتيجة الهفوات والأخطاء التي يرتكبنها، بـل علـى العكـس يعـاملن بكثير من الإحترام والإجلال. فلا تكتمل حفلات الزفاف إلا بهن، ولا تحظى النساء بزيجات أفضل من زيجات نساء "أولاد نايل"؛ بنات السهول الجميلات اللاتي لا يجـدن حرجـاً كبـيراً في ارتكاب المعاصي. فبعد بيع اللذة لفترة من الزمن ترجـع المـرأة منهـن إلى قبيلتهـا وتشـتري بعض الأراضي وعدداً من أشجار النخيل، وتصبح صاحبة أملاك محترمة وهذا هـدف يناسـب وريثة نسوة اعتدن صيد الطرائد وتبذير ما كسبن من أموال.

أما الزي الذي يزاولن به المهنة فهو رائع حقاً، إذ يرتدين ثياباً كثيرة تلفهن تمامـاً لدرجـة يصعب معها تبين ملامح الجسم، حيث لا يرى المرء سوى كومة متشابكة من الأثواب الطويلة والمناديل والسلاسل، التي لا تبدو أنها تنتمي لمكان بعينه. ومع هذا سـأحاول قـدر اسـتطاعتي وصف واحد من هذه الأزياء المتناقضة الغريبة، قطعة قطعة.

° - *"بايل سنت جون، "حياة القرية في مصر"*، ١٨٥٢، *الجزء الأول*، ص ٣٢-٣٤.

تلف الجسم أولاً، عباءة طويلة تجر أطرافها على الأرض. تصنع عادة من قطن مستورد من "مانشستر" أو من إنتاج محلي ردىء، تربط عند الأكتاف بواسطة دبابيس فضية، وتتثنى تحت الابطين لتترك الجانبين مفتوحين حتى الخصر. ويشبك بأحد الدبابيس الفضية على الكتف منديل أصفر يستعمل حيناً في الرقص، وأحياناً لتجفيف العرق عن الوجه. ويربط حول الخصر حزام طويل جداً من الحرير بلفات كثيرة تتدلى نهاياته بشراريب حتى الأقدام. ويلبسن خفين صغيرين مطرزين، أو جزمة مغربية حمراء، تحوطها الخلاخيل الفضية الضخمة التي ينبىء رنينها عن قدومهن. ويذّكر الرحّال بباحة السجن. ومن فوق الكتفين ينسدل معطف فضفاض سميك وغامق اللون. ويرتدين فوقه نوعاً من "البرنس" من الحرير والقطن المخطط الذي يلامس أحياناً الوحل على الأرض. وأحياناً أخرى يُغطى الرأس بالقلنسوة. والرأس هو أكثر أجزاء الجسم جلباً للانتباه، وهو الذي يطبع الشكل كله بطابعه الخاص ، خصوصاً عندما يرى من الخلف. إذ يبدو أكثر عرضاً من الجسم بكثير (ثلاثة أرباع الذراع من جانب إلى الآخر) وليس له هيئة منتظمة. فالشعر المستعار يُضفر مع الصوف ليكون بمقدار أربعة أضعاف حجم الشعر الأصلي؛ ومن فوقه يقام بناء من السلاسل، والترتر اللامع، والمناديل المذهبة. بما يكفي لتزويد ست نساء. هذه الكتلة تفك مرة واحدة كل ثلاثة أو أربعة اشهر. وتشكل بما فيها من زينة ووشاحات مبهرجة مرتعاً خصباً لجميع أنواع الحشرات والفطريات، التي أتخيل أنها كانت تعلق بشعور جدات جداتنا البدائيات في قديم الزمان. ويعقد تحت الذقن مباشرة وحول الرقبة منديل من الشاش الأحمر أو الأخضر، يغطي كل الكتلة الموجودة فوق الرأس. كما يصبغ الشعر والكفين بالحناء وهو ما يجعل المرأة أكثر قذارة. وتكون "البرانس" والمعاطف مخبأة تقريباً تحت أكوام الحلي التي تثقل كاهلها- سلاسل طويلة من الفضة حول الرقبة والخصر الذي تعلق عليه الخناجر والمرايا وعلب التعاويذ والطلاسم، وكلها من الفضة الخالصة؛ في حين تضع الفتيات الأكثر ثراءً بالإضافة إلى كل ذلك عقوداً ضخمة

من حبات المرجان والفضة. أما الذراعـان فهمـا محملتـان بأسـاور هائلـة، والأصـابع مخفية بالعديد من الخواتم. كل هذا الحلي يتحرك مجلجلاً عندما تسير النساء لتدل على مكانهن. الوجوه يمكن أن لا تكون بشعة لو لم يملأها الصباغ الأحمـر والنقـوش. والحواجب تلمع بفعل الزيت، وكل ملامح الوجه مدهونـة بالشـحم حتـى لا تتشـقق الطبقة الكثيفة من المراهم الكريهة التي تغطيه. ومن الخلف، كما قلت سابقاً، يبدو منظرهن مضحكاً جداً- كومة من الملابس عريضـة القمـة، مـع مِزقـة مـن القمـاش أو منديل من الشاش يبرز من مكان لا يمكن تصوره، مما يعطي انطباعاً عاماً بأن كـل شـيء قـد أُلقي على الجسم والتصق هناك بفعل قوة مغناطيسية خفية.[٦]

اقترحتُ أن يبـدأ الرقص الآن، واستعجل مضيفنـا السيدات حين صاح قـائلاً: "هـات الجَمَلَيْن"؛ فتلك هي الاستعارة البلاغيـة المعتـادة للإشـارة إلى الجنـس اللطيـف في مثـل هـذه المناسبات. الآن ظهر "الجملان"، وبدءا بما وصفه بيركهارت: حركات رشيقة ورقيقـة، لكـن تلك الحركات دفعت إلى ذاكرتي صورة نبات الخطمي، فالراقصة وقفت في مكان واحـد وهـزت خصرها بطريقة سخيفة وسمجة."[٧]

بعـض الأهـالي المهمين كـانوا حـاضرين للقائنـا، وحفلـة الليلـة ضمـت مغنيـات وراقصـات بالإضافة إلى شرب القهوة وتدخين الـنراجيل. وكـان عـرض الراقصـات مثـيراً للفضـول لكنـه يفتقد إلى التهذيب ومشاهدته لمرة واحدة تكفي.[٨]"

دخل الآن بعض الرجال من الغجر، جلسوا على الأرض وبدؤوا العزف على العود. كان أحدهم يحمل آلة موسيقية مرعبة تشبه مزمار القربة، أطلقت إنفجاراً صوتياً وحشياً. ثم دخلت الراقصات في إثر الموسيقيين. كانت الغجريـة الرئيسـية في الفرقـة تحمـل الـدف،

---

[٦] - "المحترم.لويس وينغفيلد: "تحت أشجار النخيل في الجزائر وتونس"، ١٨٦٨، الجزء الثاني، ص ٤٢-٤٦.

[٧] - "سي. هـ .بالمر": "صحراء سفر الخروج"، ١٨٧١، الجزء الأول، ص ١٨٦-١٨٧.

[٨] - "السير. و.جي.آرمسترونغ": "زيارة لمصر عام ١٨٧٢"، ١٨٧٤، ص ١٤١.

وترتدي معطفاً أزرق اللون و "صدرية" برتقالية مطرزة بالذهب تحته، وسروالاً أصفر عريضاً جداً يغطي رجليها. وامتد من أذنيها قرطان ضخمان تدليا حتى كتفيها تقريباً. ولكي تجمل نفسها بما يليق بالمناسبة صبغت أسنانها وأظافرها بطلاء أحمر، وامتد حاجباها حتى كادا يلتقيان وذلك بتخطيطهما بقطعة من الفحم الأسود. وثبت على خصلات شعرها الأسود حلي من الترتر الذهبي اللامع، والخلاخيل التي تزين قدميها كانت تجلجل برنينها المعدني كلما تمايلت في الغرفة. والفتاتان اللتان ترافقانها ترتديان ملابس مشابهة. ما عدا الترتر الذهبي على الشعر الذي كان ينسدل بضفائر طويلة حتى الخصر.

تقدمت الفتاتان نحو زوجة (زميلنا) "فانكوفيتش" ووضعتا يدها فوق رأسيهما كنوع من التحية ولإظهار الاحترام، وطلب "فانكوفيتش" قدحاً من الشراب (العرق) للغجرية البدينة التي شربته رغم أنها مسلمة ولا يفترض بها أن تقرب الكحول. ثم تلمظّت بصوت مسموع؛ أما عازف القربة فقد أطلق العنان لأحاسيسه بصوت أكثر هولاً من قبل؛ وغيرّ العود نغماته استعداداً لبدء الحفلة. تناوبت الفتاتان الدوران إحداهما حول الأخرى بحركة لولبية بطيئة في البداية، زادت سرعة الخطوات بعدها حتى أصبحت أطراف ثوبيهما تمتد بزاوية قائمة مع الجسم. وتصبب العرق من وجناتهما، أما السيدة المسنة التي كانت تجلس على الأريكة فقد مدت ساقيها وصارت تضرب الخلخالين ببعضهما، مضيفة ضجيجاً جديداً إلى الضوضاء التي تملأ المكان. وأخرجت الفتاتان الصنجات، وبدأ جسم كل واحدة يتلوى حول الأخرى بسرعة حتى صار من الصعب التفريق بينهما. وفجأة توقفت الموسيقا وألقت الراقصتان المتعبتان نفسيهما في أحضان الموسيقيين.

سألني فانكوفيتش عن رأيي في العرض وهو يصب قدحاً آخر للراقصات. قلت: "إنه

عمل صعب جداً. أليس كذلك؟" وقبل أن ينتظر جوابي تابع قائلاً: "إن المسلمين الذين سمعوا عن الحفلات الراقصة في أوروبا، ولم يغادروا تركيا، لن يستطيعوا أن يفهموا كيف يستمتع المرء بالرقص". ثم أردف معلقاً، "ما الفائدة التي أجنيها من الرقص بنفسي إذا كنت أستطيع استئجار راقصة للرقص أمامي؟ ذلك هو اعتقادهم". قلت: هم ليسوا مخطئين تماماً في ذلك. ولو أنهم كونّوا فكرتهم عن الرقص في أوروبا من أفكارهم حول الرقص الشرقي، فان كبير الأمناء في البلاط الملكي سوف يأمر بوقف العروض في إنكلترا. ثم تساءل شخص أرمني كان حاضراً مستخدماً اللغة الفرنسية: "لكن من هو كبير الأمناء؟".

– هو موظف رسمي مهمته الحفاظ على الأخلاق العامة.

– وهل تعني أنه سيعترض على هذا النوع من الرقص؟

قال فانكوفيتش: "نعم. ما رأيتموه ليس سوى القليل: فعندما تكون هناك حفلة زفاف في "الحرملك"، فإن الراقصات يرتبن ملابسهن بطريقة تسمح لهن بخلعها قطعة قطعة. ويبقين في النهاية على نفس الزي الذي كان يلبسه آدم وحواء قبل السقوط من الفردوس. يجب أن نتجنب هذا المشهد، فزوجتي هنا، والغجريات يحترمن وجودها لأنهن يعرفن أنها أوروبية".[٩]

الفقرة التالية مقتطفة من رواية "اسكاروس القبطي" التي يصف فيها "ادوين دو ليون" الاشمئزاز الذي أصاب السيدات الأمريكيات حين شهدن عرضاً للرقص الشرقي في منزل إحدى الأميرات.

---

[٩] – "فريد بيرنابي": "رحلة على ظهور الخيل عبر آسيا الصغرى"، ١٨٧٧، الجزء الأول، ص ٢٢٠–٢٢٣.

صفقت بحدة ثلاث مرات، وانفرجت فجأة ستارة في زاوية الغرفة وثب داخلها ثلاث "غوازي" -أو راقصات، وبدأن تقديم أكثر أنواع الرقص جموحاً؛ ورافقهن من خلف الستارة عدد من الموسيقيين يعزفون على الناي و"الدربكة"، أما وصف رقصهن فأمر يقرب من الاستحالة. حركتهن في البداية بطيئة ومدروسة، كافتتاحية الرقصات الشعبية الإيطالية، لكن سرعان ما تصبح الموسيقا أسرع وأشد حماسة، ومع ارتفاع الضجة تتلوى الراقصات ويتثنين بسرعة ... تتلوى أجساد الراقصات اللدنة وتتثنى بسرعة وعنف كالأفاعي في حركات عضلية غريبة- تأخذ أوضاعاً مستحيلة تقريباً- تتوافق تماماً مع الموسيقا. ثم يتقدمن ويتراجعن؛ واحدة تمثل رجلاً وأخرى امرأة في تجسيد حي لجميع الحالات والأهواء والنوازع الإنسانية من خضوع، وتوسل وقح، ورفض وإباء ويأس، وغضب متقد، وقبول،وغرام، ونشوة، وألم! وينتهي المشهد بحركات فاضحة تثير الغثيان ولا يمكن وصفها.

أما الحاضرون، فبعد أن تسحرهم جدة العرض وجموحه في البداية، سرعان ما يصابون بالاشمئزاز من الحركات الفظة؛ خصوصاً عند مشاهدة "رقصة النحلة" التي تتوج العرض في النهاية؛ إذ أن فكرة وتنفيذ هذه الرقصة يخلفان في البذاءة وراءهما كل عروض فرق الباليه الفرنسية أو الأمريكية- ويتجاوزان إلى حد بعيد حتى أكثر قيود الاحتشام والأدب ليناً وتساهلاً. عندها تتفادى الراقصات النظر في وجوه الحاضرين ويحولن بصرهن حياءً إلى نراجيلهم. وتنتهي الحفلة المعربدة وعلامات السرور اللامتناهي من جهة، والازدراء الذي لا يوصف من جهة أخرى، بادية على وجه الأميرة التي تعتبر الحركات الراقصة الأخيرة نفاقاً وتظاهراً بالاحتشام، رغم أنها صفقت بحرارة لأقوى مشاهد العرض وأكثرها خشونة ووقاحة، الأمر الذي حفز وحث الراقصات ليكن أكثر هيجاناً وبذاءة وفحشاً. وعندما لهثن وانقطعت أنفاسهن من شدة الإعياء، وتجردن من جميع الثياب الفضفاضة التي بدأن بها العرض- لم يعدن ربّات الجمال الشرقيات! أخيراً، ألقت الأميرة بكيس من الذهب لكل منهن

كتحية وداع منها.[10]

قدم "هـ.دو فوجني" في كتابه عـن مدينـة القـاهرة، تقريـراً عـن وضـع الراقصـات المصريات في ذلك الوقت. وكما فعل العديد من الكتّاب، كـان تقديـم موضـوع يتعلـق بالنسـاء مناسبة لتحـّول الأسلوب اللغـوي مـن النـثر الرصـين إلى نـثر منمـق حـافل بالمحسنات.

يجب الاعتراف بأن وضع "العوالم" في الماضي كان أفضل منه حالياً، فقد خسرن المكانة الأولى وأصبحن مجرد محظيات سوقيات. وقـام الخديـوي عبـاس باشـا بنفيهـن إلى الوجـه البحـري حفاظاً على الأخلاق العامة في (جنوب) الدلتا وخصوصاً في العاصمة. أما المغنيات الشـعبيات في قنا والأقصر وإسنا خصوصاً فلسن جديرات بحمل لقـب "عـوالم"، حيـث اختلطـن "بـالغوازي" وصرت ترى نفس النساء يغنين ويرقصن واحدة تلو الأخرى أو في مجموعات تتألف من اثنتين أو أربع. أغنياتهن رتيبة وبطيئة وبدائية ولا تمت بصلة إلى الأفكار الموسيقية في بلادنا، ومـع ذلك فان فيها لسحراً لا يمكن تحديد كنهه. وفي الواقع إن قوتهـا تكمـن في تلـك الرتابـة الـتي تغمر مع مرور الوقت الروح بنوع من النشوة تهدهدها لتغفو في حلم جميل...

العدد القليل من "العوالم"اللائي بقين في القاهرة هن أكثرتحفظاًمن أولئك في الوجه البحري؛ حيث يعشن في مناطق لا يرتادها الأجانب إلا نادراً، ولا يروهـن الا صدفـة في الحفـلات الـتي يقيمها المصريون الأثرياء. و "كالعوالم"، كذلك الراقصـات نـادراً مـا تلقـاهن في القـاهرة؛ لكـن يمكن رؤيتهن في المناطق التي تقع جنوب "سيوط" في محافظة قنـا. وبسـبب التأثـير الأوروبـي

---

[10] – "ادوين دو ليون": "اسكاروس، القسيس القبطي"، ١٨٧٠، ص ١٠٤–١٠٥.

فقدن أسلوبهن الفريد، فلم تعد ممارسة الرقص تتم مع جميع الإضافات الكمالية التي يحتاجها؛ وفي حضرة النساء تظهر الراقصات تحفظاً أكبر في حركاتهن.

الرقص الشرقي في مصر ليس له شبيه أبداً لما نعرفه عندنا في أوروبا؛ فهو يتألف من حركات متتالية تقوم بها الراقصة حين تقف وتنثني بالإضافة إلى إيماءات وإشارات لها غرض واحد- التعبير عن الرغبات الشهوانية أو إثارتها. ترتدي الراقصات عادة ملابس حريرية بألوان مبهرجة، حيث يتناغم الأحمر والأصفر مع الأخضر والسماوي؛ أيديهن وأرجلهن عارية ومزينة بأساور وخلاخيل ضخمة؛ بينما تغطي غلالة من القماش الشفاف الثديين جزئياً. عيونهن المكحولة تتلألأ حيوية، وتتنافر في ألوانها مع بشرة الوجه الداكنة. في حين يحيط بالجبهة إكليل من القطع الذهبية ، وكذلك تشبك بالشعر الأسود المسدل على الكتفين العديد من القطع الذهبية الصغيرة. سخاء الحاضرين يضاف دوماً إلى المنظر العام لهذه الجواهر المتلألئة. والرقصات وبعض الأزياء مشابهة تماماً لتلك المرسومة في المدافن الأثرية، وبلا ريب فقد حافظن عليها كما هي .

عندما تدعى الراقصات إلى منزل خاص فإنهن لا يظهرن أبداً أمام الرجال والنساء معاً. فبالنسبة للرجال يقدم الرقص عادة في "المنظرة" (غرفة في الطابق الأرضي من المنزل). وترافق الراقصات فرقة موسيقية صغيرة تتمركز في زاوية الغرفة تتألف من عدد من الآلات الوترية، والدف و "الدربكة" لضبط الإيقاع، وتحتل الراقصات جزءاً من الصالة، بينما يجلس المشاهدون بصمت على الأرائك ويستمتعون بالعرض المقدم. وتبدأ الفنانات – وهن عادة شابات وجميلات – العرض الراقص بالمشي حول الغرفة بخطوات بطيئة ومدروسة. ويحركن أيديهن برشاقة بمصاحبة الصنجات النحاسية الصغيرة (الصاجات) المثبتة على الإبهام والوسطى والتي يعزفن عليها بمهارة عجيبة وبتناغم كامل مع حركة الأرداف. وبعد أن يدرن حول الغرفة مرتين أ و ثلاثاً بأجسادهن التي تتمايل في جميع الاتجاهات، ويتخذن أوضاعاً أكثر

إثارة، تتوقف أرجلهن وكذلك الجزء الأعلى من الجسم عن الحركـة مـا عـدا الذراعـين اللتـين تتحركان لمتابعة الإحساسات الداعرة التي تجسدانها. وعندما تزداد الحركات اهتياجاً بفعل الاهتزاز المتواصل الذي يزدن في سرعته بمقدرة جريئة، أو يقللن منها ببطء، تبدو أجسادهن رشيقة بشكل لا يصدق حيث تهتز كأوراق الشجر بفعل اندفاع عصبي لا ينقصه الوضوح. من المستحيل تخيل عرض إيمائي أكثر حيوية وواقعية.وحركات أكثر إثارة وشهوانية، وأجساد تتثنى وتتلوى وتعبر بطريقة أشد إباحية عن كل المشاعر الحسية؛ فالأوراك المهتزة، تهبط وترتفع مجدداً بسرعة خيالية، معطية انطباعاً لهياج غرامي لا يوصف....

توجد عدة أنواع من الرقص تتشابه كلها من حيث المبدأ وتقدم كلها برشاقة وخفة وانفعال غير مألوف. أما أكثرها شعبية فهو "رقصة النحلة". فالراقصة تتظاهر بأن نحلة لسعتها وتبدأ بالبحث عنها تحت ثيابها مطلقة صرخات مكتومة وهي تحاول الإمساك بالحشرة المزعومة. و دونما توقف عن الرقص، تسرع بخلع القطعة الأولى من ملابسها وتلقي بها على الأرض؛ ثم تلقي بالثانية وهي تصرخ "النحلة ... النحلة!" مع حركات تعبر عن الخوف من اللسعات ثم الأمل بالتخلص من تلك النحلة. وبعد بحث طويل دونما جدوى، تُبقي في النهاية على غلالة شفافة تتركها تحت رحمة حركاتها. وشيئاً فشيئاً تصبح الراقصة أكثر حيوية ثم "بدون قصد" تسقط القطعة الأخيرة من ملابسها. عندها تقترب الراقصات من بعضهن ثم يبتعدن، ثم يتلاقين، ثم يدرن ظهورهن وكأنهن يحرضن بعضهن بعضاً على الممارسة الجنسية ويستمتعن بأكثر الحركات خلاعة. وبأجساد مرنة كعود القصب، يدرن حول بعضهن ثم يرجعن للوقوف وجهاً لوجه بلا حراك، أجسامهن ملقاة إلى الخلف، والأذرع ممدودة، والأكف مشدودة، والأجساد ترتجف حيث يسلمن أنفسهن لنوبات الانفعال الشديد التي تظهر انطباعاتها عليهن.. في هذه اللحظة تصبح الموسيقا ألطف وأخف ولا تعلو عن لهاث الراقصات ورنين القطع الذهبية على شعورهن. وفجأة يلحظن وضعهن بما يشبه "المفاجأة" فيلتقطن الغلالة الشفافة بحركة محتشمة ويلففنها حول خصورهن. وتتوقف الرقصة لبرهة

تقدم خلالها أقداح "العرق" الصغيرة، ولا تبالغ "الغوازي" في الاحتشام، إذ يبدأن التحدث مع الضيوف ابتغاء فضلهم وطمعاً بكرمهم.

يبدأ الرقص ثانية بروح جديدة، الوشاح الرقيق حول الردفين يخلع ويرفرف في الهواء، الأوضاع الراقصة تصبح أكثر خلاعة وشهوانية، وتظن أن ما يحدث هنا هو طقوس احتفالية في عيد "باخوس" إله الخمر الروماني. وبعد حين تأخذ الراقصات في ارتداء ملابسهن مجدداً دون أن توقفن عن الرقص.

عندما ينتهي العرض، تجلس الراقصات بين الحضور أو يجثين أمام أولئك الذين يرون استجداءهم. أما السعداء الذين يكونو هدفاً لهذا الامتياز، فعليهم أن يبللوا بعض القطع الذهبية ويضعوها بلطف فوق جبين وعنق وصدر وذراع هؤلاء اللاتي يفضلونهن. [١١]

عندما كان "القس تشارلز بل" في القاهرة خلال ثمانينات القرن، نظر إلى الراقصات بعين ملؤها الرثاء والشفقة. ومع هذا لم يشاهد عرضاً راقصاً لأن أحد أصدقائه من الرحالة أخبره أن "العرض يفتقر إلى الاحتشام نوعاً ما، وأنه سُرَّ بانتهائه"[١٢]

أما "مركيزة دوفرين وآفا" فقد دعيت إلى عرض ووجدته غريباً جداً وتابعت عدة رقصات ثم غادرت الحفلة" وهي تعلم انه لا يجب أن نرى أكثر"[١٣]

"السيدة جين بوميرول" أمضت بعض الوقت في الصحراء ووجدت تصرفات النساء هناك صبيانية وطائشة، وبعد أن روت كيف يمضين الوقت في الرقص أمام بعضهن البعض،

---

[١١] – "هـ.دو فاجني": "القاهرة وضواحيها"، ١٨٨٣، ص ٨٨-٩٣.

[١٢] – "شتاء على ضفاف النيل"، ١٨٨٨، ص ٢٥٥-٢٥٦.

[١٣] – "يومياتي الروسية والتركية"، ١٩١٦، ص ٢٨٤.

شرحت السبب وراء ذلك. إنه تجربة (بروفة) للعرض الحقيقي- الرقص أمام الرجال! ويبدو أنها لايمكن أن تقتنع بأن النساء قد يستمتعن بالرقص لأجل الرقص ذاته. أما "الكونتيسة ماليانتي" فقد شرعت في البحث عن كل ما هو رومانسي ففُتنت بكل شيء في حياة الصحراء، وعروض الرقص التي شهدتها بالمشاعل خارج خيمة "السلطان" كانت مشهداً مسرحياً بديعاً وخلفية رائعة للرومانسية التي بحثت عنها.

... وباختصار فإن أساليب نساء الصحراء مليئة بالتناقضات؛ تناقضات في الإحساسات وتناقضات في العواطف، بالإضافة إلى أن جميع تصرفاتهن صبيانية وطائشة. حتى الرقص الذي يغرمن به. والتعلق بهذا النوع من التسلية أمر شائع بين نساء الصحراء، حيث يرقصن أمام بعضهن بطريقة لا تزيد أبداً في احتشامها على رقصة "الفاسيديت" رغم أنها أقل جمالاً ورشاقة. وخلال شرب أقداح الشاي يقفن في جميع الأوضاع، ويثنين أجسادهن بأسلوب لا يمكن أن يوصف بأنه ممتع، ثم يقفن منتصبات، والحاضرات يحدقن بهن، ويتظاهرن باللامبالاة أو الانفعال أو الرقة والتهذيب، أو يظهرن تعابير تنطق بالازدراء تبعاً لحالة المشاهدين أمامهن. ويبدو أنهن معجبات بالقيام بما يرضي الجنس الآخر حتى حين لا يكون أي من الرجال حاضرين. ومع أنهن لا يعلمن، إلا أن هنالك شيئاً من الشهوانية في رقصاتهن التي هي في الواقع بحث لا شعوري عن مثال جنسي، لا في تلك الرقصات فقط بل حتى في زينتهن وعطرهن. إرضاء الرجال! تلك هي رغبتهن الوحيدة، لكنهن لا يملكن سوى فرص قليلة لإمتاع الجنس الآخر. ففي هذه البلاد لم تصل المرأة التي تود أن تكون جذابة إلى فكرة ارتداء ثوب مفتوح عند الصدر، فهي تكوّم الثياب الجميلة واحداً فوق الآخر وهدفها إدخال السرور على قلب زوجها أو حبيبها. الحرير المقصب، "التول" الموشى بالترتر، وأنسجة موشاة بالذهب والفضة، بعضها حقيقي وبعضها مقلّد، تتهدل بطيات متصلة، ومساحيق تجميلية براقة، وأحجبة غامضة توحي بالجمال المستتر. وكل هذا البريق المعدني الوهاج،

وهذه الثياب الموشاة بالذهب، إنما هـي تكثيـف وتجسيد لأحـلام كثير مـن الشـعوب تـآلف نسيجها المتنافر ليشكل السراب المنبثق من رمال الصحراء القاحلة.

ليس هنالك فكرة بديلة في أذهان هؤلاء النساء عن شـكل مـن الـترف سـوى المتـع الحسـية. الجن والملائكة والأشـباح، جهنميـة كـانت أو سماويـة- ليـس لهـا سـوى تلـك المتـع؛ وحتـى الفردوس ذاته لا يعد بأكثر منها ثوابـاً للمؤمنـين.الأثـواب المقدسـة هـي نفسـها الـتي كـانت ترتديها السيدات في الخيام المتنقلة المهيبة في عصر العائلة الأبوية الذي مضى منذ زمن بعيد. أشكال لم تتغير، وخطوط ثابتة، ما زالت كما هي فيما عدا التقاليد التي عُدّلت نتيجـة تأثـير الذوق الأوروبي الفاسد.

الثبات! كم من معان تتضمنها هذه الكلمة! وكم مـن قـرون وقـرون مـرت واسـتطاعت فيهـا النساء بما يملكن من جاذبية إثارة غرام الرجال بهن باستخدام نفس الزينة والحلي! والنساء بشبابهـن الأبدي، يرث جيل منهن بسرعة جيلاً مضى. والزهـر، سـيتفتح دائمـاً مثلمـا تتلـو موجة موجة في المحيط. واللون والضوء والظل ثلاثة أشياء ستظل تملك نفس القدرة على إغـواء الرجال اليوم كما فعلت بأسلافهم في العصور الغابرة، وكما ستفعل بأحفادهم الذين سـيأتون في المستقبل[١٤]

عندما انتهينا من تناول الطعـام، رتـب السـلطان حفلـة لـلرقص، وأضيئـت المشـاعل حـول الخيمة. ثم دخل الساحة رجلان يحملان طبلين ضخمين وطلبا من النساء أن يستعدّن لـلرقص. ورافقهما ستة رجال يعزفون على آلات تشبه المزمار. بعد بضع دقائق أتت الراقصات يتهادين ببطء، تحمل كل منهـن سـيفاً فضيـاً بيـد ومشـعلاً بـالأخرى. كـن مليحـات طويـلات القامـة، ملامحهن كلاسيكية – يرتدين أثواباً طويلـة فضفاضـة حمـراء اللـون يغطيهـا شـال قرمـزي، وحول رؤوسهن وضعن حلياً من العملات الذهبية والفضية تتدلى فوق جبينهن.

[١٤] – "مدام جين بوميروك": "وسط نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ص ٣٤٠-٣٤٣.

كانت الرقصة بطيئة، تتمايل فيها الراقصات مع الإيقاع ملوحات بالسيوف والمشاعل معاً. وهي تشبه رقصة في حلم! رقص الرجال أيضاً وهم يقرعون الطبول، وقفزوا بين النساء، يستحثونهن ويثيرون رغباتهن، وقد علت قسمات وجوههم تكشيرة هزلية. كان في الفرقة غرابة وظرف إلى درجة تمكنها من أن تجني ثروة لو قدمت عروضها على أي مسرح للمنوعات في أوروبا. كانوا يقفزون كالشياطين أو الأرواح الشريرة.ويشكلون منظراً يتناقض مع هدوء وجلال الراقصات.

استمرت الرقصة لمدة ثلاث ساعات؛ وعندما كان الإعياء يصيب الراقصات كانت أخريات تحل محلهن. كان المشهد جميلاً، بالمشاعل المتوهجة، ورشاقة الراقصات بحركاتهن البطيئة وحليهن الذهبي وسيوفهن الفضية التي تبرق تحت الأضواء. وعندما انتهت الرقصة أخيراً، ألقينا بعدد من قطع النقود الفضية داخل حلقة الرقص، ودعا السلطان الراقصات لتناول الطعام في خيمتنا، وكان يتألف من القمح المسلوق مع قطع من لحم الضان، وشربنا جميعاً "العرق" مع الماء. لم نصل إلى خيامنا إلا بعد سهرة امتدت إلى ما بعد الثالثة فجراً بوقت طويل. أمضينا في خيامنا أربعة أيام ... جميلة وورومانسية...[١٥]

[١٥] – "الكونتيسة ماليناتي": "عبر الصحراء الداخلية إلى المدينة المنورة"، ١٩٢٥، ص ٨١-٨٣.

أحاديث الحب المدنّس

تحدث الرحالة لقرون طويلة عن الحرمان الذي تعاني منه النساء في الشرق. والفكرة التي تقول بأنهن "حبيسات معاً" داخل الحرملك، ويستحممن عاريات بشكل جماعي، أثرت بوضوح على كثير من الرحالة وجعلتهم يشعرون بعدم الاستقرار النفسي وبالحرمان من المتعة الجنسية التي يشعرون بأنها حق من حقوقهم. ومن الواضح انه إذا أمضت النساء معظم الوقت معاً فسوف تسوء أخلاقهن، وعلى أي حال، كانت تلك حقيقة توثّقت في الغرب. "جورج سانديز" بدأ رحلاته في الإمبراطورية العثمانية عام ١٦١٠، وأخبر قراءه عن "الممارسات الشهوانية الدنيئة وغير الطبيعية" التي "قيل له" بأنها تحدث يومياً في الحمامات العامة.

يرتاد الرجال الحمامات العامة في الصباح: وبعد الظهر تكون مفتوحة للنساء... تدهن النساء أجسادهن بالمراهم المطريّة التي تجعل البشرة ناعمة، وبيضاء، ولامعة تذهب عن الوجه التجاعيد. كثير من الممارسات الجنسية الشهوانية والدنيئة والشاذة يقال بأنها تحدث يومياً في تلك الأماكن المغلقة والمظلمة...ومع ذلك فالنساء هناك ينجبن أجمل وأنظف من رأيت من أطفال...[1]

١-"جورج سانديز": "رحلات سانديز"، ١٦٥٢، ص ٥٤.

"مسيو دو ثيفينو" الذي نشر تقريراً عن رحلته عام ١٦٦٥،كان يعتقد بأنه إذا كانت النساء بالطبيعة كسولات ويتعرضن لسوء المعاملة من قبل الأزواج، فلا بد أن يعانين من الانحراف الذي لا يمكن لهن تفاديه.

عندما تخرج النساء إلىالشارع يغطين رؤوسهن بقطعة من القماش تستر أيضاً الجبين حتى العينين. وتحت العنين مباشرة هنالك قطعة أخرى من القماش تغطي الأنف والفم وتُشد خلف الرأس لتترك العينين مكشوفتين فقط. ولو لم يكشفن سوى عن اليدين لاعتُبرن نساء لا يستحقن الاحترام. ولذلك تطول الأكمام لتغطي الكفين أيضاً. وبالرغم من هذا، عندما يجدن مناسبة يكن فيها بعيدات عن الأعين في زاوية منعزلة في الشارع مثلاً، يكشفن النقاب لتراهن صديقة أو شاب يعجبن به– وهو أمر يعرضهن للضرب أحياناً أو على الأقل يلوث سمعتهن.

هؤلاء النساء متعجرفات إلى حد كبير، وكلهن تقريباً يرغبن في لبس الحرير المطرز حتى لو لم يكن مع الزوج ثمن الخبز. ومع هذا فهن كسولات جداً، يمضين أيامهن جالسات على الأرائك دون عمل شيء ماعدا تطريز بعض الأزهار على منديل ربما. وحالما يحصل الزوج على بعض المال يحاولن شراء جارية لخدمتهن. هذا الكسل والفراغ يؤديان إلى الانحراف ويجعلان هم النساء الوحيد التفكير في أساليب جديدة للترويح عن أنفسهن. الأتراك لا يؤمنون بأن الجنة من نصيب نسائهم. وبالكاد يعترفون بهن ككائنات عاقلة. فهم يعتبرون المرأة خادمة للرجل، وينظرون إليها نظرتهم إلى خيولهم. وبما أنهم يملكون كثيراً من النساء، وكثير منهم يتبادلون حباً محرماً مع نفس الجنس، فإن هؤلاء النسوة المسكينات يجدن أنفسهن في حالة من الخذلان وقد تخلى عنهن الجميع، ولذلك يبذلن قصارى جهدهن للحصول على ما لم يستطعن الحصول عليه من أزواجهن.[٢]

[٢] – "مسيو دو ثيفينو": "سرد وقائع رحلة عمل في الشرق الأوسط"، ١٦٦٥، ص ١٠٦–١٠٧.

تحدث "الياس هابيستشي" في كتابه "الحالة الراهنة للإمبراطورية العثمانية" (١٧٨٤) عما أسماه "الدعارة غير الطبيعية"، كما ذكر أيضاً أنه ليس بالأمر الصعب إيقاع المرأة التركية في شراك قصص الغرام الرومانسية. ويبدو أن هنالك علاقة ما بين "هابيستشي" وهو مواطن يوناني يقيم في "الأستانة"، و السير جيمس بورتر، السفير البريطاني هناك، الذي أكد استحالة إقامة علاقات غرامية مع النساء التركيات. يقول هابيستشي: "من المحتمل أن هذا الوزير البريطاني ليس لديه ميل كبير لإقامة مثل هذه العلاقات الغرامية السرية". وبعد ذلك يخبر الرحالة المتوقع قدومهم عن الأمكنة التي يمكن أن يرتبوا فيها مثل تلك العلاقات.

العلاقات الفاسقة الشائنة منتشرة أيضاً في مخادع الفتيات. وليس هنالك ما يدهش في أن هؤلاء الفتيات الجميلات المترفات لا يعرفن الكلل ولا الملل من هذه الناحية. وما من شيء يفعلنه سوى الاستعداد لمارسة المتع الحسية، ومن لا يفكر إلا بـ "فينوس وابنها كيوبيد"، يهب نفسه للشهوانية الشاذة. وذلك لافتقاره إلى البدائل المناسبة التي تشبع ميوله الجنسية. ومع أنهن على علم بالمصير المشؤوم الذي ينتظرهن فيما لو افتضح أمرهن، إلا أن شدة الرغبة لديهن تجعلهن يندفعن بتهور في ذلك الطريق المدمر. وكم من فتاة تعسة مذنبة قيدت بعد انكشاف أمرها مع صديقتها وألقيت في اليم من السراي المواجهة لكالسيدونيا .[٣]

بما أن الأتراك يؤمنون بتعدد الزوجات , والأثرياء المشهورون منهم لديهم "حرملك" ملئ بالنساء فمن الطبيعي أن تشعر الزوجات بعدم الاكتفاء الجنسي مع مثل هؤلاء الأزواج ، ولذلك يبحثن عمن يسد هذا النقص . والتركي الذي يشغل منصباً رفيعاً ويسكن الأستانة ، قد يرسل في مهمة لخدمة السلطان إلى المقاطعات النائية من الإمبراطورية . وفي هذه الحالة يأخذ

[٣] - "إلياس هابيستشي" : "الحالة الراهنة للإمبراطورية العثمانية" . ١٧٨٤ ، ص ١٧٧

معه واحـدة أو اثنتـين مـن أكـثر ممـن يحـب مـن زوجاتـه أو خليلاتـه. ويـترك الباقيـات في "الحرملك" لانتظار عودته التي قد تطول لبضع سنين ، وقد لا يرجع منها أبداً .هؤلاء النساء اللاتي تشتد الرغبة لديهن إلى أعلى درجاتها بسبب الطبيعة الشهوانية للحياة الـتي يعشـنها ، يجربن كل وسيلة ممكنة لإشباع تلك الرغبـات ، ويسـتخدمن الكثـير مـن الحيـل الناجعـة لتحقيق هذا الغرض . إن قصة حب مع امرأة تركية هي في الواقـع مغـامرة محفوفـة بالمخـاطر وبالكثير من الصعوبـات الـتي تواجـه العاشـق المسيحي ؛ لكـن عليـه أن يبتعـد عـن الضعـف الإنساني والعواطف الرقيقة . كما أن عليه أيضاً ألا يعتقد بأن كل مخاطرة وكل صعوبة يمكـن تجاوزهما بالخضوع لإلهـة الجمال "فينوس" في هذه البلاد كما في غيرها من البلاد الأخرى . [٤]

كنا قد اقتطفنا من كتاب إس . سي . سونيني، سابقاً .. وهو حين يصف رحلتـه الـتي قام بها لحساب الحكومة الفرنسية قبل الثـورة ، ينحـدر لمستويات غريبـة في الإسـاءة إلى الشعب المصري . ففي المقطع الأول التالي يشرح بتفصيل ممل المعاملـة السيئة الـتي تلقاهـا النساء المصريات من الرجال، لكنه يلاحظ فجأة أن الموضوع يثـير الغثيـان ولا يسـتطيع أن يستمر في الغوص فيه. ثم يكشف للقارئ إن النساء يمارسن السحاق والعادة السرية لإشـباع النهم الجنسي لديهن. في المقطع الثاني اعتبر نفسه مصدراً موثوقاً لإعـلام القراء بـأن نسـاء الوجه البحري في مصر ، يتبعن طريقة إجرامية تؤدي في النهاية إلى قتل الأزواج ! ! !

إذا كان السكان هنا أقل بربرية من سكان باقي أجزاء مصر، فهم ليسوا أقل جهلاً ولا تطيراً ولاتعصباً . ونجد عندهم ، ولو بدرجة أقل نفس التحجـر، ونفـس الكراهيـة العنيـدة للأمـم الأوروبية، ونفس الميل للثأر والخيانة ؛ وهم غـارقون في الرذائـل المخجلـة ذاتهـا. إن الحـب الشاذ الذي عوقب " أورفيوس " من أجله بالموت من قبل نساء " تريس " ، هذا الحب الـذي لا

---

[٤] – "إلياس هابيستشي" : "الحالة الراهنة للامبراطورية العثمانية" ، ١٧٨٤ ص ٣٨٥ .

يمكن تصوره والذي جلب العار على الإغريق والفرس الأقدمين، يعتبر بهجة أو بالأصح خزياً للمصريين. لا ينظم الرجال هنا أغنيات الحب من أجل النساء، ولسن هدفاً لما يجودون به من رقة وحنان؛ فهناك أمور أخرى تثيرهم. والمتع الجسدية بالنسبة لهم لا علاقة لها بالحب، ونشوتهم ليست سوى تشنجات بهيمية ليس إلا.

ومن المخجل أن الأمم المتحضرة لا تعلم شيئاً عن الإنحرافات الخطيرة المنتشرة في مصر بين أغنيائها وفقرائها على السواء. ففي المناخات المعتدلة تكون هذه الانحرافات مجرد ميل إستثنائي محصور في أضيق الحدود، لكنها في مصر تجتمع مع الرغبة الطبيعية للرجل في المرأة، فبعد أن يشبع رغبته المجرمة، يعود الرجل من هؤلاء إلى حريمه ويحرق البخور إجلالاً للطبيعة التي انتهك حرمتها قبل قليل. هذا المتوحش الذي يضحي بإنسانيته ، لا يعلم شيئاً عن المشاعر النبيلة التي تتدفق من القلب، ولا الاستسلام اللذيذ للعواطف الجياشة الرائعة لروحين تدنو كل منهما للأخرى وتعانقها، ولا إثارة أحاسيس المرأة برقة، أو مقاربتها بأساليب مهذبة ولبقة متعددة؛ فكل أفعاله تتم بطريقة فظة تعوزها الروح والحياة– لأن الحب عنده مجرد فعل جسدي مثير للاشمئزاز...

.. دعونا الآن نسدل الستار على هذه المشاهد المقززة، لندخل الأماكن التي تذوي داخلها الصبايا الجميلات كالأزاهير التي لم يعد يداعبها النسيم الدافئ بل تركت لتواجه عواصف رياح الجنوب، محرومة من العطف، كذلك المرأة التي تذبل وتبلى تحت نير الغيرة الهمجية لزوج يعذبها بشكوكه ويلوثها بدنسه.. هؤلاء النساء يتبادلن الزيارات مراراً وتكراراً، وأحاديثهن خلالها ليست دوماً مثالاً للاحتشام والخجل، فافتقارهن التام للتعليم والأخلاق؛ والكسل والفراغ والثروة؛ والقهر الذي لايلين من قبل رجال لا يعرفون الرقة والمشاعر؛ والثقة التي يعرفن بها أن رجالهن يحتفظون بحبهم لأشياء أخرى؛ وحدة عواطفهن؛ والمناخ الذي يلهب القلوب المطبوعة على الرقة، لكن بدون طائل؛ والطبيعة التي تنادي بصوتها المدوي أولئك الذين يتجاهلون المفاتن التي تقدمها وتثير بها أحاسيسهم؛ كل ذلك يساعد على توجيه

خيال النساء الملتهب، ورغباتهن وأحاديثهن وجهة واحدة لا يملكن حرية الوصول إلى غايتها. النساء هنا يستمتعن عندما يكن معاً باستبدال الملابس بينهن، وهذا التنكر هو مقدمة وذريعة للهو أقل براءة قيل بأن «سافو» علمته ومارسته بكل تفاصيله الفاسقة. ولخبرتهن الطويلة في فنون الخداع، وجهلهن المطبق بكيفية إطفاء اللهيب المستعر داخلهن، من الطبيعي أن لايكن أقل فسقاً من «سافو» حين يجتمعن معاً. ويلتجئن إلى أساليب محزنة للتعويض عن الحرمان الذي لا يمكن لأحد احتماله حين يملك روحاً تحترق بالرغبة في مناخ حار وجاف مثل هذا... [°]

في العادة لا توجد غيرة إذا لم يكن هنالك حب. لكن المرأة في الوجه البحري في مصر لا تَعشق ولا تُعشق،.ومع هذا تتملكها أحياناً فورة من الغيرة الغاضبة حين تعلم أن زوجها يخونها مع امرأة أخرى. وهي رغبة حسية صرفة وشائعة حين لا يكون للقلب أي دور. والكبرياء الجريحة تحدث دماراً كبيراً في النفوس الشهوانية التي لاتعرف الحب. وبسبب طبيعتهن التي هي أقرب للخداع منها إلى الوحشية، يدسسن سماً بطيئاً قاتلاً في دم الزوج الخائن. ففي كل يوم هنالك مثال جديد على نسوة لا يستطعن تفريغ شحنة الانتقام التي تملؤهن عن طريق النشوة الجنسية، ولذلك يخططن بصمت، ويستمتعن ببرود بالخطة الطويلة الأجل لامتصاص دماء الحياة من عروق الزوج التعس. ومع أنني لم أكن شاهداً على ما سوف أرويه الآن، إلا أنه يعتبر حقيقة راسخة لا جدال فيها ومتفق على قبولها. النساء الشريرات لا يخترن إنزال عقوبة الموت السريع بأزواجهن، لأن الغيرة الفظيعة التي تملؤهن لا تهدأ عندها. ولذلك يتسببن بهذا الهزال البطيء الذي يصيب الزوج وهو في الحقيقة أسوأ من الموت. ويجدن السم المناسب لأفعالهن الشريرة داخل أجسادهن. فدم الحيض الذي أوجدته الطبيعة للحفاظ على حياتهن وصحتهن يجعلنه أداة لقتل الآخرين. وعند خلطه ببعض أنواع الطعام يصبح سماً زعافاً ويسبب لمن يبتلعه الهزال

° - "إس. سي. سونيني": "رحلة في مصر العليا ومصر السفلى"، ١٧٩٨، الجزء الأول، ص ٢٧٧، ٢٨٤ - ٢٨٦.

والوهن، ويحرصن على تحضير هذه الوجبة الرهيبة خلال فترات معينة لها علاقة بالقمر، لأنهن يعتقدن أن النتائج ستكون عندها مؤكدة أكثر. والسم له تأثير فظيع يشبه آثار داء الإسقربوط. حيث يجف الجسم وتهزل الأطراف وتضعف، وتلتهب اللثة وتسقط الأسنان. ويختفي شعر الرأس واللحية. وفي النهاية، وبعد حياة من الضنى والعذاب لمدة سنة أو أكثر تموت الضحية التعسة في خضم آلامها.

هذه الكتابات حول الفسوق كانت شائعة في روايات الرحالة إلى درجة يصبح الاستشهاد بها مملاً وممجوجاً، كما قالت إحدى الكاتبات:

عندما أخبركم حول نساء الشرق، لا أحاول إخفاء أية تفاصيل، لأنني تقريباً متأكدة بأن ذلك سيثير فضولكم. أما فيما يخص الأخلاق والعادات والحياة عامة، فنساء هذه البلاد على قدر من الاختلاف عن نساء أوروبا بحيث يجعل ذلك الموضوع جديداً دائماً بالنسبة لكم.[٦]

تأثر كثير من الكتاب بوصف "ي . و . لين" لأسلوب الحياة الفاسق وغير المحتشم الذي تتبعه النساء المصريات اللاتي يتحدثن دائماً ـ كما يدعي ـ حول مواضيع دنيئة وفظة لا تسمح حتى العاهرات في أوروبا لأنفسهن بالخوض فيها! وأضيفت هذه الفقرة هنا بسبب المكانة التي يحظى بها كتابه في الغرب. أما الفقرة التي تليها فقد كتبتها شقيقته التي وصفت زيارة قامت بها لحمام عمومي حيث وجدت الجو العام فيه لا يليق بسيدة أوروبية لأنها ترى فيه نساء وأطفالاً عراة.

---

[٦] – "مدام ميشو ومدام بوجوليه": "مراسلات الشرق"، (١٨٣٠ – ١٨٣١)، ١٨٣٥، ص٨٦.

إن أكثر المواضيع بذاءة تسمعها من أشخاص من الجنسين في كل مرحلة من مراحل العمر في مصر؛ وحتى من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة ومدعاة للاحترام، باستثناء قلة قليلة تستعمل لغة محتشمة لكنها بالمقابل فظة وخشنة. وأحياناً تسمع من أفضل الأشخاص تعليماً تعابير بذيئة لا تستخدم إلا في أرخص المواخير؛ وأكثر النساء تهذيباً وأرستقراطية يسمين الأشياء بأسمائها ويتحدثن في مواضيع على مسمع من الرجال، ربما يخجل من ذكرها العديد من العاهرات في بلادنا، دون شعور بأنهن يخالفن قواعد الاحتشام والتهذيب. النساء المصريات هن أكثر النساء فسقاً بين كل من يدعي الانتماء إلى الأمم المتحضرة. هذه الشخصية الداعرة التي يملكنها يحدّث عنها الرجال المصريون حتى أمام الأجانب. وبالطبع هنالك العديد من الاستثناءات.. لكن يجب القول إن الأغلبية الساحقة من النساء المصريات فاسقات جداً. وأية حرية يتمتعن بها يقال بأنهن يسئن استعمالها، ولا يكون الرجل أميناً على زوجته حتى يقفل عليها داخل المنزل، ولا يوجد ـ لسوء الحظ ـ العديد من النساء داخل البيوت المقفلة الأبواب. ومن المعتقد أنهن يملكن قدراً من الدهاء في عمل المكائد يفشل في تجنبها حتى أكثر الأزواج حرصاً وحذراً، وبالتالي فهي نادراً ما تُحبط مهما كانت المخاطرة التي يتورطن فيها. أحياناً يقدم الزوج بشكل لا شعوري الوسائل التي ترضي نزعات زوجته الإجرامية. إن بعض القصص حول كيد النساء في "ألف ليلة وليلة"، تقدم صوراً صادقة لما يحدث الآن في الحواضر المصرية. وكثير من الرجال يعتقدون بأن جميع النساء تقريباً يلجأن إلى الخداع والكيد إذا ما سنحت الفرصة دون أن يتعرضن للخطر، وعلى الأقل فإن القسم الأكبر منهن يفعلن ذلك. ومن المؤسف أنني أميل إلى الاعتقاد بصحة الرأي الأول؛ وإن كان متطرفاً في صرامته. ولا يستطيع المرء تصور مدى الصعوبة التي تواجهها المرأة هنا في تدبير المكائد والخداع إلا إذا عرف شيئاً عن العادات والتقاليد الشرقية. فليس صعباً فقط على المرأة من الطبقة الوسطى أو العليا أن تُدخل عشيقها إلى المنزل الذي تعيش فيه، لكن من المستحيل تقريباً بالنسبة لها أن تقابل بصورة سرية رجلاً غريباً في "حريمه" أو أن تدخل منزل رجل أعزب أو ليس لديه جوار، دون أن تثير انتباه الجيران وتدخلهم الفوري. لكن لا يمكن إنكار حقيقة أن الكثيرات يرتكبن

هذه الخيانة بدون التعرض لتلك المخاطر. وبالنسبة للباقيات فإن المصاعب التي تعترض أفعالهن الغادرة تلك تشكل عقبة كأداء أمامهن. أما نساء الطبقات الدنيا فإن الأمر يبدو بالنسبة لهن أكثر سهولة وألفة.

الطبيعة الشهوانية الشبقة للمرأة في مصر عموماً، والأفعال الفاسقة التي ترتكبها الأغلبية من النساء يمكن أن نعزوها لعدة أسباب؛ يشكل المناخ جزءاً منها؛ ونقص التوجيه المناسب، والابتعاد عن التسلية البريئة وعدم شغل الوقت بما ينفع، الجزء الآخر. لكن السبب الرئيسي يعود إلى تصرفات الأزواج أنفسهم؛ وإلى سلوكيات مشينة تسيء إلى النساء أكثر من أشد القيود التي يفرضها الرجل على "حريمه" صرامة وقسوة. إن الأكثرية الساحقة من الأزواج في مصر يسعون جهدهم لتأجيج هذه الأحاسيس الشهوانية عند زوجاتهم بكل وسيلة في متناولهم؛ مع أنهم، في نفس الوقت، يحاولون بإلحاح منعهن من الانغماس في هذه الأحاسيس إذا كانت العلاقة غير شرعية. إذ يسمح للنساء بالاستماع من خلف النوافذ المغلقة بالمصاريع الخشبية، للأغنيات والحكايا الخليعة التي يغنيها ويرويها رجال متجولون في الشوارع يأخذون أجراً مقابل ذلك؛ ومشاهدة المخنثين ورقصات "الغوازي" الشبقة. و"الغوازي" – وهن مومسات محترفات – يُدعون مراراً إلى "حريم" الأغنياء من السكان، لا لتسلية السيدات برقصهن فقط، ولكن لتعليمهن فنون الإغراء والإغواء أيضاً؛ حتى أنهن يُحضرن أحياناً دمى تصنع بأشكال خليعة لإدخال البهجة على قلوب السيدات داخل "الحرملك" ـ عدد لايحصى من قصص المكر والخداع مثل هذه تقوم بها النساء في مصر، رويت على مسامعي هناك مراراً وتكراراً.[٧]

عند دخولنا هذه الحجرة فوجئنا بمنظر ينأى عن الوصف. لقد مهدت لي مرافقاتي بأنني سأرى الكثير من النساء العاريات؛ لكن تخيلوا دهشتي حين وجدت ثلاثين امرأة على الأقل، من جميع الأعمار، والعديد من الفتيات والأطفال، عراة تماماً. ولن تصدقوا أننا كنا الوحيدات اللاتي نرتدي بعض الثياب. النساء هناك كن من جميع الألوان والأجناس؛ بدءاً بالزنجيات

[٧] – "ادوارد ويليام لين": "السلوك والعادات والتقاليد للمصريين المعاصرين" ١٨٦٠، (ط.أ.، ١٨٣٦)، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

من ذوات البشرة السوداء اللامعة، وانتهاء بالمليحات من ذوات البشرة الجميلة البيضاء، يجلسن جماعات جماعات، ويتحدثن كأنهن بكامل ملابسهن وبلامبالاة، في حين تتمشى الأخريات أو يجلسن حول "البحرة".

ولا أستطيع أن أقول إن المشهد جميل داخل الحمام؛ في الحقيقة، وفي بعض النواحي يبدو مثيراً للاشمئزاز؛ ومن المؤسف أنني لا أستطيع الوصول إلى المقصورة الخاصة في أي حمام بدون المرور عبر الغرفة الكبير العامة... العملية الأولى هي تدليك الجسم بنعومة، أو غسله. وبعد ذلك تقوم إحدى العاملات بـ "طقطقة مفاصل" اللاتي يرغبن بذلك. وأعترف بأنني لم أعاني في حياتي مثل ذلك الألم. وبعض النساء المحليات تدعك أجسادهن بواسطة "ليفة" كالمبرد، أو بالأحرى "ليفتين" مختلفتين، واحدة خشنة للقدمين، وأخرى ناعمة لباقي الجسم. لكنني لم أستسغ أياً منهما.

ثم تقوم إحدى العاملات بإدخال يدها في كيس صغير خشن الملمس، وتدعك به الجسم، وأعتقد بأن هذا أفضل ـ بعد ذلك يُغطى الرأس والوجه بطبقة كثيفة من الرغوة. تتكون نتيجة حك ألواح الصابون على حفنة من ألياف سعف النخيل تسمى "الليف"، وهي مادة لها ملمس ناعم ولطيف. ومن المضحك حقاً رؤية شخص ما وهو يخضع لهذه العملية، حيث يغطى الرأس والوجه بالرغوة ثم يغسلان جيداً بكثير من الماء الساخن. ومن لا يملك خبرة في ما يحدث داخل الحمامات يظن أن مرة واحدة تكفي، لكن العاملة تكرر العملية مرات عديدة بكل رقة ولطف حتى يشعر المرء بالرفاهية والتنعم. وبسبب كل هذا أنا مقتنعة الآن بأن الأسلوب الشرقي في الإستحمام صحي ومفيد لتأثيره القوي على البشرة. أتمنى لو أقول بأنه لايوجد ما يحول دون هذا الاستمتاع بترف الاستحمام في الحمامات العامة التي وصفتها لتوي؛ لكن يجب على السيدة الإنكليزية أن تغلق عينيها وتسد أذنيها في الحمامات العامة في مصر حتى تستمتع بالارتياح الذي تشعر به هناك، إذ أنه بالإضافة إلى المناظر التي تصدم مشاعر اللياقة والاحتشام، تصم الأذنين صرخات بكاء الأطفال التي لاتهدأ.

ولهذا فإن الاستمتاع بالحمامات العمومية في مصر لا يصل إلى أقصى مداه إلا في المقصورة الخاصة. بحضورعاملة خبيرة... [8]

أيفيلين لوت، عاشت في "عزلة عن العالم العقلاني" داخل "حريم" إسماعيل باشا، ووجدت نفسها كل يوم في مواجهة "أكثر السلوكيات إثارة للاشمئزاز لا بل للغثيان بالنسبة للمرأة الأوروبية الرقيقة". وقد اضطرت لمشاهدة:

سيدة من الحريم، ليست أكثر وقاحة من الأخريات، ـ واعترف بأنها خبيرة في فنون الإغراء ـ خلعت رداءها، وتركت جسمها يكشف، كتمثال فينوس، عن كل مفاتنه. [9]

أكثر من ذلك. فالمحظيات، منهكمات في الأحاديث القذرة والأفعال الشريرة ـ التي تكمن بذورها في طبيعة تكوين المرأة، كما تدعي..! لكن "لوسي دوف غوردون" حاولت تصحيح الانطباع الذي يثيره "كتاب السيدة لوت الغريب"، ووجدت أن الجو العام داخل "الحريم" في تركيا يشبه "حفلات الشاي" في "هامبتون كورت"، لكنه أكثر إثارة للضجر.

من المحتمل أن أكثر المقاطع وحشية في هذه المختارات تأتي من قلم "لويس وينغفيلد"، الذي اقترح الاغتصاب كأفضل وسيلة لإشباع شهوة المرأة العربية!

للزوجة العربية شخصية تفتقد إلى الرقة ولا تعرف الاحتشام أبداً وتلك نتيجة طبيعية

---

[8] - "السيدة الانكليزية في مصر": "رسائل من القاهرة مع ي. و.لين بواسطة شقيقته"، ١٨٤٤، الجزءالثاني، ص١٧١ – ٧٥.

[9] - "حياة الحريم في مصر والقسطنطينية"، ١٨٦٥، الجزء الأول، ص٢١١.

لانحطاط مكانتها. وهي تعجب دوماً بالرجل العنيف الذي يمتلئ فحولة. ولهذا فإن أفضل طريقة لإسعادها هو اختراق خيمتها برضاها أو بدونه ـ وممارسة الجنس معها بجانب زوجها النائم ـ إلا أنها لا تشعر بالندم إذا ما أفاق الزوج وقتل غريمه ـ فعندها يتحول إعجابها إلى قنوات أخرى.... [١٠]

الفقرات التالية مأخوذة من رواية "اسكاروس القبطي" حيث يسرف "ادوارد دو ليون" في تعميماته حول نساء الشرق.

تألق وجه الأميرة بالرضا وملأها الغرور لسماع هذه الكلمات العاطفية تتدفق حارة ـ حقيقية كانت أم زائفة ـ من الشفتين اللتين تعشقهما. وبكل تهتك واستهتار المرأة الشرقية ـ التي تتخلى عن كل الاحتشام والتحفظ، وكل إحساس بالخجل حيث يبدو وكأنه يختفي تماماً خلف النقاب الذي يغطي وجهها ـ ألقت بنفسها على الأريكة قرب عشيقها، وجادت عليه بكل عبارات التحبب التي يسرف في قولها اللسان الشرقي، ثم نزعت طربوشه، وأخذت تعبث بخصلات شعره القصير واضعة رأسها على صدره، وأدارت نحوه وجهاً رقيقاً متورداً ونظرت إليه بعينين ملؤهما الحب، الحب الذي يحولها إلى امرأة أخرى لا علاقة لها بـ"نازلي هانم" ووجهها ذي الملامح الآمرة المهيبة التي ترتسم عليه في الأيام العادية، وكأن القرب من الحبيب يعيد الحياة لشبابها، الحبيب الذي تثير وسامته الإعجاب في قلوب النساء[١١].

ثم تصف الرواية شخصية أخرى: لكن لو رأى اسكاروس الابتسامة الوحشية التي

---

[١٠] - "لويس وينغفيلد": "تحت أشجار النحيل في الجزائر وتونس"، ١٨٦٨، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

[١١] - "ادوين دوليون": "اسكاروس القبطي"، ١٨٧٠، ص١٣٦ ـ ١٣٧.

ترسمها الشفتان الرقيقتان، والنظرة الغاضبة الأثيمة التي ترسلها العينان المسبلتان المتواريتان خلف الرموش الأنثوية الطويلة، لو رأى كل ذلك لفهم الوعد المريب الذي أُعطي له... فهو تعبير عن الدهاء الخبيث الذي زحف على الوجه وامتزج بالوحشية التي تغطيه كما يغطي الوجه النقاب.

اللغة التي اختيرت لوصف هذه الشخصية تثير الانتباه، فالشخصية هنا تمثل رجلاً! لقد عرف الغرب دوماً أن أصول كل هذه الشهوانية والفسوق إنما تعود إلى الإسلام. فالإسلام لا يمكن أن يشجع على النقاء والعفة. كما يقول "القس تشارلز بل" عام ١٨٨٨ (شتاء على ضفاف النيل، ص ٢٧٠). أما "و.ام. تومسون" وهو مبشر أمريكي، فقد أمضى بضعة أشهر من عام ١٨٥٢ مع "المتاولة" قرب مدينة صيدا. والنساء لسن فاسقات فقط، كما يقول، بل همجيات ومنافقات أيضاً، والسبب هو الدين الذي يتبعنه. وهاجم "دوق دوهاركورت"، النساء المصريات للأسباب المعتادة، مبرهناً على أن الجو الحار في المنزل الذي يعشن فيه يسبب الشر المسيطر عليهن من جهة، ومن جهة أخرى فإن الرجال المسلمين على حق في الإبقاء على القيود الصارمة التي تكبلهن لأنهن فاسقات إلى حد كبير.

القانون الذي يلزم الأشخاص المصابين بأمراض خطيرة بالبقاء خارج المخيم لا يزال مطبقاً، ليس فقط على سكان الخيام من البدو، لكن أيضاً على هؤلاء الناس الذين أمضينا في قريتهم الواقعة على مشارف صيدا أشهر الصيف الحارة من عام ١٨٥٢. كانوا كلهم تقريباً من "المتاولة" المتعصبين جداً. وعلى تلة صخرية إلى الجنوب من منزلنا، كان الحجر مفروضاً على امرأة فقيرة تعيش في كوخ من الأغصان الخضراء. ولم يكن يسمح لها بمغادرة مأواها المعزول، ولا يسمح لأحد بزيارتها ما عدا الشخص الذي يحمل إليها حصتها اليومية من الطعام. هناك كانت تمضي أيامها ولياليها التعسة حتى يوافيها الأجل ويريحها من عزلتها الموحشة. اعترضنا أمام الناس على هذه المعاملة البربرية، فوافق الرجال على إحضارها إلى غرفة استأجرت لهذا الغرض، بحيث نستطيع أن نقدم لها الطعام المناسب ويقوم الطبيب "فان داين"

بوصف العلاج لمرضها. لكن النساء رفضن بغضب صاحب العرض فاضطررنا للتخلي عنه. ولم نندم على ذلك حين تأكدنا بأن المرأة البائسة التي تموت ببطء رفضت الدواء والطعام؛ ومع ذلك فالمرض الرهيب يفترسها وتزداد حالتها سوءاً يوماً إثر يوم بسبب القذارة والتلوث.

أذهلتني همجية النساء ونفاقهن. فقد كانت الواحدة منهن تمر بتلك المرأة عابسة الوجه متجهمة، يوماً بعد يوم، حتى توفيت. وعندها تجمعت النساء نائحات ملوحات بأيديهن، يشددن شعورهن في حزن عاصف.

هنالك قسوة وكآبة في تكوين هؤلاء الناس، أو يفتقدون على الأقل ميزة الطيبة والتعاطف مع المرضى والتعساء التي تزين أقطارنا المسيحية لتملأها بالمستشفيات والجمعيات واللجان بغرض إيوائهم ومساعدتهم وعلاجهم. إن الدين هو الذي يصنع الفرق؛ ولا يعني هذا أن "المتاولة" لايؤمنون بدين، بل على العكس فهم متمسكون بدينهم جداً. وفي الوقت الذي كانت فيه فصول تلك المأساة تتلاحق أمام أعيننا، كان السكان ملتزمين بصيام شهر رمضان بكل صرامة ودقة رغم حرارة الصيف اللاهبة ويكادون يموتون عطشاً. فهم يمتنعون عن الأكل والشرب والتدخين لأكثر من أربع عشرة ساعة يومياً تحت أشعة الشمس المحرقة، وحتى الأطفال الصغار يجبرون على هذا الصيام الطويل.

وكانت الصلاة تُقام بكثرة في المساجد. وتعقد لقاءات دينية مطولة خاصة "بالمتاولة". النساء أيضاً يجتمعن يومياً حول سبل الماء والنوافير يتوضأن، ثم يركعن ويسجدن تعبداً لله تحت أشجار الجوز المهيبة التي تزين سفوح التلال المحيطة ببلدة "جباع" الجميلة. ولم أر في أي مكان آخر نساء مسلمات يصلين في الأماكن العامة، ويبدو لي أن تأدية هذه الفروض على هذا الشكل هو نفاق يثير الاشمئزاز. والنساء المحليات هنا شاحبات الوجوه وبائسات وفي أوضاع سيئة، ومنزلة وضيعة بالنسبة للنساء المسيحيات اللاتي يعشن في الجوار. إن الدين هو الذي يصنع الفرق، رغم أن الديانة المسيحية هنا هي مجرد نسخة مشوهة عن الدين الذي جاء

به المسيح [١٢].

يجب علينا أن نتذكر أن الفتاة قبل الزواج لاتقيم أية علاقة مهما كان نوعها مع زوج المستقبل؛ والزواج هو مشروع ترتب تفاصيله في غيابها ونادراً ما يؤخذ فيه رأيها. وعلى أية حال كيف يكون للفتاة رأي خاص وقد أمضت عمرها حبيسة أسوار السجن المفروض عليها؟ وعند الزواج بهذه الطريقة، تعيش الفتاة في كنف زوج قد لا يكون صالحاً، وتجبر على اقتسام العيش في منزله ليس فقط مع زوجاته الشرعيات،لكن أيضاً مع كل النساء كالخادمات مثلاً ــ اللاتي يكوّن جزءاً من "الحريم"، ولا يعرفن أية متعة سوى متعة الجسد ــ فما الذي يدفع مثل هذه الزوجة للبقاء مخلصة لزوجها، ما عدا تكبيلها بالقيود التي تفرضها التقاليد وتحد من حريتها؟

ليس من الغريب هنا استعادة قصص "ألف ليلة وليلة" الشهيرة في كل بلاد الشرق، إذ أن فكرتها الأصلية تقوم على تقديم صورة شاذة وسلبية للفضيلة بالنسبة للمرأة. يحكى أن ملكاً لازمه سوء الحظ في كل مرة يتزوج بها، إلى أن أيقن بحكمته العظيمة أن الوسيلة التي يعول عليها في عدم خيانته هي قتل الزوجة في اليوم التالي للزواج. وهذا ما فعله مراراً حتى تزوج من فتاة أخذت تروي له كل ليلة قصة ممتعة تتوقف دوماً عن تكملتها عند الفجر، وبهذا كانت ترجئ تنفيذ الحكم حتى صباح اليوم التالي.

إن الأفعال التي تقوم بها النساء حالياً في مصر تبرر ردود فعل الرجال المسلمين. فالأفكار الأوروبية التي تأثرت بها نساء العائلات الثرية اللاتي تلقين بعض التعليم ساهمت في انحرافهن ـ أو هكذا يقال هناك. وبصراحة، فإن ذلك أمر لا يثير الدهشة. فمعرفة لغة أجنبية مثلاً يمكنهن من قراءة أردأ الروايات الأدبية التي يمكن تخيلها. وبهذا يتعرفن على الحرية التي تتمتع بها نساؤنا، ولا يجدن فيها أية قيمة سوى ما تتضمنه من

---

[١٢] - "و. ام. تومسون": "الأرض والكتاب المقدس" ١٨٩٠، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

تسهيل للحرية الجنسية. وطالما كانت قواعد الحجر على حرية النساء مطبقة بدقة، والعيون تسهر على حراستهن، فإن كل شيء يسير بدقة وانتظام؛ لكن في اللحظة التي يفتح فيها القفص، يطير العصفور هارباً... هؤلاء النساء اللاتي يحسبن أنفسهن متحضرات حين يقرأن بضع روايات فرنسية رديئة، ويرتدين الثياب الباريسية في المنزل. لسن بأفضل حالاً.

ولايوجد من سبب يدعونا للدهشة إذا عرفنا أن الرجال على حق حين يعتبرون النساء المصريات لسن أهلاً للثقة. إذ يصعب على الرجال المحافظة عليهن. وقد نعجب كيف تجد النساء الفرصة لممارسة أفعالهن الفاسقة، مع كل الاحتياطات الكثيرة التي يتخذها الرجال؛ فالبيوت مغلقة ولا يمكن للغرباء تخطي أبوابها، والحجاب لاتخلعه النساء أبداً، والخصيان يرافقونهن دوماً. لكن في التحليل النهائي حين تملك النساء المال يملكن حرية التصرف به حسب ما يشتهين، فيسهل السقوط والاستسلام لكل نزواتهن الأنثوية.ولو تأملنا ملياً جميع الظروف المحيطة بالنساء، لعرفنا أن الرجال المسلمين على حق في زيادة القيود على النساء وعدم الثقة في العادات الجديدة التي يتبعنها: فالحرية التي تتمتع بها النساء في أوروبا تقود المسلمات إلى تهتك مروع. [١٣]

كان "غي دو موباسان" يتجول في شوارع الجزائر حين مر "صدفة" بحي الدعارة -"البغاء البهيج" الذي يظهر فوراً "الفرق الشاسع بين العفة الأوروبية والتهتك الشرقي". وعند قراءة مثل هذه الآراء يصبح من السهولة بمكان تناسي البغاء المنتشر على نطاق واسع في أوروبا خلال تلك الفترة، رغم أن قصص "موباسان" تعتبر تذكرة كافية لمن شاء أن يتذكر.

---

[١٣] - "دوق دو هاركورت": "مصر والمصريين"، ١٨٩٣، ص١١٦ - ١١٩.

الكاتبتان التاليتان، إحداهما "مدام جين بوميرول" تدعي بأنها عانت من عذاب الضمير قبل أن تضع على الورق رأيها القائل بأن نساء الصحراء لسن فاسقات ولكن لا يملكن أية مبادئ أخلاقية على الإطلاق. الكاتبة الأخرى، "ام. ي.هيوم ـ غريفيث" ذهبت إلى إيران برفقة زوجها، وهو مبشر يمتهن الطب، عام ١٩٠٠. ورغم أنها عبرت عن مشاعرها "الأخوية" تجاه وضع النساء الفارسيات، لكنها كررت القصة التي سمعتها عن قسوتهن.

إن رغبتي الصادقة بعدم جرح مشاعر الآخرين، لاسيما أولئك الذين رحبوا بي وساعدوني، تشكل دوماً عائقاً أمامي. فأنا مترددة، هل أجهر برأيي أم أحتفظ به؟ وأخيراً أجبت نفسي: "الحقيقة كل لا يتجزأ؛ ولو حافظت على هدوئي الداخلي، لكنت خائنة لتلك الحقيقة". وأجد لزاماً علي إذا ما أردت تقديم صورة صادقة عن حياة النساء الصحراويات، أن ألمح إلى السؤال الحساس المتعلق بجملة المبادىء الاخلاقية التي يؤمن بها. فالكل يعرف جيداً سلوكيات الرجال الأخلاقية، سواء أكانوا عرباً أو من البربر، لكن ماذا عن النساء؟ أعني الزوجات أو اللاتي سيصبحن زوجات، مع تجاهل أولئك اللاتي يهملن مراسم الزواج.

والآن، يبدو لي، رغم صعوبة الأمر، أن النساء ليس لديهن مبادئ أخلاقية بالمعنى المفهوم، لأنهن يشبهن الغزلان والقطط أكثر من كونهن كائنات إنسانية مسؤولة. ولا يستطيع أحد أن يتكلم عن أخلاق غزالة أو قطة عندما تكون معزولة عن كل قنوات الاتصال مع أفراد جنسها، وهذا ما يفترضه الرجال في النساء من العرب والبربر. وإذا كن لايخرجن من المنزل فما هي فائدة القيود التي تفرض عليهن. لكن ما يحدث هو أنه بالرغم من كل تلك القيود فإنهن يخرجن أحياناً، من أجل الاستمتاع بالخروج فقط وليس لأغراض شريرة، لكن ما يؤسف له أن هنالك دوماً وسيطاً شريراً؛ امرأة مسنة على الأغلب، مستعدة لتشجيع المرأة الطائشة المتهورة ودفعها إلى ارتكاب أفعال عابثة دنيئة. ويقوم الزوج بإحكام إغلاق الباب الخارجي بالرتاج، ويرش الرمل أمامه، بحيث يترك أي متطفل يريد اقتحام البيت في غياب الزوج آثار أقدامه

شاهدة عليه. لكن يسهل الخروج عبر السطح الصغير الخلفي الذي يتصل بجدار منخفض يطل على الزقاق. وتستطيع "الوسيطة" دخول البيت مختلقة عذراً من الأعذار، كأن تدعي أن لديها حلوى تريد بيعها، أو أنها تطلب الصدقة، وعندما يكون الزوج خارجاً للسهر في المقهى، يستمع إلى الأقاويل والإشاعات، أو يمضي سهرته بطريقة أقل براءة، يرتب الأمر بسهولة ويسر.

في صباح اليوم التالي يتفقد الزوج المنزل بادئاً بالرمل المفروش أمام بابه الخارجي ويقول لنفسه: "هذه آثار الجارية الزنجية العجوز، وتلك تعود للمربية، وهذه آثار أقدامي، والحمد لله لا توجد آثار أقدام "زهرة"!

يا للمسكين المخدوع، لأن "زهرة" الصبية قفزت كالهرة من فوق الجدار خلف البيت وهربت إلى الشارع في اللحظة التي أدار فيها سجانها ظهره!! فهو لم ير شيئاً، لم يسمع شيئاً، ولم يعرف شيئاً، وإذا ما كانت لديه شكوك يبقيها داخله خوفاً من سخرية الناس، أو فزعاً من جني موذٍ أو روح شريرة تعمل ضده.

عند قبائل البدو تكون الخيانة أكثر سهولة ورومانسية منها في المدن. وتمارس من قبل عشاق صغار السن ينتمون إلى نفس الأرض ونفس العرق، وتسيطر عليهم الأهواء العنيفة التي تميز العادات البدائية. وحين تبدأ حلكة الليل بالاستسلام لتباشير الفجر المتردد، في تلك اللحظة الساحرة عندما تلف الفتنة كل شيء، يرتفع طرف الخيمة بهدوء وحذر، ويحبس العشيق أنفاسه، وينزلق متسللاً على أطراف أصابعه إلى ذراعي عشيقته. لكن حذار أيها المغفلان لا تكونا على ثقة تامة بأن الزوج الغيور لا يراقبكما، لأنه لو عرف بالأمر لذبحكما معاً، أو إذا لم يرد أن يذهب إلى هذا الحد لاتهم العشيق "بسرقة محتويات خيمته" أمام القاضي أو لحاول أن يستعبد من اعتدى على شرفه بابتزاز ما يستطيع من مال منه، وبهذا فاللقاء الذي ابتدأ بالقبلات ينتهي بالدموع. مثل هذه الأمور تحدث أيضاً في المدن، وفي

القصور، أو في العراء تحت السماء اللاهبة، ببساطة وسذاجة وبراءة، وبشكل طبيعي وبدون تعقيد.

وفي الحقيقة لايجب أن نحكم على تصرفات العشاق في الصحراء من خلال معاييرنا الأوروبية، فهم من نوع مختلف كلياً عن كل ما هو مألوف لدينا، فأحاسيسهم جسدية فقط ولا تتأثر بها الروح أبداً. ونساء الصحراء عصابيات ومتهورات وشبقات وإمكانياتهن العقلية محدودة. لكنهن منحرفات لا فاسقات وارتدادهن عن الطريق القويم لا يترك آثاراً تسيء إلى طبيعتهن.

تتناسى العجائز تماماً هفوات مرحلة الصبا، فهي أمر طبيعي ومتوقع ولا يتعارض مع إلقاء المواعظ للصبايا الآن حول الاحتشام. ويسدل الستار على الماضي حين لم تكن للعفة أية قيمة في نظرهن.

بالطبع لم أكتشف كل هذه الأمور في البداية ـ والملاحظات التي أبديتها هي خلاصة دراسة طويلة على أرض الواقع، ولا أشعر أنني بحاجة للتحدث وقتاً أطول حول هذا الموضوع الأليم. كل ما أريده من القارىء أن يحفظ في ذهنه ما قلته للتو وأن يتذكر المثل الشعبي: لن تزهر الفضيلة في تربتنا حتى ينمو الملح ويبرعم الفحم! [١٤]

لا تحفل حياة السيدة الفارسية بالكثير من الأشياء التي تسمو بفكرها وتهذبه، ولهذا لن نعجب إذا ما رأينا فيها أحياناً العديد من الصفات المثيرة للاشمئزاز. وعندما نفكر بكل ما عليها أن تحتمله، وكم هي قليلة لحظات السعادة في حياتها، فإننا نعجب لاحتفاظها حتى بشكلها الأنثوي ـ وهل نكون نحن أفضل حالاً لو تعرضنا لمثل هذه الظروف؟! إذا ما عوملت المرأة دوماً وكأنها "ثور حراثة". فهل نعجب لو كانت تصرفاتها بهيمية أحياناً؟ حكايات غريبة رويت على مسامعي حول الأفعال اليائسة والوحشية التي تُدفع النساء لارتكابها.

---

[١٤] – "مدام جين بوميرول": "بين نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ص٤٢ ـ ٤٦.

القصة التالية سمعتها في إيران، وحدثت أيام كانت المجاعة متفشية في جميع أنحاء البلاد. كان هنالك شخص رفيع المقام يجمع ويخزن كل محصول القمح الذي يستطيع جمعه، ثم رفض بيع مخزونه إلا بسعر مرتفع. وأخيراً قبض عليه وأُرسل مخفوراً إلى طهران حيث أُدين وحكم عليه بالموت. ولم يستطع الشاه أن يحدد الوسيلة التي سيقتل بها هذا الوغد، لكنه قرر في النهاية أن يضع التعس تحت رحمة الحاشية الملكية لتقرر أسلوب موته. اجتمعت السيدات والجاريات وتباحثن في أمره معاً، وصممن على الإبقاء عليه داخل مخدعهن وقتله ببطء. والطريقة التي اخترنها هي تقطيعه بالمقص حتى الموت!

لا أستطيع أن أشهد على صحة القصة، وأنا واثقة بأنها مختلقة. لكنني رويتها كما سمعتها. هنالك شيء واحد أعلم بأنه صحيح وهو أنه عندما تغضب المرأة الفارسية وتغار وتُستثار، لا يوجد شيء مرعب لا تفكر فيه حتى تشبع شهوتها للانتقام."*

ولإنهاء هذا الفصل حول الأحكام الأخلاقية التي أطلقها الأوروبيون، نقتطف هذه الفقرة لنفس الكاتبة التي تقول بأنها حاولت تهذيب لغة النساء في "الموصل"!

القسم والأيمان يستخدمها الرجال والنساء على نطاق واسع؛ ويبدو الأمر طبيعياً بالنسبة لهم كما السباحة بالنسبة للبط. وفي الأصل كانت كلمات مثل "وا لله!"، "يا ا لله!"، و"با لله!" تستخدم كتعبير عن القسم؛ لكنها الآن تعتبر هتافاً للتعجب لها ما يقابلها في الانكليزية عندنا. وبعض النساء لا يستطعن تجنب تعبير "وا لله" في حديثهن برغم كل الجهود التي بذلتها لمنعهن من ذلك ... وبدأنا تشكيل جمعية نسائية صغيرة تتجنب الحلف

---

* – "ام . ي .هيوم . غريفيث": "خلف الحجاب في فارس والبلاد العربية تحت الحكم التركي"، ١٩٠٩، ص ١٠٥.

بالأيمان خلال تبادل الأحاديث، وكان الأمر مثيراً للضحك، حين تحاول النساء العودة إلى الكلمات المعهودة التي ظلت تتردد على شفاههن منذ عهد الطفولة.[١٥]

وفي موقع آخر تساءلت الكاتبة قائلة:

كيف يمكن للحياة أن تكون جميلة، وكيف يمكن للطفولة البريئة العزيزة دوماً على قلوب الآباء الإنكليز، أن تُصان حين تتعهدها نساء جميلات تلطخ جمالهن الآثام والمعاصي بلونها الأسود؟!

---

[١٥] – "ام . ي . هيوم . غريفيث": "خلف الحجاب في فارس والبلاد العربية تحت الحكم التركي، ١٩٠٩، ص ٢٤٠.

إماء للهوى!

الافتراض الذي يزعم أن النساء أكثر جهلاً، وأشد تمسكاً بالتقاليد من الرجال له تاريخ طويل. وحين تكون النساء من الشرق والكتاب من الغرب، يصبح اتهامهن بالهوى والتطير أمراً شائعاً. والأمر الوحيد الذي يثير الانتباه في الفقرة الأولى التالية التي كتبت خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر، هو القائمة الطويلة التي تضم مهارات تعزى للنساء الريفيات. وهنا يحق لنا أن نتساءل، من هم عبيد الهوى الحقيقيون؟!

النساء في البلدات العراقية يملكن الروح الرقيقة، واللطف والجمال الذي يميز الجنس اللطيف. بالإضافة إلى مستوى من التعليم لايقل أبداً عن الرجال. وقد قيل عن هؤلاء النساء الكثير لكننا لم نراهن إلا نادراً خارج مدينة بغداد. أما النساء الريفيات اللاتي أعطانا الطبيب الفرصة لمقابلتهن، فقد بدون لنا غير متحضرات، وجاهلات جداً، وأكثر استسلاماً للنزوات من أزواجهن. يحرصن على ارتداء الحجاب، تماماً مثل نساء المدن، لكنهن يعشن حياة أشد عزلة، ويقمن بجميع أعمال المنزل مثل رعاية الأطفال، والطبخ، وحلب الأبقار والماعز، وتحضير منتجات الحليب من لبن وزبدة حيث يبيعها الرجال في المدينة، ويغزلن الصوف والقطن على مغزل صغير في أوقات الفراغ؛ ويصنعن من روث الحيوانات والقش قوالب تجفف تحت أشعة الشمس وتستخدم لأغراض التدفئة، إذ أن الخشب نادر الوجود هناك؛ ولا يعملن في الحقل، لأن ذلك هو عمل الرجال [١٦]

---

[١٦] - "جي.ايه. اوليفييه": "رحلة في الإمبراطورية العثمانية" ١٨٠٠، الجزء الثالث، ص ٦٨ - ٦٩.

ادعت "أميرة بليوجوسو" أنها في وضع أفضل من معظم الرحالة لفهم المجتمع السوري، لأنها تستطيع دخول "الحريم" الذي كان "محكم الإغلاق في وجه جميع الرجال"، في الفقرة التالية التي كتبتها عام ١٨٦١، روت حادثة حصلت لها في إحدى القرى؛ وفي الفقرة الثانية كشفت الكثير من موقفها من النساء والرجال. كانت الأميرة امرأة قوية ومتحمسة لوطنها إيطاليا. وتعتبر شخصية مهمة في الأوساط الفكرية الباريسية في أواسط القرن الماضي حيث اشتهرت حفلات الاستقبال التي كانت تقام بعد الظهر في صالون منزلها.

... واحدة من تلك الحوادث حصلت في إحدى القرى، حيث أتيحت لي الفرصة، بعد أن استبدلت مرافقي، لألعب دور الطبيبة أمام فتاة مريضة منذ سنة، استطاع والدها التغلب على بغضه الشديد للمسيحيين وتوسل إلى كي أزورها. ابتعد المرافقون الذين كانوا معي وظهرت الفتاة أمامي بصحبة أمها. كانت مخلوقاً رائعاً، قوية البنية، متناسقة الملامح: وجه جميل مدور، وعينان لوزيتان واسعتان سوادهما لامع، وأنف مقوس قليلاً، وبشرة متألقة رغم أن المرض والحمى أثرا على رونقها. هذه المخلوقة البديعة يعتصرها حزن عميق، كان من المستحيل النظر إليها دون أن تثير الاهتمام. أما والدتها التي لاتزال تبدو رغم مرور السنين في مثل جمالها، فقد استبد بها القلق والمعاناة بسبب حالة ابنتها. تحدثت الأم والفتاة إلي بثقة وحماسة على عكس الطبيعة المتحفظة للأب.

لم يكن من الصعب التأكد بأن الفتاة تعاني من مشاكل عاطفية، ورغم أنني لا أميل كثيراً إلى الرومانسية، لم أستطع إلا أن أشتبه بوجود علاقة ما بين مرضها وحالتها العقلية. إن المزايا التي يتمتع بها الطبيب لاحدود لها في هذه البلاد التي تفتقر إلى الأطباء. ولم يكن من التهور السؤال عما إذا كانت الفتاة تعاني من الشقاء والتعاسة، أو تعرضت لصدمة نفسية قبل ظهور أعراض المرض.أجابت الأم" للأسف، نعم.

فبعد ثمانية أيام سيكون قد مضى على ابنتي المسكينة سنة كاملة منذ أن تعرضت لتلك الصدمة المرعبة وحصل لها بعد ذلك ما حصل.

-" هل يمكنني معرفة سبب تلك الصدمة؟"

نظرت الأم إلى الفتاة التي تورد وجهها خجلاً وأرخت عينيها؛ وأخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وكأنها تعاني من صعوبة وضيق في التنفس. ثم سألتها الأم: "ما الذي أزعجك، أنت تعلمين أنه يجب إعلام الأطباء بكل شيء"، والتفتت إلي قائلة: "لا تقدر المسكينة على سماع أية إشارة لتلك الليلة المميتة دون أن تعيش أحداثها كلها مرة أخرى، ولهذا فسوف تتركنا لبضع دقائق ريثما أروي لك الحكاية.

نهضت الفتاة ووقفت قرب النافذة، في حين مالت الأم نحوي وباحت بالسر. حسبت وقتها أنني سأسمع كيف اكتشف والدها غير السوي علاقة غرامية لها مع عاشق تحبه.

- حسناً ياسيدتي، في تلك الليلة عادت ابنتي إلى المنزل بعد أن أمضت يوماً في زيارة صديقة لها. وحين كانت تصعد درجات السلم في الظلام تتبعها امرأة أخرى، ظهر شيء فجأة أمامها، تعلق بملابسها وجعلها تهوي على الدرج. صرخت المسكينة رعباً ثم نهضت. وفي تلك اللحظة ظهر القمر وحسبت ابنتي أنها رأت في ضوئه قطة سوداء تركض هاربة بأقصى سرعة. ربما لم تكن قطة على الإطلاق، وربما كانت قطة رمادية، وهذا ما حاولت جاهدة أن أقنعها به لكن من دون طائل. إذ لاشيء يغير الفكرة التي استحوذت على عقلها بأن القطة السوداء هي التي أوقعتها أرضاً.

انتظرت مزيداً من التفاصيل، لكن القصة انتهت عند هذا الحد. وحاولت جهدي أن أكتشف - دون إظهار جهلي بهذه الأمور - ما الذي أرعب الفتاة إلى هذا الحد. وكل ما عرفته أن القطط السوداء هي أرواح شريرة يعتبر ظهورها نذير شؤم. ومع هذا فمهما كان السبب

سخيفاً إلا أن المرض حقيقي. قمت بفصد دم المريضة، وأوصيت أن تُروح عن نفسها، وتقوم ببعض التمارين؛ لكن ما التسلية التي يمكن أن تجدها في السجن الذي تقبع فيه داخل "الحريم" خصوصاً في الأرياف؟ قررت أن لا أمر في طريق العودة بتلك القرية لأنني لن أتحمل رؤية ما تسببه بضعة أشهرأخرى من المرض من دمار لتلك الفتاة الجميلة الملقاة داخل منزل مضيفي الفظ، الغليظ القلب. [١٧]

التقليد المتوارث الذي يؤكد على الضعف الأنثوي لايقتصر فقط على عالم الروايات الخيالية في الشرق. فالجزء الأقوى من السكان يراعون بشكل كبير مشاعر وظروف الجزء الأضعف ـ وبما أن المرأة تعتبر ضعيفة، فإن كل شيء ـأو تقريباً كل شيء ـ مسموح لها؛ كأن تثور غاضبة دون سبب، وتحيد عن جادة الصواب، وتثرثر بلا معنى ولا منطق، وتفعل عكس ما يطلب منها، أو تؤمر به. وتعمل كما يحلو لها، وتبذر ما يكسب زوجها من مال. وتدعي المرض، وتتذمر من كل شيء، ومن لا شيء ـ هذه هي المزايا التي تتمتع بها ـ لكن تبعاً لأي قانون أو دستور يؤثر بشكل مباشر ـ أو غير مباشر ـ وأية أعراف أو مبادئ تسمح لها بالتمتع بهذه المزايا؟

القانون هو الذي يتركها عاجزة لا حيلة لها أمام نزوات سيدها، في حين أن الأعراف هي التي تدينها. ولهذا فإن طيبة قلب الرجل ورقته وكرمه هي التي تضمن للمرأة هذه الحصانة المطلقة تقريباً. [١٨]

"القس جوزيف وولف" طاف العديد من أرجاء فارس وروسيا، وكان حيثما حل يوزع نسخاً من "الإنجيل" ويحاول هداية السكان إلى دينه. وفي "أكري" قابل رجلاً إنكليزياً يدعى "كارني" كان يبحث عن امرأة يتزوجها، ونجح في إقناعه بأن النساء الشرقيات

[١٧] – "أميرة بليو جوسو": "آسيا الصغرى وسوريا" ١٨٦١، ص٤٤ ـ ٤٧.

[١٨] – "أميرة بليوجوسو": "آسيا الصغرى وسوريا"، ١٨٦١، ص٩٦.

غبيات. (الأسلوب الغريب هنا سببه أن المؤلف أملى الكتاب على أصدقائه عندما أصبح شيخاً مسناً).

... هذا الشرقي يحاول دفع "كارني" للزواج من امرأة جميلة من دمشق؛ لأن هدف "كارني" الرئيسي من رحلته إلى الشرق هو الزواج من سيدة جميلة تشبه أولئك اللاتي وصفتهن حكايات "ألف ليلة وليلة" لكن "وولف" نصحه بالعدول عن الفكرة قائلاً: "ربما تنجح بسهولة في العثور على سيدة لطيفة الشفتين، جميلة الحاجبين، لكنها قد تكون غبية كالبقرة، بعجيزة كالفيل، تدخل منزلك بمنظرها ذاك!" وبهذا نجح "وولف" في إثارة اشمئزاز "كارني" من نساء الشرق لدرجة أنه تخلى عن فكرة الزواج نهائياً؛ ثم قال، والآن سأعود إلى وطني، وبما أنني لم أنجح في الزواج من سيدة شرقية لجمالها، فسأتزوج من واحدة انكليزية لمالها. [19]

مع أن الرحالة كانوا شديدي الفضول فيما يتعلق بتفاصيل ملابس النساء، إلا أنهم وجدوا من الحمق أن تهتم النساء الشرقيات بالملابس الأوروبية!

في الفقرتين التاليتين تعاود "ايزوبيل بيرتون" و"مدام دو فواسين" الحديث في نفس الموضوع من أجل إظهار سذاجة النساء اللاتي قامتا بزيارتهن.

في اللحظة التي أعلن فيها عن وصولنا، سارعت العائلة كلها لاستقبالنا عند البوابة الخارجية التي تفصلها عن العالم. قبّلتنا النساء، وأمسكن بأيدينا، وبكل بهجة الأطفال، أفسحن لنا الطريق باتجاه المجلس، حيث تحلقن حولنا، ثم تسابقن في تقديم "الشربات"

[19] – "جوزيف وولف": "رحلات ومغامرات القس جوزيف وولف"، ١٨٦١، ص ١٤٠.

والحلوى، وفناجين القهوة والنراجيل. أي شيء مهما كان تافهاً يدخل السرور إلى قلوبهن؛ ففي ذلك اليوم مثلاً، كنا نرتدي ثياباً تشبه ملابسهن، واعتبرن ذلك إطراء على سبيل المجاملة. كان كل شيء في نظرهن يبدو ساحراً وجميلاً. امتدحن مظهرنا الجميل ونحن نرتدي ثيابهن. ولو لبسنا ثياباً أخرى لفعلن نفس الشيء، لأنهن سيفحصن عندئذ كل قطعة، وسيسألن من أين ابتيعت، وكم كلّفت، وكيف تُلبس، وهل يوجد مثلها في السوق. سعادتهن القصوى تكمن في العبث بقبعاتنا ومعرفة طريقة تصفيف شعرنا. وإذا ما قمنا بزيارتهن ونحن نرتدي ملابس ركوب الخيل خُيل لهن بأننا نلبس ملابس الرجال، فلباس الفارسة بالنسبة لهن يظل سراً خطيراً، ولا يستطعن تصديق كيف نرتدي ملابس الرجال ونسير مع أزواجنا كالأصدقاء، ولا يُشهّر بسمعتنا نتيجة لذلك... كما يحسدننا على ما نتمتع به من معرفة واستقلالية، ويأسفن لحالهن، حيث يعشن مقيدات لا يعلمن شيئاً ولا يعملن شيئاً. هذا الشعور طبعاً لا تعرفه سوى نساء "الحريم" في المدن، اللاتي استقبلن ما يكفي من الأوروبيات لمعرفة نوع آخر من عالم النساء يختلف عن ذلك الذي "يستمتعن" فيه...

هل ترون تلك المرأة العجوز، العالة على غيرها داخل "الحريم"؟ هل تسمعون ما تقول؟ نسيت أن أخلع قفازي الجلديين الأسودين، وهي تسأل الآن: لماذا وجهك أبيض اللون وكفاك سوداوان؟! فهي تظن أن الجنس البشري في الجزء الذي نعيش فيه من العالم ينتمي إلى النوع المرقط! اخلعي قفازيك وارم بهما على الأرض.. ها هي تهرب من أمامك صارخة مذعورة!! هذه العجوز تنتمي إلى الجيل القديم، ولا تعلم أي شيء عما هو أوروبي... والآن القفاز ذو الجلد الرقيق ملقى على الأرض متباعد الأصابع، وهي تعتقد بكل ثقة أنك نزعت جلدك لتستمتعي بدهشتها، ولن تلمسه مهما كان السبب.[٢٠]

---

[٢٠] – "ايزوبل بيرتون": "الحياة من الداخل في سوريا وفلسطين والأراضي المقدسة"، ١٨٧٥، الجزء الأول، ص١٤٨ –

لقد قمت لتوي بعمل أخرق عن غير قصد، وارتكبت خطأ فادحاً واستثنائياً. فقد سقطت قبعتي خلف قلنسوة "البرنس"، الذي أرتديه، وأردت أن أعيدها بكفي، وكنت ألبس حينها قفازاً جلدياً أسود اللون. صاحت النسوة: آه.. آه.. من هذه المرأة؟ وجه أبيض، وكفا زنجية سوداء، لابد أنها كافرة! أحاطت بي النساء من كل جانب. بعضهن فتيات جميلات وقويات البنية؛ لكن لونهن كالنحاس العتيق الصدئ! يرتدين ملابس تشبه لباس قبائل الشرق العربية؛ قميص قطني بأكمام واسعة يتدلى إلى الركب. يثبته شال من الصوف الأحمر؛ وقطعة طويلة من الصوف الأبيض تلتف حولهن، يثبت طرفها حول الرأس بواسطة حبل من وبر الجمل.

سألتني امرأة عجوز: "من تكونين"؟

- "أنا مسيحية فرنسية".

- "وماذا تفعلين هنا"؟

- "أتيت لأعرف هل النساء هنا كريمات كما قيل لي من قبل"

ضحكن جميعاً واستمتعن بالاطراء.

- "لكن لماذا وجهك شديد البياض — في الحقيقة كان وجهي أسمر — ولديك كفي زنجية سوداء"؟

واضطررت لخلع أحد قفازي.

صاحت النساء: "ياللعجب، المسيحية تنزع جلدها". [٢١]

وفي حين أشارت "لوسي دوف غوردون"، التي أتت من عائلة راديكالية التوجهات في إنكلترا، مراراً إلى الظروف المحيطة بالسكان الذين قابلتهم في الشرق، إلا أن معظم الرحالة الأوروبيين لم يقيموا أي اعتبار للخلفية التي تعتمد عليها حياة هؤلاء السكان، بل سارعوا

---

[٢١] - "مدام دو فواسين": "رحلات سيدة فرنسية في منطقة تونس"، ١٨٨٤، ص ٦٧ - ٦٨.

لإطلاق الأحكام العامة والمسبقة عليهم. وكانوا دوماً على جهل مطبق بالأوضاع الاقتصادية والسياسية في البلاد التي زاروها، وتجاهلوا تماماً ما يسببه الفقر من مشكلات في الشرق، تماماً كما يفعل في أوروبا. وكان جل اهتمامهم ينصب على إيجاد الصلات التاريخية مع الماضي لإثبات أن المجتمع الشرقي لم يتغير منذ آلاف السنين،وأن الإسلام هو السبب وراء البؤس الذي يعاني منه الشرقيون.

الكاتبان التاليان يعتبران مثالاً على ذلك، إذ لم يظهرا أي اهتمام بحالة الإجراءات الوقائية الطبية في تونس ومصر حين وجها الاتهام إلىالطبيبات والقابلات بالجهل والفسوق.

.. من الصعب أن تصدق كم هي غريبة وبغيضة تلك الوسائل التي تستخدمها القابلات في عملية الولادة. ومن بين أغرب الوصفات التي يوصين بها لتسهيل الولادة وأكثرها إبداعاً هي بالتأكيد هذه.. تحضر القابلة جرعة. تتألف من أي شيء قذر وكريه الرائحة: الماء النتن المخلوط بأقذر النفايات المقززة هو أساس هذا الشراب الذي يجب على المريضة أن تبتلعه حتى آخر قطرة. ومن الطبيعي أن يثير القرف من هذا الشراب تشنجات حادة في الحجاب الحاجز. وهذه التشنجات هي التي تؤدي إلى حالة الوضع. وفي أحيان أخرى تضع القابلة على بطن الحامل عندما يأتيها المخاض حجر الرحى الذي تطحن به النساء القمح عادة، وعندما تديره يتولد اهتياج فظيع في جسد الحامل. والصدمة والاهتزاز والارتجاج بالاضافة إلى ثقل وزن الطاحون، كل هذا ينتج التأثير المطلوب.

بعد كل هذا الاجهاد العنيف يموت المولود عادة أو يجهض. هذا لا يهم، فالاجهاض لا يعتبر جريمة في البلاد الاسلامية؛ ووصل الأمر إلى حد السماح به أحياناً. فالقابلات يتحملن مسئولية هذا العمل الفظيع. وكما يسمح للقابلة بقتل البذرة الملعونة في الرحم التي تشكل برعم الحياة، كذلك لا يشعر أحد بأي ندم في تعريض المخلوقة الضعيفة لتلك التجربة المؤلمة

التي وضعناها للتو. وخلاصة الأمر أن القابلات المحليات أكثر حنكة في القتل منهن في التوليد. وما يثير النقمة هو رؤية هذه الوظيفة الأنثوية السامية والمهمة تُترك فريسة للجهل والشعوذة والجريمة. وكيف لا تكون كذلك في بلاد يَخمد فيها الطلاق وتعدد الزوجات جذوة العواطف الطاهرة للحنان الأبوي والحب بين الزوجين؟

وحين نتذكر ما قلناه حول وضع النساء المسلمات، يمكن بسهولة أن نفهم لماذا لا تكترث هؤلاء المخلوقات التعسات بعاطفة الأمومة.*

.. في مصر، تستشار القابلات بالدرجة الأولى حين يصيب المرض أحد أفراد "الحريم"، كالنساء والأطفال. ولا داعي للتذكير بأنهن عجائز جاهلات لا يعرفن شيئاً عن الطب ولا عن البنية الداخلية للجسم البشري، اضطرتهن الظروف لاكتساب خبرة عملية محدودة عبر سنين من ممارسة عمليات التوليد للعديد من النساء البائسات.

أما بالنسبة للأمراض وأسبابها وعلاجها فلا يعلمن شيئاً سوى وصف بعض الرقى والتعاويذ والحركات الطقسية بمساعدة عقارات بدائية مثل:

اصطياد صقر، وفتح معدته وحك محتوياته على جبين وكفي المريضة لمعالجة الحمى. أو حرق مؤخرة العنق بالحديد المحمى حتى تتقرح، ثم مص المكان، وفي نفس الوقت ربط منديل مشدود على جبين المريضة لمعالجة الصداع وهكذا...

القابلات في مصر هن مصدر لشر كبير، ولو حاولن إجراء نفس العمليات للنساء واكتشف أمرهن في إنكلترا مثلاً لعوقبن بالسجن المؤبد أو حتى بالشنق. [٢٢]

أما "الليدي آن بلنت"، وهي سيدة أرستقراطية إنكليزية، فقد كانت كما وصفهاالتعريف بكتابها "رحلة حج إلى نجد" الذي أعيد طبعه عام ١٩٨٥، "ثاني امرأة في

* - "جي.دي غودينز دو سوزمس": "تونس"، ١٨٧٥، ص ١٥٩-١٦١.

[٢٢] - "الزوايا الدافئة في مصر: كتبتها امرأة أقامت فيها"، ١٨٨٦، ص ١٩٦ - ١٩٨.

العالم تخترق مجاهل الجزيرة العربية"، ما عدا بالطبع السكان المحليون الذين يعيشون هناك! وفي مقدمة الطبعة الجديدة عقدت "ديرفلا مورفي" مقارنة بين كتابات "بلنت" وكتابات أغلبية المستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، ووجدت أنها تهتم جداً بتفاصيل الحياة العادية. وهذا صحيح دون شك. لكن الوصف التالي لمحادثة جرت بينها وبين بعض النساء في "الهيل" يكشف لنا عن مكنونات شخصيتها أكثر مما يكشف عن النساء اللاتي قامت بزيارتهن.

.. بعد ثلاثة أيام تقريباً قمت بزيارة "حريم سليمان" عم محمود .وسليمان هذا سيد مهذب عرفناه من قبل حيث شاهدناه في القصر في عدة مناسبات. وقد أرسل لي دعوة لزيارة عائلته، وقام عبدان أسودان بمرافقتي إلى المنزل الملحق بالقصر. دخلنا فناء صغيراً وجدنا فيه العجوز مستعداً لاستقبالنا. كانت لحيته مصبوغة بالحناء، ويبدو أنه يحب الكتب فقد كان يجلس وسط كومة منها. كنت آمل أن يكون مثقفاً، وما أن بدأنا الحديث حتى دخلت زوجته مسرعة للأسف، تتبعها جمهرة من النسوة، واضطر لجمع كتبه ومخطوطاته على عجل، حيث وضع قسماً منها في خزانة كانت هناك وحمل الباقي معه وذهب.

كانت زوجته أكثر من قابلت في "الهيل" غباءً، لكنها محدثة لبقة ومضيفة كريمة، قدمت لنا البلح والحليب الذي تطفو عليه القشدة الطازجة وقطع الحلوى. وكان الحشد من الجواري والخادمات والمرافقات والأطفال من كل الألوان والأجناس، لا يخافها كثيراً. وقد علا ضجيج الأصوات المثرثرة. لكنهن جميعاً أظهرن احتراماً ولطفاً نحوي. ثم دخلت الإبنة الكبرى ترافقها جارية تحمل طفلها البالغ من العمر سنة واحدة. كانت جميلة لكنها غبية ومضجرة مثل أمها تقريباً. وكانت أيضاً مولعة بعرض صندوق جواهرها أمامي ولذلك أرسلت في طلبه خصيصاً لهذه الغاية. مجوهراتها من النوع العادي، حلي من الذهب للرأس والذراعين والكاحلين، مثبتة فوق إطار من الفيروز واللؤلؤ. أما أثاث الغرفة الذي أشارتا خصيصاً إليه

لإثارة اعجابي، فقد كان مألوفاً أيضاً؛ صناديق أو خزانات ذات أرجل مزخرفة بصفائح فضية تفتقر إلى دقة الصنع. الحديث مع الإبنة كان مملاً، وهذا مثال عليه:

- ماذا تفعلين طوال اليوم؟

- نحن نعيش في القصر.

- ألا تخرجين أبداً؟ - لا، نحن نبقى دوماً في القصر.

- إذن أنت لاتركبين الخيل كما نفعل نحن؟ (أسأل دوماً حول هذا الأمر حتى أرى رد الفعل).

- ليس لدينا خيل نركبها.

- هذا شيء مؤسف. هل تتجولين خارج "الهيل" في الصحراء؟

- لا، بالطبع لا.

- لكن ماذا تعملين لتمضية الوقت؟

- نحن لانفعل شيئاً!

وهنا قاطعنا طفل أسود البشرة صائحاً: ياسيدتي، بنات الشيوخ لايعملن، لايعملن أبداً، ألا تفهمين ذلك؟

- طبعاً أفهم هذا تماماً؛ لكن يمكن أن يسلين أنفسهن دون أن يعملن، ثم التفت إلى الإبنة وقلت: ألا تتفقدين حتى الخيول؟

- لا، نحن لانعمل شيئاً!

- أنا أموت لو لم أعمل شيئاً، وعندما أكون في المنزل أخرج دوماً للترويض، وأول شيء أفعله في الصباح هو تفقد جيادي، فكيف تمضين أنت أيامك؟

- نجلس طيلة النهار!

لايبلغ الرضا مداه بين سيدات الحريم إلا إذا أمضين الوقت في كسل وتبطل.

كم يبدو غريباً أن يكون الرجال على هذه الدرجة من النشاط والمغامرة، في حين تكتفي

النساء بالضجر والملل، لكن هذا على ما أعتقد هو نتيجة لطغيان التقاليد. [٢٣]

المقتطفات الأربعة التالية كتبتها نساء أيضاً، لكننا لا نعلم ـ حين نقرأها ـ إلا القليل عن النساء اللاتي يتحدثن حولهن.

فقد اتخذن موقفاً فوقياً ومتحيزاً لعرقهن الأوروبي ضد جنسهن الأنثوي، وقارن بين النساء اللاتي زرنهن وبين الأطفال والبهائم. "مدام بوميرول" شبهت البدويات بالأطفال والقطط والغزلان؛ "إديت وارتون" و"الكونتيسة مالميناتي" استخدمتا صور الأقفاص والطيور؛ أما غطرسة "غيرترود بل" فهي نموذج لجميع كتاباتها حول النساء، حيث تظهر عدم تعاطفها معهن تجاه المشكلات التي يواجهنها ـ في إنكلترا أو في الشرق الأوسط ـ لكنها تفضل التحاور من أجل حلها مع الرجال العرب.

من تكون هؤلاء؟ للإجابة على هذا السؤال الذي تصدر الفصل الأول من كتابي حول إقامتي بين نساء الصحراء، أعتقد أن حقيقة انتمائي إلى نفس الجنس تمكنني من إعطاء الجواب الصحيح؛ لأنني كأنثى أستطيع أن أعرفهن جيداً، وأفهم شخصياتهن غير الناضجة، وأستنشق نفس الهواء وأخيم على نفس الرمال، وأحظى بالصداقة التي يعرضنها علي بصدق ووضوح.

في كل قبائل البدو الكبيرة، كما في المجتمعات الصغيرة الكسولة تنفرد المرأة بزيها الخاص، حجابها الفريد، وعاداتها وتقاليدها التي تميزها عن غيرها في المجتمعات الأخرى، مزاج المرأة أيضاً يختلف تبعاً للظروف، فبعض النساء يتمتعن بشجاعة كبيرة يكتسبنها من البيئة المحيطة، وغيرهن في بيئات أخرى يصبحن أكثر جبناً وهلعاً، الجسم اللدن كذلك يكون أكثر هزالاً في مناطق وأكثر امتلاء في أخرى؛ والبشرة قد يشحب لونها، أو تسمرّ، أو تتورد. لكن بالرغم من هذه الفروقات الهامشية في الشكل والملامح، فإن جوهر الشخصية

---

[٢٣] – "الليدي آن بلنت": "رحلة حج إلى نجد"، ١٩٨٥ (الطبعة الأولى ١٨٨١)، ص٢٤٦ ـ ٢٤٨.

الأنثوية هنا يبقى واحداً، يحمل جميع السمات الواضحة للطقس الفظيع، والقيود الاجتماعية المفروضة، وقوانين الإسلام الصارمة الذي مازالت شعوب الصحراء تؤمن به منذ تسعة قرون على الأقل.

العبث، والطيش، والمكر، صفات ليست غريبة عن هؤلاء النسوة، جميعهن تقريباً متعصبات ومتمسكات بالإسلام، ويبدو أنهن فقدن بسببه جزءاً من روحهن وشفافيتهن. وكما ألمحت سابقاً، فإن شخصية هؤلاء النساء لم تنضج بعد، فهي متخلفة رغم أنها تبدو أحياناً طيعة ومرنة، تماماً مثل تمثال لم يكتمل نحته بعد. ومع أن الجشع والشهوة والحقد والكذب يسيطر تماماً على طبيعة المرأة في هذه المناطق إلا أنها تبقى أسمى من الناحية الأخلاقية من المرأة العربية أو البربرية في "التل" أو في الصحراء الجزائرية.

ومما يلفت الانتباه طريقة المشي التي تتبعها المرأة هنا، فهي تتهادى بإباء وشمم، بأسلوب تعودت عليه من تعيش حرة في الهواء الطلق، على عكس أختها بنت الجزء الشمالي من البلاد. ولا أدري لم يذكرني شكل الصبايا هنا بالقطط والغزلان؛ هنالك شيء غريب ومشوق حقاً في هؤلاء الفتيات، شيء نستمتع به كما نستمتع برؤية القطط والغزلان. عيونهن السوداء أو الخضراء، واسعة، مكحولة منذ لحظة الولادة، ومليئة بالفتنة والتحفظ والغموض، وما رأت سوى السهول الواسعة الكئيبة برمالها البيضاء الممتدة إلى مالانهاية. لايوجد تنوع في المشاهد أمامهن إذ لاشيء هناك سوى بعض الصخور، والكثبان، وأكوام من عظام الجمال النافقة، وبقع متفرقة من الحشائش الخضراء التي سرعان ما تذبل وتجف بعد انقضاء فصل الربيع وتتحول إلى باقات يابسة رمادية تتجمع حولها الرمال في باقي فصول السنة. النخلة هي الشجرة الوحيدة هنا، وهي نادرة الوجود، ورغم ما تضفيه على المنظر من زينة وحياة إلا أنها تثير الكآبة في النفس. ومن السماء ذات الزرقة الأبدية تطل الشمس كأتون ملتهب، لتشرق وتغرب وترسل أشعتها الحارقة فوق كل شيء. لم تعرف عيون هؤلاء النساء سوى الظل الذي تلقيه على الرمال الخيامُ المبعثرة هنا وهناك، أو البيوت الطينية الأكثر كآبة.

وفي الواقع فإن هنالك نساء في البلدات الريفية ـ ويالها من بلدات! ـ لم يدخلن خيمة قط، كما أن بعض البدويات لم يطأن عتبة منزل قط، ومن المنطقي أن تكون المفردات التي يستعملنها محدودة العدد ومتناسبة مع أفق تفكيرهن المحدود. فهن يعرفن مثلاً أن أصابعهن هي التي تغزل صوف الخراف ووبر الجمال الخشن. ويعلمن من يصبغ الصوف ومن يحيكه، لأن أيديهن الماهرة هي التي تحضّر الألوان وتمزجها. فهي إذن التي تصنع من المادة الخام شكلاً محدداً يمكن بيعه في السوق.

لكن هذه المعرفة تقف عند هذا الحد فقط ولا تتجاوزه؛ إذ لا يعرفن من يصنع المنسوجات القطنية والمناديل الحريرية التي تحضرها القوافل إلى الصحراء. هل فهمتم ما أعني؟ هؤلاء النساء لا يعرفن هل الصانع من البشر، أم من الملائكة، أم من الشياطين أو الجن كما يسمون هناك! وبالطبع أنا اقصد النساء اللاتي لم تلامسهن حضارتنا العاجزة عن تقديم أي دليل على وجودها بالنسبة لهن، خيراً كان أم شراً. وفي الواقع فإن عدد هؤلاء النساء كبير جداً، بل يشكلن أغلبية النساء البدويات في الصحارى. وبالرغم من كل ذلك لم تنجح الكآبة التي تلف المدى الممتد أمامهن، في كبت مشاعر البهجة التي تملؤهن؛ إذ لاتزال ضحكاتهن ترن عالية وصافية، ولم تستطع المساحة الضيقة داخل الخيمة أو البيت الطيني أن تحد من حريتهن في الحركة، ولم يفلح فقر الكلمات التي يعرفنها في منعهن من الفهم الفطري للشعر الأصيل الذي تتألف منه الأغنيات التي توارثنها جيلاً عن جيل. هنالك شيء ما في هؤلاء النسوة ـ لا أعرف كنهه ولا أستطيع تحديده ـ لا نقدر نحن الأوروبيون على مقاومة جاذبيته وسحره؛ شيء أعمق من الذكاء وأجمل من الحسن. ربما هو استسلامهن الكامل ـ رغم ثورات الغضب الجامحة أحياناً ـ للقدر، كما اختطته الملائكة، وكما كتبه ا لله ذاته في لوحه المحفوظ. بالإضافة إلى التناغم المطلق بين الصوت، والابتسامة، والإشارة، والزي، والحلي.... [٢٤] أرسل السلطان إلى "مدام ليوتي" يعلمها أن سيدات " الحريم" السلطاني على استعداد لاستضافتها

---

٢٤ – "مدام جين بوميرول": "بين نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ص١ ـ ٥.

وصديقاتها ،في نفس الوقت الذي سيستقبل فيه جلالته المندوب السامي. وكان علينا أن نسرع في العودة إلى القصر حتى لايفوتنا المشهد القادم.

عبرنا قاعة طويلة اصطف على جانبيها الحراس الزنوج، ودخلنا البوابة الخارجية حيث قابلتنا جارية سوداء بملابس رثة. ثم اجتزنا ممراً من الآجر المزخرف، باهر الأضواء لنصل إلى بوابة أخرى داخلية يحرسها رئيس الخصيان، وهو عبد ضخم الجثة لامع العينين يشبه تمثالاً نصفياً من البازلت الأسود. سلَّمنا الخصي إلى جوار أُخر دخلنا برفقتهن إلى متاهة من الدهاليز والباحات الداخلية، وكانت كلها تقطر ماءً. ثم ولجنا ممرات طويلة اصطفت قرب جدرانها جوار كثيرات يرتدين أثواباً رمادية غامقة، ولمحنا حجرات كبيرة مظلمة وغرف الغسيل، وحفظ المؤن والأطعمة، وصنع الخبز، والمطابخ التي تُحضّر فيها الأطعمة، حيث تركت الزنجيات ما بين أيديهن من أعمال ونظرن نحونا باستغراب. وفي أحد الأركان، وفوق مقعد بجوار الحائط علقت أقفاص طويلة بداخلها ببغاوات رمادية تقوم إحدى الجواري بإطعامها.

صعدنا سلماً ضيقاً يصل إلى فسحة صغيره حيث ظهرت أمامنا أميرة خارجة لتوها من الحكايا الخرافية العربية، مشت برقة وهي ترتدي خفيها المطرزين وقادتنا صعداً إلى الفسحة التالية، حيث رأينا أميرة أخرى بخفين ذهبيين تبادرنا بالابتسام. كانت هذه صبية صغيرة، ترسم على وجهها ابتسامة مشرقة وقد وضعت إكليلاً من المجوهرات على شعرها المضفور بحبال اللؤلؤ، وعلى الفسحة الثالثة ظهرت فتاة أخرى، ثم صعدنا برفقة الفاتنات الثلاث إلى الشرفة الناتئة في البرج المركزي لمشاهدة مراسم الاستقبال القادمة. بعدها خلعت الفتيات الأحذية الذهبية التي وضعتها الجواري أمام الباب ومشين عاريات الأقدام برفقتنا إلى غرفة الحريم العلوية.

كانت تلك غرفة رحبة محاطة من جميع جوانبها بشرفة مسورة بألواح زجاجية مشرقة الألوان، في وسطها سجادة جديدة مبهرجة وضعت فوقها مجموعة من الكتب المذهبة مصممة بشكل منمق. ومنضدة تحمل تحفاً فنية برونزية متنوعة ومبتذلة. أما الأرائك فقد غطيت بوسائد من "الموسلين"، وصُفّت قرب الجدران حتى القاعة المجاورة الخالية إلا من مجموعة من الساعات. إن الإعجاب بالساعات وغيرها من الاختراعات الميكانيكية هو أمر شائع عند كل الشعوب المتخلفة في مجال الصناعة. وجميع قصور الحكام في شمال أفريقيا تحوي مجموعات كبيرة من هذه الساعات...

لكن ما عدا المشاهد الساحرة للبحر والسهل التي نطل عليها من خلال الشبك الخشبي لنوافذ القاعة. فإن قاعة الحريم السلطاني لا تتوافق أبداً مع الأفكار الغربية حول الأناقة. لكن لم يكن لدينا متسع من الوقت للتفكير في ذلك، لأن باب الشرفة كان يفتح باستمرار لاستقبال فاتنات جدد. كن يدخلن واحدة إثر الأخرى حتى وجدنا أنفسنا وسط ثلة من الحوريات. يضحكن، ويثرثرن ويمسكن بأيدينا، ويوجهن لنا أسئلة خجولة، وينظرن نحونا بعيون ملؤها اللطف والحنان. كن جميعاً (كما همست بذلك المترجمة) أثيرات لدى السلطان، صبايا في عمر الورود. وجوههن موردة ومستديرة وخدودهن أسيلة. وشفاههن حمراء مكتنزة، وعيونهن عسلية تنظر بتساؤل تحت الأهداب الطويلة المائلة. وأيديهن السمراء الصغيرة تتحرك كالعصافير وهي تخرج من أكمامهن الواسعة.وعلى شرف المناسبة، واحتفاء بزيارة "مدام ليوتي" لبسن أزهى الثياب. وان لم يستطعن التحرك بحرية بسبب ضيق الأثواب الفاخرة. وثقل المعاطف الخارجية الموشاة بالذهب والفضة، والنسيج الرقيق ذي اللون الوردي الفاتح المثبت بوشاح ضيق كالمشد من قماش مذهب مصنوع في مدينة فاس، وخيوط حريرية سميكة تطرز الأكمام الواسعة. فوق الجبين مباشرة يحلقن الشعر على طريقة جميلات القرن الرابع عشر في إيطاليا، ويتركن خطاً أسود رفيعاً يظهر من خلال طية النسيج الشفاف المثبت فوق الحاجبين بمشبك مرصع بالجواهر. وإلى الأعلى قليلاً يبدأ البناء المعقد

لتسريحة الشعر، حيث تجدل حبال من الصوف الأسود مع ضفائر الشعر مشـكلة "أنشـوطة" مزدوجة تقف فوق الجزء الخلفي من الرأس كأذني آنية الزهور.

والقسـم العـلوي منهـا يختـفي ضـمن النسـيج الشـفـاف ويثبـت بواسـطة طـوق مرصـع بالجواهر أو بالحلي. وعلى كل وجنة من وجنتي الوجه المورد تعقد ضفائر أخرى تصل حتى الأذنين يتدلى منها قرطان مخرّمان، بإطارين من اللؤلـؤ والزمـرد، أو بحلقتـين مـن الذهب أو المرجان؛ وتطوق الرقبة تحت الذقن مباشرة قبة من "التـول" فـوق العديـد مـن العقود المصنوعة من العقيق والمرجان واللآلئ المزخرفة معلـق عليهـا الأحجبـة والتعـاويذ البدائية الغامضة.وعندما تسير الفتاة بقدميهـا النـاعمتين المصبوغتـين بالحنـاء، تومـض ثيابها ببريق متـلألأ الألـوان يمـتزج فيـه الذهـبي مـع الفضـي، والأزرق مـع البنفسـجي والأخضر في تناغم تلفه من جميع الجهات غلالة وردية وزرقاء باهتة؛ وبين الحشد يثب من حين إلى آخر طفل أسود البشرة يرتدي قفطانـاً فضيـاً موشـحاً بـاللون الأرجوانـي مـع وشاح خمري أحمر.

لكن الآن علا الضجيج في الغرفة وتحولـت إلى مـا يشـبه قفـص طيـور تصفـق بأجنحتهـا. سمعنا صوت طرق حذاء على درجات السـلم ثـم دخلـت فتـاة شـابة بقدميهـا العـاريتين المخضبتين بالحناء. لم تكن علـى نفـس القـدر مـن التـأنق في اللبـاس أو التـألق في الوجـه كالأخريات، كانت حركاتها خجولة ومترددة، وشفتاها الغليظتان شاحبتان، وحاجباهـا أقل إشراقاً في سوداهما، ورأسها أقل تزيناً بالجواهر، لكن جميع الفتيات تجمعن حولها باحترام حين تقدمت نحونا ومـالت إلى إحـدى الفتيـات ومـدت يدهـا بأصابعهـا المزينـة بالخواتم إلى "مدام ليوتي" وانحنـت احترامـاً لهـا. إنهـا الأمـيرة الشـابة ابنـة السـلطان الشرعية. تفحصتنا بعينين حزينتين ورددت بعض عبارات المجاملة من خـلال الترجمـة قبل أن تجلس بصمت مفسحة المجال للأخريات للتحـدث والـثرثرة بحيويـة ونشـاط. بـدأت حرارة الحديث مع الأميرة الخجولة تفتر حين أشـارت لنـا إحـدى المحظيـات كـي نتقـدم إلى

الشرفة، وأُعلمنا أن باستطاعتنا فتح الزجاج الملون بضع بوصات، لكن ما إن فعلنا ذلك حتى تراجعت الفتيات إلى الخلف كسرب من الفراشات المذعورة مخافة أن يراهن أحد وهن ينظرن إلى العالم المحرّم... عندها دعتنا إحدى المحظيات للدخول من الشرفة الناتئة، وفُتح الباب لاستقبال امرأة مسنّة تسبقها جماعة من الفتيات عليهن إمارات الاحترام. من وجه القادمة الجديدة المدور المائل إلى الحمرة، وجسمها القصير الممتلىء وكفيها ورسغيها الممتلئين كان يشع قدر من الجلال لا يوصف. ومع أنها لم تكن متأنقة في زيها كباقي المحظيات إلا أن القماش الشفاف المقلم الذي كان يغطي رأسها بدا كالتاج فوقه. هذه السيدة المسنة التي تثير الإعجاب هي والدة السلطان. وحين مدت يدها الريانة المتغضنة إلى مدام ليوتي وتحدثت ببضع كلمات عبر المترجمة تملكني شعور بأن إحدى نوافذ الشرفة الناتئة بزجاجها الملون قد تحطمت أخيراً، وأن الفكر قد دخل خواء عالم الحريم. لكن أي فكر هذا؟يتوجب أن يكون لنا رؤية متعمقة بكيفية عمل العقل العربي إذا أدرنا اكتشاف ذلك الفكر، لكن استقامته وإخلاصه يظهران جليين في ابتسامة والدة السلطان وصوتها. الآن على الأقل هنالك امرأة خارج الرياء المبتذل لعالم الحريم ومكره وطيشه وتبطله ووحشيته. لم نُفاجأ حين أُخبرنا بأنها السلطة الرئيسية في القصر وأكثر مستشاري السلطان أهلاً للثقة. إذا ما اضطرت امرأة كهذه لممارسة الخداع أو التآمر فأنها تفعل ذلك في سبيل أهداف عظيمة وغايات تؤمن بها، وحتى في أعماق نفسها يتغلغل النور والهواء، ولا تسمح لأحد أن يمنعهما عنها. [٢٥]

تجمع كل الزوار وجلسوا على الأرائك الواطئة، الرجال في جانب والنساء في جانب آخر، ووضعوا مقعداً لي في المنتصف – تحلق الجميع حولي، منصتين لكلماتي وكأني كاهنة معبد

"دلفي". توقعوا أن أقول أشياء عجيبة مثيرة للاهتمام بشكل استثنائي، وخيم الصمت على الحاضرين، فإذا ما حاولت أن أتحدث مع شخص يبدو لي أقل إثارة للملل، صرخ الباقون في

---

[٢٥] – "اديث وارتون": "في المغرب"، ١٩٨٠(ط.أ. ، ١٩٢٠)ص ١٣٥-١٤٢.

ذعر: "لا، يجب أن تتحدثي معنا جميعاً في وقت واحد". شعرت بأن هذا مستحيل، وخانتني شجاعتي على الكلام، ولهذا بقينا صامتين نحدق في وجوه بعضنا البعض.

أحسست بنوع من اليأس الممل يتملكني تحت التأثير المنوم لهذه العيون المحدقة. وكقاعدة عامة، عندما يجتمع هؤلاء العرب مع بعضهم يتحدثون ويثرثرون كلهم في وقت واحد، وحين تسمع الضجيج تظن أن شجاراً حاداً قد حصل، أو أن شيئاً ما حدث في غرفة مليئة بالببغاوات. لكنني كنت أفضل ضجيجاً يصم الآذان على هذا الصمت المطبق وتلك العيون التي تسدد نظراتها نحوي- حاولت إقناع الصبايا من الحضور بالرقص أو الغناء لكن بدون جدوى. (الفتيات لا يرقصن هنا، والغناء أمر معيب بالنسبة للنساء في هذه البلاد).

ليس هنالك مسرحيات ولا كتب يمكن للمرء التحدث عنها؛ ولا يوجد للسكان هنا أية اهتمامات فكرية مهما كان نوعها، فهم يفضلون الثرثرة، الثرثرة فقط. أخبرتهم أننا في أوروبا مغرمون بالرقص، وأن الفتيات هناك يتعلمنه في المعاهد، وأنه يجعلهن أكثر رشاقة وجمالاً. عندئذ توسلت إلي والدة فتاتين بدينتين أن أعلم ابنتيها الرقص، لأن ذلك قد يحسن من شكلهما. وعلى سبيل المزاح فقط وعدت الفتاتين بإعطائهما دروساً في الرقص اليوناني، لأن تخيل الكتلتين الضخمتين من الشحم واللحم ترقصان بأزياء يونانية فكرة مسلية جداً. من المؤسف أن النساء هنا يصبحن بدينات جداً، لكنهن جميلات بشكل عام وملامحهن حسنة ولم تتعرض وجوههن للرياح الجافة وأشعة الشمس اللاهبة.

لكن المرأة البدينة تعتبر هنا جميلة! وفي كثير من الأحيان كانت تقول لي النساء: "أنت جميلة جداً يا سيدتي، لكن لو تزيدين من وزنك قليلاً!. كانت شكواهن مضحكة جداً. وعندما أتعرف على امرأة، كان أول ما تقوله هو: "مدام، كم أنت جميلة!" ولا شيء غير هذا. با لله عليكم، بماذا أجيب على هذه التعليقات المبتذلة. من عادتهن إغراق الشخص بالمديح، فهذا هو أسلوبهن الوحيد في الحديث. والأمر العجيب هو كيف يمكن لهن أن يبقين في سهرة تمتد

حتى الثانية صباحاً ولا يتحدثن عن شيء؟! [٢٦]

الفتاة السورية التي تعمل عندي جميلة وتتحدث بعذوبة لكن بلهجة محلية حادة النبرات. وهذا يضيف مصاعب جديدة أمامي لأن علي أن أتعلم اللهجة العامية بالإضافة إلى العربية الفصحى في نفس الوقت. أخذتها في نزهة طويلة عصر يوم الجمعة والتقطت العديد من الصور في مدينة القدس. كانت النزهة تسلية كبيرة لها، لكنني لم أستفد منها كثيراً كدليل، لأنها لم تزر الجزء اليهودي من المدينة أبداً مع أنها أمضت كل سنوات عمرها هنا. وهو أمر تتميز به هؤلاء النساء، أما بالنسبة لي فأنا أعرف أسلوبي في الحياة كما تعرفه أية إنكليزية، وهذا يتلخص بالبساطة قدر الإمكان والبعد عن التعقيد. [٢٧]

كان "ادموندو دو اميتشي"، ككثير من الرجال في القرنين التاسع عشر والعشرين. يكره كرهاً شديداً النساء المثقفات في الغرب- مثله في ذلك مثل العديد من الكتاب الذين مروا معنا هنا. ولو حضر أياً من الاجتماعات التي يعقدنها لما وجد واحدة منهن تناسب فكرته حول المرأة المثالية- لا بين المثقفات في أوروبا، ولا بين النساء العربيات اللاتي يملكن "روحاً متخلفة" حسب رأيه.

في جميع المناسبات (التي حضرتها هنا)- وما سأقوله ليس إطراء قليلاً- لم أصادف مثقفة أوروبية تثير الضجر، ولا مدّرسة مملة لا تتحدث إلا عن اللغة والأسلوب، ولا واحدة من أولئك المخلوقات الروحانية التي تتربع متكبرة في برجها العاجي فوق البشر العاديين. لكن تدفعني الحقيقة للقول إن النساء هنا يعشن حياة ضيقة الحدود، معزولة عن كل ما يسمو

[٢٦] - "كونيتسة ماليناتي": عبر مجاهل الصحراء في الطريق إلى المدينة (المنورة)"، ١٩٢٥، ص ٢٥-٢٨.

[٢٦] - "رسائل غيرترود بل"، ١٩٤٧، ص ٥٨.

بالمرأة ويشغل أوقاتها، حيث تتعرض الرغبة الفطرية للشباب والجمال في البحث عن الحب وإثارة الإعجاب للإحباط والخذلان، ولذلك فالنساء هنا يملكن روحاً متخلفة وناقصة النمو.[٢٨]

الفقرة التالية التي كتبها الأوروبيان "دو لوري" و "سلادن" تعد نموذجاً مدهشاً للنفاق، حيث أُدينت النساء بالحمق والسخف لأنهن يستمتعن بقصص "ألف ليلة وليلة"!

نساء الحريم سخيفات ويسهل إلهاؤهن. فالحكايات الخرافية المستوحاة بدرجة أو بأخرى من "ألف ليلة وليلة"؛ حيث تروى التفاصيل المتعلقة بالحب بأسلوب فج وخشن، أو من القصص الهزلية الماجنة التي ترويها العجائز، وما يقمن به من تقليد وتهريج .. كل هذه الأمور تسحر وتسلب ألباب أولئك النساء. واحدة من تلك العجائز استطاعت أن تكتسب شهرة كبيرة في "طهران" حين صارت تروي مثل هذه الحكايات الخرافية وتشرحها وتمثل شخصياتها. فهي تقلد مثلاً بكثير من الدقة العروس التي يتورد خداها خجلاً، مثلما تحاكي تكلف امرأة كهلة في خريف العمر. وعندما تروي حكاية عن تنين مثلاً، أو شيطان أو جني، تقوم بصبغ جلد وجهها وربط أنفها بحبل وقلب أهداب عينيها، متخذة أكثر الأشكال رعباً وهولاً.

إن حكاية ترويها هذه السيدة تحظى بنفس الإعجاب، ويدفع لها نفس الأجر اللذان يحظى بهما "شيفالييه" حين يؤدي "المنولوج" على مسارح لندن![٢٩]

وأخيراً، يقدم "غي دو موباسان" القول الفصل حول "تفكير النساء المحدود". فهو هنا يصرح بأن النساء في شمال أفريقيا -على عكس الرجال- لا يفهمن إلا "الوقائع

---

[٢٨] - "أدموندو دو اميتشي": "القسطنطينية"، ١٨٩٦، الجزء الأول، ص ٤٠.

[٢٩] - "اوستاش دو لوري و دوغلاس سلادن": "غرائب بلاد فارس"، ١٩٠٧، ص ١٦٣.

المحسوسة". ونتيجة لذلك، لا يطلبن من الرجال العون في الحياة الدنيا فقط، بل الشفاعة لهن عند الله في الحياة الآخرة أيضاً. ويبدو أنه فهم ذلك من الأوروبيين الذين ذهبوا إلى المزارات سعياً وراء إقامة علاقات مع تلك "المخلوقات".

بعد أن خلعت نعلي دخلت القبة. وفي الحجرة الضيقة تحتها جلس شيخ مسلم على عقبيه يطالع مخطوطة حملها بين يديه. كانت الكتب والمخطوطات مبعثرة حوله على الحصر، ولم يلتفت إلي حين دخلت.سمعت ضجة خفيفة وهمساً صادراً من النساء الجاثيات بخشوع حول الضريح، وعندما اقتربت منهن سارعن إلى تغطية وجوههن. كان منظرهن يشبه رقاقات كبيرة بيضاء تشع عيونهن من خلفها. ووسط هذه الأكوام من الثياب القطنية والصوفية والحريرية كان الأطفال يلهون أو يركضون أو يغفون بملابسهم الحمراء والزرقاء والخضراء. المشهد يعبق بالفتنة والبساطة. إذ تشعر النساء وكأنهن في المنزل هنا قرب "الولي" الذي ملأن المزار بالزينات لأجله، فا لله أبعد مدى من خيالهن المحدود، وأجلّ شأناً من تواضعهن الذليل. ولهذا لا تتجه تلك النسوة جهة الكعبة، بل يتجهن إلى الجسد المسجى لهذا "الولي الصالح"، ويضعن أنفسهن تحت حمايته المباشرة. مما يعني أنهن لا زلن -كما كن دائماً- تحت حماية الرجل ووصايته. هذه العيون اللطيفة الحزينة لا ترى سوى الوقائع المادية، أما ما يكمن وراءها فلا يستطعن فهمه. الرجل هو الذي يطعمهن، ويدافع عنهن، ويساعدهن في هذا العالم، ويتوسط لدى ا لله، في العالم الأخر، من أجلهن. ها هن جميعاً هنا حول الضريح الذي ملأنه بالزينات والزخارف والألوان المبهرجة والأقمشة الحريرية والأعلام والهدايا... يهمسن ويثرثرن معاً ويحدثن "الولي" عن همومهن ومشاكلهن، ونزاعاتهن وشكواهن من الأزواج، ويبُحن أمامه بأسرارهن الخاصة في جو حميم شديد الألفة.

المزار مليء بالهدايا الغريبة التي حملنها، ساعات من جميع الأحجام، نذور وشمعدانات من النحاس والكريستال- كثيرة العدد إلى درجة أنها تحجب السقف- من جميع القياسات،

معلقة جنباً إلى جنب وكأنك في دكان لبيعها. الجدران مغطاة بقرميد مزخرف وملون الأخضر والأحمر، والأرضية مكسوة بالسجاد، والنور يتدفق عبر القبة من خلال ثلاثة أقواس بها ثلاث نوافذ، واحدة كبيرة واثنتان صغيرتان.لم يعد المكان مجرد مسجد بسيط عارٍ من الأثاث أو بيت من بيوت الله؛ بل أصبح مخدعاً للزينات -وللصلاة أحياناً- صُمم بحيث يتناسب مع ذوق هؤلاء النسوة بكل ما فيهن من صبيانية وجموح. وفي كثير من الأحيان يأتي الرجال إلى هنا لترتيب موعد غرامي أو تبادل بعض الكلمات مع النساء سراً. أما الأوروبيون الذي يتكلمون العربية فيأتون أحياناً إلى هنا لإقامة علاقة مع هذه المخلوقات المحجبة، التي تسير ببطء ولا يرى منها سوى العينيين.[30]

[30] - "غي دو موباسان": "حياة الترحال" ١٨٩٠، ص ١٣٧-١٣٩.

... أما بالنسبة لوضع النساء ...

حين ناقش الكتاب وضع النساء في المجتمعات الشرقية، كان جل اهتمامهم ينصب على تأكيد المكانة الأرفع التي تحتلها النساء في البلاد المسيحية، والتأثير العقلاني الذي تمارسه الأمومة فيها. سلّم كثير من المؤلفين بأن الأمهات المسلمات يتميزن بالرقة والحنان، لكنهم حاولوا أن يبرهنوا أن هذا الحنان لا يصاحبه ذكاء كاف من جانبهن. والنتيجة الحتمية لذلك، برأيهم، أن ملايين الأمهات السيئات ينجبن جيلاً قادماً سيزيد المجتمع الراهن وهناً على وهن.

في كتاب بعنوان "الإسلام وسيكولوجية المسلم" (١٩٢٣)، يصدر المؤلف "أندريه سيرفيه" حكما عاماً على المرأة المسلمة وقدراتها حين تصبح أماً.

النتيجة هي أن النساء في الإسلام يعاملن اليوم كما عوملت نساء المسلمين زمن الرسول. لكن ما كان يعتبر في الماضي تقدماً أصبح اليوم رجعية. المسلمة اليوم تفكر وتعمل كما كانت زوجات محمد يفكرن ويعملن. لكن لم يتبق لها من التراث سوى العادات السلفية الهمجية.

وبالمقارنة مع أوضاع النساء في الأديان الأخرى، تعتبر جارية؛ حيواناً أليفاً مترفاً، يستمتع بها الأغنياء، ويستغل جهدها الفقراء؛ المرأة المسلمة ليست سوى مخلوقة بائسة يُضحى بها لإمتاع الرجل، بعد أن حكمت عليها أنانيته أن تبقى جارية جاهلة تعيش عزلة أبدية وليس لها حتى أن تأمل في المستقبل. جهلها وهمجيتها يؤثران سلباً على الأطفال الذين تربيهم وتنقل إليهم أفكارها المتحيزة المنقرضة. فالجاهل لا يبدع إلا الجهل، والهمجية لا تنشر

سوى الهمجية، والجارية لا تلد سوى العبيد الأذلاء، بكل ما يطبع تكوينهم من استسلام ورياء وخداع وكذب. [1]

تعتبر المقتطفات التالية، التي كتبت خلال فترة تتجاوز المائة عام، نماذج صغيرة لتباين الآراء حول الأمومة في الشرق. نقابل فيها بعضاً من نفس الانتقادات للأمهات من الطبقة العاملة الأوروبية، ونفس الفشل في إدراك الأوضاع الاقتصادية والسياسية والتغيير في البلاد التي زارها هؤلاء الكتاب. النص الأخير كتبته الروائية الأمريكية الشهيرة "إديث وارتون"، تصف فيه زيارة قامت بها لأسرة من النساء. ولو أخذنا بالاعتبار عدد الروايات التي كتبتها حول نساء وقعن أسيرات زواج فاشل، أو قيود اجتماعية صارمة، لعجبنا من قلة التعاطف الذي أظهرته حين وصفت هذه الزيارة –خصوصاً وأنها لا تتكلم العربية وتعلم أنه لا يمكن أن يحدث تواصل حقيقي عبر المترجمات.

لم تقتنع نساء الشرق حتى الآن بأن الطريقة الوحيدة للمحافظة على الصبا لأطول فترة ممكنة والاستمتاع بمسرات الحياة الاجتماعية دون انقطاع، هي التخلي عن أقدس الواجبات، ووضع الثمار الثمينة لزواجهن في عهدة المربيات. لا تزال المرأة هناك تجد في ملاطفة وعناق طفلها الذي ترضعه من ثدييها أكثر متعة وحلاوة من كل متع العالم الغادر الفاسد. وإذا ما كانت طريقة حياتها أكثر بساطة وأقل صخباً، ومسراتها أقل بهجة وإثارة، فإنها تجد السلوى في هدوء الأعصاب والسكينة والصحة التي تنقلها إلى أطفالها. والحالات المرضية التي يسببها عدم الإرضاع الطبيعي مثل تورم الثديين، وترسب الحليب، التي تصيب الكثيرات في أوروبا وتُميتهن في ميعة الصبا... هذه الحالات نادرة الحدوث في الشرق.

[1] – "أندريه سيرفيه": "الإسلام وسيكولوجية المسلم"، ١٩٢٣، ص ٣٠٥.

أما في الحالات الاستثنائية التي تفقد فيها المرأة حليبها وتضطر لاستخدام مرضعة لطفلها، فإنها تحضرها إلى المنزل وتعاملها كما تحب أن تعامل هي. وبغض النظر عما إذا كانت مسلمة أم مسيحية، فإن هذه المرضعة لا تتخلى أبداً عن الطفل الذي أرضعته من صدرها، بل تستمر في إرضاعه وتحيطه بحنانها كأمه تماماً. لأن الطفل والأبوين سيظلون مدينين لها طول العمر. وفي الحقيقة فهي ستصبح جزءاً من العائلة وتعامل باحترام وتعتبر بمثابة أم ثانية.[٢]

...إذا أخذنا بالاعتبار أن عدد سكان تركيا يتناقص كل سنة، كما هو الحال دائماً في جميع البلاد التي تديرها حكومات فاسدة؛ والأمر هنا أشد خطورة، بسبب تعدد الزوجات من جهة، والنسبة المرتفعة من وفيات الأطفال من جهة أخرى، (نساء الحريم اللاتي أنجبن مرة أو اثنتين، ومللن الحمل والولادة- كما يحدث ذلك مراراً خصوصاً حين تكون المواليد من البنات- لا يشعرن بالإثم عندما يجهضن أنفسهن)، وقد عرفت شخصياً أميرات يتركن أطفالهن وهم على شفا الموت في عهدة المربيات المسلمات لمدة أسبوع كامل، في حين يقمن بزيارة صديقاتهن- أقول إذا أخذنا بالاعتبار كل هذا، ألا يكون من الطبيعي أن نسأل،هل يمكن لآمال المستقبل أن تُعقد على الأغصان الفتية والجذور النضرة، حين يكون لب الشجرة قد فقد كل قدراته الحيوية؟!![٣]

جميع الأمهات التركيات ومعظم من الأرمنيات من الطبقة الدنيا يعطين أطفالهن جرعات منومة قوية، تتألف عادة من الأفيون أو الخشخاش؛ حتى بلغت درجة تعسفهن حداً يبقين فيه الأطفال في حالة من الخدر الدائم، يكون فيها الطفل شاحباً، عيناه نصف مفتوحتين، وحدقتاه متشنجتان، وشفتاه متباعدتان وجافتان، وقد

[٢] - "جي.ايه.اوليفيه": "رحلة في الإمبراطورية العثمانية"، ١٨٠٠، الجزء الأول، ص ١٠٢-١٠٣.

[٣] - "إيميلين لوت": "حياة الحريم في مصر والقسطنطينية"، ١٨٦٥، الجزء الثاني، ص ٣١٠-٣١١.

ارتسمت على وجهه تعابير مبهمة؛ وتبلدت حركاته؛ وتبدو حالته في تناقض واضح مع حيوية الطفل الأوروبي الذي يتمتع بالصحة والعافية دوماً. [٤]

لا يتعلم الطفل المسلم شيئاً، لا في البيت ولا في المدرسة. يمكن أن يعينه في حياته المقبلة. ومما يزيد الأمر سوءاً أنه في تلك السنوات المبكرة التي يمضيها في البيت، والتي يجب أن تُزرع فيه خلالها بذرة السلوك المبدئي الذي يميز مسيرة الرجال في الحياة إذا ما أرادوا أن يكون لأمتهم شأن بين الأمم المتحضرة، في هذه المرحلة يبدأ الطفل التركي تعلم العادات الخبيثة التي يدمنها عقله وجسمه وتؤدي إلى الحالة التي تعيشها أمته الآن. إن جزءاً من جذور الشر يكمن في نظام الحريم. وطالما يُبقي هذا النظام النساء التركيات في حالتهن المخزية الراهنة، سيظل الأولاد والبنات في تركيا أشراراً وجهلة .لا تملك الأمهات التركيات أدنى سيطرة على أطفالهن، بل يتركون ليفعلوا ما يحلوا لهم، ويتعلموا العصيان والتمرد والاستبداد بشكل لا يُطاق ولاحظت في مرات كثيرة أولاداً يسيئون معاملة أمهاتهم وينهالون عليهن بالسباب والشتائم وحتى الضرب. والأمهات لا يستطعن كبح جماحهم ولا يملكن من رد سوى ذمهم بألفاظ نابية، أو، حين يسيطر عليهن حنان الأمومة، يتساهلن معهم متحليات بالصبر قائلات: "طفل بريء جاهل، لا يدري ما الذي يفعله [٥].

في هذا الفصل من السنة تمتلىء الحقول بالحياة والمرح، ويستمتع المرء برؤية مناظرها الجميلة وسماع أغنيات الفلاحين وهم يعملون فيها. الرجال بأجسادهم المتينة، والنساء والفتيات بملاحتهن وجمالهن، حيث يخرجن سافرات أغلب الأحيان. لكن أكثر المناظر جمالاً في وادي النيل هو منظر الأولاد والبنات الذين يلعبون عراة تماماً حتى سن الخامسة تقريباً –بأجسادهم السمراء الصغيرة

---

[٤] – "ابنة القنصل وزوجته": "الناس في تركيا"، ١٨٧٨، ص ١٠.

[٥] – "ابنة القنصل وزوجته": "الناس في تركيا"، ١٨٧٨، ص ١٥٣-٤.

المحببة. أما منظر الأطفال الرضع في أيدي أمهاتهم فهو أقل متعة، إذ يحملنهم عادة على الأكتاف، ونادراً ما يكونون نظيفين. وكثير من النساء يتركن أطفالهن في المنزل بمفردهم حين يذهبن للعمل. والرحّال الذي يتجول خلال موسم الحصاد في أزقة قرى الفلاحين التي هجرها سكانها وتركوها بحراسة الكلاب الجربة، يصادف أكثر من مهد لطفل رضيع في العراء. وقد شاهدت بنفسي رضيعاً يرفس الهواء برجليه الصغيرتين وهو ملقى على بساط صغير فوق كومة من أعواد الذرة وسط الحقل، وليس حوله أحد سوى كلب صغير لحراسته، ولا تمر فلاحة قربه إلا وتعطيه رضعة من صدرها. ولا شك أن أمه ستأتي في الوقت المناسب لأخذه. [٦]

على صيحات الطيور المدارية الحادة ونشاطها المحموم انتظرنا طويلاً كي يقدم لنا الشاي لكن دون جدوى؛ وبعد قليل اقترح مضيفنا على ابنه أن أدخل لزيارة سيدات العائلة. وكما توقعت قادني الشاب عبر الفناء وهو يرفع الستائر القطنية حتى ولجنا غرفة تشبه تماماً تلك التي كنا فيها للتو. كانت الأرائك فيها مغطاة بقماش مخطط ومصفوفة بمحاذاة الجدران البيضاء، وقد جلست عليها سبع أو ثمان نساء بهدوء وصمت وعدة أطفال شاحبي الوجوه يزحفون فوقهن.

كانت أكبر النساء سناً في المجموعة، سيدة جزائرية في الخمسين من عمرها يبدو أنها ربة المنزل. وجهها حزين ولطيف الملامح، والباقيات كن بناتاً أو زوجات أبناء أو محظيات. قد تستحضر كلمة محظية في المخيلة الغربية تداعيات من الإغواءات الجنسية التي نادراً ما يفهمها الحريم في المغرب. كل السيدات في هذه العائلة الجليلة عليهن نفس سيماء المهابة والكآبة، ويبدون في الغرفة التي تغطيها الستائر كالأزاهير التي تنمو في المخازن المغلقة بكل مافيهن من شحوب ورصانة وامتلاء، لكنها أضعف من تلك التي تنمو بحرية في البساتين.

---

[٦] - "جي.ايبرز: "مصر من النواحي الوصفية والتاريخية والمنظرانية": ١٨٩٨، الجزء الثاني، ص ١٩١.

كانت ملابسهن فاخرة لكنها وقورة ورزينة، أما الأحجبة والأكاليل التي لبسنها على شرف زيارتي فكانت رصينة لكن يعوزها الذوق وعلى تناقض غريب مع طيش وعبث "الحريم الملكي". و ما فاجأني بصورة كبيرة هو اللامبالاة التي تظهرها الشابات من هؤلاء النسوة. سألتهن عما إذا كلن لديهن حديقة، هززن رؤوسهن بحزن قائلات بأنه لا يوجد حدائق في فاس القديمة، والسطح هو المتنفس الوحيد؛ وهو يشرف على مساحات واسعة من الأسطح العديدة المتلاصقة تحيط بها الجبال الحصينة الجرداء التي تقف شامخة حول مدينة فاس كأسوار السجن.

بعد تبادل عبارات المجاملة، خيم الصمت على الجلسة. الحوار من خلال المترجمات يظل عملية صعبة، وهنالك القليل من نقاط الاتفاق بين الفكر الغربي المتفتح وهذه الكائنات التي ترزح تحت القيود الأسروية والجنسية لحياة تقوم أساساً على خدمات الجواري وتدبير المكائد. السيدة المغربية كسولة، متبلدة الذهن، تمضي أيامها، كهؤلاء النسوة، مستلقية على وسائد "الموسلين" لاتعمل شيئاً، لاتكدح وحتى لاتغزل الصوف، ولاتعرف سوى القليل عن الطبخ أو التطريز أو أيٍ من فنون التدبير المنزلي. وحين يكون طفلها مريضاً لاتفعل شيئاً سوى تعليق الأحجبة والتعاويذ على جسده والعويل عليه؛ والسيدة الأولى في قصر فاس على نفس جهل الفلاحات فيا يتعلق بالقواعد الصحية. وكل هذه الحياة الخالية من المعنى والحدث تعتمد على رضى رجل واحد بدين ومستبد، ثمل بالتسلط والعيش الرغيد، وعلى نفس القدر من العطالة والكسل اللذين تتميز بهما نساؤه حيث تعوّد أن يفرض عليهن نزواته منذ أن بدأ يطوف أرجاء الفناء في منزله طفلاً صغيراً مدللاً. لكن ما يعوض على ركود الحياة العائلية تلك هو الحنان الذي يبديه الآباء تجاه أطفالهم. وقد شدّد الكتّاب الغربيون كثيراً على هذا الأمر لدرجة يظن فيها المرء أن الأبوين الجاهلين الكسولين وحدهما القادران على إعطاء الطفل الحب الحقيقي.في الواقع، فإن مما يدخل السرور إلى القلب رؤية الأب المغربي وهو ينظر بعينين كسولتين تشعان فجأة ببريق الحنان والحب إلى طفله الأسمر الذي يثب كالفراشة في أحضانه، والرقة والعطف الصادقين اللذين تظهرهما النساء العاقرات في "الحريم" حين

يلاطفن أطفال منافساتهن الأسعد حظاً. لكن الكاتب العاطفي الذي تحركه هذه المشاعر العائلية يجب أن يأخذ بالاعتبار حياة هؤلاء الأطفال المساكين، فالجهل والمرض ومعرفة الأمور الجنسية في سن مبكرة، كل هذه الأمور تسيطر بشكل كبير على جميع الطبقات الاجتماعية.

التعليم مثلاً لا يتعدى حفظ مقاطع لانهاية لها من القرآن عن ظهر قلب، والتسلية تكون في حضور حفلات ومشاهد لا يفهمها الأطفال الأوربيون، لكن هزل "الحريم" يجعل المغاربة يفهمونها بشكل تام. في الثامنة أو التاسعة تتزوج الفتاة، في سن الثانية عشرة تقدم للولد "الزنجية الأولى"؛ ومنذ ذلك الحين يعيش الأولاد والبنات من الطبقة الغنية المترفة حتى سن متأخرة في جو يعبق بالشهوة الجنسية دوت أن يكون أمامهم ما يغوي بها.[٧]

في كتابه حول المؤسسات الدينية والمدنية والعسكرية في الإمبراطورية العثمانية الذي صدر عام ١٨٢٥، يقول "ام . غراسي" عن أوضاع النساء في تركيا وأوروبا:

في تركيا تملك النساء ميزتين لا تملكهما الأوروبيات اللاتي يعملن مثل أزواجهن وأكثر، في الحقل أو في المجالات الأخرى من أجل المساهمة في تحمل أعباء الأسرة. أما في تركيا وباقي البلاد الإسلامية فيتحمل الرجل وحده هذا العبء، وإذا لم يقم به بشكل معقول تبعاً لمكانة الزوجة الاجتماعية، فلها الحق في إنهاء الزواج، والمزية الثانية هي أن الزوج هو الذي يقدم المهر للعروس

---

٧ - "إديث وارتون": "في المغرب"، ١٩٨٤،(ط .أ.، ١٩٢٠)، ص ١٥١- ١٥٣.

والهدايا لعائلتها بما يتناسب مع مكانتها وغناها بدلاً من أن تقوم هي بدفع "الدوطة" له. هاتان المزيتان ليستا على قدر ضئيل من الأهمية. والعكس صحيح بالنسبة لنسائنا الريفيات عموماً، اللاتي يرهقهن العمل المضني في الحقول خصوصاً في أوقات الحصاد. أما بناتنا الجميلات المرغوبات من جميع النواحي، فلا يجدن في كثير من الأحيان زوجاً مناسباً بسبب عدم توفر المال الكافي لتقديم "الدوطة" أو بسبب الأفكار المتحيزة التي يعززها التباين في الأوضاع الاجتماعية[8]

وفي حين أن "غراسي" على حق بأن النساء الأوروبيات يحملن أعباء العمل الزراعي الشاق، إلا أنه أخطأ تماماً حين اعتبر أن المسلمات لا يفعلن ذلك. أما أراؤه حول تباين المزايا التي تتمتع بها النساء في البلاد الإسلامية والمسيحية فهي تعبر بوضوح عن وجهة نظر ذكورية حول الموضوع .

في عام ١٨٢٢ نشر "الفيكونت دو سيفور" كتابه ذا الثلاثة أجزاء حول النساء؛ أوضاعهن وتأثيرهن على النظام الاجتماعي – في كل المجتمعات عبر التاريخ. ويعدّ كتابه نداءً من أجل زيادة حقوق المرأة حتى تصبح أفضل حالاً كزوجة وأم. وقد اقتطفت هذا النص القصير لأنه يشكل رداً على مناظرة "لمونتسكيو" زعم فيها أنه لو لم تعش النساء المسلمات في عزلة خلف الأسوار لكن عرضة للاغتصاب.

إن أي دولة لا تعطي نساءها المكانة الاجتماعية التي خصتها بها الطبيعة تكون أبعد عن الحضارة من المتوحشين. لأن هؤلاء إذا لم يحترموا نساءهم فعلى الأقل لا يلقون بهن في غياهب السجون. من العجيب أن يبرر "السيد مونتسكيو" هذه الممارسة الإسلامية بالقول إن

[8] – "ام.غراسي": "القانون التركي"، ١٨٢٥، الجزء الثاني، ص ٢٣-٢٤.

البلاد التي تعيش فيها النساء بعزلة يكون تأثير الجو المناخي على العواطف شديداً لدرجة أن في إعطاء النساء حريتهن يصبح من المستحيل تفادي الاعتداء على عفتهن، كما يستحيل عليهن مقاومة مثل تلك الاعتداءات.ألا تتحقق العدالة أكثر لو سُجن المعتدون؟ بدل الضحايا.[٩]

يتألف القسم الأكبر من بقية هذا الفصل من نصوص يهيل كتابها المديح على المكانة التي تحتلها المرأة في الغرب. النص الأول كتب عام ١٨٥٤، كان مؤلفه واضحاً تماماً في القول بأن المسيحية هي وحدها القادرة على وضع "البنات المسلمات واليهوديات والوثنيات" في المكان اللائق بهن في المجتمع، كما شجع المسيحيات على "تسويق" ديانتهن في العالم.

بين كل الأمم، وعبر جميع العصور، كان هنالك المزدرون بالجنس اللطيف والمدافعون عنه. لكن المسيحية وحدها التي أعطت المرأة مكانتها السامية التي تستحقها بجدارة. لا زالت هناك شواهد باقيات من أدب الأمم السالفة والمتحضرة تتضمن ما يلي: إن احتمال وجود الحكمة بين النساء ضعيف جداً كاحتمال أن يصعد الحمار سلماً. وقيل بأن سقراط قارن بين عالم النساء وعالم البهائم. وقوانين "سيثيا" تحرم أخذ شهادة النساء نظراً "لطيشهن، وتحيزهن وحقدهن". إلى مثل هذا الدرك الأسفل وصلت المرأة التي خلقت مساوية للجنس الآخر في المرتبة والاحترام والمنزلة؛ وبقيت على تلك الحالة إلى يومنا هذا في البلاد التي لم ينفذ إليها نور "الإنجيل" حتى الآن . فكم من المهم إذن أن تبذل المسيحيات قصارى الجهد لنشر هذا الدين بين الأمم؟ هذا الدين الذي انتشلهن من ذلك الوضع المهين وأعاد لهن المكانة الأصلية التي

---

٩ - "الفيكونت جي.ايه.دوسيفور": "النساء"، ١٨٢٢، الجزء الأول، ص ١٦٨-١٦٩.

خصّهــن بهــا رب الخليقــة! إن البنـــات المســلمات واليهوديـــات والوثنيـــات يســـتنجدن بهن.

كم يختلف الخطاب الديني المسيحي حين يشير إلى بنات حواء، عن لغة الفلاسفة الوثنيــين أو أحبار اليهود أو علماء المسلمين؟ يقول "د. كروس" في كتابـه الرائـع "فيزيولوجيـا الطبيعـة البشرية": "المرأة هي المبدع الحقيقي -بعد ا لله- للشخصية الذاتية وللشخصية القوميــة علـى وجه الإجمال؛ لأن مصير الأمة، بالقدر الذي تصـل إليـه المصلحـة الإنسـانية هـو في الحقيقـة أمانـة في عهدة الأجيال المتلاحقة من النساء. فأعضاء مجلـس الشـيوخ، مثـلاً، يضعـون قوانـين الأمة، ورجال الدولة يوظفون مواردها القومية، والجامعـات تخلـد علومهـا ومعارفهـا؛ لكـنْ بنساء الأمة فقط تتطور صفاتها الأخلاقيـة: و مثلمـا يتشـكل الإنسـان مـن فكـر ووجـود مـادي كذلك فإن مقومات البشر الأخلاقية، وليس موقعهـم الجغـرافي ولا علاقـاتهم السياسـية، هـي التي تصنع منهم أمة في عيون ا لله الذي يحكم ويحاكم.

فكم هو فادح خطأ الرجل،وكـم يكـون سـطحياً في حكمـه علـى مكانـة المـرأة في العـالم حـين يتصور أن لا شيء تحتاجه تلك المكانة لتتساوى المرأة مع الرجل. في الحقيقة إن أولئك الذين لا يجدون في أنفسهم المبادئ الأخلاقية ثابتة الأركان، فأنهم سيبخسون قدر المرأة، ويخطئـون في تقديـر أهميـة شـخصيتها ورسـالتها. وقـد يكـون لـلرجل ومؤسسـاته التعليميـة مهمـة بنـاء التركيبة الاجتماعية على أكمل وجه، لكن تظل المرأة وحدها التي تضـع حجـر الأسـاس لتلـك البنية التي تتربع هي -دون شك- على قمتها. وفي البلاد التي تكون فيها المرأة جاهلة لا تقرأ ولا تكتب؛ حيث لا يتعهـد أحـد فكرهـا بـالتهذيب والرعايـة؛ وحيـث تنحصـر اهتماماتهـا وملكاتها العقلية ضمن حـدود الأزيـاء والزينـة وطهـي الطعـام؛ وحيـث تكـون باختصـار، في مستوى عالم البهائم، ـ"حيواناً ضرورياً ومفيداً" لن نعجـب عندهـا إذا مـا سـيطرت علـى عقلها الخرافات والأوهام.[١٠]

---

[١٠] - "القس.ان. ديفيس": "أمسيات أمضيتها في خيمتي"، ١٨٥٤، الجزء الثاني، ص ١٨-٢٠.

في نفس الفترة كانت "فلورنس نايتنغيل" تزور مصر. وفي الرسالة التالية، لم يكن لديها ما تقوله في صالح البلد سوى الإشادة بتاريخه! أما بالنسبة للنساء فقد ادعت بأنهن كم مهمل لا قيمة لهن ولا يملكن أية مزايا!

وفيما عدا الماضي لا يوجد في مصر ما يستحق العيش فيها لأجله. لو رأيتم سكانها! كل تصوراتي حول تعدد الزوجات أصبحت هنا واقعية؛ والغرابة في اعتقادي الآن لا تكمن في أن النساء سيئات، لكنها تكمن في أنهن لسن أشد سوءاً -فتعدد الزوجات يدمر كل ما في المرأة؛ كيانها ذاته! فهي ليست زوجة وليست أماً؛ وفي هذه البلاد الشرقية ماذا يبقى من المرأة إذا لم تكن أياً منهما؟ في جميع البلاد الأخرى تجد المرأة ملجأ تعود إليه؛ فالمرأة الكاثوليكية لديها دين تؤمن به، والبروتستانتية لها ذكاؤها وعقلها؛ وفي المرحلة المبكرة للمسيحية، وعند المصريين القدماء كان للمرأة رسالة ومهنة وحرفة مستقلة عن واجبها كزوجة، خصها معتقدها بها؛ أما هنا فهي ليست سوى خادمة للرجل.

لا، ليس هذا فقط، فأنا أؤكد لكم أن أنثى الفيل مثلاً، أو أنثى النسور تملك تصوراً اكثر سمواً للمهمة الملقاة على عاتقها في هذا العالم مما تملكه الأنثى البشرية التي تعيش هنا. ما عرفت ديناً من الأديان، قديماً كان أو حديثاً، إلا ووجدت فيه بعض المناقب التي أتعاطف معه من خلالها. لكن هذه المناقب قليلة جداً في الإسلام. [١١]

"مابل شارمان كروفورد" تحمل آراء مشابهة حول النساء الجزائريات. وفي النص الأول تعتمد في رأيها هذا على اختيار "الضمائر الشخصية" من قبل رجل دعاها لزيارة عائلته. وفي النص الذي يليه توصي نفس الكاتبة النساء المسلمات باعتناق المسيحية ،

---

[١١] – "فلورنس نايتنغيل": "رسائل من مصر"، ١٩٨٧، (ط.أ.، ١٨٥٤) ص ١٣٩.

متجاهلة تماماً الوضع المخزي لكثير من المسيحيات في الغرب وفي الشرق.

المرأة المغربية المسلمة، من المهد إلى اللحد، ليس لها وجود معترف به في العالم، خارج دائرة بيتها وصديقاتها. فهي تحيا وتموت دون أن يدري بها أحد. لا يأتي زوجها على ذكرها حتى أمام أقرب أصدقائه؛ ورغم أن صديقاً له يعلم من خلال قريباته أن زوجته مريضة وبدرجة الخطر، لكنه لا يجرؤ على السؤال: "كيف حال زوجتك؟"، أو "آمل أن تتحسن صحة زوجتك"، دون أن يتهم بخرق قواعد اللياقة والأدب، وليس من المستبعد أن يوبخ على ذلك بجواب مليء بالسخط مثل "لا شأن لك بصحة زوجتي، وليس من حقك الاهتمام بوجودها". و فيما عدا استخدام التعابير الشاملة مثل، "كيف حال العائلة؟" أو "كيف حال البيت؟"، "كيف حال الأهل؟"، فكل الاستفسارات التي لها علاقة بصحة النساء من أهل بيت الرجل المغربي تعتبر إهانة له.إن الصرامة في تطبيق قواعد السلوك المتعلقة بهذا الموضوع تمثلت بشكل صارخ أمامي في الصيغة اللغوية التي استخدمها صاحب أحد المقاهي المحلية حين دعاني يوماً لزيارة زوجته التي تسكن "فيلا" في الجوار. فلو كان بمفرده لقال مباشرة: "سيكون من دواعي سرور زوجتي أن تزوريها"؛ لكن حقيقة كونه في المقهى وسط عشرات الزبائن، جعلته يكتفي بالقول:

"سيكون من دواعي سرورهم استقبالك في منزلي، فهل ترغبين بذلك؟" [١٢]

كانت السيدة "ألبرت روجرز" مسيحية متطرفة لكنها معادية بشدة للكاثوليكية، ومما يثير سخطها بشكل خاص أن الفرنسيين في الجزائر لم يقوموا بهداية السكان المسلمين إلى الدين المسيحي. وحين كانت تطوف أرجاء البلاد كانت توزع الكراسات الدينية ونسخاً من "الإنجيل" لكل من يقبلها. في الفقرة التالية تندب حياة "هؤلاء الفاسقين".

---

[١٢] - "مابل شارمان كروفورد: "عبر الجزائر"، ١٨٦٣، ص٥٣-٥٤.

قابلت اليوم كالمعتاد جماعات من النساء العربيات عندما كنت في حدائـق "مـارينو". هـؤلاء المخلوقات المسكينة المحجبة- اللاتي يغطي الحجاب عقولهن كما يغطي أجسادهن - مكبلات بقيود لن يستطعن التخلص منها إلا بعزيمتهن. كم يندب المرء حظهن، وكم يتمنى لو يستطيع الوصول إليهن! لكن مع عدم معرفة اللغة العربية يصبح ذلك الأمل غير ذي جدوى. منظرهـن في كل خطوة يخطينها يذكر بكتـاب "الأنسـة ويتلـي"، "حيـاة التعاسـة في مصـر". وددت لـو استطعنا استخدام مسيحية تتحدث العربية. معظمهن يبـدون فقـيرات، بائسـات، معوقـات، خائفات وقذرات؛ وأنا متأكدة، بقـدر مـا أسـتطيع إدراكـه مـن لغـة النظـر الصامتـة، بـأنهن سيرحبن وكلهن امتنان بأية زيارة نقوم بها لمنزلهن. مـن النـادر أن يمـددن أيديهـن المخضبـة بالحناء طلباً للصداقة، وحين يفعلن ذلك، يسيطر الهلع والرعب على لهجتهن المتضرعة.

قليلة هي الأوضاع التي تشبه في تعاسـتها المطلقـة أوضـاع النسـوة العربيـات الفقـيرات، ولا يستثنى من ذلك العبيد في أمريكا. أما بين الأغنياء فإن الحياة المخزية تقتصر علـى النـاحيتين الفكرية والأخلاقية. يضاف إلى ذلك بين الطبقات الفقيرة أن الزوج يحمل زوجته كل ما يمكـن تصوره من أعباء. وبقـدر مـا يسـتطيع يعيـش حيـاة فـراغ وكسـل كسيد مـن أسـياد الخليقـة. الأكثرية الساحقة مـن النسـاء العربيـات يتحملـن بمفردهـن أعبـاء جـني المحصـول، وطحـن القمح، وعجن الخبز، وإذا ما تطلب الأمر صنع ثوب مثلاً، فالمرأة هي التي تنسـج قماشـه مـن ألياف الصبر والنخـل. وإذا مـا تعطـف سـيدها ورضـي أن يعـرض الحصـر والسـلال للبيـع في السوق، فالمرأة هي التي تصنعهـا، وإذا مـا كـان غنيـاً بمـا يكفـي لامتـلاك دابـة، فهـي الـتي تسوسها وتطعمها وتعتني بها وتسرجها حين يود السيد ركوبها. وإذا ما أرادت الأسرة شراء حاجياتها وحملها من المدينة، فعلى رأسها المطيع يقع حملها الثقيل، بينمـا لا يكلـف السـيد نفسه حتى مشقة لمسها بإصبعه.

هذا بالإضافة إلى طفلها الذي لا يفارقها عـادة، تحملـه علـى كتفيهـا أو ظهرهـا عندمـا لا تكون يداها فارغتين. ومع أن من واجبها تحضير طعام الأسرة الهزيل، إلا أنها لا تجرؤ علـى

مشاركة زوجها طعامه، وبالحب الذي تضفيه على المنزل، تجعل حتى من كسرة الخبز اليابسة طعاماً هنيئاً شهياً. لا، عليها أن تنتظر واقفة قرب زوجها حتى يشبع، حيث يمكن لها بعدئذ أن تستمتع بالفتات. ولا تجد العزاء والسلوى حتى في حنان الأمومة. فلو كان نسلها من البنات، فعليهن الإسراع في مشاركة أمهن كدحها المضني، وإن كان من الصبيان، فسرعان ما يصبحون أسياداً متعالين عليها، إن لم نقل طغاة يستبدون بها حتى قبل بلوغهم مبلغ الرجال، ولا تستطيع بعد ذلك أن تجلس معهم على نفس المائدة عندما تسمح لهم سنهم بمشاركة الوالد واجباته. المسيحية وحدها التي تحطم تلك الأغلال، وتنتزع الحجاب عن هذه المخلوقات المسحوقة الذليلة: ولا توجد قوة أخرى قادرة على إنقاذهن! [١٣]

"ايزوبل بيرتون" روت لقرائها حواراً دار بينها وبين مجموعة من النساء السوريات حول الحياة المختلفة التي تعيشها المرأة في الشرق وفي الغرب. وقدمت صورة مثالية للزواج في الغرب تضمنت قائمة مدهشة من الواجبات الزوجية.

أنتن مخطئات.استمعن الآن لما أريد شرحه.أسلوبنا في الحياة مختلف تماماً عن أسلوبكن. فقد تعودت النساء هنا على العيش معاً داخل البيت معظم الوقت، في مكان ثابت. والحياة تعتبر فشلاً ذريعاً في نظركن دون وجود الأطفال. أنتن ثلاث أو أربع زوجات.
و "السيد" يحترم تلك التي تنجب أولاداً أكثر؛ لماذا؟ لأن أسلافه تبعاً للقوانين القديمة التي ما زالت سارية حتى اليوم، لم يكن بمقدورهم "مواجهة أعدائهم أمام بوابة البيت الخارجية" دون مساعدة أبنائهم الشجعان، وأحفادهم، وإخوتهم، وأعمامهم وأبناء عمومتهم. وباختصار، فالعائلة التي تملك أكبر عدد من الرجال المقاتلين تكون أكثر مدعاة للاحترام،

---

[١٣] - "مسز جي. البرت روجرز": "شتاء في الجزائر ١٨٦٣-١٨٦٤"، ١٨٦٥، ص ٥٨-٥٩.

ولها شأن أكبر في بلدتها أو قبيلتها. ولهذا يختار الرجال زوجات يستطعن إنجـاب الأطفـال، ويصبون جام غضبهم على أولئك اللاتي لا ينجبن.

أما الرجل عندنا فيتزوج امرأة واحدة، والعائلة تتكون عادة مـن سـتة أو ثمانيـة إلى عشـرة أطفال، وقد رأيت بنفسي امرأة ترضع طفلها الرابع والعشرين! (همهمات وصيحات استحسان عالية و.. "ما شاء ا لله"!). فالأولاد هبة من عند ا لله، إذا أرسلهم نحمد فضلـه، وإذا منعهـم نقنع بمشيئته، لأننا نعلم ان قضاءه رحمة بنا، يصيبنا لحكمة يعلمها . الـزوج الإنكليزي لا يطلق زوجته مهما كان السبب، فهي تشعر بالأمان من هذه الناحية. وقد يـتزوج بعـد موتهـا لكنه لا يفعل ذلك أبداً في حياتها. أنا ـكزوجةـ لا أفكر بالغيرة مطلقـاً،وليـس مـن عاداتنـا أن يهتم "سيد البيت" بجواريه، أو بأحد آخر ماعدا زوجته... نحن نجتمع معاً، رجـالاً ونسـاءً على حد سواء. ففي بلاد "الفرنجة" لا تتحجب الفتيات: إذ يقابلن الشبان في مـنزل والدهـن. نحن لا نفرق بين النساء ما عدا تلك التي ينوي الشاب الـزواج منهـا، حيـث يقـول في نفسـه: "عليّ أن اختار امرأة أعيش معها كـل حيـاتي، أحبهـا وأحترمهـا واعتمـد في كـل شـيء علـى تعقلها، وأشعر بأنها الوحيدة التي أرغـب طوعـاً بقضـاء أيـامي معهـا". ثـم يذهـب إلى الفتـاة ويطلب الزواج منها. وإذا ما قالت "لا" ينتهي الأمر هنا ولا يعلم به أحد مطلقاً. أمـا إذا قـالت "نعم" فيذهبان إلى أهلهما ويسألانهم مباركة الزواج. بعدها يوافـق الأهـل ويباشـرون الإعـداد لمراسم الزفاف. ثم تعلن الخطبة، ويملك الخطيبان الوقت الكـافي قبـل الـزواج لمعرفـة مسـاوئ ومحاسن الطرف الآخر، والحياة التي سوف يقدمان عليها.

"ما شاء ا لله! وما الذي يحدث بعد ذلك؟"

تبـذل المـرأة قصـارى جهدهـا لتبـدو جميلـة وأنيقـة كعهدهـا قبـل الـزواج؛ وهـي تحـب زوجهـا، وتحترمـه إلى أقصـى حـد، وتجعـل بيتـه مشـرقاً ومريحـاً- وحتـى لـو كـان فقيراً، تحـاول ألا تظهـر الفقـر أمـام أصدقائـه؛ وتقـوم دومـاً علـى خدمتـه، وتعمـل مـا تسـتطيع لإسـعاده، كمـا يجـب عليهـا أن تثقـف نفسـها، حتـى تقـدر أن تكـون لـه

مرافقة، وصديقة، وناصحة، ومؤتمنة على أسراره، ولا يفوتها شيء في المنزل، وتبحث عن كل ما يرغّبه في زوجته، وبذلك لا يلتمس ما يريد خارج البيت؛ يجب أن تكون ممرضة حريصة على صحته حين يصيبه المرض؛ وبذلك يزول قلقه؛ ويجب أن لا تبذر أمواله بلا فائدة وبدون وجه حق؛ وعليها أن تهتم بجميع ميوله وتدرسها؛ كما وعليها ألا تبوح بالأمور العائلية الخاصة أمام جميع صديقاتها، وعليها أيضاً أن تنتبه لألفاظها كي تظل مهذبة ولأفعالها كي تكون رقيقة. كما كانت تفعل قبل الزواج؛ وعليها أن تغطي على أخطائه أمام الآخرين؛ وتقف إلى جانبه في أوقات المحن والصعاب؛ ولا تسمح لأحد بإهانته أمامها. أو بإخبارها أي شيء عنه أو عما يفعله؛ وألا تجرح مشاعره بملاحظة خشنة أو دعابة فظة؛ ولا ترد عليه حين تكون مخطئة. ولا تعنفه عندما يكون هو المخطئ؛ ولا تلح في السؤال حول أي أمر لا يتطوع هو بإخبارها عنه؛ ولا تزعجه بالترهات، بل تحتفظ بالأخبار السارة لحين عودته إلى المنزل، وتكون عندها في أفضل حالاتها. وفوق كل هذا يجب أن تحضّر نفسها لتلبية كل متطلبات متعه الجسدية. إن الزوجة التي تتبع هذه النصائح لن تطلق أبداً؛ ولن تكون بحاجة للحماية من "العين الشريرة"، أو أن تفتش عن "شراب الحب" أو تطلب التعاويذ والرقى وأحجبة "المشايخ". عندئذ لن يستطع زوجها الاستغناء عنها؛ ولسوف يحبها ويعرفها كما يعرف ذاته. سوف يصغي لها وحدها، ولن يبحث أبداً عن زوجة ثانية. [١٤]

أقحم "ادوين دو ليون" في روايته "اسكاروس القبطي" حواراً يدور بين زائرة أمريكية تدعى "اديت"، وبين قبطي مصري. والحوار يوضح أن الاختلاف في أوضاع النساء في الشرق والغرب منشؤه العادات أكثر من الدين.

---

[١٤] – "ايزوبل بيرتون": "الحياة من الداخل في سوريا وفلسطين والأراضي المقدسة"، ١٨٧٥، الجزء الأول، ص ١٥٤–١٥٨.

خلال هذا الحوار المرتجل. كانت "اديت" تسأل والقبطي يجيب. وقد دهشت الشابة الأمريكية حين علمت بدرجة الاختلاف الشاسع والتناقض المطلق بين آراء النساء في الشرق والغرب حول الأدب والاحتشام والمتع والملذات. لأن المسيحي الذي يقطن الشرق،ورغم اختلاف دينه عن المسلمين، فإن حياته تحمل الكثير من العادات والأخلاقيات الوثيقة الصلة بتقاليد الأتراك المميزة وأحكامهم المتحيزة، خصوصاً فيما يتعلق بقيمة المرأة وطريقة التعامل معها.

تحتل المرأة بينهم جميعاً مكاناً ثانوياً- لا تعتبر نداً أو شريكاً، بل مجرد دمية يُستمتع بها في بيوت الأغنياء- وأعلى بقليل من مرتبة الخادمة في عائلات الطبقة الوسطى. فزوجة القبطي، أو الأرمني أو السرياني، أو المسيحي اليوناني، تُحضر بيديها المرطبات، وبعد خدمة الزوج وضيفه بصبر وخضوع، تنسحب بهدوء أو تجلس في إحدى زوايا الغرفة. ولا تتوقع أن يخاطبها أحد أو أن تأخذ دوراً في الحديث. وإذا ما تحدث إليها أحد، تنظر إلى زوجها في انتظار أن يجيب عنها؛ ويبدو عليها الارتباك والهلع، ولهذا لا يجرؤ الضيف مهما كان حسن النية أن يكرر عبارته مهما كانت مهذبة. عندما تسافر هؤلاء النسوة لا ينسين الحجاب أبداً، ويعتبر الأمر إطراءكبيراً حين يسمح للضيف الغريب، حتى في المنزل، أن يلمح وجه إحدى النساء العازبات. [١٥]

قام "دوق دو هاركور" بثلاث رحلات إلى مصر كان آخرها عام ١٨٨٩، وكان الدوق عيّاباً جداً لكل مايراه، وحاول أن يبرهن على أن غياب اسم العائلة عند بعض المجتمعات الإسلامية له علاقة بغياب الروابط الأسرية في المعنى الواسع للكلمة. أما حقيقة كون ثروة الزوجة تبقى ملكاً لها خلال الزواج وتدار بواسطة الشقيق وليس الزوج أو أي قريب آخر من الرجال، كما يحدث في الغرب، فهي تعني، كما يقول: أن الأسرة كما نعرفها ليس لها وجود في الشرق. وبعد أن يثبت هذا يتابع قائلاً:

---

[١٥] - "ادوين دو ليون": "اسكاروس القبطي"، ١٨٧٠، ص ٥٦-٥٧.

إن غياب العائلة كمؤسسة قائمة بذاتها يعني أن الثروة ليست ثابتة؛ ففي جميع البلاد الأخرى يكون ضمان الثروة وثباتها أنها نتيجة لجهود أجيال عديدة متتابعة؛ لكن الكثير من الاعتبارات الأخرى تتدخل هنا، وأهمها الدور العقيم الذي أعطته التقاليد للمرأة. أخبرني رجل أوروبي يعمل كاتباً للعدل أنه رأى العديد من العائلات التي كانت النساء، كما الرجال، سبباً في خرابها، لكنه لم يعرف عائلة واحدة لم تنقذها النساء من الدمار. و مهما كانت ملاحظة هذا المراقب الحكيم، فمن المؤكد أن المرأة عندنا تلعب دوراً حاسماً في اقتصاد العائلة، والكل يعلم أن اهتمام الزوج لا يعوض غياب الزوجة عن تنظيم شؤون الأسرة.

أما في مصر، من ناحية أخرى، فليس من المفترض في الزوجة الثرية أن تشغل نفسها بتفاصيل إدارة شؤون المنزل، إذ أن ذلك يعتبر من مهام العبيد والخدم ويشكل إهانة لها. ولو أرادت أن تقوم بالإشراف على شؤون المنزل، لاضطرت بالضرورة لمغادرة مخدع النساء، وهو أمر يشكل إهانة للزوج. و بالنتيجة، تظل الزوجة داخل "الحرملك" طوال اليوم، تجلس أو تستلقي على الأرائك، تدخن أو تأكل الحلوى. و عندما تدخل إلى "السلاملك" – و هو القسم الوحيد من المنزل الذي يسمح للغرباء من الرجال بزيارته. تصدمك في بيوت الباشوات الأثرياء الفوضى، أو بالأحرى الإهمال الذي لا يمكنك تخيّله. حيث تغطي طبقة سميكة من الغبار المقاعد المطلية بالذهب، والتي تبدو وكأنها لم تنظف منذ أن غادرت دكان بائعها.هنالك بقع من القذارة في كل مكان، و القماش مهترىء. هكذا يبدو المنزل الذي يعتبر أهله من الأغنياء ويملكون فعلياً عدداً من الخدم. والكل يعلم أن الفوضى والإهمال يعتبران بالنسبة لنا علامتان على التبذير و الإسراف. ونفس الأمر يحدث في كل مكان؛ لأن الافتقار إلى النظام وإلى الاقتصاد في إدارة شؤون المنزل عند المصريين الأثرياء يؤديان إلى ضياع ثروتهم.

يمكن أن نكون على حق حين نقول إن الثروة الشخصية للنساء لا تنجو من هذا الخطر؛ فالمرأة تملك إدارة ممتلكاتها، و مع أن ذلك يعتبر حقاً محفوظاً للمرأة في الشريعة الإسلامية، إلا أن ثروتها تضيع حين تكون سفيهة. وكيف يمكن للمرأة إدارة شؤونها المالية من داخل

ظلمات "الحريم"، حيث لا يسمح لها بالتحدث إلى الغرباء، و لا تتحقق من الأمور بنفسها، وسيطها الوحيد الذي لا تستطيع تجنبه في ذلك هو الخصي؟![١٦]

لاحظ "دوق داركور" ان الخلفية الاجتماعية للعائلة لها تأثير ضئيل على أسلوب معاملة المرأة، الأمر الذي قاده إلى محاولة إثبات أن ذلك ليس عاملاً إيجابياً يضاف إلى رصيد الإسلام. بل على العكس فهو دليل آخر على عدم الاحترام الذي يكنه للمرأة. و مع ذلك فمن الصعب وصف التباين في المواقف تجاه المرأة واحترام كيانها تبعاً لخلفيتها الطبقية وجنسها الأنثوي في أوروبا، بأنه أكثر قرباً إلى المساواة والعدالة.

إن إحدى نتائج ازدراء النساء بسبب جنسهن الأنثوي، هي أن الفروق الثقافية والاجتماعية بينهن نادراً ما تؤثر على الطريقة التي يعاملن بها أو درجة الاحترام التي تُظهر لهن. ومن مصلحة النساء من ذوات النسب الوضيع، أنهن حين ينعمن بحظوة "السيد" يعاملن بطريقة أفضل من أولئك اللاتي لا يقدرن على إمتاعه، بغض النظر عن كون العائلة التي أتين منها ذات حسب ونسب. ومن الملاحظ عادة في المجتمعات الإسلامية عدم النظر بازدراء إلى أبناء الجواري؛ ويُعزى ذلك إلى المشاعر الإنسانية النبيلة التي تلهم تعاليم الإسلام. و هو أمر يستحق أن نطري الإسلام من أجله حيث طوّر أفكار المساواة بين جميع أبنائه. و مع ذلك فأنا أعتقد أن التفسير الحقيقي يبقى أقل شموخاً. وأظن أنه نتيجة للمرتبة الدنيا التي يضع الإسلام فيها جميع أفراد الجنس الأنثوي، والأهمية الضئيلة التي يعطيها المسلمون للخلفية الاجتماعية للمرأة، فهي في نظرهم لا تساوي سوى القليل، وليس هنالك من قيمة كبيرة لميزاتها الشخصية، ولا فرق كبير بين أن تكون جارية أو أميرة. وفي الحقيقة فقد تلقت كل منهما نفس التربية الأخلاقية والعقلية؛ وما يميز واحدة عن أخرى لا يتجاوز الثوب الذي

---

[١٦] - "دوق دو هاركور": "مصر والمصريون"، ١٨٩٣، ص ٤٠-٤٢).

ترتديه. ولهذا لا يأخذ أحد ابن الجارية بجريرة أمه؛ إذ أن أصله لا يشكل عقبة أمام وصوله إلى أعلى المناصب[١٧].

"القس ادوين بليس" و "الفارس دو هيسفورتك" استنكرا الطريقة التي يعامل بها الأتراك والبدو من العرب في تونس نساءهم- فهن، كما يقولان، مجرد وعاء لإفراغ شهواتهم. وفي الوقت الذي لا يستطيع فيه أحد أن يجادل في حقيقة أن النساء في شمال أفريقيا والشرق الأوسط لا يعاملن بطريقة أسوأ من معاملة النساء في أوروبا، فإننا لا نسمع من الكتاب سوى القليل عن شهوانية وعنف الرجل في البلاد الغربية، في حين يطلقون الأحكام العامة على الرجل في الشرق- وبنفس الطريقة التي تتردد فيها أوروبا اليوم في الاعتراف بأن الرجال المثقفين يضربون زوجاتهم، كذلك كان من النادر أن يذكر الرحالة أن الرجال الأوروبيين يفعلون ذلك.

في النص الثالث، يبادر "إدموندو دو اميتشي" إلى القول بأنه ليس "بالأمر النادر" أن تجد عائلة سعيدة في تركيا، لكنه يعلق فوراً بالقول إن ذلك ليس سوى حادثاً استثنائياً يثبت أن العائلة كمؤسسة- الأم والأب والأطفال- ليس لها سوى وجود هزيل هناك.

هنالك جوانب ظاهرة في الحياة الخاصة عند أفضل العائلات التركية لا تستدعي سوى الإدانة. و أكثر هذه الجوانب وضوحا ربما هو وضع المرأة المهين. فمنذ لحظة الولادة تعتبر مخلوقاً وضيعاً مشؤوماً. و هذا يتجسد في النسبة المرتفعة من وفيات الأطفال، خصوصا إذا كانوا من البنات؛ و في وجوه العجائز الشرسات الدميمات اللاتي يختلفن كثيرا في هذه الناحية عن الارمنيات، في أصواتهن الحادة الصارخة التي فارقتها الرقة و الحنان،و في

---

[١٧] - "دوق داركور": "مصر والمصريون"، ١٨٩٣، ص ١٠٥-١٠٦.

الأحاديث و الأفكار السوقية الفظة التي تدور دوما حول وضع اجتماعي يجب أن تعتمد فيه المرأة على إشباع رغبات الرجل و ليس قلبه. و كما ذكرنا سابقا، هنالك استثناءات، لكن أوضاع النساء التركيات عموما متردية جدا. و هي حالة تنعكس على الرجال و تجعلهم أكثر تطرفا في سوقيتهم و شهواتهم. و اللغة العادية الني يستخدمها التركي كل يوم مليئة بالعبارات التي تصدم حتى أكثر الصبيان وضاعة في أفقر أحياء مدننا. و في الظروف العادية تظل الشهوانية منضبطة بسبب القيود التي تفرضها الحياة الاجتماعية، لكن ما أن تغيب القيود حتى تنطلق الشهوات الجنسية من عقالها وتسود مسيطرة على كل شيء. وقد قال خبير بتلك القيود وعارف بفوائدها: إن كل ما تقدمه المرأة في نظر الرجل التركي هو الجنس .. الجنس الذي يشتهيه بوحشية مطلقة! [١٨]

لا يوجد على ظهر الأرض سوى القليل من الأمم التي أعطت المرأة مكانة أدنى بالنسبة للرجل كما فعل العرب البدو. ولا يجب أن نفتش عن السبب في تدني مستواهم الثقافي فقط، بل أكثر من ذلك، في دينهم. ففي كل مكان يخترقه الإسلام، يصبح وضع المرأة أكثر انحطاطاً. وهذا ما حدث في ايران، والهند، والبلاد العربية، وآسيا الصغرى. فالقرآن لا يسمح لأتباعه باعتبار المرأة مساوية للرجل، وهذا الانحياز على درجة من القوة في البلاد الإسلامية بحيث تغدو كل محاولات المسيحيين لهدايتها وجعلها متحضرة عديمة الجدوى. ويمكن أن نفترض بثقة تامة أنه كلما تدنت قيمة المرأة بين جماعة معينة من البشر، كلما تدنت درجة تحضرهم. فالمكانة التي تحتلها المرأة تتناسب طرداً مع درجة الثقافة، وتسمو بارتفاعها؛ ولهذا تتبوأ المساواة بين الرجل والمرأة عند الأمم قمة الحضارة. و طالما لم يتدخل الدين في المسألة، يمكن لعلاقة الذل بين الجنسين هذه أن تأخذ شكلاً أكثر إيجابية عند الشعوب والقبائل، لكن وصايا القرآن تجعل الأمر مستحيلاً عند

---

[١٨] – "القس ادوين.ام.بليس": "تركيا ومذابح الأرمن"، ١٨٩٦، ص ٧٨-٧٩.

العرب. فقد ظلوا ملتزمين بشدة بشريعة دينهم لمدة اثني عشر قرناً بقي خلالها وضع المرأة على حاله. حتى أن خمسين عاماً من الحكم الفرنسي فشلت في تحسين صورة القدر المحزن الذي تخضع له النساء العربيات، "فالمؤمن" يعرض نفسه للإذلال في كثير من الحالات: فهو ينحني أمامك بخضوع طالباً أن يعمل عندك ليكون خادماً لخدمك؛ ويستجدي إحسانك وينفذ أوامرك، لكنك لن تستطيع أن تجعله يظهر أقل قدر من الاحترام لزوجته وأم أطفاله. وقد يلاطف حصانه، ويربت عليه، ويقوده بلطف، لكنه لا يبدي أي اهتمام بزوجته. و إذا ما كان العربي مقيماً في المدينة فان اهتمامه الأول ينصب على إخفاء زوجته عن العيون، أما إذا أقام في الأرياف أو الصحارى، فهمه الوحيد عندئذ أن يجعلها تعمل، كيف لا وهو يعتبرها جارية.

لا يعتبر العربي زوجته شريكة ولا صديقة- و لاحتى خليلة. وبالكاد يعتقد بأن لها روحاً مثله؛ فهي مخلوق وضيع، خلقت لتكون عبدة لأهوائه وشهواته في شبابها، وخادمة تكدح في منزله حين تهرم ويذوي جمالها، وهو يضربها ويجوعها ويجبرها على خدمة زوجته الشابة الجديدة التي يأتي بها لتحل محلها.

يمكن لنا أن نستخلص النتيجة حول شخصية وميول هؤلاء البدويات حين نعرف الطريقة التي يُعاملن بها. و إذا لم يعرفن الإخلاص للزوج و لا الفضائل العائلية، فالذنب يقع على الدين وعلى تعصب الأزواج. ولهذا يتلبس البدوية هاجسان اثنان: الرعب الذليل والتبعية المطلقة لسيدها ومولاها. [١٩]

ليس من النادر أن تصادف في مقبرة منعزلة أسرة مكونة من الأب والأم والأطفال حولهما. يجلسون بجانب قبر أحد الأقرباء ويتناولون غداءهم، مثل أي عائلة من

---

[١٩] - "الفارس دو.هيس-فاتريغ: "تونس"، ١٨٩٩، ص ٢٦٤-٢٦٦.

الكادحين في أي مكان من العالم؛ ولمجرد حقيقة أن الأمر ليس عادياً ولا مألوفاً ، يجد المرء نفسه قد نأثر بشكل غريب بهذا المشهد البسيط . حين تراقبهم تدرك كم هو طبيعي وجوهري ونهائي ومناسب هذا الرباط بين الروح والجسد؛ وتعي أن في هذه المجموعة الصغيرة المتكاملة بذاتها، لا يوجد مكان لأي كائن آخر؛ وأن أية ملاحظة إضافية تفسد هذا التناغم أو تدمره نهائياً؛ وأنك مهما قلت وحاولت، تبقى الحقيقة التي تؤكد أن القوة الأولية، أو حجر الزاوية للمجتمع المنظم المتوازن ماثلة هنا أمامك؛ وأن كل ما عداها من التوليفات بين الحب والحنان والاهتمام تنتهك حرمة القانون الطبيعي؛ وأن هذه هي العائلة، وسواها قطيع؛ وأنها وحدها تنسجم مع جو المنزل والأسرة، وسواها يناسبه وكر الذئاب.[٢٠]

في بداية هذا القرن، حاول "ايه.بي.غورفيل" في كتابه "مصر الحديثة" أن يخبر قراءه عن وضع النساء في البلد. وقال:

إن النساء المصريات حقاً هن الفلاحات فقط، لكن "لاشيء يستحق الذكربخصوصهن. فالفلاحة المصرية بعيدة كل البعد عنا وعن حضارتنا إلى درجة أن الموضوع حولها لن يثير اهتمام الأغلبية من القراء".

وما أراد مناقشته حقاً هو وضع النساء في "الحريم". لكن ذلك متعذر لسببين:

أولاً. إن العادات التي يتبعها الرجل المصري في الرؤية والتفكير مختلفة كلياً عن عاداتنا.

وثانياً، إن النساء والحريم موضوعان لا يحب الخوض فيهما مع الغرباء![٢١]

---

[٢٠] – "ادموندو دو اميتشي": "القسطنطينية"، ١٨٩٦، الجزء الأول، ص ٣٢-٣٤.

[٢١] – ص، ١٤٥

وهذا تعليق كـاف –برأيـه– علـى الحيـاة الـتي تحياهـا النسـاء في مصـر!في عـام ١٩٠٦، عقـدت الإرسـاليات التبشـيرية مؤتمـراً في القـاهرة باسـم العـالم الإسـلامي؛ وخصصت إحدى الجلسات لمناقشـة المهمات الملقـاة علـى عـاتق النسـاء مـن أجـل تحسين وضع المرأة. وبعثت النساء في الإرساليات –في كتاب ملحـق– نـداء اسـتغاثة إلى جميع المسيحيات باسم النساء في الأقطار المسيحية اللاتي يؤمن تمامـاً بـأن "إلـه المسيحيين هو إلـه الحـب" وأن "رب المسلمين هـو طاغيـة شـرقي". فإنقـاذ النسـاء المسلمات من مصيرهن المحتوم قد يكون مهمة صعبة، لكن يجب القيـام بهـا، كمـا قلن، إذ "لا أحد سواهن قادر على إنجازها". في هذا النص المقتطـف مـن الكتـاب تُقدم لنا صورة لحياة النـساء المسيحيـات في مصر مناقـضة تماماً للحيـاة المستسـلمة الخانعة والذليلة التي تعيشها المسلمات.

قد يكون من المتع أن نلقي نظرة على بعـض بيـوت النسـاء المسيحيات لـنرى كـم طـورت التربية المسيحية هؤلاء الزوجات والأمهات ليصبحن ربات بيوت حقيقيـات. قبـل كـل شـيء تعالوا نتعرف على جدتنا العزيزة التي قدمت لزيارة ابنها وعائلته المقيمـة في مدينتنـا. وقـد جاءت بصحبة ابنها في زيارة وداعية لنا قبل أن تغادر إلى بلدتها. صوتها الواهن، وخطواتهـا البطيئة، ونظرها الضعيف، وعلامات الكبر المحببـة علـى وجههـا أثـارت اهتمامنـا. وحـين قبلتنا مودعة، وربتت بيدها الذاوية الحانية علينا، جذبـت قلوبنـا إليهـا، خصوصـاً بعـد أن رأينا نظرة الحب البار في عيني ابنها وكأنها تخبرنا بأن هذه المرأة المسنة اللطيفة كانت دومـاً سباقة لفعل الخير. وبعد أن غادرا علمنا من أولئك الذين يعرفـون حكايتهـا بأنهـا أم مخلصـة تحملت الكثير من العقاب وقاست البعد عن الأصدقاء، وهجرت بيت العـز والنعمـة و سـكنت بيتاً فقيراً .. كل ذلك من أجل السـيد المسيح. إن أفضـل وصـف لحياتهـا يجسـده هـذا المـنزل المسيحي الجميل الذي يسكنه ابنها، حيـث زوجتـه الشـابة الحلـوة تشـرف علـى عائلـة مـن الأطفال النظيفين المرتبين بكل ما في المسكن الحقيقي من جلال ودفء.

وحين يرى المرء ذلك البيت يعرف فوراً ودون معلومات مسبقة أنه مكان مقدس يستمتع في سكناه "المسيح" ذاته.[٢٢]

النصان التاليان يتعلقان بالنساء في الجزائر، حيث يبدي "نورمان دوغلاس" في النص الأول، اهتماماً مؤثراً بمصير سكان الصحراء، ويركز اهتمامه على "التأثير الخبيث" لجهالة نساء الطبقات الوسطى والعليا في المدن، حيث يمنعن أولادهن من تقليد الأوروبيين. النص الذي يليه مقتطف من كتاب قرأه كل الرحالة تقريباً قبل أن يغادروا إلى شمال أفريقيا، وحملوه معهم أينما ذهبوا. هذه اللغة المؤثرة بعباراتها التي تنطق بالتعصب العرقي حول وضع النساء في الجزائر- رُغم طبيعة الحكم الفرنسي المنادي بالمساواة التامة- أتت من "دليل كوك للجزائر وتونس" الذي نشر عام ١٩١٣.

استُودع في المرأة العربية كل تفاهات العرب المتراكمة، وهي تؤثر على الأجيال الشابة تأثيراً رجعياً وضاراً. وهذا أمر لا تظهر آثاره السلبية كثيراً في الصحراء حيث يعيش الرجال والنساء عيشة أقرب ما تكون إلى البهائم؛ لكنها تظهر بجلاء بين أجيال الطبقات الوسطى والعليا في المدن. وحين أسس الفرنسيون ما أسموه بالمدارس الفرنسية-العربية. وهي مؤسسات تعليمية ممتازة يقبل عليها الكثيرون، ويمكن أن تكون نتائجها أفضل بمراحل لولا هالة القداسة التي يميل معظم الأولاد في جميع البلاد- وخصوصاً في الأمم نصف المتحضرة- لإضفائها على الحماقة والجهل المؤذيين اللذين تتميز بهما أمهاتهم. في تونس، حالما يعود الأولاد من المدرسة، تسارع هؤلاء الأمهات إلى تخريب جميع المعلومات المفيدة التي حصلوا عليها وذلك بإقناعهم بأن ما تعلموه في المدرسة مجرد بهتان خطير بعيد عن الحقيقة، وأن القرآن وأسلوب الحياة المحلية هما المصدران الوحيدان للسعادة. وبعد ذلك، كي تبقي الأم

---

[٢٢] - "آني فان سومر" و "صامويل.ام.زويمر": "أخواتنا المسلمات"، ١٩٠٧، ص ٥٤-٥٥.

ابنها في المنزل تسارع في اختيار عروس له تكون أكثر عجزاً وتخلفاً منها، في سبيل استعادة هيمنتها عليه. أما الأب فلا يفعل شيئاً سوى أن يهز كتفيه باستخفاف، إذ لا سبيل لمقارعة هذا المثابرة الملحة من جانب الأم. ثم، ألم يترعرع هو نفسه بهذا الأسلوب؟!

لقد وقع المحظور ولم يعد هنالك من فائدة، فالعربي مرتدٌ بطبعه؛ وحتى الجنود المحليون الذين خدموا لسنين في الجيش الفرنسي حين يعودون في إجازاتهم يلبسون "البرنس" ويجلسون على قارعة الطريق ويصبحون أشد تمسكاً من قبل بعاداتهم العربية. وإذا كان ما يحدث هو أن الأجيال القديمة تبغض الحكم الفرنسي بغضاً شديداً، فإن شباب الأجيال الجديدة ينظرون في الاتجاهين معاً. ويوماً ما، من المؤكد انهم سيتكيفون مع المحيط أكثر، وستطوف عيونهم باحثة مستفسرة ثم تستقر حتماً على جادة الصواب.[٢٣]

وضع المرأة العربية في الجزائر نظرياً أفضل بكثير من أوضاع النساء في المغرب وتركيا. فطبيعة الحكم الفرنسي المؤيد بحزم للمساواة يحرم أن تعامل المرأة بقسوة أو تباع في سوق النخاسة؛ لكنها من الناحية العملية ليست بأفضل حالاً من أخواتها في باقي البلاد الشرقية. فهي ضحية غباء ووحشية جملة من القواعد الاجتماعية التي تأسست وتوثقت في دين يتميز بالنقاء كفكرة، ولكنه بربري عند التطبيق. وهي إما أن تُدلل كالأطفال أو يساء معاملتها؛ دمية يتسلى بها الأغنياء، وكادحة يستغل جهدها الفقراء. وحين تضع المسلمة مولودها تعتبره نعمة إذا كان صبياً، ونقمة إذا كان بنتاً، حيث "تُعمَّد" لحظة ولادتها فوراً باسم فاطمة تيمناً باسم "أم ؟" الرسول. ثم تُعطى بعد أسبوع اسماً آخر. والاختيار بن الأسماء يتراوح بين جوهرة، حليمة، خديجة، زينة، زهرة، قرنفلة... وإذا كان الأبوان فقيرين تعتبر البنت كابوساً مرعباً. فأمها التي تزوجت في سن العاشرة أو الثانية عشرة، تصيبها الشيخوخة في سن مبكرة، وكلما تنامت لديها عاطفة الأمومة كلما تعاظم إحساسها بتقدمها بالعمر

---

[٢٣] - "نورمان دوغلاس": "ينابيع في الرمال"، ١٩٨٦، (ط .أ.، ١٩١٢)، ص ٣١.

منـذراً بـأفول جمالهـا. وبالنسـبة لـلأب، لا تعـرف الراحـة سـبيلاً إليـه حتـى يـزوج ابنته بطريقـة أقـرب مـا تكـون إلى الصفقـة التجاريـة. العائلـة الثريـة تهمـل البنـت وتلقي بهـا في زاويـة منسية مـن زوايـا الحريـم برعايـة الجـواري العجـائز. وحـين تصل إلى سـن الزواج- البيـع تبـدأ حياتهـا الـتي وصفهـا السـيد "جـورج غاسـكيل".

لا يوجـد الكثـير، بعيـداً عـن هـذه الخصـائص، لإضافتـه في وصـف وضـع المسـلمات في الجزائـر- فحـالتهن دون شـك يرثـى لهـا. ولا تسـتطيع الحكومـة أن تفعـل شـيئاً لتحسينهـا، فقـد ضمنـت للأهـالي تطبيـق القـانون المدنـي- الـذي هـو القـرآن- وليـس هنـالك اختـلاف بينـه وبـين القواعـد والأعـراف والتقـاليد الاجتماعيـة.

لكنهـا تسـتطيع مثـلاً إصـدار قـانون يحـرم الحجـاب أو يمنـع ارتـداء "الـبرنس" كمـا تسـتطيع التدخـل محليـاً لـترتيب أوضـاع النسـاء المسـلمات ."[٢٤]

"الينور كالفيرلي" زارت ضمن بعثة طبيـة أمريكيـة الكويـت عـام ١٩١٢، وعلـى نفـس منوال "ايزوبل بيرتون" في بداية هذه الفصل، تحاول في هـذا النـص شـرح الاختـلاف بـين أوضاع المرأة في الشرق والغرب من خلال حوار أجرته مع بعض النساء. ومع أنهـا أظهـرت فهماً أكبر من معظم الكتاب لحياة النساء العربيات، لكنها اضطرت لأن تسأل نفسـها عما إذا كان الغرور والاعتداد بالنفس قد طغيا على إجاباتها.

شاهدتك في الشارع، سيدتي، وأنت تسيرين بجانب زوجك، وعندما وصلت إلى ممـر ضيـق وقف ليفسح لك المجال للمرور قبله. فهل تعتبر النساء في بلادكم "أفضل" من الرجال؟"كيـف أستطيع أن أجعل هؤلاء الصديقات يفهـمن الفكـرة الغـربية حـول الشـهامة؟ علـيّ أن أقـوم بالمحاولـة"!قلـت: "لا، لا تعتـبر النسـاء أفضـل، لكـن الرجـل المسيحي، لأنـه يحـب أمـه

[٢٤] - "دليل كوك للجزائر وتونس"، ١٩١٣،ص ٢١-٢٢.

ويحترمها، كذلك يحترم الأخريات من جنسها. أعرف أن هذا لا يشكل جواباً شافياً. فالمسلمون أيضاً يحبون ويوقرون أمهاتهم. وتبعاً للقواعد الإسلامية عليهم أيضاً أن يحترموا زوجاتهم. ولهذا السبب تحديداً اعتبر من الأفضل للزوجة أن لا تخرج إلى الشارع بصحبة زوجها. وإذا ما دعت الضرورة للذهاب معاً لمكان ما، يسير هو في الأمام، وتسير هي خلفه بكامل حجابها، وكأن لا علاقة لأي منهما بالآخر. فمن العار أن يعرف الناس في الشارع أنها تسير برفقة زوجها. أما بالنسبة للأفضلية النسبية بينهما، فالسؤال غير مطروح أساساً، لأن المرأة نفسها تعتبر تفوق الرجل أمراً مفروغاً منه ومسلماً به. من الطبيعي أن يُفضل الصبيان على البنات؛ لكن الأبوين عموماً يحبان البنت ويحتفيان بها عندما تولد. في ذلك اليوم، احتاج الأمر من ضيوفي بعض الوقت لاستيعاب كل ما سمعنه مني من أشياء كانت بالنسبة لهن غريبة ويصعب تصديقها. قالت واحدة منهن وهي تمد يديها إليّ مودعة: "أنتم مختلفون عنا جداً، لكم نتمنى أن نصبح مثلكم!".

بعد أن غادرت فكرت بما قالته تلك السيدة، فقد أظهر جوابها أن الاختلاف بيننا ناتج عن التباين في التقاليد والمزايا فقط. لأننا في جوهر تكويننا الطبيعي نساء لنا رغباتنا الفطرية التي نشترك فيها معاً.

أتذكر في مناسبة أخرى، أن زوج صديقة مريضة سألني: "هل لك أن تخبريني كيف يسمح لك زوجك بالخروج سافرة في الطريق؟". فاجأني السؤال، وبدون تفكير وجدتني أجيبه: "هذه هي التقاليد في بلادنا، وأنا في الحقيقة ارتدي النقاب، لكن في القلب وليس على الوجه!". وبعد قليل تساءلت عما إذا كان علي أن أجيب بهذه الطريقة. فهل بدوت مغرورة ومعتدة بنفسي؟ وهل كان هنالك أي قدر و لو ضئيل من الانزعاج في نبرة صوتي؟ ربما في المستقبل، لو سئلت نفس السؤال لفكرت في جواب أفضل.[٢٥]

---

[٢٥] - *"إلينور تي. كالفيرلي: "أيامي وليالي العربية"* ، ١٩٥٨، ص ٧٢-٧٣.

الفقرة الأخيرة من هذا الفصل مقتطفة من قصة مخصصة لتلميذات المدارس نشرت عام ١٩٣٧، كنت قد قمت بالاستشهاد بها في الفصل الأول من هذه "المختارات".

قالت السيدة مارسدن:

سوف تعتادين هذه الأشياء لو أقمت هنا فترة أطول. ففي البلاد الإسلامية تحتل المرأة، كما تعلمين، المرتبة الثانية. والبعض يرفض الاعتراف بأن لها روحاً، وفي كل الأحوال يتُوقع منها أن تعتبر نفسها في مكانة أدنى بالمقارنة مع زوجها. أنت ترين أن رب العائلة يركب حماره بينما تسير هي خلفه، خانعة متعثرة، يلفها الغبار والتراب، وهو مشهد يتكرر في جميع العائلات."يا للأمر البغيض!" هكذا علقت "اليسون" التي كانت من المدافعات عن حقوق المرأة. فهي تؤمن بحق النساء في الاقتراع والانتخاب وما شابه. وكانت تقول بأنها سترشح نفسها للبرلمان عندما تكبر. ثم تابعت قائلة: "لِمَ تتحمل النساء ذلك، ألا يملكن حق الانتخاب هنا؟"أجابت "مارسدن" بدهشة "لا"، ولا أعتقد بأنهن يرغبن به. فالمرأة الشرقية قانعة تماماً بلعب دور ثانوي أمام الرجل "أجابت "اليسون" مؤكدة: "حسن، أنا سعيدة لأنني إنكليزية"[٢٦]

هل كانت مؤلفة كتاب "التلميذات الإنكليزيات" على علم بأن النساء المصريات قد خرجن إلى الشوارع قبل ذلك بحوالي عشرين سنة للانضمام إلى التظاهرات السياسية المعادية للبريطانيين!؟

---

[٢٦] – "كاثلين رودس": "تلميذة في مصر"، ١٩٣٧، ص ٣٧.

هل هي حالة من العبودية الكاملة ؟!

لخصّ "ويليـام راي ويلسـون" حـين كتـب عـن رحلاتـه إلى مصـر عـام ١٨٢٣، النظرة الغربيـة إلى حيـاة النسـاء هنـاك قـائلاً :

في هـذا الجـزء مـن العـالم، تبـدو الزوجـات في حالـة مـن العبوديـة الكاملـة. فهـن مجـرد جـوارٍ عنـد الـزوج، ولا يسـمح لهـن برؤيـة أحـد في المـنزل عـدا الأرحـام القريبـة. وحـين يخرجـن إلى الشـارع يحرصـن علـى إخفـاء وجوههـن بالكـامل. [١]

خـلال فصـول هـذا الكتـاب كـان هنـالك سـيل وابـل ومتواصـل مـن الكلمـات الـتي تشـير إلى أن النسـاء في الشـرق مجـرد كائنـات جاهلـة ومستسـلمة- إمـا كادحـات يرزحـن تحـت عـبء العمـل المرهـق ويسـتعبدهن الـزوج، أو كسـولات يسـتلقين في الحريم طيلـة اليـوم ويستمتعن بحيـاة الخمـول.

لكـن، مـن حـين لآخـر، يُسمح لجوانـب أخـرى مـن حيـاة النسـاء بـالظهور علـى السطح في كتـب الرحـلات، إلا أنهـا توصـف دومـاً بأنهـا مجـرد استثناءات. أحيانـاً

[١] - "ويليام راي ويلسون"، "رحلات في مصر والبلاد المقدسة"، ١٨٢٣، ص ١١٩.

تكون عارضة، سطوراً مبعثرة هنا وهناك، وأحياناً تكون نتيجة لوجود الكاتبة أو الكاتب في حالة يرغبان فيها بالغوص خلف التفاصيل السطحية التافهة.النصان التاليان كُتبا في تسعينات القرن. ويعطيان فكرة ما عن النشاطات التي تتسلى بها خارج المنزل نساء في حالات مختلفة.

السكان لا يذهبون إلى الريف كما صورهم "العهد الجديد" فقط، بل يبقون هناك وينامون في العراء إذا تطلب الأمر، دون أن يسبب لهم ذلك أي إزعاج. ومرة أخرى يكون التذكير العرضي بالنساء والأطفال الذين تجمهروا في مجموعات كبيرة حول "يسوع" صحيحاً ومطابقاً للحياة الشرقية، رغم أن ذلك يبدو غريباً بالنسبة لأولئك الذين قرأوا الكثير حول "عزلة المرأة في الشرق". ففي الحشود الضخمة التي تتجمع في أيامنا هذه عند الجنازات والأعراس والمهرجانات والأعياد تشكل النسوة والأولاد الجزء الأعظم منها.[٢]

السيدات التركيات يتجولن بحرية تكفي لأن تستمع بها أية امرأة من أية أمة كانت. حيث يذهبن للتسوق في الأحياء الإسلامية، ويجدفن الزوارق الطويلة الشهيرة في البوسفور، ويزرن الصديقات، ويجتمعن أيام الثلاثاء في مقبرة "سكوتاري". أما في الأيام الأخرى فيذهبن إلى "ثيرابيا" أو إلى الجزر، أو إلى شلالات آسيا العذبة، كما ويتعبدن في المساجد أو قرب أضرحة السلاطين، ويشهدن عروض الدراويش. ويفعلن كل ما يحلو لهن للاستمتاع بالحياة بعزم وتصميم تفتقدهما النساء المسيحيات في أيامنا هذه. والسؤال الذي يثير الشكوك هو: كيف تتحمس المرأة للاستمتاع في الحياة وهي تعيش داخل الحريم ولا ترى سوى رجل واحد؟ يبدو أن للحرية خارج أسوار الحريم مفعول "الشمبانيا" على هؤلاء النسوة اللاتي يعشن بعزلة داخلها. ولذلك ما أن يغادرنها حتى

---

[٢] - "و.ام.تومسون"، "الأرض والكتاب المقدس"، ١٨٩٠، ص ٤٠٥.

يمرحن كالأطفال الهاربين من سطوة الأهل. وكلهن إيمان بأن "أشهى الثمار هي الثمار المحرمة."[٣]

يروي "جي.ايه.اوليفييه" في رحلته في أرجاء الإمبراطورية العثمانية (١٨٠٠)، كيف تمارس النساء في تركيا نفوذهن على الشؤون العامة. في النص الثاني يتحدث "تشارلز مكفرلين" الذي زار القسطنطينية عام ١٨٢٨، عن تظاهرة نسائية احتجاجاً على تصرفات الحاكم التي لا تحظى بالشعبية. ولم يكن ذلك أمراً استثنائياً، كما يقول، لكنه يعتقد أن الرجال هم الذين أرسلوا زوجاتهم للتظاهر. واللافت أن قراءة الحدث كما وصفه لا تستحضر في الذهن بشكل فوري صفات مثل "مستسلمات" وغيرها مما اعتدنا سماعه من الرحالة.

التأثير الذي تمارسه النساء في تركيا على الشؤون العامة- تعيين وكلاء الحكومة، توزيع الامتيازات و إنزال العقوبات- أكبر جداً مما نتخيله، مع الأخذ بالاعتبار العزلة التي يعشن بها. ففي الاجتماعات التي تعقدها النساء في الحريم حيث لا يسمح للرجال بالدخول، تُروى أكثر الأحداث التي شهدتها المدن والمقاطعات تشويقاً وإثارة، وتفبرك أغرب الإشاعات، وتحاك المؤامرات والخطط. تأتي النساء من كل الأعمار ومن جميع المستويات التماساً للامتيازات والفضل والحظوة والتوسط من أجل أزواجهن أو أقربائهن، أو لتقديم الشكاوى ضد زوج متطرف في غيرته أو تزمته، أو لطلب الحماية من شخصية نافذة مشهورة. وفي أغلب الأحيان لا تصل مثل تلك الطلبات إلى مبتغاها مباشرة بل عن طريق التسلسل: إذ ليس من المستغرب أن تستمد جارية أُعتقت أو امرأة من العامة من سيدتها النافذة هيبة ونفوذاً

---

[٣] - "كلارا أرسكين كليمنت"، "القسطنطينية"، ١٨٩٥، ص ٢٤٩-٢٥٠.

يجعلان الكثيرين يطلبون حمايتها. والنساء المسلمات يؤيد بعضهن بعضاً. ويعرفن أن قضيتهن مشتركة.

وليس هنالك من سبيل لتهدئة استيائهن إذا ما غضبن، ونادراً ما يفوتن فرصة الانتقام لإهانة لحقت بهن أو إساءة تلقينها مهما كانت صغيرة.[٤]

من المؤكد أن أعناق الجنس اللطيف- حتى عند الأتراك - أقل تعرضاً لحبال المشانق وسيوف الجلادين من رقاب أزواجهن من الرجال؛ ولذلك منح الرجال زوجاتهم حرية معتبرة في العمل والتصرف؛ وفي كثير من الأحيان يعزز الحجاب واليشمق بكل ما يلفهما من غموض، شجاعة النساء خصوصاً في الحشود الجماهيرية . و يفيد الرجال من هذه المزايا، فكلما تصاعد الاستياء الشعبي، يرسلون زوجاتهم في جماعات حاشدة للاحتجاج والتذمر أمام بيوت الحكام، وللتعبير عن آراء لا يجرؤون هم على الإفصاح عنها. هذه الممارسة شائعة طبعاً في المقاطعات أكثر من العاصمة. شهدت مثل هذا الشغب في "سميرنه" بعد بضعة أيام من وصولي: حشد ضخم من النسوة المحجبات اللاتي لا يظهر منهن سوى العيون الواسعة الغاضبة؛ تلف أجسادهن أثواب عريضة فضفاضة زاهية الألوان- وإن كانت ملطخة بالأوساخ- يتجمعن في الساحة المفتوحة أمام منزل الحاكم "حسن باشا" لحثه على إلغاء بعض الإجراءات القمعية التي تفتقر إلى الشعبية. وعندما رفعن قبضاتهن ملوحات في الهواء، وعلا صراخ أصواتهن الحادة بهسيس يشبه فحيح الأفاعي، لم أستطع منع نفسي من الإحساس بأن غضب النساء إذا اجتمعن "أمر مخيف". وحين يراهن المرء واقفات في الساحة المحاصرة بالجدران يحسب أنه أمام تجمع لساحرات مشعوذات أكثر شؤماً من أولئك اللاتي قضين على طموحات ماكبث....[٥]

---

[٤] - "جي.ايه.اوليفييه"، "رحلة في الإمبراطورية العثمانية"، ١٨٠٠، ص ٩٦.

[٥] - "تشارلز مكفرلين": "القسطنطينية عام ١٨٢٨"،١٨٢٩، ص ٣٦٤-٥.

أما "لوسي دوف غوردون" فقد أثار لديها المشهد نفسه في مصر أحاسيس مختلفة. إن قدوم السلطان يسبب نوعاً من الحيرة والارتباك. إذ لا يعرف أحد ماذا يريد. فقد أمر الخديوي بإبقاء جميع النساء من الطبقات الدنيا داخل المنازل طوال مدة الزيارة. لأن النساء العربيات يتصفن بالجرأة والصراحة وقد يجهرن بمظالمهن أمام الباب العالي[٦].

وفي النصين التاليين تتحدث "غوردون" عن الحرية الممنوحة للمصريات في إدارة الأراضي الزراعية العائدة لهن، ثم تصف لقاء مع امرأة غير عادية. ولأنها أقامت في مصر لعدة سنوات، ولأنها تفهم العربية، استطاعت أن تدخل في حوار لم يصل إلى عمقه الرحالة العابرون.

توقفنا في "دشنه"، وهي قرية كبيرة،مشيت في دروبها متنزهة و "يداي في جيوبي"، وسرعان ما دُعيت لشرب القهوة وتدخين "الشيشه" في إحدى "المضافات". وهي عبارة عن حجرة مفتوحة من جانب واحد،مع عمود ينتصب في منتصفها مشكلاً قوسين يشبهان تلك الموجودة في الرواق المحيط بفناء الأديرة. هذه "المضافات" موجودة في كل القرى المصرية بجوار المسجد: عباءتان أو ثلاث خلعها أصحابها وأُلقيت على الأرض كي أجلس. وقدم إلي الحليب الذي طلبته بدلاً من القهوة. وفي خلال دقيقة حضر حوالي عشرة رجال تحلقوا حولي، وبدأوا بإلقاء الأسئلة المعهودة: "من أين أتيت،وأين تذهبين؟" بينما أداروا بينهم قفازي وساعتي وخواتمي لفحصها. القفاز دائماً يستدعي كلمة التعجب "ما شاء ا لله!". قلت: "أتيت من بلاد الفرنجة وأنا ذاهبة حيث أقيم في "أبو الحجاّج". وهنا أمسك كل واحد منهم بيدي وقال: "الحمد لله أننا رأيناك، نرجو أن لا تتابعي الرحلة، ابقي هنا وخذي مائة فدان من الأرض". ضحكت قائلة: "و أرتدي "الزبّوط" و "اللبدة" واعمل في الحقل بنفسي حيث لا

---

[٦] - "لوسي دوف غوردون"، "رسائل من مصر"، ١٩٨٦ (ط.أ.، ١٨٦٥) ، ص ٥٢-٥٣.

يوجد رجل معي؟!". ضجّ الحاضرون بالضحك،ورووا لي عدة حكايات عن سيدات نجحن في إدراة مزارعهن الكبيرة. ومثل هذه المشاريع التي تقوم بها النساء تعد أموراً شائعةً هنا كما في أوروبا، بل أكثر شيوعاً منها في إنكلترا ذاتها.[٧]

كنت أسير على ضفة النيل بصحبة السيد منير وزوجته حين أتت بدوية، وسلمت عليه. أدهشني منظرها فقد كانت شابة في الثامنة عشرة أو العشرين من العمر، ترتدي ملابس الرجال، لكنها رقيقة ومليئة بالأنوثة وجميلة رغم كونها عوراء. كان لباسها أنيقاً وقد تزينت بالحلي والجواهر بالإضافة إلى ساعة أوروبية معلقة بسلسلة. وكانت تصرفاتها ممتازة وليس فيها أية خشونة أو تبجح. قيل لي- وفي الحقيقة سمعت بنفسي- إن لغتها جميلة، وهو أمر يقدّره العرب كثيراً. وهي شابة مغرمة بالسفر وبالتعرف على الرجال، ولأنها ذكية وواثقة من نفسها تسافر بمفردها على جمل تملكه. ولم يثر الأمر دهشة الحاضرين، ولم يحدقوا فيها باستهجان، وحين سألت عما إذا كان من "اللائق" أن تفعل ذلك، أجابني القبطان: "ولم لا؟ فإذا لم ترغب بالزواج، لها أن تسافر بمفردها. وإذا رغبت لها أن تتزوج: ما الضرر في ذلك؟ هي عذراء وحرة".

صعدت الفتاة إلى مركب "السيد منير وعائلته" لتناول طعام الإفطار (منير وزوجته مصريان في المولد ويتحدثان العربية)، فلديها الكثير من الاستفسارات التي تريد معرفتها منه كما قالت. وبقدر ما أفهم من العربية، عرفت أنها تعبر عن آرائها بكثير من الحرية. وقد سمعتْ زوجة "منير" الكثير عنها من قبل، وقالت بأنها شخصية محترمة وتستحق الاعجاب. وسمع "منير" إشاعة تقول بأنها تعمل مخبراً لدى الخديوي، لكن الحاضرين على ظهر المركب هنا نفوا ذلك وقالوا إنها في حقيقة الأمر قابلت بنفسها الخديوي "سعيد باشا" لتشكو بعض المستبدين

---

[٧] - "لوسي دوف غوردون"، "رسائل من مصر"، ١٩٨٦ (ط.أ.،١٨٦٥) ، ص ٢٥٣-٤.

الذين يظلمون الفلاحين ويسجنوهم، وهي خطوة تعتبر جريئة لفتاة مثلها. على كل حال بدت لي واحدة من أغرب من صادفتهم هنا...

تابعت الاستفسار أكثر عن تلك الفتاة البدوية التي تبدو أكبر من عمرها، لأنها أمضت السنوات العشر الماضية في ترحال وسفر دائمين. وعلمت أنها ثرية ومحترمة جداً، تستضيفها أفضل وأشهر العائلات، حيث تجلس مع الرجال طيلة النهار وتنام مع الحريم في الليل. وقد وصلت في أسفارها إلى مكة ومجاهل أفريقيا، وهي تتقن التركية. قال "منير" إنه يجدها لطيفة جداً وطافحة بالمعلومات المشوقة حول كل البلاد التي زارتها. وعلمت أنها تحب صحبة الأوروبيين ولذلك سأحاول التعرف عليها حالما أتعلم التحدث بالعربية.[٨]

شهدت "ايه.سي.انشبولد" خلال تجوالها في سورية في بداية هذا القرن حادثة حصلت مع زوجها حين حاول رسم امرأة تقف قرب بحيرة ماء. ومع أن زوج المرأة لم يمانع، إلا أنها كانت من النوع الذي لا يرضخ للضغوط.

كان هنالك العديد من القرويين يجلسون على جانبي الطريق وفوق الأحجار على طرف بركة الماء. وبينما كانت خيولنا تشرب تجمع هؤلاء رجالاً ونساءً -لم يكن منظرهم جذاباً- حول العربة وعرضوا للبيع خواتم وحليًّاً وسكاكين. في هذه الأثناء لاح شخصان يتقدمان نحو البركة- بدوي أسمر الملامح يرتدي عقالاً سميكاً أسود اللون يضغط على كوفية حمراء فوق رأسه، وامرأة تقود حصانهما ليشرب من النبع .

---

٨ - "لوسي دون غوردون"، "رسائل من مصر"، ١٩٨٦ (ط.أ. ، ١٨٦٥)، ص ٩٦-٩٨.

كانت المرأة فتية وجميلة وسافرة، يتهدل شعرها المتموج الكثيف فوق جبهتها العريضة،وتتألق عيناها كنجمتين ببريق هادئ يشع من وجهها ذي البشرة الصافية البرونزية. يوحي لونهما الداكن بمنظر المياه الهادئة داخل بئر عميقة. ويلف قوامها الفارع وقدها اللدن رداء أحمر وأبيض وبنطال عريض يصل حتى كاحليها الناعمين. بدت غير مبالية بنظرات المتفرجين حين وقفت جانب الحصان وهي تمسك لجامه بيد وتربت بالأخرى على عنقه.

وبسرعة أخرج الرسام دفتره ليرسمها، وبدا واضحاً أن التمثال البديع عرف بالأمر، لأنها نظرت بطرف عينيها نحونا ثم جثت مختفية فوراً خلف كتلة من الصخور على حافة البركة. أما البدوي فلم يمانع أن ينظر رجل أجنبي إلى وجه زوجته، بل على العكس أخذ يعنفها على تصرفها بصوت مرتفع جعل الفلاحين يطلقون عالياً صيحات التعجب والسخرية...وعلق فلاح يشبه أنفه منقار الصقر على الأمر مؤكداً: "لو كنت زوجها ولم تطعني لأطلقت عليها الرصاص". نقّلت الحسناء بصرها بينه وبين زوجها الذي وقف صامتاً عابساً وقد علّق على كتفه بندقيته العتيقة، ثم أطلقت ضحكة عالية كشفت عن أسنانها العاجية وقالت ببساطة: "لقد جرَّ الجبال قبل أن يصل إليّ" لم يجد أحد تعليقاً مناسباً على ما قالته، و عرف الجميع أن المرأة أتت، كما تظهر ملابسها، من أقاصي سوريا.[٩]

في وقت متأخر من هذا القرن دهُش "ويلفرد ثبسيغر" حين قابل في الصحراء امرأة أنجبت ثلاثة أطفال دون زواج شرعي .

---

[٩] - "ايه.سي.انشبولد"، "تحت شمس سورية"، ١٩٠٦، الجزء الأول، ص ٢٥٣-٤.

لم ينقطع سيل الزوار إلى المكان الذي أقمنا به مخيمنا. كان بينهم امرأة اسمها "نورا" كنت تعرفت عليها العام الفائت. أحضرت "نورا" أطفالها الثلاثة، وكانوا عراة تماماً عدا أكبرهم البالغ حوالي تسع سنوات من العمر، وأخبرتني أن خيامهم تبعد مسافة أربعة أميال من هنا وأن الأولاد ألحوا عليها كي يأتوا ويروني حين

علموا أنني هنا. قدمتُ للأطفال التمر والسكر ليأكلوا بينما كنت أتحدث مع أمهم. كانت سافرة ترتدي ثوباً أزرق غامقاً مثل باقي النساء في هذا الجزء من الجزيرة العربية؛ وجهها المدور الذي لوحته الشمس توحي ملامحه بالقوة، وتضع خاتماً فضياً في فتحة أنفها اليمنى، ثم أخبرتني بصوتها الأجش كيف ستذهب إلى قرية على الشاطئ لإحضار كمية من سمك السردين. وبما أن "بن غبيشة" قد اصطاد وعلاً، كان لدينا لحم وحساء على الغداء. أكل الأطفال معنا، لكن نورا تغدت بمفردها لأن العرب لا يأكلوا عادة بصحبة النساء. إلا أنها عادت بعد فترة وجلست على مبعدة منا لتشاركنا شرب الشاي والقهوة. الاعتقاد العام السائد بين الإنكليز بأن المرأة العربية تعيش في سجن موصد الأبواب يطابق حالة المرأة في المدن، لكنه غير صحيح بالنسبة لعشائر البدو. إذ كيف يمكن للرجل أن يبقي روجته حبيسة خلف الجدران حين يعيش في العراء تحت ظل شجرة مثلاً، أو داخل خيمة مفتوحة دوماً من أحد أركانها؟ وبالإضافة إلى ذلك فهو بحاجة لعملها وجهدها؛ فهي التي تحضر الماء، وتجمع الحطب، وترعى الماعز. وإذا ما شعرت بأن زوجها يهملها أو يسيء معاملتها تستطيع بسهولة أن تهرب إلى أبيها أو أخيها. وعلى الزوج حينئذ اللحاق بها ومحاولة إقناعها بالعودة. أما أفراد عائلتها فيقفون إلى جانبها في مثل هذه الظروف، ويصرون على أن ابنتهم قد عوملت بوحشية بحيث يضطر الزوج في النهاية إلى الرضوخ وتقديم بعض الهدايا لحثها على الرجوع. وصحيح أن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها، لكن الزوج قد يوافق على الطلاق إذا رفضت العيش معه بشرط أن يسترد الجملين أو الثلاثة التي قدمها كمهر عند

الزواج. أما إذا طلقها هو فلا يسترد عندئذ تلك الجمال. في المساء ذكر أحدهم "نورا" وسألتُ عن زوجها فقيل لي"ليس لها زوج والأولاد أبناء زنا"، وحين بانت دهشتي قالوا أن "ابن عليا" الذي كان واحداً من جماعتنا هو أيضاً ابن "غير شرعي"، وحين تساءلت هل تلطخ وصمة العار حياة ابن الزنا قال أحدهم: "لا فالذنب ليس ذنبه"....علمت أن الفتاة ذات السلوك المنحرف في أجزاء أخرى من العالم العربي، أو حتى تلك التي يُشك في أخلاقها يقتلها أقرباؤها للمحافظة على شرف العائلة.[١٠]

توقف "نيبور" في صنعاء خلال رحلته عبر الجزيرة العربية التي بدأها عام ١٧٩٢. وذكر في وصفه للأسواق المحلية أن النساء فقط هن اللاتي يبعن الخبز هناك. ورغم أن معظم الكتاب تحدثوا عن العمل المضني الذي تقوم به النساء الفقيرات في المناطق الريفية، فان ما أثار اهتمامي إشاراتهم الإضافية إلى النشاطات الأخرى التي تمارسها النساء دون أن يتابعوها بتفصيل دقيق إلا فيما ندر. النصان التاليان يتعرض الأول منهما لعمل النساء في أحد المواقع الأثرية، والثاني لعملهن كنقاشات داخل البيوت.

عمليات الحفر التي يقوم بها "يوسف" كانت أكثر حيوية و تسلية مما هي عليه في العادة. فقُربُ الموقع من خيام البدو جعل عدداً من النسوة والأطفال يأتون إليه للتجمع حول العاملين فيه من أصدقائهم وأقربائهم. والنساء بلباسهن الأزرق الغامق والأحمر يجلسن على حافة الخندق يثرثرن ويغزلن الصوف، والأطفال العراة يقفزون من حولهن أو يراقبون أي شيء نقوم بفحصه فحصاً دقيقاً. وبالإضافة إلى الألواح والأدوات النحاسية التي اكتشفت في "تل سفر" ظهر شيء جديد – فتاتان تحملان سلتين مليئتين بالرمال من الخندق. إحداهما جميلة جداً

[١٠] – "ويلفرد ثيسيغر، "الرمال العربية" ، ١٩٨٧ (ط.أ. ١٩٥٩)، ص ١٩٣-١٩٥.

في حوالي السادسة عشرة، وقد توسلت بشدة إلى "يوسف" كي يقبلها في العمل لتعيل أمها العجوز المريضة وثلاثة من أخوتها، ولم يستطيع مقاومة توسلاتها، أما الثانية فكانت تشعر بالغيرة من الأولى التي تكسب المال ولهذا عرضت خدماتها وقبلها "يوسف" لتشجيع الأخرى على العمل .حازت الفتاتان على إعجاب الرجال الذين أظهروا نحوهما الكثير من العطف الذي لا يظهره العرب عادة تجاه نسائهم. فكانوا يعطونهما أصغر السلال ونادراً ما تملأ بكاملها. قلت "ليوسف" معلقاً بأنهما تحملان السلال دائماً بسهولة وسرعة يفتقدهما الرجال. و تفرغان ثلاث سلال في حين لا يستطيع الرجال الكسالى إفراغ اثنتين. كشر "يوسف" عن ابتسامة وأعلن بأنه يتمنى أن يكون كل عماله من النساء، فهن لسن أسرع في العمل فقط لكنهن أسهل قيادة أيضاً.[١١]

إذا كانت الوسائل التي نستخدمها هنا لا تؤدي إلى نتائج باهرة، إلا أن ميزتها تكمن في رخص تكاليفها. فكسوة الجدران مثلاً تعتبر ترفاً مكلفاً. لكن العمال المحليين يتبعون طريقة في كسوتها تعطي نتائج جيدة لكنها ليست مكلفة. هذا العمل تقوم به النساء حصراً، حيث يقمن بنخل التربة وخلطها بالقش والماء. ليصبح الناتج عجينة يكسين بها الجدران والأرضيات. ثم يضعن عجينة أخرى خاصة من الصلصال الأبيض يستخرج من مواقع معينة في سفوح التلال تخلط أيضاً بنوع نظيف من القش لتكّون الطبقة الخارجية التي تغطي الجدران.[١٢]

المجموعة التالية من المقتطفات تتعلق بمساهمة النساء الاقتصادية في ميزانية العائلة. وبالطبع لا نجد في أي منها اللغة الخطابية المنمقة التي ألفناها في الكتابات حول "النساء المستكينات".

---

[١١] - "ويليام كينيت لوفتوس": "رحلات وأبحاث" ١٨٥٧، ص ٢٧٢.

[١٢] - "لورنس اوليفانت"، "حيفا، أو الحياة في فلسطين الحديثة"، ١٨٨٦، ص ١٦٦.

في الفقرة الأولى يشير "اي.و.لين" بشكل عابر لصاحبات الحوانيت في البلدات الريفية. أما "و.ام. تومسون" فقد سافر في فلسطين محاولاً الربط بين مشاهد الحياة المعاصرة و تعابير الكتاب المقدس. لكنه في هذه الفقرة يقدم بشكل عرضي ملاحظات هامة حول ما تكسبه النساء من مال. الكاتبة الثالثة "اي.اس.ستيفنز" كانت تعيش في العراق بصحبة زوجها الموظف هناك. وفي هذه الفقرة التي تصف المناظر الطبيعية والشكل الذي تظهر به المرأة هناك، تحدثت حول العمل المضني الذي تقوم به النساء.

الكاتب الأخير في هذه المجموعة تحدث خلال محاولته تقديم صورة اكثر توازناً للنظام الأسري في سوريا وفلسطين عن امرأة قابلها كانت تدير شؤون أسرتها التجارية رغم وجود الزوج والأبناء.

لاتعرف نساء الطبقات الاجتماعية الدنيا حياة الخمول والكسل إلا في الحالات النادرة . بل إن بعضهن يُكرهن على القيام بأعمال أكثر مشقة من تلك التي يقوم بها الرجال أنفسهم. أما أعمالهن الرئيسية فتتضمن تحضير الطعام للزوج، وإحضار الماء (يحملنه في جرار كبيرة على الرأس)، ونسج القطن، وغزل الصوف والكتان، وصنع نوع من الوقود يسمى "الجلة" يتألف من روث الماشية المعجون بالقش يعمل بشكل قوالب دائرية مسطحة: هذه القوالب تلصق على الجدران والأسطح أو توضع على الأرض لتجف تحت أشعة الشمس؛ ومن ثم تستخدم في إشعال الأفران وفي مآرب أخرى.

هؤلاء النساء يعشن حالة أشد خضوعاً للزوج من سيدات الطبقات الاجتماعية العليا. ولا يسمح للمرأة الفقيرة في معظم الأحوال بالأكل في معية الزوج، وحين يخرجان من المنزل تسير عادة خلفه؛ وإذا كان هنالك ما يحملانه فإن الزوجة هي التي تقوم بذلك، بينما يكتفي هو بحمل عصاه وغليونه- وبعض النساء في البلدات الريفية يملكن حوانيت يبعن فيها الخبز

والخضار وغيرها؛ وبهذا يساهمن كالزوج تماماً. بل وأكثر منه في تحمل أعباء الأسرة المادية.[13]

رأيت امرأة تجلس أمام باب كوخها على جبل صهيون، تغزل الصوف بمغزلها، في حين وقفت امرأة أخرى قربها تبرم برشاقة فلكة المغزل العتيق، وأحسست ببعض الفضول لمعرفة ما إذا كانتا تشبهان في أشياء أخرى زوجة الملك "ليمويل" الطيبة، حسب "النبوءة التي تعلمها من أمه" . لكن لم يبق على شاكلتها سوى النذر اليسير من النساء اللاتي لا تقدر قيمتهن بثمن في هذه البلاد، وفي هذه المدينة بالذات حيث انطلقت النبوءة. والبند الأول في قائمة الصفات الحسنة النادرة الوجود هو: "أن يضع قلب الزوج ثقته المطلقة في زوجته". لكنه الآن في أغلب الأحيان لا يثق في "أنها ستفعل الخير من اجله لا الشر"، ولهذا يظل يقظاً ويحرص على وضع كل مقتنياته الثمينة في حرز حصين، ويعتمد على أقفاله الحديدية وحراسه المستأجرين أكثر من اعتماده على زوجته. وهذا يرجع إلى سببين اثنين: التعليم السيء، والافتقار إلى الحب؛ وهما إثمان خطيران يرتكبهما بحق الزوجة "سيدها" المستبد. إذ يُفرض عليها أن تبقى جاهلة، وتجبر على الزواج دون استشارة عواطفها القلبية؛ فإذن كيف نتوقع أن تكون أهلاً للثقة حين تربى ويتم اختيارها كزوجة على هذا الشكل.

هنالك الكثير من الإشارات إلى العادات المحلية للشرقيين في "نبوءة" والدة "ليمويل" هذه ستظل جديرة بالملاحظة: فالمرأة "تبحث عن الصوف والكتان، وتكد في العمل بيديها"، وهكذا تقوم غالبية النساء في صيدا اليوم بغزل الحرير والقطن الخام بدلاً من الصوف والكتان، وبذلك تتحمل الكثيرات منهن مسؤولية إعالة الأسرة حيث يبعن ما صنعنه إلى التجار، و "يحضرن

---

[13] – "ادوارد ويليام لين": "العادات والتقاليد عند المصريين المعاصرين"، ١٨٦٠،(ط.أ.، ١٨٣٦) ص ١٩٨-١٩٩.

الطعام من الأماكن البعيدة". وأخبرتني شخصيةإ سلامية مرموقة إن كل عائلة تقريباً في صيدا تستطيع بهذه الطريقة تحمل فصل الشتاء القاسي والبارد.[١٤]

طريق آخر بجانب الخور يمر عبر بساتين النخيل مخترقاً قرية يسكنها "السود"، ويمتد حتى الصحراء ثم يتفرع بمحاذاة قناة مائية إلى اليسار ليصل بعدها إلى التحصينات التركية القديمة. عندما يمشي المرء عبر مزارع النخيل التي تومض بين أغصانها أجنحة طيور الرفراف بألوانها الزاهية كاللهب الأزرق، سيرى حتماً الصبايا الحسان في القرية الرابضة على حافة الصحراء، بخلاخيلهن اللامعة وأساورهن الفضية، وخواتم الفيروز واللؤلؤ التي تزين أنوفهن. أما أثوابهن وخمرهن السوداء فتحل محلها أحياناً "تنانير" قذرة قرمزية أو وردية اللون. وعلى أغطية رؤوسهن يحملن عادة أثقالاً من السلال و الجرار النحاسية. أما إذا كن آتيات من البلدة فيحملن سمكة مثلاً بطريقة تجعل ذيلها يسقط خلفهن ليلامس التراب. هؤلاء الفتيات ودودات جداً ويقابلن الغريب بابتسامة مرسومة دوماً على وجوههن ويعملن في البلدة في حمل قوالب الآجر ونقل الماء وغير ذلك. وقد استخدمت واحدة منهن مرة للتخلص من بعض النفايات فحملتها على رأسها وسارت بها بعيداً وهي تتهادى في مشيتها كالملكة.[١٥]

... إذن، بشكل عام حين يكون من المستحيل المبالغة في تضخيم الشرور المتأصلة في طبيعة النظام، فمن الممكن أن نبالغ في تصور المدى الذي تصل إليه. وبدرجة أقل، حجم نتائجها. خذ مثلاً العزلة التي تعيشها المرأة داخل الحريم. من الطبيعي أن يبدو الأمر مرعباً بالنسبة لامرأة ترعرعت في ظل الحضارة الغربية.

لكن النساء اللاتي تربين داخل الحريم لا يخفقن في فهم معنى التحرر الذي ما عرفنه أبداً. ففي أوساط الطبقات العليا من المجتمع الإسلامي يمكن أن توجد حياة أسرية سعيدة، إذ أن

---

[١٤] – "و.ام.تومسون" : "الأرض والكتاب"، ١٨٩٠، ص ٦٨١.

[١٥] – "اي.اس.ستيفنز" : "على ضفاف دجلة والفرات"، ١٩٢٣، ص ١٤٣–٤.

جوهر التربية الرفيعة المستوى هي نفسها عند جميع الأمم، لكن ظروف الحياة هي التي تختلف بصورة جذرية. وحتى لو سلمنا جدلاً بهذا، فأن حياة الحريم تَسِمُ بشرورها النساء اللاتي يعشن خلف أسواره عادة. لكن يجب أن نؤكد هنا أن الحالة هذه محصورة ضمن نطاق المدن فقط، ولهذا فإن آثارها لا تصيب سوى قلة من النساء المسلمات. وحين ينتقل الرحّال من المدن إلى الريف في سوريا وفلسطين لا يمكن له إلا أن يلاحظ التناقض الكبير بين المنطقتين. فنساء المدن لا يخرجن إلى الشارع دون أن تلفهن الأغطية البيضاء أو الملونة، ودون أن يخفين وجوههن خلف النقاب السميك. أما الفلاحات في الأرياف، من جهة أخرى، فيظهرن على الملأ بلباسهن العادي الذي يكشف عن الوجه و أحياناً عن جزء من الشعر. هذه الحالة طبعاً تعطي المرأة القروية ذات الشخصية القوية الفرصة لجعل أثار سيطرتها محسوسة في العائلة والمجتمع. وقد قابلت ذات مرة امرأة كهذه في قرية تقع في واد عميق في جبال "حرمون" حيث يعيش سكانها في الصيف داخل أكواخ صغيرة. فقد كنا نخيم على مقربة من منزل هذه المرأة ولذلك استطعنا تبادل الزيارات. كانت سيدة جميلة مهيبة وهادئة وسافرة الوجه عليها سيماء التسلط بما يتناسب تماماً مع القوة الوحيدة المسيطرة داخل المنزل. ومن كوخها الصغير كانت تشرف على تنظيم الأعمال المختلفة في مزارعها التي تدر عليها غلة سخية تتراوح بين ألف ومائتين وألف خمسمائة دولار سنوياً: رعاية قطعان البقر والماعز؛ درس الحنطة؛ حراثة بساتين الكروم والتبغ؛ قطع الأخشاب ... أما أولادها وكلهم متزوجون أو في طريقهم إلى الزواج، فيطيعون كل ما تأمر به . وأذكر أن زوجها كان إنساناً لطيفاً ومهذباً لكنه معتل الصحة. بقي أن نذكر أن هذه المرأة ليست حالة نادرة في تركيا.[١٦]

[١٦] - "فريدريك جونز بليس"، "الدين في سوريا وفلسطين الحديثة"، ١٩١٢، ص ٢٨١-٣.

وصف فريناند اوسيندوفسكي،وهو بروفيسور بولندي زارشمال أفريقيا،الأعمال التي يمارسهاالرجال والنساء من قبيلة"أولاد نايل".في الفقرة الأولى يقدم النساء كطفيليات،لكنه في الفقرة الثانية يتحدث عن المقدرة النسبية للرجال والنساء على كسب المال.

بعد الغداء، قمت بزيارة واحد من أكثر المعالم إثارة للفضول في "بوسعده"، وهو شارع طويل يمتد بين حي الأهالي المحليين والحي الفرنسي، ولا يوجد فيه سوى البيوت والفنادق المزدحمة بالمغنيات والراقصات من كل الأعمار من قبيلة "أولاد نايل" التي تعتبر الأقوى في المنطقة. و "أولاد نايل" قبيلة عجيبة من جهة محتدها ودينها وتقاليدها. رجالها يملكون وسامة، وفي ملامحهم نبل و إباء، أنوفهم دقيقة وجميلة، وأجسادهم رياضية كالتماثيل، بينما نساؤهم ببشرتهن الداكنة وعيونهن المعبرة الغامضة وتقاطيعهن الجميلة، يعشن عالة على الرجال.

يعمل الرجال من "أولاد نايل" لكسب عيشهم كحدادين وحلاقين وأطباء مشعوذين؛ وتعمل نساؤهم كراقصات ومغنيات ومشعوذات. ولولا أن النساء يكسبن ثروة معتبرة ينفقنها عادة في مساعدة آبائهن وإخوتهن، أو يدفعن منها مهراً لزوج المستقبل، لأصبح الرجال الذين لا يعترضون أبداً على الحياة العابثة أحياناً و الشهوانية في كثير من الأحيان التي تعيشها زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم، مجرد متسولين بائسين طيلة حياتهم.[١٧]

ساعد المقدم "هيو مولينو والسلي" من الجيش العثماني الإمبراطوري الفرنسيين في إخضاعهم الوحشي للقبائل في الجزائر. في النص الأول المقتطف من كتابه حول تجاربه

١٧ – "فيردناند اوسيندوفسكي" : "أنفاس الصحراء" ، ١٩٢٧، ص ٤٣.

هناك، يتحدث مولينو حول الكاهنة الشهيرة "لالافاطمة" التي احتفظ بها الفرنسيون رهينة في الأسر حتى ضمنوا النصر النهائي. في الفقرة الثانية يقدم "ادوارد باركيت" الذي أعدَّ كتابات والده – وكان قنصلاً عاماً – قصصاً حول زعيمة كردية مشهورة. وفي الفقرة التي تليها يصرّ "الكسندر نوكس" على أن التقاليد المتوارثة تكون عادة مختلفة جداً عن القوانين المكتوبة، ويقدم صورة لامرأة قوية من القبائل. أما "اي.بي.سون" فقد سافر في أرجاء كردستان متنكراً في زي رجل فارسي، ودخل منزل سيدة قوية جداًتدعى "عادلة". بينما قابلت "فرياستارك" خلال تجوالها عام ١٩٣٥ واحدة من أكثر النساء سعادة في "حضر موت"، كانت متفقهة في أمور الدين والفلسفة.

رجال القبائل الجبلية هؤلاء يعتمدون فيما يبدو على منعة جبالهم الوعرة ووديانهم شديدة الانحدار؛ لكن عندما لم ينفعهم ذلك استسلموا للهزيمة. ففي إحدى القرى النائية تسكن امرأة جليلة القدر تدعى النبوة، امتدت شهرتها في كل منطقة القبائل حيث لا توجد قبيلة ولا جماعة ولا قرية لا تعرف "لالافاطمة" ولا تبجل رسالتها المقدسة. والآن يقف جيش الكفرة الفجار من أعدائها على أبواب معقلها الجبلي ودوي مدفعيتهم الجبلية يصل إلى أسماعها، وأعمدة الدخان تقترب منها يوماً بعد يوم. تراها فتتنهد متحسرة على بلادها المغتصبة بعد أن فقدت القدرة على مقارعة حراب الفرنسيين. هذه المناطق التي ردت الأعداء على أعقابهم– أتراكاً وروماناً وعرباً، استسلمت أخيراً لمصيرها المحتوم. وبكل تسليم المسلم بالقضاء والقدر. أرسلت "لالا فاطمة" أخاها سفيراً إلى معسكر المارشال الفرنسي ليفاوض على شروط الاستسلام....

قابل أخوها قائد الغزاة الذي وافق على الإبقاء عليها وعلى قريتها. لكن الأخ بالمقابل عرض أن يقود أرتال الجيوش الغازية التي تقدمت في حملة تدميرية لكل ما يصادفها حتى كانت ليلةً: سُمعتْ فيها فجأة أصوات الحرس وهم يصرخون عالياً عند البوابة الرئيسية، وحملتها

النسائم إلى داخل المعسكر ذاته. ما الذي يمكـن أن يحـدث؟ بعـد برهـة أعلـن ضـابط في أركـان المارشال بصورة غير متوقعة عن وصول الكاهنة ذائعة الصيـت "لالافاطمـة" مـع مجموعـة مـن الأسرى يربو عددهم على المائتين معظمهم من النساء. كن جميعـاً- مـا عـدا الكاهنـة نفسـها- يطلقن صرخات حادة متواصلة. لا أدري ماذا توقع الأسرى أن يحدث لهـم، لكـن خوفـاً مميتـاً سيطر عليهم، كان منصباً على ما يبدو على زعيمتهـم المقدسـة أكـثر ممـا هـو علـى سـلامتهم. استقبل المارشال الكاهنة بنفسه، وكان منظرها على رأس صف طويـل مـن الأسـرى بملابسـهم الغريبة، وبرانسهم، والدموع التي تسيل علـى وجنـات النسـاء منهـم، يشـكل مشـهداً ملفتـاً للنظر. تقدمت "لالافاطمة" بجلال وأبهـة كالملكـة (رغـم أنهـا دميمـة وطاعنـة في السـن) نحـو المارشال الذي استقبلها كما يستقبل عاهلاً أجنبياً في ردهات بيته في فرنسا- لا بل ربما أظهر لطفاً ودماثة وتهذيباً أكبر سيطر على نبرات صوته حين عرض أسفه لحالتها.

قيل إن "لالا فاطمة" كانت قد تنبأت قبل سنوات بخضوع شعب القبائل للاحتلال، ولم يكن في الواقع من العسير توقع ذلك، لكن شهرتها كمتنبئة تعطي توقعاتها ثقلاً ووزناً، في حين أن تحقق تلك النبوءات ألقى بهالة جديدة من القداسة حولها حسب تقدير شعب القبـائل الفقير الذي يسير أسراه الآن وراءها. مشت بإباء وشمم ثم ردت بـأكثر الأسـاليب عنـاداً علـى أسـف المارشال معلنة بصوت يسمعه أتباعها أن ما حصل الآن عرفت به قبل زمن طويل. إنها مشيئة ا لله وقدره المكتوب بأحرف من لهب. وتبع كلماتهـا صـراخ وعويـل أطلقتـه النسـاء النائحـات سمع بوضوح حين تحلقن حول الكاهنة المبجلة. ومن خلفها كانت نساء قبيلتها اللاتي وضُعـن كل اثنتين منهن على بغل، يسقطن أرضاً من الإعياء، في حين يسير خلفهن رجال القبيلة على الأقدام مطأطئي الرؤوس لكن دون أن يتخلوا عن كبريائهم...

طلع الصباح، واقتيدت "لالا فاطمة" وباقي النساء تحت حراسة مشددة إلى منطقة تقع خلف المعسكر، وظل مصيرهن معلقاً بانتظار إخضاع بـاقي القبـائل، الـتي لا زالـت تحمـل السـلاح، بشكل نهائي. مشهد النسوة كان حزينـاً وهـن يغـادرن معسـكرنا باتجـاه معسـكر الاعتقـال،

أبصارهن كسيرة، وجوههن شاحبه و مهزولة، باستثناء الكاهنة التي كانت تقود المسيرة بجسدها الضخم القوي البنية، وقد تزينت بالجواهر وألقت على وجهها نقاباً أبيض، ووشاحاً زاهياً يتدلى من كتفيها، ولم يبد عليها أبداً الارتباك أو الاكتئاب. أما الجنود المحليون العاملون في الجيش الفرنسي فقد أظهروا نفس الاحترام الذي يكنه لها مواطنوها، في حين أن المتسكعين من الأهالي في المعسكر تحلقوا حولها أملاً في أن تمنَّ عليهم بأفضالها وبركاتها. أما من استطاع أن يلثم أصابعها البيضاء- وكانت حقاً بيضاء- فقد اعتبر نفسه في سعادة نهائية. وجسمها الضخم وعيناها السوداوان بنظراتهما الثاقبة، ومقدرتها وشجاعتها وبسالتها كل ذلك زاد من شهرتها و قداستها. لم تغادر الكاهنة الأسيرة المعسكر إلا فيما ندر، حتى وصل الرسل من الجبهة حاملين أخبار إخضاع القبائل واستسلامها النهائي.[١٨]

شاهد والدي أيضاً منزل البطلة الكردية التي توفيت السنة الفائتة -١٨١٣ - بعد أن حكمت بثقة لمدة عشرين عاماً كل الأمة الكردية التي تسكن الجبال في تلك المنطقة، حيث تسلمت الزعامة من زوجها المتوفى حين كانت لا تزال فتية وجميلة واستطاعت المحافظة على سلطته حتى وفاتها. شاهد أيضاً ضريح أحد مساعديها الذي سقط ضحية تهوره وطيشه حين فاتحها بغرامه. فقد كان التعس يساعدها يوماً على ركوب حصانها. وكانت هي على عادة الأكراد، تتمنطق بسيف و زوج من المسدسات على خصرها، و أغراه الموقف كي يعبر عن هيامه بها بالضغط قليلاً على يدها، وبدون تردد أطلقت الرصاص على رأسه جزاء له على وقاحته.[١٩]

حدث الأمر، إذا لم تخني الذاكرة، بعد قليل من عبورنا نُزُلاً ثم طريقاً جانبية توصل إلى "ديلس"، حين أشار سائقنا إلى شجرة على الجانب الأيسر من الطريق وقال: "انتم الآن أيها السادة في منطقة القبائل العظيمة". وبدأنا نراقب ما حولنا ببعض الثقة، فها هو ذا موطن القبائل، المكان الذي أتينا من أجله. وبالنسبة لعيوننا التي ملت رؤية الأحياء الفقيرة في

---

[١٨] - "هيو مولينو والمسلي" : "مشاهد من الجزائر خلال حرب القبائل"، ١٨٥٨، ص ٣٦٢-٣٧٠.

[١٩] - "ادوارد.بي.بي.باركر": "سوريا ومصر تحت حكم آخر خمسة سلاطين أتراك"، ١٨٧٦، الجزء الأول، ص٢٢٠-٢٢١.

المدن، كان من المدهش مراقبة هذه الشخوص التوراتية تتجول في حقول القمح، أو تقود جمالها أحياناً، تماماً كالصور التي أتذكرها جيداً في نسخة الكتاب المقدس الموجودة في منزلنا عندما كنت طفلاً. وحين اقتربوا منا بدوا أشداء ذوي أجسام ضخمة، وأكثر قوة من العرب، فيهم الكثير من ملامح مالكي الأراضي الأحرار "اليومن" في إنكلترا. أما نساء القبائل اللاتي يكشفن عادة عن وجوههن، فهن عموماً قصيرات القامة يتميزن بقوة البنية، جباههن واسعة عريضة وعيونهن جميلة. لكن لا اعتقد أن نحاتاً يختار أنفاً لأنثى من القبائل ليكون مثالاً لملامح النساء هناك. وهن عموماً- حتى أفقرهن- يتزين بالجواهر الخاصة بمنطقة القبائل التي تتميز بجمالها ورخص قيمتها. شكلهن يشبه من أضناها العمل المرهق خارج المنزل تماماً مثل فلاحات فرنسا، ويتحملن فوق هذا دوماً مسؤولية عدد من الأطفال. فليس من العجيب إذن حين يعملن في الحقل ويرعين شؤون الأسرة داخل المنزل أن يبدو عليهن آثار الأوقات العصيبة التي مررن بها. قيل لي بأنهن يتزوجن في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة- ولهذا يتحملن في سن مبكرة أعباء الحياة وهمومها.

وعلى الرغم من ذلك لا يبدو عليهن إمارات القهر أو المذلة عندما كنا نمر بهن وهن يكدحن في العمل أو يسترحن من عنائه على جانب الطريق. بل على العكس كنا نرى دوماً ابتسامة جذلى على وجوههن. و تكشف أحياناً عن أسنانهن البيضاء القوية.

ويبدو عليهن شيء من الفضول الحماسي للتدقيق في ملابس السيدات الأجنبيات وفحصها .وكما قيل لي فيما بعد في تلك البلاد ذاتها، إن نساء القبائل (رغم الضغوط الكبيرة التي يتعرضن لها نتيجة قوانين الميراث والزواج) مازلن قادرات على الاحتفاظ بمكانتهن في المجتمع القبائلي، إذ يعملن بجهد كبير، ويتوقعن بالمقابل من الرجال أن يعملوا بنفس القدر، لكنهن يملكن سلطة أكبر داخل المنزل بالمقارنة مع أخواتهن في المجتمعات العربية. إن التقاليد، أو القوانين غير المكتوبة في بلد ما، لها قيمة أكبر من القوانين المكتوبة التي تتمتع بالقوة الاسمية. فحين يتكلم الرصاص ويشتد أوار الحرب يبدأ دور نساء القبائل بكل

ما يملكنه من فعالية وتأثير. والويل الويل للجبان والمتواني الذي يتخلف عن القتال ويختبئ في منزله أو ينذر نفسه لرعاية مصالح عائلته حين تكون المعركة دائرة.

عندها لا تكتفي الزوجة الرقيقة بطرده خارج البيت بعصا غليظة ليتوجه إلى الجبهة بل قد تصوب عليه رصاص بندقيته إذا دعت الحاجة. لكن حين يكون الزوج في جبهة القتال على خط النار يصبح الباعث الرئيسي لقلق الزوجة واهتمامها. وطالما بقي قادراً على الضغط على الزناد تقوم بتلقيم السلاح من أجله. وإذا ما سقط جريحاً تأخذ مكانه بعد أن توصله إلى بر الأمان حين لا يجدي قتاله نفعاً. ولو كنت في موقع المسؤولية عن هذا الشعب (الذي يتميز أفراده بالبدانة وقصر القامة)، لكان أكثر ما يثير قلقي هو استمالة النساء إلى جانبي. أما الرجال فسرعان ما يخضعون إما بالترغيب أو بالترهيب.[٢٠]

قبل الاسترسال في سرد الرواية، من المستحسن إعطاء بعض الملاحظات حول الحياة الأسرية والقبائلية عند قبيلة "الجف"، وخصوصاً تلك المرأة غير العادية التي حللت ضيفاً في منزلها. امرأة فريدة من نوعها بين المسلمات، بالقوة التي تملكها وبالفعالية التي تستخدم بها الأسلحة التي بحوزتها.

"الجف" قبيلة قديمة. ظلت تتمتع بالقوة منذ أقدم العصور التاريخية لمنطقة كردستان، واشتهرت بالتكتيك الذي يستخدمه زعماؤها للاتفاق والتماسك والتلاحم فيما بينهم. هذه الصفات المميزة –التماسك والترابط والتلاحم–، وهي نادرة الحدوث بين زعماء الأمة الكردية على النطاق الأوسع، مكنت القبيلة من امتلاك الثروة والقوة، وبذلك سيطر زعماؤها على مدن هامة مثل "بانجوين" و "حلبجة" وغيرهما، بالإضافة إلى العديد من القرى والأراضي التي حصلوا عليها بالشراء من أصحابها. علينا هنا أن نستطرد قليلاً لندخل "السيدة عادلة" إلى الرواية. هذه السيدة أتت من خارج الحدود إذ أن المقاطعة الفارسية التي تتاخم أراضيها

---

[٢٠] – "الكسندر . أ . نوكس" : "اللعب الجديد"، ١٨٨٣، ص ٢٢٢–٤.

"شهر الزور" هي "أردلان". و "أردلان" هذه كانت سابقاً مملكة تحكمها أسرة صغيرة من الأمراء الأكراد الذين وان كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي عملياً، إلا أنهم يدينون بالولاء لشاه إيران. ومنذ خمسمائة سنة لا يزال هؤلاء الأمراء يحكمون أردلان متخذين من "سينه" -التي لا تزال حتى الآن- عاصمة لـ"أردلان".

اضطر زعماء "الجف" منذ القدم لإقامة علاقات وديةّ مع الأسرة الحاكمة في "أردلان" وترسيخها وتوطيدها من حين لآخر بالزواج والمصاهرة بين زعماء الجانبين المهمين والثانويين. هذه التحالفات كانت تقابل دائماً بالشك وعدم الارتياح من جانب الأتراك الذين رغبوا بشدة في تردي علاقات حسن الجوار بين "الجف" وجيرانها في فارس، وبالتالي عندما أعلن "عثمان باشا" عام ١٨٩٥ عزمه على الزواج من عائلة "وزير" في "أردلان"، واجهته الحكومة التركية ببعض المعارضة لكن دون جدوى، لأنه أحضر من "سينه" إلى بلدته "حلبجة" التي كانت عندئذ قرية لا أهمية لها، عروساً من عائلة "وزير" كان والدها يشغل منصباً مهماً في طهران.

وحين استقر المقام بالسيدة عادلة في "حلبجة" شرعت بترسيخ مركزها، ساعدها على ذلك سمعة عائلتها،وهو أمر لم يعارضه "عثمان باشا". فقد بنت بيتين جميلتين على الطراز المعماري المعروف في"سينه"كانا من أجمل البيوت في منطقة "السليمانية"، بعد أن استقدمت البنائين والصناع من إيران لإنجاز المهمة.كان جميع خدمها من الفرس، كما أنشأت في بيتيها الجديدين في "حلبجة" مستعمرة صغيرة من الأكراد و الفرس، وفتحت أبوابها لجميع الرحالة من وإلى تلك البلاد، وحافظت على اتصالات مستمرة مع "سينه" التي تقع على مسيرة خمسة أيام.وشيئاً فشيئاً بدأت تملك زمام السلطة الرسمية، فقد كان "عثمان باشا" يستدعى مراراً لرعاية بعض المصالح الحكومية وعليه بالتالي أن يسافر إلى "السليمانية" و "كركوك" و "الموصل". ولهذا كانت "السيدة عادلة" تمارس الحكم في غيابه، فبنت سجناً جديداً،

وأسست محكمة للعدل ترأستها بنفسها، ووطدت سلطتها بحيث لم يجد الباشا ما يفعله خلال وجوده في "حلبجة" سوى تدخين النراجيل، وبناء حمامات عامة جديدة، والقيام ببعض الإصلاحات على الصعيد المحلي. بينما زوجته هي التي تمارس الحكم. بنت سوقاً في "حلبجة" عبارة عن بناء رباعي الأضلاع يتألف من أربعة صفوف مسقوفة من الدكاكين تتصل فيما بينها بأزقة بها عدد آخر من المحلات كانت كلها مغطاة بقباب وأقواس من الآجر الجيد الصنع، وبدأت التجارة تزدهر في "حلبجة" التي أخذت تنمو وتتحول إلى مركز تجاري متميز إلى حد جعل الأتراك يشعرون بالغيرة، ولكي يحكموا قبضتهم عليها أقاموا مركزاً للبرق، اعترض عليه الأهالي بقطع الخطوط البرقية. وفي نفس الوقت نصحت "السيدة" الأتراك بعدم إصلاحها، لأنها تعترض شخصياً على تعدي الأتراك على أراضيها، وأنذرتهم بأن مواطنيها سيقطعون الخطوط البرقية حالما تقوم السلطات التركية بمدها من جديد. ولهذا لا تملك "حلبجة" اليوم خطاً للبرق، مع أن موظفاً رسمياً لا يزال يقيم هناك و يلقب بمدير مصلحة البرق. وخلال فصل الصيف عندما يكون الطقس في "حلبجة" شديد الحرارة تنتقل السيدة مع محكمتها ومجلسها إلى ضيعة صغيرة في التلال، أو إلى بلدة تابعة للأراضي الإيرانية، حيث تبقى هناك لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر .

أنشأت "السيدة عادلة" داخل "حلبجة" وفي المناطق المحيطة بها حدائق عامة على الطراز الفارسي، هذا عدا الجنائن الخاصة بالبيوت. وينتشر الآن حول البلدة عدد من الحدائق الجميلة بأشجارها الكثيفة التي تستظل تحتها العرائش ومساكب الأزهار.

ها هنا في أقاصي أصقاع الإمبراطورية التركية المتفسخة والمتردية تقوم بقعة صغيرة من الأرض تحت حكم امرأة كردية، حولتها من مجرد قرية على سفح تل

مجدب، إلى بلدة تنتشر حولها الحدائق، وهو أمر بمثابة إحياء لدولة عتيقة في تلك الأصقاع.

ما يثير الاهتمام حقاً هو الحجم الذي تشغله تلك السيدة في شؤون المواطنين وأحاديثهم، فهي ببناء هذا السوق الذي جذب التجار وكان مصدراً لمرابح كثيرة لهم، وجدت به في الوقت نفسه أفضل وسيلة لملء جيوبها الخاوية بالمال. فقد كانت غارقة بالديون لأصحاب دكاكينه، ومن الطبيعي أن يكون الخيار مفتوحاً أمامها لتحديد فترة الوفاء بها. ويقال بأنها تدفع دائماً في النهاية؛ ولهذا السبب، بالإضافة إلى السبب الوجيه الذي يجعل المستأجر خاضعاً للمالك القوي، لم يحاول أحد تحديد مشترياتها التي كانت ضخمة حقاً في مجالي الملابس والمواد الخام ....

... كانت الأرضية مغطاة بأفضل أنواع السجاد المستورد من "سينه"، وفي الركن البعيد (من القاعة) هنالك هيكل سرير نحاسي ضخم كوّمت عليه حشيات الريش، وأمامه وضع فراش مغطى بالحرير جلست عليه "السيدة" نفسها وهي تدخن. ومن النظرة الأولى يتبين المرء نقاء أصولها الكردية البادية في وجهها الصغير المدور، وفمها الواسع قليلاً، وعينيها الصغيرتين اللامعتين، وأنفها الصغير المقوس قليلاً، أما نحافتها فتطابق تماماً الشكل العام للأكراد الذين لا يميلون أبداً إلى البدانة. ولسوء الحظ كانت تسرف في استخدام "المكياج"، ولهذا كان هناك بعض التنافر اللوني بين جفونها المكحلة السوداء وبياض جبهتها وحمرة خديها. وبالرغم من هذه المثلبة، فإن صلابة الخطوط المحددة لوجهها كانت بادية للعيان، من العينين اليقظتين، إلى الأنف والذقن القاسيين... كان لنبراتها رنة خاصة لا تملكها النساء، ومع أنها لم تكن عميقة لكنها واضحة وحاسمة وحادة....

أمضينا الصباح في السوق، وعدنا لتناول طعام الغداء الذي قدم لنا عند الظهر، وعند العصر قدم لنا الشاي– فالفرس هم الذين بدأوا عادة شرب الشاي وقت العصر قبل الإنكليز بوقت

طويل. ثم دخلنا ديوان "السيدة عادلة".... الغرفة الطويلة كانت هذه المرة مكتظة عن أخرها. وقرب الفراش الذي تجلس عليه. جلس شخصان؛ أحدهما "ماجد بيك" وهو الابن الأكبر لزوجها وكان في حوالي الخامسة والأربعين، والآخر هو "طاهر بيك"، والاثنان تدعوهما السيدة" لمجلسها دائماً عصر كل يوم. "طاهر بيك" رجل كردي متجهم الوجه، بعيد الشبه بأخيه الأنيق المظهر، بجسده الضخم، ووجهه ذي الملامح التي تشبه الإنكليز أكثر من أي كردي عرفته، رغم أن لعدد كبير منهم ملامح ومظهر الأعراق السكسونية. العيون الزرق، والبشرة الناعمة، والأنف القصير المستقيم، والشارب الكث، والذقن العريضة القوية هي الملامح التي يلاحظها المرء فوراً عليه، وقد جلس ويده على خصره، دون أن ينطق بحرف، إنما كان يكتفي بهز رأسه بين الحين والآخر موافقاً على شيء قالته السيدة.كل زعماء "الجف" يمتلكون ميزة الصمت هذه ويجلسون ساعات طويلة أحياناً دون أن يتفوهوا بكلمة.

تربع حول الغرفة مواطنون أكراد من جميع المستويات والأنـواع: أهالي "حلبجة" وضواحيها؛ ورجلان شردا من "هاموان" في عمل ا لله وحده يعلم طبيعته، كانا يجلسان بصمت وقد ارتسمت على وجهيهما الأسمرين علامات الارتباك وكأنهما لم يألفا سوى حياة البراري، فقد وضع كل منهما يده على بندقيته ونظر حوله بحذر وانتباه بحكم العادة؛ هناك أيضاً شيخ اسود البشرة من "بافا" وهي قرية في كردستان الإيرانية؛ وثلاثة فلاحين من "سينه"؛ وتجار من أماكن متعددة، ليكوّن الحاضرون جمعاً من كل فصائل الأكراد الجنوبيين. كان كل منهم، من أصحاب الحوانيت وحتى الشيخ الأسود، متمنطقاً بالخنجر الكردي التقليدي الضخم. كان الخدم يقفون باستعداد قرب الباب أو بجانب سيدتهم وسادتهم، وهناك كدس من البنادق في أحد أركان الغرفة يشير إلى طبيعة بعض الحاضرين. وعلى الشرفة خارج الغرفة تجمع الفضلة خلف الباب وظهروا من خلال زجاجه، وعلت أصواتهم أحياناً وهم يعلقون مجيبين على ملاحظات "السيدة"، أما الوصيفات الأنيقات فقد كن يتجولن في الغرفة وقد ارتدين ثوباً واسعاً وترباناً مائلاً على الرأس، يقدمن السجائر، أو يحركن المراوح أمام "السيدة"- فالجو كان حاراً-، أو يحضرن مقصاً وشريطاً لقياس الأقمشة الحريرية التي كانت تتفحصها بدقة. كان

هناك تاجر يهودي من السوق يتربع أمامها ويعرض عليهـا بضاعتـه مدونـاً علـى ورقـة قـذرة بالعبرية "طلبات مشترياتها الضخمة من جميع أنواع السلع" والوصيفات ينصحن أو ينتقدن أو يخترن الأقمشة بأنفسهن. في حين كانت هي ترفض ما اخترنه فوراً أو توافـق عليـه أحيانـاً، فقد كانت تتعـامل معهـن بمـودة، أمـا الحضـور فكـانوا يعلقـون علـى مـا يحـدث ويمـازحون "السيدة" فيما يتعلق بمشترياتها، وحين ترد عليهم مداعبة بلغتها الكرديـة السـريعة يضـج الجميع بالضحك الذي كان أحياناً موجهاً إليها. ووصل أحد أصحاب الدكاكين حاملاً "فـاتورة" ضخمة فات موعد استحقاقها. فأخذتها منه ووقعت خلفها مصادقة عليها، حيث أعطته الحق في الحصول على كمية من القمح حين يجنى المحصول، لأنها لا تملـك نقـوداً سـائلة، أو علـى الأقل هذا ما تدعيه.[٢١]

كنا جالسـين هنـاك حـين أتـت رسـالة مـن أرملـة مثقفـة أعرفهـا في "سـيؤن" تطلـب فيهـا حضوري. سارت بي الوصيفة وهي تجر ثوبهـا الأخضـر عـبر بسـتان نخيـل رملـي، وصعدنـا درجاً أبيض لندخل غرفة لطيفة الشكل غطيت أرضيتهـا بالسـجاد وانتصبـت فيهـا الأعمـدة، وجلست داخلها حوالي عشرين سيدة بشكل مربع كبير حول زعيمتهن الروحية، وقد ارتديـن أثواباً قطنية موردة وتزيّـن بأسـاور مـن العقيـق. كـان منظرهـن يشـبه "متحذلقـات موليـير". وكانت الأرملة شابة ممتلئة الجسم، براقـة العينـين، وقـد لفـت شـعرها بعقفتـين صغـيرتين جميلتين على جانبي وجهها. وعندما رأتني أدخل، انهمكت علـى عجـل بقـراءة نسـخة مـن كتاب "البخاري" كان مفتوحاً فوق قاعدة خشبية صغـيرة علـى الأرض أمامهـا، بصـوت خبـير خلت نبراته من أي تعبـير لكـثرة التكـرار. ولم تلاحـظ وجـودي بسـبب شـدة اسـتغراقها في القراءة، في حين احتار جمهورها بين رغبتهن التي تعـودن عليهـا في الإصغـاء وبـين الفضـول الذي يقتلهن للنظر إلي.

---

[٢١] - "أي.بي.سون" : "رحلة قمت بها متنكراً في العراق وكردستان"، ١٩١٢، ص ٢١٦-٢٣٤.

تقدمتُ بين الجالسات، وانحنيت وقبلتُ يدي تحيـة لسيدة المنزل الـتي رحبـت بخطبـة رقيقة بانضمامي إلى أخواتي في طلب العلم. ولم تفعل ذلك تدريجياً، بل تدفق الكلام من فمهـا كالسيل، وهي تمسك بي بيد وتنظر إلي بطرف عينيها.وتتـابع في نفس الوقـت جـذب انتبـاه الحاضرات باليد الأخرى. كانت تستخدم أصابعها الرشيقة المحنـاة في توكيـد كلامهـا المنمـق مستشهدة بالرسول والقرآن والشعراء- هي نفسها شـاعرة وقـد دخلـت في مسـاجلات شـعرية مفتوحة ربحت من إحداها طقماً كاملاً للشاي كجائزة لها.

في كل يوم -كما قالت- تجتمع السيدات هنا للاستماع إلى كتاب من الكتب الخمسة،القرآن، و(صحيح) "البخاري"، و (صحيح) "مسلم"، وكتـابين آخريـن مـن الـتراث نسيت اسميهمـا. كنت قد قرأت شيئاً من كتاب "البخاري" وعرفت جزئياً بعضاً مـن محتوياتـه: وحـين علمـت بذلك قفزت بي دون تردد إلى عالم الفلسفة وفضيلة الديـن. وسـألتني: "لماذا لا تعيشـين هنـا. لنتقابل كل يوم ونتأمل؟". في الواقع كنت مستغرقة في تأملاتي لأنه لم يكن لدي ما أقـول. أمـا الحاضرات فيبدو أنهن عرفن أن بإمكانهن الاسـتماع إلى محـاضرات "السـيدة" كـل يـوم، لكـن فرصتهن في رؤية سيدة أوروبية تبقى ضئيلة جداً؛ ولهذا بدأن التمرد والتململ. وأرسلن أخـيراً إشارة عبر الوصيفة ذات الرداء الأخضر يطلبن فيها أن أخلـع قبعـتي إذا لم يكـن لـدي مـانع: خلعت القبعة وابتسمت لهن: فغرت عدة نسـاء أفواههـن دهشـة، لكـن لم تسـتطع أي منهـن التوقف عن الإصغاء لخطبة السيدة التي شقت طريقها لأسماعهن ببلاغتها وزخرفهـا اللفظـي. وقبل أن تنتهي كـان علـي الانصـراف، فالشـمس آذنـت بـالمغيب: تركـتُ "السـيدة" ومشـاعر الصداقة تملأ جوانحي، لثقافتها التي تتدفق بعفوية ومرح وبساطة كنبع يتفجر من الصخر في هذه الأصقاع اللاهوتية الجديبة. أخبرتني أن هنالك العديد من النساء المثقفات في "سيؤن"- إذ أن "سـيؤن" و "تريم" همـا مدينـتا العـلم والفقـه- لكن يسـيطر عليهن "التعصب الأعمى". أما هي فليست كذلك: ذراعاها مفتوحتان دوماً لاستقبال مـن يرغـب مـن المسـيحيات في الاسـتماع إليهـا، بكل الحب والود والصـداقة الأصـيلة: وحـين مـررت في طـريـق العـودة ببلـدتـهـا قدمـت لرؤيـتي- كـان زوجـهـا متـوفياً ولديهـا العـديد من الأطفال. وتعيـش في مـنزل خـاص

بها، فهي كما أظن أكثر النساء سعادة في حضرموت، لأنها تفعل ما تريد، متمسكة دوماً بالفضيلة، ولها مكانة هامة بين قومها الذين لايترددون في إخبارها بذلك.[٢٢]

أخيراً، يؤيد سير فالنتاين شيرول في كتابه "المشكلة المصرية" أفكار وتطلعات النساء المصريات والدور الذي قمن به خلال المظاهرات السياسية ضد البريطانيين في ثورة ١٩١٩. وطبعا كان يعتقد أن الرجال هم القوة الرئيسية خلف مشاركة النساء هذه، لكنه يقدم هنا تفاصيل شائقة حول الحياة التي تعيشها النساء في مصر.

من أكثر ملامح الاضطرابات السياسية الأخيرة، التي استمرت لمدة سنة، إثارة للدهشة هو الدور البارز الذي لعبته النساء المصريات فيها. ففي مصر، كما في معظم الأقطار الشرقية التي تكون مؤسساتها المحلية السبب الأساسي في عزلة النساء، يكون الدور المؤثر الذي تمارسه المرأة، رغم ذلك، من خلف أبواب الحريم الآمنة عرضة للاستخفاف عادة. إن تعدد الزوجات في مصر أمر نادر الحدوث وينظر إليه بازدراء عموماً، ويقتصر على أوساط الطبقات الغنية كنوع من الترف ربما. واستبداد المرأة وسيطرتها المطلقة، كزوجة وكأم، على شؤون الأسرة داخل منزلها ليس أمراً استثنائياً في مصر. هذا على الرغم من نظرة الازدراء الشائعة التي ينظر بها الجنس الأقوى لها. كما أن نصائحها و أوامرها تبقى مع الزوج و الأبناء حتى بعد أن يغادروا عتبة البيت إلى العالم الخارجي الذي يفترض به أن يتجاهل وجودها ذاته. وحتى وقت قريب كانت السيدة المصرية من الطبقات الاجتماعية العليا لاتعرف شيئاً عن المجتمع خارج حدود البيت ولا تلتقي أبداً إلا بأفراد جنسها. لكن التأثير الجمعي الذي يمارس عبر مجتمع الحريم على العادات و الأفكار التي يتبناها المجتمع الذكوري كان ولا يزال عاملاً حاسماً و مهماً. ففي أيام "الخديوي إسماعيل" كان للأمير ة الوالدة بمؤسستها الخاصة

---

[٢٢] – فريا ستارك : "البوابات الجنوبية لجزيرة العرب"، ١٩٨٢ (ط.أ ١٩٣٦)، ص ٢٠١-٢٠٢

الضخمة قوة لا يستهان بها في البلد، ولا يفوقها سوى نفوذ رئيس الخصيان داخل قصرها، وهو بالمناسبة زنجي أصيل من السودان، تثق به ثقة مطلقة وتأتمنه على مكنونات نفسها التي تفتقد إلى أبسط المبادئ الأخلاقية. وحتى في العهود اللاحقة يمكن تتبع مصادر المكائد السياسية إلى شخصية تقبع مختفية في أكثر أقسام الحريم عزلة. فالدهاء والفتنة كفيلان بتعويض الأنثى عن نقص التعليم، وخلال السنوات الماضية بدأ العديد من المصريين من ذوي المراكز الاجتماعية المرموقة السماح لبناتهم بتحصيل بعض التعليم الأوروبي، ووصل الأمر إلى حد استقدام مربيات أوروبيات للإقامة في منازلهم. وهنالك الآن في مصر عدد معتبر من السيدات المصريات يملكن المؤهلات لفتح "الصالونات الأدبية"، كما فعلت مثلاً الأميرة "نازلي" حين غامرت قبل عشرين سنة بفتح بيتها لجماعة منتقاة من الزوار الرجال. إن زيادة فرص السفر إلى أوروبا، و الصلات الوثيقة بين سيدات المجتمع الراقي ذوات الأصول التركية وبين "الآستانة، حيث أفرزت ثورة عام ١٩٠٨ هناك حركة نسائية ناشطة،كل هذا فسح المجال لظهور أفكار وتطلعات جديدة داخل الحريم في مصر. ومع أنه لا يوجد حتى الآن أي اختراق حقيقي واسع النطاق للتقاليد القديمة، لكنها لم تعد تحظى بنفس الاحترام والتبجيل اللذين كانا حتى وقت قريب غير قابلين للنقاش.

أما الفلاحون في مصر فلا يفرضون على نسائهم قيوداً مشابهة، لأن على البنات والفتيات أن يقمن بجزء من العمل في الحقل (وهو جزء مرهق ومضن). والفلاح في واقع الأمر يعامل المرأة وكأنها خلقت لحمل الأثقال فقط، وحين يركب الرجل حماره متمهلاً، تجدّ الزوجة بالسير خلفه وعلى رأسها حمل ثقيل تنوء به. وبالرغم من هذا، فهي التي تحكم في كثير من الحالات داخل منزلها وخصوصاً عندما تمتلك حساً تجارياً قوياً كما هو الأمر في معظم الأحوال. فهي التي تقوم عادة بتسويق كل المنتجات من جبن وحليب وبيض... وقد أصبحت مؤخراً خبيرة حتى في بيع القطن. في ورقة هامة قدمت أمام "جمعية القاهرة الجغرافية"، قبل سنتين. وصف "السير ويليام ويلكوكس" كيف استفادت الكثيرات من زوجات الفلاحين من موجة ارتفاع الأسعار نتيجة الازدهار في المجال الزراعي ليبدأن إقراض المال على المستوى المحدود

لحسابهن الخاص، وفي حالات أخرى قمن بإقراض المال لازواجهن! ففي إحدى القرى الموسرة حيث يقدر سعر الأراضي المملوكة للفلاحين بحوالي ربع مليون جنيه إسترليني، معظمها من الأملاك الصغيرة، تمَّ التخلص من جميع الديون ما عدا حوالي خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات، و عرض ثمانون بالمائة من نساء القرية إقراض مبالغ صغيرة من المال. وتبين أنهن اقرضن أزواجهن مبلغاً لا يقل في مجموعه الإجمالي عن ستة آلاف جنيه، بمعدلات فائدة مرتفعة جداً. وبهذا تبقى الأرباح على الأقل داخل الأسرة بدلاً من أن تذهب إلى جيوب المرابين اليونانيين والأقباط، وتتعزز سلطة الزوجة داخل المنزل وتقوى بشكل كبير، وهو اعتبار ذو مغزى في بلد يستطيع فيه الرجل حسب تعاليم الإسلام أن يطلق زوجته بمجرد النطق بكلمة واحدة. إن نسبة الأمية بين نساء مصر لا زالت مرتفعة بشكل مخيف، ولا يتجاوز عدد من يعرفن القراءة والكتابة نسبة واحد بالمائة، لكن الحركة المؤيدة لتعليم المرأة التي بدأت في أوساط الطبقات العليا آخذة بالانتشار بين جماهير الطبقات الدنيا، والتحيز القديم ضد تعليم المرأة آخذ بالانحسار حتى في المناطق الريفية. وهنالك الكثيرون في الطبقة الوسطى وخصوصاً أولئك الذين تلقوا تعليماً على الطراز الغربي، يشعرون بنقص الثقافة والعقلانية عند "نصفهم الآخر" في المنزل، وهي حالة يعلمون بأنها ستستمر حتى يكون لنسائهم حظُ أوفر من مكاسب التعليم. في هذه المرحلة الانتقالية بالذات فتح الغليان السياسي فجأة أمام نساء مصر فرصة غير متوقعة للخروج بشكل جماعي من حياة العزلة المفروضة عليهن، وقد آن الأوان كي تتحرك أولئك اللاتي يشعرن بروح الثورة ضد الحياة المصطنعة التي تحجز وتحبس وتقيد حريتهن، فصرخة "الاستقلال التام" لها بالطبع جاذبية كبيرة، لأنهن وان كن لا يعلمن سوى القليل حول القضايا السياسية الكبرى التي تثيرها، لكن ألا يكفي أنها تولد أفكاراً حول الحرية لا يمكن أن تقف عند أبواب الحريم الخارجية؟ إن الكثيرات من النساء كن متحمسات بشدة، دون شك، للفوز بإعجاب أزواجهن، وأخريات انتهزن الفرصة بشوق شديد لاختبار نوع جديد من الإثارة التي تحطم الحياة الرتيبة المملة. وجميعهن أثارت مشاعرهن حمى الوطنية والنقمة على الاحتلال. في تلك الأيام العاصفة من شهري آذار ونيسان

١٩١٩ ، خرجت النسوة في جماعات كبيرة إلى الشوارع، وقد وضعت سيدات الطبقات العليا النقاب على وجوههن، وارتدين الأثواب السوداء الواسعة. في حين وصلت إلى المحظيات في الأحياء الفقيرة من المدينة عدوى الحماسة أيضاً، فخرجن سافرات ولبسن ثياباً أقل احتشاماً. في كل مظاهرة وشغب كانت النساء دوماً في الواجهة، يمشين في مواكب، بعضهن على الأقدام. وبعضهن في العربات، ويهتفن" الاستقلال"و"يسقط الانجليز!"، ويلوحن بالأعلام الوطنية، ثم يندفعن أفواجاً إلى بيوت الزعماء الوطنيين المتشددين، الذين كانوا يخطبون فيهن خطباً حماسية من نوافذ منازلهم. وكن يمشين في حشود ضخمة وراء نعوش المتظاهرين الذين سقطوا في المصادمات التي جرت في الشوارع، وكان عويلهن الحاد يعبر تعبيراً بليغاً عن المناداة بالانتقام. شاركن أيضاً في إقامة الحواجز والاستحكامات، ورغم أنهن سرعان ما يتفرقن حين يبدأ الصدام الفعلي، لكن من الملاحظ أن بعضهن يعاودهن شعور الظفر والارتياح حين يبدأ الرجال من جديد القيام بأعمال العنف الوحشية. أثار إضراب الموظفين الحكوميين حماسة النساء ووقفن في حراسة أبواب الوزارات لمنع أولئك الذين يريدون العودة للقيام بواجبهم.

في الأرياف أيضاً هبت النساء في ثورة عارمة ربما على الأوضاع الجائرة القاسية التي عانين من مرارتها من خلال مصادرة المؤن دون رحمة للإسهام في المجهود الحربي، والتطويع العشوائي للفلاحين للسخرة ضمن "مجموعات العمل" بأوامر من الحكومة البريطانية، كما قيل لهم. وانضمت النساء إلى الرجال في نزع خطوط السكك الحديدية وتدمير أعمدة خطوط البرق، وفي أعمال السلب والنهب وإشعال الحرائق المتعمدة التي حدثت في جميع أنحاء الريف المصري. كانت النساء أيضاً في الصفوف الأمامية مع الرجال في مظاهرات الاحتجاج الصاخبة ضد "لجنة ميلنر"، ومن الوسائل المفضلة لديهن والتي استخدمنها في الاحتجاج هي السيطرة على إحدى مركبات الترام في محطة معينة والسير بها عبر المدينة- دون دفع الأجرةبالطبع!- وهن يهتفن "يسقط ميلنر"، وأحياناً يكون الاحتجاج لبقاً وذلك حين يلوحن بأعلام ورقية صغيرة في وجه أي أوروبي يغامر باستعمال حقه في ركوب إحدى وسائل

المواصلات العامة. والأمر الأخطر أن عدوى الوطنية قد انتشرت بين فتيات المدارس، وهؤلاء كالتلاميذ تماماً، أعلن الإضراب للتعبير عن رفضهن "للورد ميلنر" وباقي أعضاء اللجنة. والأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم الحادية عشرة أو الثانية عشرة، كتبوا برقية احتجاج مؤثرة وأرسلوها إلى وزير المعارف وإلى رئيس الوزراء أيضاً. بعض الوزراء أنفسهم اشتكوا بمرارة من أنهم لم يعد بإمكانهم تهدئة بناتهم. والفتيات في الحقيقة أكثر عنفاً من الفتيان، والبعض من المدرسات الإنكليزيات القلائل مررن بأوقات شديدة الصعوبة مع تلميذاتهن المتمردات. قد تبدو بعض هذه الأعمال صبيانية وطائشة، لكن من الخطأ التقليل من أهمية انتشار الإحساس بالمرارة الذي كان الباعث الرئيسي لهذه الثورة النسائية. لأن نساء مصر، رغم أنهن لا يملكن أية قوة سياسية، انما يعكسن بصورة مبالغ فيها ربما، لكنها تدق ناقوس الخطر، الشعور العام بالثورة ضد السلطة والتي تنادي بها الحملة المتطرفة ضد المغتصبين البريطانيين.

أن المشاركة في المظاهرات الغاضبة في الشوارع قد لا يكون أسلم الطرق للوصول إلى التحرر، لكن التغيير عندما يكون على هذه الدرجة من العنف والسرعة لا بد أن يخلف أثراً مستديماً على نساء مصر. والأمر متروك لحكمة الرجال المصريين كي يشجعوهن على الاستمرار فيما بدأن. وعلى كل حال، فإن هذه المشكلة ولدت ثورة جديدة وشديدة الفعالية ستؤثر بالتأكيد على الحياة الاجتماعية بشكل أعمق من تأثيرها على الحياة السياسية.[٢٣]

[٢٣] - السير فالنتاين تشيرول : "المشكلة المصرية"، ١٩٢٠، ص ١٦٥-٩.

في حين أن الخروج إلى الشـوارع للمشـاركة في المظـاهرات يعتـبر شـيئاً جديـداً بالنسـبة لسيدات العائلات الموسرة. لكن يجـب أن لا يغيـب عـن بالنـا أن "لوسـي دوف غـوردون" وصفت قبل ذلك بسبعين سنة كيف أُمرت نساء الطبقات الدنيا من الشعب بإخلاء الشوارع خلال زيارة السلطان، لأن النسـاء العربيـات يعتـبرن صريحـات وجريئـات وقـد يجهـرن بالشكوى في حضرته.

كشف مؤلفو النصوص القليلة السابقة، إذن، لقرائهم عن احتمال كون حيـاة الاستكانة والخنوع التي وصفت بكثير من الثقة من قبل الأغلبيـة السـاحقة مـن الكتـاب الرحالـة، لم تعاني منها بالضرورة كل النساء في الشرق بدون استثناء .

مجتمع مريب جداً !

من الواضح أن "لويس وينغفيلد"، الذي عرفناه سابقاً حين أوصى بالاغتصاب كأفضل وسيلة لإسعاد النساء العربيات في الصحراء، كان يؤمن بأن الرحالة الغربيين يتمتعون بحق إلهي في الذهاب حيثما أرادوا لرؤية ما يشتهون. ولم يكن الوحيد في هذا، فالعديد من الرحالة الأوروبيين أظهروا دوماً الكثير من الغلظة والفظاظة واعتقدوا أن حقهم في الحصول على المعلومات التي أرادوها لا حدود له، وهم في الحقيقة أسلاف الكتاب في صحف الإثارة حالياً. في النص الأول يقوم "لويس وينغفيلد" في بحثه عن موقع مناسب لرسم أحد الشوارع، باقتحام منزل فيه والنظر ملياً إلى ملابس النساء التي يرتدنها داخله، لكنه يضطر إلى الفرار من المكان واصفاً النساء بأنهن "مجتمع مريب جداً".

كنت متلهفاً لرسم أحد الشوارع الفريدة في شكلها في الجزء الشمالي من المدينة، لذلك تجولت صباح أحد الأيام في الأزقة المعتمة والطرق الجانبية المعقدة حوله. ولرغبتي في النظر إليه من إحدى النوافذ (لأن من المستحيل رؤيته لو جلست في الزقاق الضيق) اخترت أحد البيوت وطرقت بابه. فردَّ علي صوت غامض من خلف شبك أحد الشبابيك فوقي؛ لم يكن الباب موصداً، فدلفت منه وصعدت درجاً دون أن أتوجس في الأمر شراً، وفي الباحة العلوية

وجدت نفسي فجأة محاطاً بجمع من النساء يرتدين ملابس بديعة من تلك التي ترتديها المغربيات المسلمات داخل المنزل دون حجاب أو نقاب. كانت أثوابهن تتألف من بنطال قصير وسترة من قماش زاه، بينما يختفي العنق والصدر خلف وشاح من نسيج رقيق وشفاف، أما الشعر فقد ضُفرت أطرافه بشرائط ذهبية وفضية، في حين يحيط بالجبهة فوق الحاجبين شريط من الحلي المتدلية المختلطة باللؤلؤ، وتزين اليدين والعنق أحمال ثقيلة من الأساور والقلائد وخيوط الترتر. كانت ثيابهن فاخرة جداً تناسب الجمال الشرقي بكل إسرافه ومهابته. اجتمعت النسوة حولي وسحبن سلسلة ساعتي وشددن شعري حتى وجدت البقاء في مجتمعهن المريب جداً مستحيلاً لمدة أطول. فأطلقت للريح ساقي. وهرولت السلم نازلاً بسرعة مغلقاً خلفي الأبواب في وجوه الحوريات اللاتي يطاردنني، حتى وصلت في النهاية إلى الشارع بأمان.[١]

هنري بلاكبيرن" فنان آخر أشار إلى الحادث نفسه في كتابه "الفنانون والعرب". وقد وصف هذا السلوك على أنه جزء من الغزو الإنكليزي لشمال أفريقيا.

"من الممتع رؤية المدى الذي يصل إليه رضى وقبول المغاربة والفرنسيين بهذا الغزو الإنكليزي الجديد. لقد أقمنا هنا طوال فصل الشتاء، وزرعنا الكروم، وعشنا حياة لهو ومرح كما نفعل في سويسرا تماماً. ثم كتبنا عن كل ذلك إلى إنكلترا، وكأن البلاد لنا، بل كأننا نحن الذين اكتشفنا سحرها وجمالها.[٢]

قد يفتقر هذا السلوك إلى التهذيب واللياقة،كما وصفه "بلاكبيرن" نفسه، لكن الرحالة الآخرين ذهبوا أبعد من ذلك بكثير للوصول إلى غاياتهم. "إس .سي.سونيني" الذي عرفناه

---

[١] – المحترم.لويس وينغفيلد : "تحت أشجار النخيل في الجزائر وتونس"، ١٨٦٨، الجزء الأول، ص ١٢–١٣.

[٢] – ص ١٩٣–١٩٤.

من قبل حين أشار إلى العادات الفاسقة الوحشية التي تتبعها النساء المصريات، رسم خطة وصفها بأنها: "جريئة جداً بالنسبة لمن يعرف سكان مصر". ولم يحل شيء بين "السيد سونيني" الجسور و بين دفع مبلغ من المال لعائلة مصرية ثمناً للموافقة على إجراء عملية ختان لإحدى بناتها في غرفته. كل هذا يفعله، طبعاً، تحت راية البحث العلمي. هنا، يقص علينا ما حدث في ذلك اليوم من تسعينات القرن الثامن عشر.

الكل يعلم ما هي عملية الختان. ولا أظن أحداً يجهل إن الذكور من اليهود والمسلمين يختنون. والعملية كانت إجبارية أيضاً عند قدماء المصريين. والسؤال هنا: لماذا يمارس الختان في مثل هذا الجو المناخي؟ ولن أحاول الإجابة هنا، رغم أنه يبدو لي من الثابت تقريباً أن الختان في هذه البلاد إذا لم يكن ضرورياً فهو على الأقل مفيد جداً لهذه الشعوب المهملة وغير المتحضرة. الأقباط أيضاً يمارسون الختان ويعتبرونه، تماماً كالمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، ركيزة من ركائز الدين بعد أن فقدوا اليقين بدخولهم الجنة بنعمة المعمودية التي يتمتعون بها كمسيحيين. كم هي غريبة هذه الممارسة الدينية التي تنكرها الطبيعة والتي لا يستطيع المرء الخوض فيها دون أن يخدش الحياء ويجرح المشاعر. ويمكن لمن يرغب بمعرفة تفاصيل العملية التي يخضع لها جميع المؤمنين بدين محمد أن يقرأ وصفاً لرحلتي إلى تركيا. أما في مصر فالختان ليس مقتصراً على الذكور–هنالك ختان للفتيات أيضاً.

هذا النوع من الختان كان منتشراً بين قدماء المصريين، وانتقل إلى ذراريهم فقط بعد ذلك. لأن الغرباء الذين استوطنوا مصر لم يكونوا بحاجة لممارسته. وأنا أعلم بمدى صعوبة مناقشة مثل هذه المواضيع دون إثارة أفكار أخرى لا علاقة لها بالاهتمامات (العلمية) التي تشغل عالم الطبيعيات. لكن عند هذه النقطة يصبح تاريخ الإنسان الطبيعي على درجة من الأهمية بحيث لا يمكن للقضية أن تمر بصمت. إذ لم يقم أحد من قبل بفحصها وتحديدها بالدقة المطلوبة.

ولسوف أستخدم هنا التعابير التي يسمح بها علم التشريح، وإذا ما افتقدت تعابيري هـذه إلى الوضوح بالنسبة للأغلبية فلأن الموضوع شديد الحساسية.

من المعروف أن النساء المصريات يمارسن الختان، لكن هناك عدم اتفاق على أسـبابه. فكثـير من الناس الذين كتبوا حول الموضوع اعتقدوا أن الختان هو قطع شفري الفـرج اللذيـن ينمـوان، حسب اعتقادهم، إلى أحجام غريبة في هذه البلاد. وآخرون حسبوا- ومنهـم الرحالـة الشـهير "جيمس بروس"- أن العملية ليست سوى بتر البظر الذي يكبر، كما زعموا، ويستطيل بشكل مشوه ومقزز.

وهذا ما دعاه "بروس" بالاستئصال، وهو تعبير نقلة مترجمه إلى لغتنا ونجد صعوبة كبرى في استبداله.

قبل أن تسنح لي الفرصة للتأكد من طبيعة ختـان الفتيـات المصريـات كنـت أيضـاً مـع الـرأي القائل بأن العملية عبارة عن بتر الأجزاء الزائدة من الشفرين أو البظر نظراً للعوامل والظروف التي تؤدي بهذه الأجزاء إلى النمو بدرجة أو بـأخرى. ومـن المرجـح أيضـاً أن هـذه العمليـة لا تمارس في مصر وحدها بل في كثير من بلاد الشرق، حيث المنـاخ الحـار والعديـد مـن العوامـل الأخرى يمكن أن تؤدي إلى نمو مفرط لهذه الأجزاء،ولدي من الأسباب ما يدعوني إلى الاعتقـاد بهذا بعد أن تناقشت مع بعض الأتراك المقيمـين في "روزيتـا" حـول مسـألة ختـان نسـائهم.لم يعطني هؤلاء إلا الجواب الـذي يؤكـد أن الأمـر لا يتعـدى كونـه تشـويهاً جسـدياً مؤلمـاً، كمـا شرحوا لي أيضاً الأسباب التي تدعوهم لممارسته. وقد رأينا أهمية كون الجسـد البشـري ناعمـاً وصقيلاً ولهذا فإن أي نتوء أو عدم استواء فيه يعتبران نقيصة يؤذي العين منظرها. ومن جهـة أخرى، فهم يزعمون أن النساء بعد هذه العملية يفقدن جزءاً من شهوتهن وبالتالي القدرة على الاستمتاع بالإثارة المحرمة. وهذا في اعتقادي استبداد بربري متطـرف يعـدّ مـن أحـط وأفظـع الأساليب التي تمارس ضد نصف المجتمع الإنسـاني مـن قبـل نصفـه الآخـر مـن أجـل متعتـه

وغيرته وطغيانه. وأظن أن السبب متعلق بأشياء أخرى بعيدة الصلة بالنمو المفرط لتلك الأجزاء من الجسم، وهو أمر مزعج دون شك لكن لا تعاني منه كافة النساء، ولا يمكن له أن يكون هدفاً لعملية مورست وانتشرت منذ القدم. لذلك قررت أن أجيب على السؤال بنفسي فوضعت خطة جريئة بالنسبة لكل من يعرف المصريين حق المعرفة. ولم يكن قراري رسم لوحة لامرأة أجريت لها عملية الختان. بل هو أن تختن فتاة في غرفتي وأمام ناظري. وكان "السيد فورينتي" شخصية متنورة أفدت منه كثيراً في الماضي وهو متحمس الآن جداً لمساعدتي في هذه المغامرة. وبواسطة رجل تركي عمل سمساراً للتجار الفرنسيين في "روزيتا"، استطعت أن أحضر إلى غرفتي امرأة كانت تجري عملية الختان للفتيات، بالإضافة إلى صبيتين- إحداهما ختنت قبل سنتين. والثانية هي التي ستجرى لها العملية هنا بعد قليل. وكنا أنا، والسمسار التركي. و إنكشاري من القنصلية. الرجال الوحيدين الذين حضروا العملية.

فحصت أولاً الفتاة التي ستجرى لها العملية. كانت طفلة مصرية المولد في حوالي الثامنة من العمر، ودهشت جداً عندما رأيت لديها نتوءاً لحمياً متورماً ومغطى الجلد. هذه النامية اللحمية تبدأ تحت زاوية الشفر الكبير مباشرة وتتدلى بطول نصف بوصة من نفس الزاوية. ويمكن الحصول على فكرة توضح تلك النامية بمقارنتها بشكل وسماكة عرف ديك الحبش. جلست المرأة التي ستجرى العملية على الأرض، وأجلست قبالتها الفتاة الصغيرة، وبدون أية تحضيرات قطعت بموسى رديئة الجزء النامي الذي وصفته لتوي. لم يبد على الفتاة ما يدل على أنها تعاني من آلم فظيع. ولم يكن هناك من علاج للجرح النازف بغزارة سوى حفنة من الرماد وُضعت عليه. ولم تلمس المرأة الشفرين أو البظر. فقد كانت هذه الأجزاء، على أية حال، غير ظاهرة عند الفتاة ولا عند تلك الأكبر سناً التي أجرت العملية من قبل.

إذن ، هكذا تختن الفتيات في مصر. ويعتقد أن هذه العملية ضرورية لأن ذلك النتوء الذي شبهناه "بالعرف" يصبح أكبر حجماً بتقدم العمر. وإذا ما ترك على حاله فإنه سيغطي فتحة الفرج. وأكدت لي المرأة أن هذه النامية قد يصل طولها إلى حوالي أربع بوصات حين تصل الفتاة

إلى سن الخامسة والعشرين. وهذه الحالة مقتصرة حصراً على النسوة من ذوات الأصول المصرية، وجميع النساء الأخريات،وحتى أولئك اللاتي عشن في مصر وأصبحن مصريات

يستثنين من هذه الظاهرة. في العادة لا يتم الانتظار حتى سن النضج- وتصل إليه الفتاة هنا في سن مبكرة مقارنة مع بلادنا في الشمال- لإجراء عملية الختان، إذ يتم التخلص من هذه النامية المزعجة في سن السابعة أو الثامنة. ونساء مصر العليا تخصصن في إجراء مثل هذه العمليات، وهي ليست على درجة كبيرة من الصعوبة، حيث تتجول الواحدة منهن في شوارع ودروب المدن والقرى عارضة خدماتها على من يرغب.

هناك خرافة مصرية قديمة تقول بإجراء عملية الختان عندما يبدأ النيل بالفيضان، ولهذا وجدت صعوبة كبيرة في العثور على عائلة تقبل ختان ابنتها في وقت لا يمكن أن نصفه بالمناسب، فنحن الآن في فصل الشتاء، لكن المال كفيل بتذليل هذه العقبة، كما يذلل العديد من العقبات غيرها.[٣]

النصان التاليان يصفان رحلة إلى السوق لاستعراض بعض البضائع. إن زيارة إلى سوق شعبي لا تثير الكثير من الفضول، لكن حين تكون البضاعة جواري يعرضن للبيع يصبح للكلام طعمٌ آخر. والكتّاب هنا (الكسندر دوماس و د.ايه.دوزاتس ثم ايه. و. كينغليك) يستغلون الفرصة لوصف أجساد النساء.

دخلنا الفناء ووجدنا البضاعة التي أردنا فحصها عارية تماماً كي نستطيع تقدير جودتها، وقد صنفت حسب اللون والجنسية والعمر. كانت هناك يهوديات على ملامحهن إمارات الوقار، بعيونهن السوداء وأنوفهن المستقيمة الطويلة؛ وعربيات سمراوات البشرة تزين

[٣] - إس .سي.سونيني، "رحلة داخل مصر العليا والسفلي"، ١٧٩٨، الجزء الثاني، ص ٣٢-٣٩.

الخلاخيل الذهبية أذرعهن وأرجلهن؛ ونوبيات عقدن شعورهن ضفائر جميلة تتدلى على جانبي الرأس. كن جميعاً من السمر وقد قسمن إلى صنفين لهما سعران مختلفان: والسبب يعود إلى أن بعضهن ينتمين إلى عرق يحافظ أفراده على حرارة الجلد باردة كالأفاعي تماماً، وذلك مهما كانت درجة حرارة الجو- وهذه مزية لا تقدر بثمن بالنسبة لمالك العبيد في هذا الجو المناخي اللاهب حيث يتوجب على كل مخلوق أن يمضي عشر ساعات في اليوم باحثاً عن ظل رطيب. وأخيراً كانت هناك الفتيات اليونانيات اللاتي اختطفن من "شيو" و "ناكسون" و "ميلو"، وبينهن طفلة دفعني جمالها الأخاذ ورشاقتها للسؤال عن ثمنها فقيل لي إنه ثلاثمائة فرنك.كانت السعادة بادية على وجوه الجواري، إذ أن النخاسين لا يقدمون لهن ما يكفي من طعام، ويضربونهن لأقل هفوة يرتكبنها، بل حتى من أجل نزوة من نزوات الأسياد. ولهذا يشعرن بأنهن لن يعرفن أوضاعاً أسوأ من وجودهن في سوق النخاسة. وكم من الابتسامات والتكشيرات والوعود الصامتة الشهوانية توزعها هؤلاء البائسات على المشترين الذين يتفحصونهن بدقة. فالنخاسون يعاملونهن كالقطيع؛ بل لا يوجد حصان في السوق يظهر المتحمس لشرائه فضولاً وحذقاً أكبر من ذلك الذي تفحص به هذه المخلوقات التعسة. وأكثر من ذلك ففي هذا المناخ اللاهب تفقد المرأة شبابها في سن العشرين...[٤]

قمنا بجولة في الأسواق: وبدا لي أن الغلايين والأسلحة هنا أرخص سعراً منها في القسطنطينية، ولهذا أنصحكم لو زرتم المكانين أن تختاروا أسواق القاهرة. فقد اشتريت من قبل الكثير من هذه الأشياء في القسطنطينية، ولم يكن خياري أن أثقل كاهلي بالمصاريف، أو بالحقيقة لم أَخْتَرْ التخلص مما أملكه في محفظتي بزيادة مشترياتي. في سوق الجواري المفتوح رأيت حوالي خمسين فتاة يعرضن للبيع، لكنهن جميعاً كن سوداوات أو سمراوات. صعد بي سمسار إلى غرف في الطابق العلوي من المبنى، وإلى عدة بيوت مشبوهة في الجوار كي أرى بعض النساء البيض. لكن المالكين اعترضوا بطرق شتى على عرض بضاعتهم وقد عرفوا انه لم

---

[٤] - الكسندر دوماس و ايه. دوزاتس: "خمسة عشر يوماً في سيناء"، (بدون تاريخ)، ص ٦١-٦٢.

يكن لديّ أدنى رغبة في الشراء: بعضهم رفض بحجة عدم شرعية الإجراءات، وبعضهم أعلن أن أية صفقة من هذا النوع تعتبر غير واردة طالما كان الوباء مستفحلاً. ونجحت أخيراً في رؤية أمة بيضاء كانت تعرض للبيع، لكن مالكها تعمد وضع سعر مرتفع جداً لها، وأثار آمالي وتوقعاتي إلى درجة كبيرة حين قال بأن الفتاة شركسية و"جميلة كالبدر"، وبعد طول انتظار قادني أحدهم إلى غرفة امتلأت نهايتها بالحشايا والملابس البيضاء دلالة على وجود امرأة من الشرق. وطُلب من الفتاة أن تخلع نقابها، عندها رأيت أنه على الرغم من أنها بعيدة جداً عن الجمال حسب معاييري الجمالية الخاصة، إلا أن وصفها بأنها جميلة كالبدر لم يكن في غير محله، إذ أن وجهها الكبير كان مدوراً تماماً وناصع البياض. ورغم أنها يافعة إلا أنها مفرطة في البدانة. وهي تعطي انطباعاً بأنها معروضة للبيع. وأن الأدوية استخدمت لتسمينها وتبيض لونها، أو أنها اتبعت نظاماً غذائياً خاصاً لهذه الغاية. قررت بحزم أن أكتفي برؤية وجهها فقط دون جسدها؛ ويبدو أن الاشمئزاز قد أصابها ربما بسبب قراري الفاضل هذا، وربما بسبب مظهري الشخصي، وربما لأنها رأت نفوري وعرفت خيبة أملي؛ أو لأنها أرادت أن تكسب حظوة لدى مالكها بإظهار تمسكها بدينه: على كل حال فقد هتفت بصوت عال مفعم بالشهوة قررت فيه أنها لن تقبل أن يشتريها كافر.[°]

في رحلاته عبر بلاد فارس خلال خمسينات القرن التاسع عشر، صُدم "د. موريتز فاغنر" حين اكتشف أن الرجال الأوروبيين المقيمين هناك يعقدون زواجاً مؤقتاً على النساء المحليات، وربما يشبه "زواج المتعة" لدى الشيعة المسلمين.

لكن حسب قوله فإن الحالات التي سمع بها كانت بين النساء (الآشوريات) اللاتي يتبعن الكنيسة النسطورية وبين الرجال الأوروبيين. ويعزو افتقار هؤلاء الأوروبيين إلى أدنى المبادئ الأخلاقية إلى حقيقة إقامتهم في الشرق لفترات طويلة!

[°] - إيه.و. كينغليك، "إيثون" : ١٨٤٤، ص ١٦٠-١٦١.

الوضع الداخلي للأوروبيين المقيمين هنا يثير الاهنمام. فبعض اليونانيين هم من المتزوجين، لكنهم تركوا نساءهم في القسطنطينية، كما أن أكثر أعضاء السفارة الروسية الذين أتوا إلى هنا كانوا من العزّاب. وفي كلتا الحالتين فإن القادمين الجدد اتبعوا عادة راسخة يمارسها منذ زمن طويل الأوروبيون المقيمون في إيران، حيث يعقدون زواجاً مؤقتاً على النساء النسطوريات. والطائفة المسيحية النسطورية التي تتفوق في عددها على الأرمن- الجيورجيين في أذربيجان تميل بشكل ملفت للنظر إلى الأوروبيين. ولا يمنع أي سبب، دينياً كان أم قومياً أم عرقياً أفرادها من الموافقة دون تردد على تزويج بناتهم من الأوروبيين لفترة محددة و(لا يهم إذا ما استمرت ست سنوات أو ستة أشهر). بعد الإتفاق على دفع مبلغ معين من المال. ويتم ترتيب الزواج عموماً بطريقة نظامية ورسمية. بحضور الأبوين و أقارب الفتاة، وبموافقة الكاهن النسطوري في كثير من الأحيان حيث يقوم تقريباً بدور كاتب العدل.

وفي الحقيقة هنالك تنافس حاد على اختيار أي قادم جديد يفترض أن يقيم لبعض الوقت في البلد. ومن الطبيعي أن ينتقي أكثر الأجانب ثراءً أفضل الزوجات، إذ حالما يتم الاتفاق حول مدة وشروط الزواج "حسب الطلب" هذا. يُحضر الأقرباء العروس إلى بيت الزوجية بما تستحقه المناسبة من طقوس إحتفالية. وفي العادة تقيم أسرة العروس أيضاً في منزل الزوج المؤقت، ومن الطبيعي أن يقوم هو بإعالة جميع أفرادها. وفي كثير من الأحيان تُذكر هذه الترتيبات في عقد الزواج ذاته.

ولا يقتصر الأمر على التجار اليونانيين فقط، بل إن معظم أعضاء القنصلية الروسية العامة يتزوجون بهذه الطريقة التي ترسخت وموررست منذ وقت طويل حتى أنها لتبدو عادية وطبيعية ولا تصدم مشاعر أو أخلاقيات الرأي العام. ويسأل هؤلاء الأوروبيون بعضهم بعضاً عن حال الزوجة والأولاد دون أن يشعروا بأدنى حرج، بعد أن خصص كل منهم قسماً من منزله لإقامة نسائه ودعاه "الحريم". أما الزوجات فقد احتفظن بأسلوب وعادات الحياة المحلية،

حيث يغطين وجوههن أمام الرجال الغرباء، ولا يشاركن الضيوف الطعام إذا ما دعوا للبيت، ويمضين أوقات الفراغ، كالنساء التركيات، في التزين والتجمل وزيارة الحمامات لعامة، وعندما يخرجن يبدون كغيرهن من النساء (المسلمات) حيث يغطيهن الحجاب من الرأس حتى القدم.لا يمكن لأحد أن يشك بإخلاص هؤلاء السيدات وحنانهن على أطفالهن. لكن، بغض النظر عن جمالهن، فإن افتقارهن التام إلى التربية الفضلى والتهذيب يمنعهن من أن يكن بديلاً عن صحبة النساء المثقفات في أوروبا. ويبدو واضحاً من الندم الذي يظهره الأزواج الأوروبيون حين تخطر لهم الذكريات الحانية لحياتهم في الغرب، أن هذه الزيجات الأوروبية– الفارسية لا تشبع عاطفة ولا خيالاً؛ فالشاب "السيد مافرو–كوداتو" يحن لصحبة شابة فرنسية؛ و"السيد اوسيروف" يفتقد تهذيب سيدات المجتمع في "صالونات" بطرسبورغ. ومع أن جمال هؤلاء الفارسيات المسيحيات لا يمكن إنكاره، إلا أنه يفقد معناه عند المقارنة مع رقة الروح ودماثة الخلق عند نساء الطبقة المثقفة في أوروبا.

وحالما تنقضي المدة المحددة في العقد، يجدد الإتفاق لفترة أخرى، إلا إذا شعر السيد طبعاً بالملل مع شريكته، عندها يقوم بتوقيع عقد جديد. أما الزوجة التي هجرها زوجها فهي على يقين من الزواج مرة أخرى لأنها تملك ما يكفي من المال، في الوقت الذي يدفع فيه الرجال المسيحيون من تلك الطائفة في إيران مبالغ طائلة للحصول على زوجة أما الأطفال، ثمرة هذه الزيجات قصيرة الأمد، فإنهم يتبعون بشكل ثابت تقريباً أمهاتهم. وقيل لي إن المرأة النسطورية تحب هؤلاء الأطفال حباً يفوق أولئك الذين تنجبهم من أزواجها اللاحقين الذين يعاملونهم بكثير من الرقة والعطف. ومن الملاحظ أيضاً أن الأباء الأوروبيين لا يترددون عادة في هجر أبنائهم هؤلاء، ولا يفكرون أبداً بالمصير الذي سيؤولون إليه. إذ يبدو أن طول إقامتهم في الشرق أدى إلى تبلد الإحساس بالواجب والشرف والحنان الأبوي حتى عند أولئك الذين يتمتعون منهم بالأخلاق القويمة.[٦]

---

[٦] – د.موريتز فاغنر: "رحلات في فارس، وجورجيا وكردستان"، ١٨٥٦، الجزء الثالث، ص ١١٢–١١٥.

من الواضح أن الرحالة اعتبروا التجوال هنا وهناك، واختلاس النظر إلى داخـل البيـوت في القرى جزءاً من الرحلة العامة إلى الشرق الأوسط. والأمـر المفـاجئ ، حـين نقـرأ وصفهـم لرحلاتهم تلك هو اللطف الذي قابل به السكان المحليون هـذه التعديـات علـى حرمـاتهم. وفي الواقع إن اللطف واللباقة بعيدان كل البعد عن هؤلاء الزوار المتطفلين؛ إذ أن أقل بادرة سخط تظهرها امرأة دخلوا منزلها عنوة تكون عرضة لأن تفسر بأنها كره للأجانب أو خوف من "الإصابة بالعين"– كما سنرى في النص التالي الذي نشره "وليـام أرثـر برومفيلـد" عـام ١٨٥٦. أما "أرثر كوبينغ" الذي زار الأرض المقدسة في بدايات هذا القـرن،فقـد تجـرأ علـى دخول أحد المنازل ثم ربط المشهد داخله برواية توراتية.

لم نتحرش بطيور الحمام داخل القرى، لكن اصطياد أي طائر خارجها مهما كان قريبـاً مـن البيوت يعتبر أمراً لاغبار عليه ولا يعارضه الأهالي الذيـن تصرفـوا معنـا بشـكل دائـم تقريبـاً بدماثة ولطف، حين كنا نسير بين بيوتهم المبنية بالطين أو الآجر. وصحيح أن الأطفـال كـانوا يهربون أحياناً عند رؤيتنا، وأن النسـاء في أحيـان أخـرى يعـبرن عـن الخـوف مـن "الإصابـة بالعين الشريرة" بإظهار الضيـق ونفـاذ الصـبر كلمـا دفعنـا الفضـول لتـأملهن أو النظـر إلى مـا يفعلن، إلا أن الرهبة والنفور من "الفرنجـة" آخـذان في الانحسـار بسـرعة، ليـس في القـاهرة وحدها، لكن على طول مجرى النهر.[٧]

تجرأنا على اقتحام أحد المنـازل المحرمـة، حيـث وجدنـا داخلـه قطتـين، وكلبـاً، وامـرأة متربعة على الأرض. لم يبد على المرأة أية ابتسـامة ترحيـب، ولم تظهـر أي اسـتياء لتعدينـا على منزلها. أجابت بكلمات مقتضبة وصوت بليد علـى أسـئلة "سـليمان" وهـي تتـابع هـرس حبات الفول داخل وعاء فخاري –لتصنع منها عجينة على ما يبدو– وإذا كـانت الجـدران مـن الخارج عبارة عن واجهة غير مستوية مـن الطـين الجـاف، فإنهـا مـن الداخـل مغطـاة بطبقـة

---

[٧] - ويليام أرنولد برومفيلد: "رسائل من مصر وسوريا"، ١٨٥٦، ص ٦٦.

صقيلة من الإسمنت. وعندما يكون البيت من الداخل على هذه الدرجة من البساطة والبدائية، فإنه يثير اهتماماً عميقاً. لأن هذه الشقة لا تختلف كثيراً، كما أعتقد، عن تلك الغرفة في "شونيم" حيث وضعت امرأة قبل سنين طويلة، سريراً، ومنضدة، وكرسياً، وشمعداناً في خدمة "اليوشع".[٨]

بعض الكتاب الآخرين شعروا بالسخط والغضب حين وجدوا أنفسهم مراقبين من قبل السكان المحليين في الشرق، بعد أن قدموا ليراقبوهم. "غيرترود بل" مثلاً وجدت أن النساء بشكل خاص كن مصدر إزعاج كبير لها.

خصصنا كل الوقت المتبقي من عصر يوم الجمعة للاجتماع معاً. والقيام بمحاولات لم تثمر للهروب من سكان البلدة الفضوليين الذين لم تخطر على بالهم طريقة أفضل لتمضية الوقت سوى التجمهر بالمئات حول خيامي ومراقبة كل حركة يقوم بها أي واحد منا. كانت النساء أسوأ من الرجال، لكن الأطفال كانوا الأسوأ؛ إذ لا شيء يمكن أن يبعدهم عنا. وصلت الإثارة ذروتها عندما قدم "عبد الحميد باشا الدروبي"، وهو أغنى رجل في "حمص"، لزيارتي واصطحب معه القاضي "محمد سعيد الخاني"، لكنني لم أُبد لحديثهم الذكي الممتع ما يستحقه من اهتمام بسبب هياج الجماهير المحيطة بنا.

قال "عبد الحميد باشا" : "أرجو من ا لله أن لا تكون الجماهير قد أزعجت سعادتكم؛ وإلا فسنطلب فوجاً من الجنود". رفضتُ العرض بصوت هامس على مضض، وان كنت أتمنى لو يطلق رصاص البنادق على هؤلاء الصبية، ثم أومأ برأسه وفكر ملياً وقال: "عندما كان إمبراطور ألمانيا في دمشق أعطى أوامره بعدم منع أي شخص من القدوم إليه

---

[٨] - ارثر.اي.كوبينغ : "صحافي في الأرض المقدسة"، ١٩١٥، ص ١٧١-٢.

والتحديق فيه!" عند هذا المثال المهيب رأيت أن علي تحمل تبعات العظمة والغرابة دون إبداء الشكوى.[٩]

الفقرة التالية كتبتها أيضاً "لوسي دوف غوردون"، وهي تتحدث فيها عن سلوك بعض الرجال الإنكليز في منزل أحد الشيوخ.

كانت إحدى الفتيات جميلة جداً لكنها باردة ولا تثير الاهتمام؛ أما التي كانت تغني فهي أيضاً جميلة جداً وجذابة وصغيرة السن. والرقص الشرقي عبارة عن أجساد تتثنى ببعض الرشاقة. لكنه مدهش جداً لو اعتبرناه مجرد حركات رياضية، ولا شيء فيه غير ذلك. ثم نادى القبطان على فتاة تدعى "لطيفة" وهي مومس دميمة تفتقد إلى الرشاقة، لتظهر لـ"الست" ما تستطيع فعله. عندها تكشف الأمر أمامي. بدأت الفتاة الدميمة الرقصة واقفة لتتحول إلى "أفعى النيل"، حيث ينحني الرأس والأكتاف والذراعان إلى الأمام، ويظل الخصر مكانه، ويتحرك الردفان على الركبتين المنثنيتين، وهي وضعية أفعى "الكوبرا" المتحفزة لانقضاض. ولا أستطيع أن أصف الرقص الشرقي بأنه شهواني مثير للغرائز بأكثر مما وصفه "فيدر" "راسين" .... وحسب رأيي فإن المشهد مأساوي، والرقص هنا أكثر واقعية من رقصة "الفندانغو" الإسبانية وأقل غنجاً بكثير لأنه يمثل فعلاً جاداً لا مجرد محاكاة ساخرة تقوم بها الراقصة وهي ملتفة بغلالتها الرقيقة .

ومثل جميع الأمور المشابهة، لا يعتبره الرجال العرب مفتقداً إلى الاحتشام. وبالطبع فإن الراقصات لا يقمن بأية حركات خلاعية أمام النساء الأوروبيات مثلنا، ما عدا الرقص ذاته. وكان "سيد حشمت" مستعداً ليقدم أمامي عرضاً مبهراً، لكنه خاف ان أحضر معي بعض الرجال، فلقد انزعج كثيراً في إحدى المناسبات حين طلب رجلان إنكليزيان من الراقصات خلع

---

[٩] - غيرتورد بل : "البدو والحضر"، ١٩٨٧، (ط.أ. ١٩٠٧) ص ١٨٦-١٩٠.

ملابسهن والرقص عاريات، لكنهن رفضن، واضطر هـو إلى طردهمـا مـن منزلـه بعـد أن أكـرم وفادتهما في البداية.[10]

النصوص الثلاثة التالية كتبتها ثلاث من النساء الرحالـة بـين عـامي ١٨٦٧-١٨٩٠، تحدثن فيها عن محاولات قمن بها لإقناع النساء ببيع جرهرات يتزين بها. وعندمـا رفـض الطلب، لم يبد على الكاتبات التفكير بخطئهـن حـين اقـترحن علـى النسـاء شـراء تلـك المجوهرات.

كانت هناك امرأة فاتنـة في حـوالي الخامسـة والعشـرين، تبـدو أنهـا الـروح المحركـة بـين الحاضرات وأكثرهن حكمة وثقافة. شفتاها و وجنتاها مشرقة، وعيناها الواسعتان الرماديتان تشعان ذكاءً، وجبهتها العريضة تدل بشكل صريح على عدم حاجتها لكثـير مـن التعليـم كـي تنتمي إلى الشعوب المتحضرة. لم يكن هناك أي اثر للخجـل باديـاً علـى محياهـا المشـرق حـين قارنت أزياءنا الأوروبية بزيها، وكما بدا واضحـاً امتـدت المقارنـة إلى أوضاعنـا أيضـاً؛ لأنهـا التفتت إلى واحدة من جليساتها ولخصت الأمر بإطلاق حكم متسرع لم نعرف نحن مـا إذا كـان في صالحنا أم في صالحها. شعرتْ بسعادة غـامرة لرؤيـة الفرحـة تغمرنـا، ومـن الواضـح أنهـا اعتبرت محاولتنا شراء بعض القلادات التي تتزين بها نوعاً من الوقاحة. وكأن تعابير وجهها تقول لنا بشـكل أصدق تعبـيراً مـن الكـلام: كيـف لنـا أن نفكـر بمثـل هـذه التفاهـات؛ بيـع جواهرها، لا سيما تلك الحلية التي تضعها كتذكار منذ أنجبـت لزوجهـا مولودهـا الذكـر[11] **ثم قدَّمنا الشيخ لزوجته، وكان بصحبتها أختها وبنات عمها، بعضهن جميـلات جـداً يـتزين بعدد كبير من الجواهر، لكن "المكياج" الذي يضعنه رديء ومقيت. حاولنا عبثـاً شـراء بعـض**

---

[10] – لوسي دوف غوردون: "رسائل من مصر" ١٩٨٦ (ط.أ. ١٨٦٥)، ص ٩٩-١٠٠.

[11] – ماتيلدا بيثام ادواردز: "شتاء مع طيور السونو"، ١٨٦٧،ص٦٩ – ٧٠.

حليهن، لكن أجبن، "إذا ما قمنا ببيعه، فلن يربطنا بعدها شيء بأزواجنا"، ثم عرضن علينا الحلي المدور الشكل الذي قدمه الأزواج لهن بمناسبة إنجاب المواليد الذكور. كان بعضه مسطحاً حُفرت عليه زخارف حمراء وخضراء، والبعض الآخر مزخرف بحلى صغيرة مدورة. في الواقع هؤلاء النسوة المسكينات يبتاعهن الأزواج عادة، والسعر المألوف للواحدة منهن يتراوح بين ٢٠٠–٣٠٠ فرنك؛ لكن ثمن الجميلات أعلى من ذلك بكثير، ويقمن بجميع الأعمال الشاقة من حمل الحطب والماء، والعمل في الحقل، وطحن القمح، وحياكة الأقمشة التي يصنع منها "البرنس" و "الحَيْك". إن إحضار الماء من الأودية العميقة والمسالك الضيقة وحمله إلى أعالي هذه التلال يعد عملاً مرهقاً ومرعباً، ومع ذلك فالماء الذي يحضرنه كريه وسيئ الطعم. ويتزوجن عادة في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبسبب مشقة الكدح وقسوة المعاملة يصبحن عجائز في الثلاثين. لكنهن رغم ذلك يمتلكن أفضل العناصر التي تميز الشعوب من سكان الجبال، ويصاحبن أزواجهن عادة عند الذهاب إلى الحرب.[١٢]

توقفت عند "نبع البشارة" (طبقاً للتقاليد اليونانية)، وحاولت ضمن ما حاولت، شراء واحد من الأطواق الرائعة المؤلفة من قطع متراصة من النقود الأثرية التي تضعها نساء "الناصرة" حول الجبين والوجنتين، لكنني لم أنجح في مسعاي. إذ رفضن البيع مهما كان الثمن. تحدث العديد من الرحالة عن جمال هؤلاء الفتيات، ولم يكن حديثهم عبثاً. وبالنسبة لي، على كل حال، بدت النساء على قدر غير عادي من الوقاحة، وافتقارهن الواضح إلى الحياء، والاحتشام ينتقص من حسن مظهرهن وجمالهن.[١٣]

أصيب "القس ستيفن اولين" بصدمة كبيرة حين وصل إلى "جينَه" في مصر في بداية

---

[١٢]– الليدي هيربرت: "بحثاً عن أشعة الشمس"، ١٩٧٢، ص١٤٦–٧.

[١٣] – و.ام.تومسون : "الأرض والكتاب"، ١٨٩٠، ص ٤٣١–٢.

الأربعينات من القرن الماضي، وكانت الصدمة أشد وقعاً حين علم بأن انتشار الرذيلة هناك سببه زيادة الطلب من قبل الرجال الإنكليز. أما "غي دوموبسان" من جهة أخرى، فلم يكن غريباً عن أجواء المواخير في باريس، ولهذا قام بزيارة عرض راقص فور وصوله إلى تونس، وفي الليلة نفسها زار ماخوراً هناك. وقد وظف كل مهارته الحرفية في الكتابة التي تعلمها من "فلوبير" في رواية أحداث تلك الليلة، حيث قدم وصفاً رومانسياً لغانيه عربية "تجسد الجمال المطلق" وللجو العام داخل الماخور.

"جينَة" مكان متميز، ربما أكثر من أي مكان آخر في مصر، بسبب عادات سكانها وطباعهم المتساهلة المتحررة والمتناقضة جذرياً مع قوانين وتقاليد المجتمع الإسلامي. رأينا عدداً كبيراً من النساء السافرات في أحياء متفرقة من المدينة، لا سيما في الشوارع المحيطة بالميناء، يرتدين ملابس مبهرجة من الحرير وغيره من الأقمشة الزاهية الألوان، ويضعن الكثير من الحلي المصنوع من المعدن والزجاج كالأقراط والأطواق، وأصباغ مختلفة لتجميل الوجه والخدين، وخواتم تتلألأ في أصابع اليدين والقدمين، وأساور ضخمة مطلية بالذهب أو فضية في الرسغين والكاحلين. كما يستعملن "الحنة" وغيرها من الألوان بإسراف ما عهدته على سواهن من النساء في مصر، حيث لا تصبغ الحواجب والشفاه فقط، بل تغطى جزءاً كبيراً من الوجه. الكثيرات منهن ملامحهن رقيقة ومتناسقة وجميلة لولا هذه الأصباغ الاصطناعية التي تشوه الجمال. كن يجلسن علناً على أرصفة الشوارع، أو داخل البيوت المفتوحة الأبواب والنوافذ. وقابلنا بعضهن يمشين بوقاحة وصفاقة. وهو أمر يعتبر ثورياً في بلد يفرض الكثير من التحفظ على النساء. من الصعب حدس الأسباب التي تعطي "جينة" هذا الوضع المتميز بخصوصيته وسمعته المشينة. علمت أن هناك محاولات جادة جرت مؤخراً هنا وفي أماكن متفرقة من البلاد لكبح جماح الرذيلة المنتشرة. كما أصدر الحاكم أمراً بمنع هؤلاء النسوة من الظهور علناً في الشوارع أو على أبواب البيوت والنوافذ.

وفي فترة من الفترات خلال فصل الشتاء الحالي تم التحفظ بشكل كلي عليهن تحسباً لوصول أعداد كبيرة من الرحالة. لكن الشرطة تجد صعوبة كبرى في تطبيق هذه الإجراءات. حتى أنها اضطرت للتخلي عن تطبيقها كلياً، والسبب، كما ذكر لي، يصعب تصديقه – الاعتراضات المتكررة الملحة من جانب الزوار الأوروبيين عموماً والإنكليز منهم على الأخص، من ذوي المنزلة والنفوذ والذين أقاموا مؤخراً في "جينة".[١٤]

المدن في الجزائر تضبح بالحركة ولا تعرف النوم في الليل، لكن في تونس حالما يخيم الظلام يتوقف كل شيء، وتبدو الأزقة الصغيرة الضيقة التي تلتف بغير انتظام كممرات في مدينة هجرها سكانها ونسوا إطفاء قناديلها.

أتينا إلى متاهة الأزقة التي تحدها الجدران البيضاء هذه لرؤية اليهوديات يؤدين عروض "الرقص الشرقي". و"هز الوسط" هذا بشع ويفتقد إلى الرشاقة والجمال، وليس فيه ما يثير الاهتمام سوى أسلوب الراقصة في تنفيذ حركاته.

قامت ثلاث شقيقات، يتزين بالحلي، بتأدية حركات فاحشة بأجسادهن التي تتثنى وتتلوى تحت رقابة أمهن الموجودة هناك والتي بدت وكأنها كرة ضخمة من الشحم ترتدي غطاء رأس من الورق المذهب. كانت تدور بين الزبائن تستجدي "نفقات المحل" كلما دخلت "خصور" بناتها في نوبة حادة من الارتعاش العنيف. كان هنالك ثلاثة أبواب نصف مفتوحة حول الغرفة تظهر خلفها أسرّة منخفضة. فتحت باباً رابعاً ورأيت خلفه امرأة بدت لي جميلة جداً وهي مستلقية على السرير. لكن الأم اندفعت نحوي فوراً، ومعها الراقصات الثلاث وخادمتان زنجيتان ورجل كان مختبئاً خلف الستارة. فقد كنت أهم بدخول غرفة زوجته الشرعية، وهي بالمناسبة زوجة شقيق الراقصات الثلاث، وحاولنا عبثاً أن نختلط بالعائلة ولو لأمسية واحدة. ولكي أصفح عنهن لمنعي من الدخول عرضن أمامي الطفلة البكر لتلك المرأة،

---

[١٤] – القس ستيفن أولين : "رحلات في مصر والبلاد العربية والأرض المقدسة"، ١٨٤٣، الجزء الأول، ص ٢٧٥–٢٧٦.

وكانت في حوالي الثالثة أو الرابعة من العمر، وتستطيع في مثل هذه السن أن تؤدي بعض الحركات الفجة من الرقص.

غادرت المكان يملؤني شعور شديد بالاشمئزاز.بعد ذلك اصطحبني بعض الأصدقاء إلى منزل تسكنه بعض المحظيات العربيات المشهورات.

كان علينا أن ننظر بحرص عند نهاية كل زقاق، وأن نلزم جانب الحذر الشديد عند الدخول، واضطررنا للخوض في مجادلات كلامية كثيرة، وتعرضنا أيضاً للتهديد، إذ أن الأهالي لو عرفوا بدخول رجل مسيحي إلى أي منزل فسوف تتعرض نساؤه للخزي والدمار والطرد. وعندما دخلنا رأينا بعض الفتيات البدينات، بشرتهن سمراء وجمالهن متوسط، في غرف مليئة بخزائن الثياب والمرايا. بدأنا نفكر بالعودة إلى الفندق حين عرض علينا شرطي تونسي علناً أن يأخذنا إلى ماخور يمارس فيه الجنس، ويستطيع هو بنفوذه أن يدخلنا إليه. وجدنا أنفسنا نتبعه, مرة أخرى بدأنا نتلمس طريقنا في أزقة ضيقة معتمة لا يمكن أن ننساها، حيث اضطررنا لإشعال أعواد الثقاب لرؤية الطريق، ومع هذا كنا نتعثر بالحفر، وتصدم أيدينا وأكتافنا جدرانُ المنازل، وتصل إلى أسماعنا بين الحين والآخر أصوات مكتومة وألحان من الموسيقا، وهمسات خفيضة لاحتفالات صاخبة تأتي من خلف الجدران وكأنها آتية من أمكنة نائية. أصوات هامسة غامضة ولدت شعوراً بالرهبة تملكنا، فنحن الآن في قلب منطقة الفسق والغواية، توقفنا عند باب أحد البيوت وأخفينا أنفسنا عن الأنظار، ثم طرق الشرطي الباب بقبضته وهو يصرخ مصدراً أمراً بالعربية. ومن خلف الباب رد صوت واهن لعجوز، ولاحظنا الآن بأننا نستطيع سماع نغمات الآلات الموسيقية والأصوات العالية لمغنيات عربيات تأتي من أعماق المنزل. يبدو أنهم لا يريدون فتح الباب، مما أثار غضب الشرطي فصرخ بكلمات خشنة وحادة. وأخيراً فتح الباب قليلاً فدفعه الرجل ودخل مختالاً كالفاتحين ثم أشار إلينا أن نتبعه. نزلنا ثلاث درجات تفضي إلى غرفة منخفضة حيث وجدنا أربعة أطفال من المنزل ينامون على السجاد بجانب الجدار. عندها قامت امرأة عجوز – واحدة من

العجائز المحليات التي تبدو ككومة من الخرق البالية شُدَّت إلى قدمين تتحركان– وقد وُضع على قمتها رأس غريب الشكل وشم وجهه كالساحرات– بمحاولة لمنعنا من التقدم مسافة أكبر. لكن الباب كان قد أغلق، فدخلنا الغرفة الأولى حيث وجدنا بعض الرجال ممن لم يستطيعوا الدخول إلى الغرفة الثانية، قد وقفوا وهم يسدون المدخل ويستمعون بنشوة إلى الموسيقى الحادة الغريبة التي تعزف في الداخل. شق الشرطي طريقه دافعاً الزبائن الدائمين وقادنا إلى غرفة طويلة وضيقة، حيث تكدس "أكوام" من العرب على مقاعد طويلة مصفوفة قرب الحائط الأبيض عند نهايتها. وهناك، على سرير فرنسي الطراز كبير الحجم يمتد بعرض الغرفة، جلس عرب آخرون في صفوف على شكل هرم مرتفع وقد كونوا معاً كومة مدهشة وغير منتظمة من "البرانس" ارتفعت وسطها خمسة رؤوس معممة . وأمامهم، قرب قائمة السرير على المقعد الطويل المقابل، وخلف قاعدة المنضدة الخشبية المغطاة بالكؤوس، وزجاجات شراب الشمندر، وأقداح القهوة، ملاعق القصدير الصغيرة، جلست أربع نساء يغنيين أغنية جنوبية مطولة تثير السأم، بمصاحبة بعض العازفين اليهود. كانت أزياؤهن خرافية، بدون فيها كالأميرات في قصص "ألف ليلة وليلة"،وإحداهن، وهي فتاة في حوالي الخامسة عشرة، ذات جمال مدهش،وعلى قدر من الفرادة والكمال بحيث أضاءت هذا المكان الغريب وحولته إلى مكان آخر حافل بالمفاجآت والرموز لا يمكن لأحد نسيانه. أما شعرها فقد عقدته إلى الخلف بوشاح ذهبي يمر عبر جبينها من الصدغ إلى الصدغ، وتحت هذا الشريط المعدني المستقيم، تحدق عيناها الواسعتان المفتوحتان بثبات وبلا مبالاة و بجمال لا يقارن– عينان سوداوان كبيرتان، تبعدان عن بعضهما بعضاً قليلاً، ويفصل بينهما أنف كأنوف التماثيل، يمتد ليصل إلى فم صغير كفم الأطفال، يفتح شفتيه حين تغني ليبدو وكأنه الجزء الحي الوحيد من وجه خال من التعبير ،متناسق القسمات، فيه الكثير من البدائية والفتنة، يتألف من خطوط على درجة من البساطة بحيث تضيع حين تشكل الطبيعة الفريدة المكونة لهذا الوجه الإنساني. أنا متأكد بأنك لو تفحصت ملامح وجهي مثلاً لاستطعت أن تبدل فيه بأن تستعير من وجوه أخرى ما يحتاجه كي يتم التناسق ، لكن لا يمكنك أن تغير شيئاً في

وجه هذه المرأة العربية لأنه كامل ومثالي في التصميم: هذه الجبهة الناعمة، وهذا الأنف، وهاتان الوجنتان بتكوينهما الرقيق تقوم في نهايتهما ذقن مستدقة جميلة كي تكمل إطار الوجه البيضوي ببشرته السمراء الباهتة؛ وجه لا يتناسق بغير هذه العيون والأنف والفم، فهو مثال يجسد تصور الجمال المطلق ويملأ عيوننا بهجة وحبوراً- في الحلم فقط نشعر بوصولنا إلى المرحلة التي تسبق بقليل الاكتفاء التام.فتاة أخرى كانت تجلس إلى جانبها، هي أيضاً فاتنة لكن جمالها ليس استثنائياً؛ واحدة من أولئك النساء ذوات البشرة البيضاء والوجه العذب الذي يبدو كأنه صنع من القشدة. وعلى جانبي الفتاتين جلست امرأتان من ذلك النوع الشهواني؛ الرأس صغير، وعظام الوجه ناتئة، فهما من عاهرات البدو اللاتي ضلّت أرواحهن الطريق القويم فطردتهن القبيلة ليحضرهن جماعة من الجنود إلى المدينة. كن يغنين ويضربن على "الدربكة" بأصابعهن المحناة، بمصاحبة بعض الموسيقيين اليهود الذين يعزفون على "البزق" والدف والناي. لم تصدر عن الحضور أية ضحكة أو همسة، فالجميع يستمعون بمهابة وجدية.

أين نحن الآن؟ أفي معبد لدين همجي، أم في بيت للدعارة؟ ماخور؟ نعم نحن في الحقيقة في ماخور. لم أختبر من قبل إحساساً مفاجئاً وجديداً ومليئاً بالألوان كهذا الذي عرفته حين دخلت الغرفة الطويلة الخفيضة السقف، حيث جلست هؤلاء الفتيات بثيابهن المزركشة استعداداً لممارسة أحد الطقوس المقدسة، في انتظار نزوة من نزوات رجل وقور من أولئك الرجال الذين يبدون وكأنهم يتمتمون، هامسين، آيات من القرآن وسط جو الفسوق هذا. لفت نظري أحد هؤلاء الرجال، كان جالساً وأمامه قدح صغير من القهوة، يحدق في السقف في حالة من التأمل.

كانت الفتاة الجميلة خليلته، وجمع الحاضرين تقريباً من ضيوفه، وكان يقدم لهم المرطبات ويسمعهم الموسيقا ويعطيهم الفرصة للنظر إلى هذه الفتاة الفاتنة، حتى آذن الوقت بانتهاء السهرة، فطلب منهم مغادرة المكان. عندها خرجوا وهم يحيّونه

بانحناءات مهيبة. كان الرجل شاباً وسيماً متأنقاً، طويل القامة، واضح الملامح، كعرب المدن، تزيد وجهه وسامة لحية لامعة ناعمة تناثر شعرها الأسود على خديه...

لم يتحدث أحد إلى النساء اللاتي جلسن كالتماثيل، وبدأت أنا التحدث مع جزائريين جلسا بجانبي بمساعدة الشرطي التونسي، وعلمت بأنهما راعيان ومن مالكي الأراضي، ويحمل كل منهما داخل طيات "البرنس" الذي أرتديه "نايأ" يعزف عليه في الأمسيات للتسلية، وطبعاً كانا في حاجة لمن يعجب بموهبتهما فعرضا علي قصبتين رفيعتين بهما بعض الثقوب، من القصب الحقيقي الذي ينمو على ضفاف الأنهار. توسلت إلى الحضور أن يُسمح لهما بالعزف، فتوقف الجميع عن الكلام بكثير من التهذيب....

آه، كم هو مذهل ومبهج ذلك الإحساس الذي انسلَّ داخلاً إلى أعماق قلبي مع النغمات الأولى- بكل ما فيها من رقة، وغرابة، وغموض،وفجائية-لصوتي هاتين الأنبوبتين الصغيرتين اللتين تنموان قرب الأنهار. صوتان فيهما الكثير من الرهافة والعذوبة وهما يحلقان مرتعشين في الهواء، منفصلين، يتغيران بشكل مفاجئ، ويتبع أحدهما الآخر دون أن يلحقه أو يعثر عليه أو يمتزج به، كانا أغنية مستمرة ما إن تغيب نغماتها متلاشية حتى تبدأ مجدداً،وهي تطفو وتتمايل مرنمة حولنا كأنفاس الأرواح الهائمة في الغابات والأنهار، يُسمع فيها حفيف أوراق الشجر وصوت الرياح الذي حمله هذان الراعيان من جبال القبائل الجزائرية إلى هذا الماخور في ضواحي تونس.[١٥]

طافت السيدة "جين بوميرول" أرجاء الصحراء محاولة بشتى الوسائل -مهما كانت- مقابلة نساء تستطيع الكتابة عنهن. وفي مقطع مرَّ معنا في فصل سابق من الكتاب، رأينا كيف "غالبت ضميرها" قبل أن تخبر قراءها بأن هؤلاء النساء لا يملكن أبداً أية مبادئ

[١٥] - غي دو موبسان: "حياة الترحال"، ١٨٩٠، ص ١٦٠-١٦٨.

أخلاقية. في النص التالي تُظهر كيف بدأت اكتساب المعرفة التي مكنتها من إطلاق مثل هذه الأحكام- أولاً، بملاحقة "النماذج الغريبة" واقتحام منازلهن، وثانياً بتكوين صداقات مع الرجال.

الآن،أنا أذهب صباح وعصركل يوم إلى الشوارع والأزقة لاصطياد"النماذج المثيرة للفضول". قابلت نساءً ملتفات بالحجاب، فتبعتهن، وحين دخلن بيتهن المنخفض عبر ممراته المتعرجة، دخلت خلفهن دونما دعوة. توقفن للحظة حدقن فيّ خلالها بعدائية بعد أن خلعن النقاب وقد أخذتهن المفاجأة، فدونت كل شيء عنهن، حتى الفتحات القذرة، المعتمة والعارية التي تدعى غرفاً على سبيل المجاملة والتي تطل على الفناء الضيق داخل البيت. كانت جميع المغازل التي تستخدم في نسج الأقمشة، بالإضافة إلى أدوات الطبخ مكومة في الخارج؛ وفي نهاية حجرة صغيرة قذرة وخانقة، كومت أحجار مهترئة مكونة ما يشبه موقداً يصدر عنه دخان مائل إلى الحمرة ولاذع الرائحة، كل شيء بدا أمامي واضحاً، بل حتى استطعت تفسيره، لكن لا يزال هناك جدار من التحدي يفصل بيني وبين هؤلاء النساء، جدار أجد في الواقع صعوبة في اختراقه. وكلما ذهبت مسافة أبعد، إلى البساتين والواحات، أو إلى الصخور الرابضة عند أقدام الجبال حيث ينصب البدو خيامهم التي تقوم مقام البيوت، كلما ازداد هذا التحفظ نمواً وعمقاً ليصل أحياناً إلى حد العداء. لم أصل إلى غايتي بعد. صحيح أنني أستطيع رؤية ملابس النساء، مثل "الملحفة" الملونة التي تلف أجسادهن، وتثبت في مكانها عند الأكتاف بواسطة دبوسين فضيين؛ أو الغطاء الأبيض الذي يتدلى من الرأس ويثبت طرفه على النهدين؛ أو "المحرمة" المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأخضر أو الأزرق التي تغطي الشعر، أو الأساور في أيديهن الرشيقة و "الخلاخيل" حول كواحلهن المكتنزة. صحيح أنني أرى كل هذا، لكن أعماق نفوسهن ما زالت مغلقة تماماً أمامي. لم أستطع أن أقرأ حتى أبسط أفكارهن، أو أفهم حتى تصرفاتهن العادية. لقد شعرت بالإحباط نتيجة عدم النجاح الذي صادفته جهودي هذه، وحاولت التعويض عن الفشل بالاهتمام بالأعمال المختلفة

التي يزاولها الرجال علناً، مثل الحدادة والصقل والنقش والزخرفة والخياطة. أقمت صداقات عديدة أمتعتني مع صناع الأحذية التركية، وممشطي الصوف، وقاطعي الجلود وغيرهم، وأشعر بأنني في بيتي بين تجار التمور وبائعي الفول والبصل. وكانت لي حوارات مستفيضة مع شخصيات من ذوي الشأن هنا والذين اعتادوا التريض بجلال ومهابة تحت أشعة الشمس وهم يرتدون "الحيك" أو العباءة الطويلة، ومن خلالهم انفتح أمامي عالم أنثوي جديد.في أوروبا يستطيع المرء من خلال النساء فهم الرجال قليلاً، وأخذ فكرة عن الكيفية التي تعمل بها عقولهم،والدوافع خلف أفعالهم؛ فالأم والزوجة والخليلة يعتبرن مصادر المعلومات الرئيسية. أما في صحراء الجزائر الجنوبية فالفضل يعود إلى الرجال من العرب والبربر في معرفتي لأي شيء حول النساء. ومشاعر الود التي أظهرها هؤلاء بكل حماسة نحوي هي التي جعلتني أظفر بالدخول إلى حياة "الحريم"، وضمنت لي ترحيباً بينهن. كانت هذه الحالة تصادفني كلما توغلت بعيداً عن الحضارة والمدنية، لكن كان واضحاً بما فيه الكفاية منذ البدايات المبكرة لرحلاتي أن علي قبل كل شيء استمالة الرجال واسترضاءهم. ففي نظر الشخصيات المرموقة والتجار الذين قابلتهم كنت مجرد "طالبة" أو "فتاة متحذلقة"، في مرتبة متوسطة ما بين المثقف وموظف الحكومة المؤهل لاستلام الشكاوى ومنح البركات؛ أو مبعوث نافذ، بإمكانه ضمان سيل من أوسمة التكريم وتسهيل عقد لقاءات مهمة. مما يعزز هذه الآراء الحماية الكريمة التي أحاطتني بها السلطات العسكرية. وهذا يفسر رغبة الكثيرين بإحاطتي بأفضالهم، وآخرون غيرهم لهم آمال أكثر نزاهة برؤيتي أصحح أخطاء أسلافي من "الروميين" كما يُدعىَ جميع الأجانب هنا. الكثيرون أيضاً ألقوا على مسامعي نظرياتهم الأثيرة، وفي نفس الوقت أعطوني الفرصة لإثباتها؛ إذ كانوا يقولون، "سترين الأمور كما هي حقاً، وتعرفين أنها أفضل هنا منها في فرنسا". فقد "كنت حرة في قبولها أو رفضها" حسب المثل الشعبي البليغ. من المحتمل أنني حصلت على الكثير من المعلومات من هؤلاء الرجال ما كنت لأحصل عليها بمفردي. وإذا كانت اللقاءات التي جرت نتيجة لذلك،والتي تبين أن النساء أُمرن فيها أن يكن ودودات معي مهما كان الثمن، قد بدت أمامي

غير طبيعية، وإجبارية، ومصطنعة، فأنني عموماً استطعت بتكرار الزيارات إلى المنزل نفسه أن أقيم نوعاً من الألفة مع مضيفاتي، إن ثقة امرأة الصحراء بك تبدأ فعلاً في اللحظة التي تكف فيها عن محاولة إسعادك فتعاملك كشخص لا أهمية له. عندها تبتعد عن الرسميات وتستمر في مزاولة أعمالها العادية، أو تثرثر مع صديقاتها، ولا يكون لحضورك تأثير أكبر من ذلك الذي تتركه قطعة من الأثاث، حتى تتذكرك فجأة وتزعجك بإلحاحها على تقديم القهوة مرات ومرات، وتملأ شدقيك بالحلوى، وتغرقك بالعطور الزنخة، وتغمرك بالعناق والقبلات وتصيح قائلة: "أنت صديقتي، وأختي. بيتي بجميع ما فيه ملك لك، وكذلك حياة أطفالي، أو حتى حياتي نفسها إذا شئت". ثم تحدق فيك بعينيها الواسعتين العميقتين، وتشعر وكأنك تراقب روحاً تستيقظ من سبات امتد قروناً طويلة. وبالفعل تذوب عيناها الرقيقتان حناناً وحباً في نوبة عنيفة متقطعة من المحبة تمتد لبضع دقائق فقط، لكنها تقريباً تكون صادقة في حينها. وأخيراً، ينتهي الأمر؛ وتخبو النار، وتبرد القهوة، وتطوى الصداقة جناحيها مرة أخرى. قد يتحول كل هذا الحب إلى كراهية إذا ما دعت الحاجة، أو حتى إلى عداء مستفحل كرد فعل لا شعوري على إرهاق الجهاز العصبي بعد تلك الإثارة الشديدة.[١٦]

حتى حين تتمكن "السيدة بوميرول" من الدخول في حوار مع أية امرأة، فمن المستبعد جداً أن تعتبر اللقاء نجاحاً لها على جهودها. إذ رغم اعترافها بأن للنساء "الحس المرهف"، والخصائص المحافظة، التي تميز الشعوب المتمدنة إلا أنها تلخص مشاعرها كما لي:

هل يشعرن بالتعاطف معي؟ لا، أبداً. فالشعوب التي تفصل بينها هوة واسعة لا يمكن أن تتعاطف مع بعضها بعضاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. وبالنسبة لهذا الشعب

---

[١٦] – مدام جين بوميرول : "وسط نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ص ١٨–٢٣.

بالذات، بكل ما فيه من ذل وتملق وتجهم ومراوغة ولصوصية، الذي يغشنا ويخدعنا في كل فرصة متاحة، لا بد أن تكمن داخلنا مشاعر الازدراء تجاهه، وان ننظر إليه نظرة الفاتحين للمغلوبين.[١٧]

وفي أواخر رحلاتها الصحراوية صممت على مقابلة نساء قبيلة "الموزابيط" التي تعيش بعزلة تامة في "وادي معزب"، لكن قيل لها مراراً إنّ ذلك مستحيل. في النص التالي تروي دون خجل كيف حاولت نزع النقاب عن وجوه النساء، وكيف اقتحمت المنازل وحفلات الزفاف– رغم الاستقبال غير الودي الذي قوبلت به– وأكرهت الرجال على التعاون معها. وفي نهاية كل هذا يشعر القارئ بأنه لم يعرف شيئاً عن نساء القبيلة تلك، لكن عرف الكثير عن المبادئ الأخلاقية التي تتبناها "السيدة بوميرول".

من المستحيل تماماً مقابلة نساء قبيلة "الموزابيط"! لم تكن شكوتي في غير محلها من هذه الناحية، بعد أن أفسدني الترحيب الودي الذي لقيته من نساء البربر والعرب اللاتي زرتهن في أمكنة أخرى. لكن كلما زاد إصراري و تعاظمت العقبات التي تعترض سبيلي، كلما أصبحت أكثر رغبة بقهرها طبعاً.

.... ولهذا عقدت العزم على القيام بخطوة شجاعة، ففي أحد الأيام راقبت منتظرة رؤية واحدة يشبه شكلها كومة من الثياب أعرف أنها امرأة من القبائل. ووجدتها كانت تسير في زقاق ضيق، لحقت بها– فهربت من أمامي وهي ترتجف، وكأنها ارتابت بخطتي، حاثة الخطى بمحاذاة الجدران البيضاء وكأنها تتضرع إليها كي تبتلعها لتحميها، حيث كان جسمها يلتصق بها. لكنني كنت أتمتع بالأفضلية بسبب عدم وجود قيود تعيق حركتي، فأدركتها أخيراً وحاولت لمسها بأصابعي فأطلقت صرخة ضيق وانزعاج، لكنني قلت لها عبارة

[١٧] – وسط نساء الصحراء : ١٩٠٠، ص ٣١.

مهذبة معروفة محلياً: "كم أنت جميلة!" وبدت أنها ترتعش لسماعها. ثم حاولتُ، بلطف طبعاً، أن أسحب جانباً نقابها، لكنني تلقيت صفعة ترنحت لشدتها فخارت قواي وفقدت العزيمة على الاستمرار في ملاحقتها. بعد هذا هربتْ واختفت في شارع جانبي. في الوقت الذي فكرت فيه ملياً كيف أصل إلى غايتي بوسائل أقل عنفاً.قررت الذهاب لرؤية "قاضي بلدة غاردايه" الذي عرفته من قبل، إذ أنه هو "الموظف المحترم" الذي منعه التواء كاحله من مرافقتي لزيارة المسجد. وليس هناك في "وادي معزب" وسيلة أسهل من التواء الكاحل؛ الذي يتحسن وضعه ويسوء حسب ما تستدعيه الظروف. على كل حال وجدته جالساً في مكتبه الإداري الذي يبعد مسافة كبيرة عن منزله الخاص. لم يجب بكلمة عن أسئلتي حول نساء القبائل، لكنه عرض أن يصحبني إلى الواحة الرئيسية، فقد تحسنت حالة كاحله إلى درجة يستطيع معها السفر طوال اليوم. وهكذا انطلقنا نحو البساتين الجميلة في الواحة، حيث لا تتوقف أصوات الضجيج الحزينة التي تصدرها بكرات الحبال على الآبار- التي تشبه تغريد الطيور الطويل المتواصل- آناء الليل وأطراف النهار. كان الجو ربيعياً، و أشجار الكرمة الزاحفة تلتف حول جذوع النخيل الضخمة، في حين ينمو في ظل أغصانها الوارفة عدد من أشجار المشمش المزهرة تنثر ذروها الوردي عبقاً في النسائم.

تكلمت مع الرجل مرة أخرى حول النساء، فأجاب بملاحظات حول السدود وقنوات المياه...

... لكن بدأت أسأله مرة أخرى عن النساء. هل تأتي النساء والصبايا إلى هنا أيضاً؟ وللأسف تحدث بإسهاب حول أهمية النخلة التي تتطلب حوالي أربعين عاماً من الرعاية لتصل إلى كامل نموها، لكنه فجأة سقط في الفخ، حيث سار إليه دون أن يشعر، أو أنه فعل ذلك بعينين مفتوحتين، إذ بدأ أخيراً الحديث في الموضوع الذي يشغل تفكيري قائلاً: "نجد أنفسنا ملزمين بامتلاك البساتين كي نستطيع تزويج أبنائنا، لأن السؤال الأول الذي يطرحه والد الفتاة هو، هل يملك (الخاطب) بستاناً جيداً ليقدمه لي كمهر لابنتي؟"أمسكت بالكرة قبل أن ترتد وتساءلت قائلة: "لماذا تزوجون بناتكم في مثل هذه السن المبكرة؟ أنا لا أعتقد بأن الله قدر

عليكم التضحية بفتيات في الثامنة أو التاسعة من العمر".اعترض قائلاً إن هذه الأمور لم تعد تحدث حالياً، فالفتيات لا يتزوجن حتى سن الرابعة عشرة. لكن حين أفصحت عن شكوكي لم يركز على تلك النقطة، وأظنه ضمن بأنني على إطلاع واف على هذه المسائل. والحقيقة أنّ الرجال أمثاله يغضون الطرف عن الشر. ويسمحون للقضاة الشرعيين المحليين بالالتجاء إلى حماية القانون حين ترتكب مثل هذه المخالفات....سألته الآن: "هل صحيح، أيها القاضي، أن نساءكم لا يقابلن أحداً"؟ عند هذا السؤال الصريح والمباشر أطلق وابلاً من الكلمات لم أستطع أن أميز سوى عدد قليل منها، مثل "ليس هنالك تعليمات" - "لا أعرف"."هذا أمر مؤسف جداً"، وغيرها.

لكني صديقة لك كما تعلم، فهل تأخذني لرؤية زوجتك؟" اصفر وجهه، وبدا أنه قد انزعج، وحين ألححت قال: "لا، لا ؛ هذا مستحيل. هل تظنين أنّي أرفض لك طلباً أستطع تلبيته؟ إن زوجتي ستنوح باكية. ولسوف لا تشعرين أنت بالراحة".

عدنا مرة أخرى إلى مكتبه،وقدم لي قهوة لذيذة، وصندوقاً كبيراً من الحلوى، لكن لا شيء يثنيه عن تصميمه. "لا لا سوف تشعرين بالضجر الشديد مع زوجتي أو مع أية امرأة في "غاردايه".

في اليوم التالي وجدت نفسي في غرفة استقبال "قاض" ثالث، بين أكداس من الأمتعة، والأسلحة الصدئة، والسلال، والصناديق وغيرها. لم يكن لدي أي أمل في العثور على ضالتي هنا، في هذه البلدة المنعزلة التي يدل مظهرها على تمسكها الصلب بالفضيلة، بل والعدائية أيضاً تجاه "الروميين". كيف لي أن أتوقع أن يدخل السرور إلى قلبي بإزاحة العقبات والحواجز التي تعترضني؟....

رأيته الآن يخرج من أحد الأدراج مجموعة مدهشة من الأقمشة المبهرجة كانت عبارة عن كتلة متشابكة من الأشرطة الملونة. وضع الكومة بكاملها أمامي، فميزت بينها عدداً من

الأوسمة، منها "وشاح النخيل الأكاديمي" الذي تمنحه وزارة التعليم الفرنسية. من الواضح أن "القاضي" كان طموحاً، فهل تراه يتوق لارتداء "الوشاح الأحمر"؟ وهل آلام كثيراً لاستغلال أفكاره الخاطئة حول تأثيري ونفوذي على السلطة في بلادي؟ بدون أي تردد قلت:

"أيها القاضي، أريد رؤية زوجتك!" ألقى علي نظرة فاحصة، وهز رأسه، ثم اختفى داخل "الحريم". تساءلت متعجبة عما يحدث خلف هذه الجدران. ما هي الأوامر التي يصدرها "السيد"؟ أية تعليمات صارمة يلقيها؟ على أية حال، بعد مضي ربع ساعة أُدخلت إلى المكان المقدس، أو بكلمة أخرى، إلى باحة كبيرة الحجم مسقوفة جزئياً، تشبه الردهة، يدخلها الهواء والنور عبر "مشربية" واسعة مفتوحة على السماء الزرقاء. ها هي الزوجة تقف هناك بين زوجة ابنها وزوجة أخيها، مرتبكة لكن مبتسمة،وهي تمد نحوي ذراعين عاريتين محملتين بالأساور، وقد وضعت حجاباً مطرزاً بأشكال من الزهور الملونة، يتدلى من حول العنق وتستخدمه كغطاء للرأس، وصل حتى جبينها وثبت خلف رأسها. هنالك أيضاً عدد من الأثواب الصوفية ترتديها النساء الثلاث عادة كي تكمل بألوانها المختلفة الزي الذي يلبسنه: الأزرق النيلي للزوجة، والأحمر الغامق "للكنة"، والأخضر الغامق لزوجة الأخ. هذه الأثواب يلففنها حول أجسادهن الرشيقة القوية، في طيات واسعة، بحيث يترك العنق والأكتاف ببشرتها الناصعة البياض عارية تماماً. لم أر بشرة بيضاء حليبية كهذه في أي مكان آخر من قبل عدا بشرة السويديات. والتأثير الذي تتركه على النظر يكون مضاعفاً بسبب الشعر الفاحم والعينين السوداوين.

قلت لكل منهن: "أنت زِيْنة" بالعربية- لأنني لا أعرف كلمة واحدة من اللغة البربرية- فابتسمن لي علامة الرضى، وشددن على يدي، وضمتني كل واحدة إلى صدرها معانقة رغم جميع الدبابيس المرعبة التي تضعها، وهي ليست بعيدة الشبه بالخناجر الصغيرة. شعرت وكأن نمرة ودودة تعانقني، ولم أكن لأشعر بالندم لو وجدت بعض الحماية في تلك اللحظات،

وتمنيت لو أن خادمي الصغير "مولود" كان معي ولم يُردَّ على أعقابه عند عتبة الباب، حيث أثارت فكرة دخوله معي الرعب بين سكان المنزل .

زودتني تجربتي الأولى بالشجاعة، لكنها غيبّت عن ناظريّ أنها مجرد حدث استثنائي. واستطعت الدخول بعدها إلى مخادع النساء في عدة بيوت أخرى. إذ ذهبت أقرع مداخل البيوت المغلقة مهما كانت صلابة القضبان الحديدية التي تسدها حتى تفتح في النهاية أمامي، فأنسلّ داخله عبر أبوابها نصف المفتوحة والمحروسة بكل اليقظة والحذر، دون أن أهتم بنظرات العداء التي تحرم علي الدخول، وأخيراً عرفت حكمة قاضي "غاردايه" حين قال في الواحة "سوف لا تجدين إلا الضجر".لم ألق استقبالاً ودياً في أي مكان. وفي مرات كثيرة في الواقع قوبلت بعدائية فعلية، ودفعت دفعاً خارج البيوت، وفي مرة أو مرتين كنت في خطر داهم. لكن كان عندي من الأسباب ما يدفعني للاستمرار في جهودي مهما قوبلت بعدم الترحيب. هل أكتفي بجهلي التام بأحوال هؤلاء النساء بالذات، في الوقت الذي أصبحت فيه حسنة الإطلاع على أمور بقية أخواتهن من نساء الصحراء؟ في الواقع لا أستطيع. وهكذا تابعت طريقي بالاهتمام والفضول نفسيهما لكن قلبي كان يقطر حزناً. والكراهية التي قوبلت بها أصابتني بالاكتئاب وتركت آثارها داخل نفسي كما يخترق من كل ناحية جليد الشتاء وضبابه المفاصل والعظام.

لكن، يا للصور الشعرية التي انطبعت في ذاكرتي نتيجة كل هذا! أتذكر بشكل خاص أسرة زرتها يوماً عند المغيب. كان كل أفرادها متجمعين في الفناء نصف المسقوف، والدخان برائحته النفاذة يتصاعد من خشب العرعر المشتعل في الموقد، مرتفعاً إلى السماء الزرقاء البادية من القسم المكشوف من سقف الفناء. الأب والأم وعدة أولاد، بالإضافة إلى خطيبة أحدهم وكانت صغيرة السن، جلسوا هناك وقد كبحوا جماح غضبهم، واحتفظوا برباطة جأشهم، وهم يقاومون رغبة فعلية لديهم بإلقائي إلى الشارع. صمتهم، وقبضاتهم المشدودة، وموقف التحدي الصامت الذي اتخذوه، كل ذلك أضفى على منظرهم نوعاً من الجمال العنيف

نراه عادة على المهزوم في حضرة عدوه المنتصر. وفي منزل آخر، جميل ونظيف وواسع، كان هنالك جمل في حجرة الانتظار، يمد عنقه الطويل ذا الوبر الخشن، تماماً كما في الرسوم القديمة المقدسة. وكانت تجلس قرب الموقد امرأة تحتضن طفلها الصغير، لا تزال جميلة رغم تجاوزها مرحلة الصبا، وعلى ملامحها إمارات الحزن. ما إن رأتني حتى رفعت سبعاً من أصابعها ببرود وجلال وقد سيطرت عليها مشاعر العداء ونطقت كلمة "مَوْت" بالعربية، في حين شعرت خادمتها الزنجية عندما رافقتني إلى الخارج بضرورة ترجمة تلك الكلمة والتعليق عليها باقتضاب وسرية.

كذلك أنا أفكر مراراً بتلك الصبية من قبيلة "الموزابيط"، بجسدها الضئيل وأطرافها الدقيقة الناعمة، والتي كانت متزوجة في عمرها هذا قبل أربع سنوات، وستكون أماً بعد وقت قصير، ومع هذا فهي تحمل العبء بيسر ورشاقة تصل إلى حد الجمال، وهو أمر لا تعرفه النساء اللاتي يشوه جمالهن الطبيعي العمل المضني والأزياء الحديثة. لم اعرف حينها ما إذا كان زوجها غائباً أم موجوداً في المنزل. لكن لن أنسى وقفتها البديعة وهي تبعد برفق طيور الحمام التي تقف على رأسها وأكتافها العارية. كانت تلك الصبية الفاتنة الوحيدة من بين نساء القبيلة التي لن ترتعد هلعاً حين رأتني أدخل منزلها. "آه، يا ا لله، ماذا نفعل، ها هي "الرومية" قد دخلت المنزل"، هكذا صاحت حين رأتني. لكنها لم تظهر استياءها من عمليات التنظيف المضنية التي كانت ستقوم بها بعد رحيلي لتطهير "النجاسة" التي خلفتها آثار أقدام "المسيحية".

حادثة أخرى لم تكن ممتعة إلى هذا الحد حصلّت معي حين اقتحمت اجتماعاً نسائياً في اليوم التالي لاحتفالات أقيمت بمناسبة زفاف. لم أعرف ما إذا كانت الحاضرات قد استثرن نتيجة للألعاب والرقصات التي كانت تجري، لكنهن تصرفن بوحشية، وطردنني شر طردة، فالتجأت إلى السطح حيث لم يجرؤن على اللحاق بي خوفاً من أن يراهن أحد في صحبتي الملوثة. نظرت إليهن من عل وأنا أفكر ببشاعة وجوههن الغاضبة التي تحملق بي مكشرة عن

أنيابها، وقد ارتدين أثقالاً من الحلي المبهرجة والملابس الاحتفالية، وطلين خدودهن بأصباغ بيضاء وحمراء وذهبية، ولم يجدن في كل العالم ما يجملن به أطراف أنوفهن وذقونهن سوى الزفت الأسود، ولففن خصلات شعرهن بشكل رديء ليتدلى على جانبي الوجه فوق الصدغين، ووضعن مجوهرات ثقيلة الوزن فوق كل جزء من أجسامهن، وباختصار يمكن وصف مظهرهن بأية صفة عدا الجاذبية...وكما هو معلوم، لم أستطع البقاء طويلاً على السطح، إذ لا تصلح الكوّات ولا أعشاش الحمام مكاناً للسكنى، وعلي النزول ثانية بطريقة ما. وعندما هممت بذلك حدث مشهد فظيع؛ فالعروس ذات التسع سنين بدأت البكاء، وزعقت "الأشبينة"، وأخذت الزوجات الصغيرات اللاتي تزوجن العام الفائت بالصياح حتى انقطعت أنفاسهن- آه يا قاضي "غاردايه"، ما الذي أخبرتني به؟!- ثم قامت بقية الحاضرات من الزوجات الأكبر سناً بالهجوم علي وضربي ودفعي وجرحي بأظافرهن،حتى أنهن اقتلعن خصلة من شعري! ترى هل أردن الاحتفاظ بها كتذكار؟ وبالنسبة لي فان ذكرياتي عنهن ليست مستحبة ولا رقيقة، والمشهد لا يزال ماثلاً في مخيلتي كالكابوس يذكرني بتلك الرحلة. وفيما بعد حين تهب الريح في الليل كعادتها في الصحراء، أتخيل أنني اسمع صراخ نساء "الموزابيط"، وأرى فيما يرى النائم أيديهن الحاقدة تهز جنبات خيمتي وكأنها شجرة خوخ عتيقة.

"يا ا لله. يا ا لله! لقد دخلت "الرومية" المنزل!".

هكذا كنت أتخيلهن يصرخن. [١٨]

رسم "يوجين دو لاكروا" لوحته الشهيرة "نساء الجزائر داخل مخدعهن" بعد أن أقنع رجلاً بأخذه إلى منزله- ولا زالت علامة استفهام كبيرة تحيط بهوية تلك العائلة، هل كانت يهودية أم مسلمة؟ فالفنانون، كالمصورين مثلاً، كانوا على استعداد لعمل الكثير من

[١٨] – مدام جين بوميرول : "وسط نساء الصحراء"، ١٩٠٠، ١٣٧-١٦٠.

أجل رؤية امرأة خلعت الحجاب وبهذا يعتبرون ناجحين في مهنتهم. ايه.سي.انشبولد وزوجها الرسام قابلا بدوياً سمح لزوجته أن تكون "موديلاً"- لكن في السر فقط شرط أن لا يكون أحد حاضراً. ولكي يتخلصا من الجماهير التي أحاطت بهما أشاعا قصة مفادها أن الرسام الإنكليزي غيور جداً ولا يسمح للناس بأن يحدقوا بزوجته. وكانت هي سعيدة جداً بمتابعة

هذه القصة الزائفة التي كانت، كما وصفتها، "حالة ذهنية تعاطف معها البدو كثيراً".

نساء هؤلاء البدو الذين يسكنون التلال الرملية يغطين وجوههن كالمسلمات، لكن حجابهن على الطراز المصري، مزين بالودع، والخرز، وقطع النقود المعدنية، يلبسنه كقناع غريب الشكل يسمح فقط بظهور العينين أثارت فضولنا زوجة شابة جميلة عرفها "السيد هـ" حين كانت طفلة صغيرة قبل زواجها بزمن طويل. وبقليل من اللباقة وحسن التصرف استطعنا التحرك من منطقتنا الأولى على الرمال إلى أبواب خيمتها بصحبة زوجها "سليمان" وحماتها "أم سليمان".

أما بقية الجمع المحتشد حولنا فقد انسحبوا. لأنهم أُخبروا بكلمات عربية معبرة يعرفون مدى جهلنا بها، أن الرسام كان عرضة لنوبات مخيفة من الغيرة، وأنه يعترض بشدة على أن تصبح زوجته هدفاً لنظرات الناس. وكانت هذه حالة ذهنية تعاطف معها البدو وفهموها تماماً، كما أنها وضعت "سليمان" في موقف مطمئن، لأن "الفرنجي" الذي يفكر بزوجته بهذا القدر يستبعد أن يفكر كثيراً بزوجة البدوي. ولهذا حين اقُترح علي أن أرى زوجته من دون قناعها البشع، سمح لها "سليمان" بأن تكشف عن وجهها رغم وجود "الخواجة الإنكليزي. كانت "فاطمة" فاتنة، بوجهها الجميل الصغير الأسمر، الذي وشم حول شفتيها البارزتين، وعينيها الرمادتين المعبرتين اللتين تعكسان صفاء ولون السماء حين تبتسم، وشعرها الغزير البني وضفائره الجميلة المعقودة حول جبينها لتتدلى بعدها على جانبي وجهها وتصل حتى

الخصر. كان جسمها مكتمل النمو، كتمثال منحوت رشيق. أما رضيعها الصغير فكان يبدو في مثل حجمها، ومن المؤكد أنه أكثر الأطفال جوعاً في "يافا"، كما يظهر من شهيته القوية. تطلب الأمر مزيداً من اللباقة لتمكين الرسام من جعل الزوجة تقف في وضعية مناسبة ليرسمها بريشته. فتم ترتيب موعد بحيث نقوم بزيارة الخيام في اليوم التالي، حاملين معنا سلة تحوي "زادنا" لتناول "شاي الأصيل" في خيمة فاطمة، وبهذا نضطر الزوج إلى الرضوخ أمام عرضنا. بدأنا النزهة نحو خيام البدو تحت سماء ملتهبة حوالي الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي. رآنا الناس قادمين من بعيد فاحتشدوا حول حافة التل لملاقاتنا والتخفيف من عبء السلة الثقيلة التي كنا نحملها. على شرف المناسبة نقل "سليمان وفاطمة" خيمتهما البنية الداكنة إلى بقعة نظيفة من الرمال. وأفرغا جميع محتوياتها ما عدا بضع وسائد بالإضافة إلى الصندوق الخشبي المعهود، وفتحا الجدران النسيجية من جهة المقدمة، ونشرا الفراش الذي سنجلس عليه بشكل شبه دائري لحمايتنا من أشعة الشمس. أمّا خارج الخيمة فقد اجتمع الناس بسرعة من الخيام الأخرى وجلسوا القرفصاء فوق الرمال اللاهبة، على شكل هلال كبير، كان معظمهم من الصبيان والبنات وأقارب "سليمان" بوجوههم الكئيبة.

وجود "سلمان" أحرجنا، إذا لم يقترب أي رجل آخر بسبب التحذير السابق من غيرة "الإفرنجي"؛ فقد قيل لهم إنه لن يسمح لهم تحت أي ظرف بالدنو من الخيمة حيث تجلس زوجته في عزلة بعيداً عن الناس. ولا شيء يمكن أن يقنع أقرباء "سلمان" الفضوليين بأن غيابه أفضل من بقائه. وليس من اللائق أن نأمره بالانسحاب. ثم ملأ "سليمان" أنفه برائحة الشاي وبقي في مكانه حتى انتهاء الجلسة. وعندما أوى إلى فراشه، كانت فكرة رسم زوجته غير واردة أبداً إلا تحت شرط واحد هو أن يتم الأمر بسرية تامة، وعندها فقط يوافق أن تجلس زوجته أمام الرسام.[١٩]

[١٩] – ايه.سي.انشبولد : "تحت شمس سوريا"، ١٩٠٦، الجزء الثاني، ص ٣٦٩-٣٧٠.

الاختباء فوق سطح المنزل من أجل التلصلص على النساء في الأسطح المجاورة، كان ممارسة شائعة عند كل الرجال الأوروبيين، وفي بعض الأحيان انقلبت المعادلة رأساً على عقب حيث حدقت النساء والأطفال بوقاحة وجرأة في المتطفلين وهم يضحكون ويقهقهون. وقد اشتكى الرحالة من ذلك مراراً. "القس ي.و.ال.دافيس" روى عام ١٨٥٨ أنه بعد احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر كانوا يتسلقون أسطحة المنازل ويستخدمون المنظار المقرب ليمكنهم من اقتحام خلوة النساء بشكل أكبر. "جون هورن" وصف عام ١٩٢٥ حالات مشابهة في المغرب. لكن البطلين هذه المرة كانا إنكليزيين هُزما أمام النساء.

السيدات! كلمة تذكرني بأنه قد آن الأوان لغزو معاقلهن، لأنهن يسكن معاقل لا يسمح لرجل باختراقها عدا الزوج، وحتى هذا لا يدخل هناك إلا فيما ندر، وحين يفعل ذلك تحوّمْ مأساة في الأفق بانتظار شخص ما. مع ذلك دعونا نغزها، ولنحرص على الاختباء حتى لايصيبنا مكروه، ونرى العالم من مرصد النساء؛ أسطحة البيوت في مدينة "فاس". هنالك قصة تروى عن إنكليزيين متحمسين لرؤية كل شيء في المغرب، صمما على مشاهدة جميلات الحريم اللاتي يسكن في الجوار عن قرب، حين يقمن بنزهة على السطح. لم تثنهما العواقب الوخيمة التي سيتعرضان لها لو أنفضح الأمر. وقبيل الفجر اختفيا تحت سلتين ضخمتين موضوعتين في مكان بارز فوق سطح منزلهما انتظاراً لحلول المساء. ومرت ساعات النهار الحارق بطيئة، ولم يجرؤ المراقبان على الحركة خوفاً من انكشاف أمرهما، أو من ذهاب حلمهما برؤية الجميلات أدراج الرياح. وعندما حل المساء، بعد ما شوت جلودهما شمس الظهيرة، انفتح باب صغير في نهاية الدرج على السطح المقابل، وظهرت منه امرأتان سرعان ما خلعتا النقاب، واحسرتاه! كيف يحوي العالم بشاعة كهذه؟! ومن الأبواب الأخرى ظهرت بعض النساء، كل واحدة أكبر عمراً من الأخرى وأقل جمالاً، وهن يضحكن ويشرن بسخرية نحو السلتين الكبيرتين على السطح الخالي الوحيد. واستمرت تلك الحالة حتى خيم الظلام فأخفى كل شيء. وخرج الرجلان الشجاعان من مخبئهما منهكين محمومين، ولم يكن ذلك

طبعاً نتيجة للحب الذي ملك عليهما الفؤاد والعقل. حسبا أن الأمر مسل، لكن التسلية الحقيقية كانت من نصيب السيدات، لأن الخبر انتشر بسرعة البرق على الأسطح.[20]

أسهم "دوق بيرانو". وهو طبيب إيطالي يعيش في ليبيا، في هذا الكتاب أيضاً، ورأينا في مكان سابق كيف وصف جسد إحدى مريضاته. أما الفقرة التالية فمن الممكن وضعها ضمن فصول أخرى، لكن الطبيعة الإباحية لوصفه زيارة قام بها لساحرة تستخدم العقارب، والذي كتبه بلغة جنسية صريحة، يستحق ضمه إلى هذا الفصل.

صمتت الفتاة و استرخت في جلستها، ثم أغلقت عينيها، وبدت وكأنها غرقت في النوم، لكنها داومت على هز كتفيها على إيقاع ترنيمة بعيدة. دخان البخور يخرج من المجمرة بعد أن يحترق بصوت خفيض كالأزير. وفجأة ارتعشت الفتاة، وبحركة بطيئة من رأسها وصدرها وردفيها خلعت "الحيك" الذي كانت ترتديه. وجلست متربعة، منتصبة الوركين، يغطيها قميص داخلي قصير بدون أكمام. كانت صبية زنجية، شفتاها سميكتان قرمزيتان، وأنفها قصير مفلطح قليلاً– ولا بد أنها أتت من منطقة نائية. كان جبينها محدباً وعليه ملامح القوة، وعيناها بلون القهوة مع بياض يخالطه الاصفرار، أما ضفائرها المشدودة فقد التفت حول رأسها تاركة أذنيها مكشوفتين وبدون أقراط؛ وكانت ذراعاها ويداها عارية من الخواتم والأساور وبجانبها بدت بشاعة المرأتين الطاعنتين في السن مقززة ومنفرة.

أخذت الفتاة سلة من القصب قدمتها المرأتان ورفعت غطاءها الملون. وفي مقرها كانت عقرب كبيرة تندفع بضراوة وقد انتصب ذيلها كالسيف. نظرت الساحرة إلى العقرب، وشفتاها نصف مفتوحتين، وعيناها نصف مغلقتين، ثم أخذتها بين إصبعيها ووضعتها فوق كتفها. تعثر المخلوق الزاحف هناك وخدش "بَكلْة" القميص، ثم فقد موطئ رجله وانزلق نازلاً إلى

---

[20] – جون هورن : "أيام في المغرب"، ١٩٢٥، ص ١١٧–١١٨.

التجويف عند الترقوة. ثم رمت المرأة برأسها إلى الخلف فتسلقت العقرب عنقها، وعبرت فكها الأسفل ببطء في طريقها إلى خدها. ثم أغلقت عينا حين مرت فوق جفنها إلى جبينها وعلقت بشعرها الكثيف الذي يشبه الصوف. أخذت الساحرة العقرب بيدها مرة أخرى، وضربتها بكفها، وتمتمت بضع كلمات لم أفهمها، ودغدغت بطنها ثم دستها فجأة في فمها. لم يبق خارجه سوى الذيل فقط، يرتعش ويندفع في كل الاتجاهات بارزاً من بين شفتيها الغليظتين، وحمته السامة تلدغ ذقن الفتاة ومنخريها. وبعد برهة كانت العقرب في كف المرأة تتثنى وتتلوى بشدة ووحشية وهياج وهي مغطاة باللعاب. ابتسمت المرأة للوحش الصغير ووضعته تحت إبطها، ثم بحركة سريعة حلّت "بكلة" قميصها الداخلي الموجودة فوق كتفها فسقط لتصبح عارية حتى الفخذين وبعدها دست العقرب بين رجليها تاركة ذيلها منتصباً بشكل بذيء.

أعادت رأسها إلى الخلف وضحكت ضحكة صامتة شريرة وفتحت فمها، بينما كانت عيناها الزجاجيتان مغلقتين تقريباً. خلال ذلك بدأت تداعب عقرباً أخرى، مخططة باللون الأصفر، أصغر حجماً من الأولى لكنها أشد سمية وفتكاً. لستها بإظفرها ونفخت على رأسها، وحين اندفعت مهتاجة أخرجت لسانها في وجه الذيل المميت وتلقت به اللدغات دون أن تصاب بجرح. الآن وقف العقربان على ذراعي الساحرة المعقودتين. راقبتهما، والوحشان الأسطوريان الصغران يواجه أحدهما الآخر وقد استعدا بأطرافهما وأسلحتهما. تقدمت العقربان ببطء وغباء من بعضهما، وأمسكت كل منهما بأرجل الأخرى، وذيلاهما يتحركان باندفاع وارتعاش في نوبة اهتياج يتصل جنونها بتلك التي تحدث للفتاة المرتعدة وكأنها تعاني من حمى الملاريا، وقد تراجعت شفتاها لتظهر أسنانها. في حين ركزت على الخصمين المتقابلين عينيها اللتين أصيبتا بحَوَل وحشي.

وفجأة أطلقت صرخة، كنغمة "الزغاريد" الحادة ، تشبه صرخة الحرب التي تستحث الرجال في المعركة. وبدا أن الوحشين الصغرين قد فهما واستجابا، وبما أنهما حبسا في "مكان" ضيق تصارعا وتعاركا وأنشب كل منهما مخالبه في الآخر. ولوح ذيله القوس باحثاً

عن نقاط الضعف في الخصم، ولدغ كل منهما ظهر الآخر بحمته السامة كما فعلا من قبل في وجه المرأة ولسانها وشفتيها. وفجأة توقف الإثنان، وهدأت الهجمات، فالسم تركهما بلا حراك. تشنج الذيلان الداخلان في الجروح مرة أو مرتين، وانفرج الكلاب ببطء وألم؛ وامتدت الأرجل بحركة تشنجية، وتدحرجت الزاحفتان المتشابكتان ميتتين على الأرض المفروشة بالحصر. أرخت المرأة جسدها ومالت إلى الأمام ثم أمسكت ركبتيها بذراعيها، وارتعدت؛ كان اللعاب يسيل من فمها، والعرق يتصبب من صدرها ونهديها.[٢١]

إذن، حسب روايات الرحالة أنفسهم،فانهم هم حقاً المجتمع المريب جداًحيث اقتحموا حياة النساء الخاصة مستخدمين القوة والرشوة، وشجعوا البغاء، وقدموا وصفاً مشهوداً لحياة النساء، يلفت الانتباه لا بسبب انتقاداته أو غطرسته أو نفاقه، بل أيضاً لأنه – بالتعريف– خالٍ من المعلومات المهمة.ولخاتمة هذا الفصل، اخترت فقرة كتبها "أرثر كوبينغ" في فلسطين حيث كان يواجه تبعات وجوده هناك. ونستطيع أن نخمن كم من السهل أن تنتهي روايته بعد المقطع الثاني، حين يعطي القارئ جرعة أخرى من المعلومات المضللة.

بعد أن تركنا "السامرة" خلفنا، انطلقنا عبر الوديان و التلال الجميلة حيث تنمو أشجار الزيتون والتين والرمان؛ وفي إحدى المرات مررنا بواد صخري صغير حافل بالجمال والهدوء ولا يسمع فيه سوى تغريد الطيور. وبصورة غريزية توقفنا، أنا وأخي، حتى نشبع عيوننا من المنظر البهيج. وبينما كنا ننتظر ونراقب، اقتحم العزلة فجأة ضجيج مكتوم أتى يدمدم من جهة لترتد أصداؤه الغريبة من الجهة المقابلة.

---

[٢١] – دوق بيرانو : "علاج للأفاعي"، ١٩٥٨ (ط.أ. ١٩٥٥) ص ٤٢-٤٣.

نظرنا حولنا في ذهول، فما خبرناه حتى الآن في فلسطين يؤكد أن روح الهدوء تسود في كل مكان. إذن ما هذه الجلبة التي تطرق أسماعنا- هنا ، من بين كل الأصقاع، في المعبد الحقيقي للهدوء والسكينة؟ علا الضجيج ليصبح صراخاً حاداً وملحاً لرجال لا يمكن تحديد مكانهم، وفي الدقيقة التالية كنا نرى من موقعنا المرتفع موكباً لا تعي ذاكرتي مثل منظره كآبة.

كان عبارة عن قافلة من البغال والخيول والحمير وعلى ظهر كل منها كومة من الصرر الكبيرة المتأرجحة، والصناديق، والمقاعد، والطاولات وغيرها، وقد تربع رجلان بين الأمتعة، وسار آخرون إلى جانب وخلف الدواب بأحمالها الثقيلة، وهم يهاجمونها بالتعنيف والضرب وأحياناً بالحجارة. وبدا الأمر أمامي وكأن عصبة من اللصوص نهبت قرية وفرّت بغنائمها خوفاً من انتقام العدالة .

رفع أحد الهاربين بصره، وبدا أنه رأى فارسين يقفان على التلة، إذ بدأ يلوح بيده لنا، وخلال لحظة عرفنا أن الرجل لم يكن سوى "جورج" النادل، وأن الموكب هو قافلتنا، إذن هكذا يبدو مخيمنا عندما نرحل عبر الدروب! فحضارتنا رغم كل ذلك، حين ننظر إليها من موقع مختلف جديد، لا تخلو من آثار البربرية البدائية.[٢٢]

---

[٢٢] - ارثر. اي. كوبينغ: "صحافي في الأرض المقدسة"، ١٩١٥، ١٩٢-٤

من هم الأكثر إثارة للغضب؟

رغم أن هذه المختارات وضحت باستمرار كراهية الأوروبيين للنساء، وعنصريتهم، ومواقفهم النخبوية، إلا أن الكتّاب بتعصبهم الأعمى كانوا قادرين- أكثر من ذلك- على تقديم عبارات تحبس فظاعتها الأنفاس.

يفيد هذا الفصل كطريقة لتلخيص نوعية الأحكام التي أوردها الكثير من الرحالة حين أخذوا على عاتقهم مهمة تقديم المعلومات لقرائهم. ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على رحالة القرن التاسع عشر وحدهم. وعلى أية حال، نأمل من الكتاب المعاصرين ألا يتغاضوا عن ملاحظات كتلك التي كتبت عام ١٨٩٩.

في أيامنا هذه تستخدم الجمال في كل الأعمال المنزلية في إفريقيا. يمكن أيضاً رؤيتها تجر المحاريث داخل حدائق قصر الحاكم في تونس، إذ يمكن أن ترى امرأة وجملاً مربوطين إلى نير المحراث نفسه، وتتردد في تحديد أيهما الأكثر إثارة للغضب.[١]

في المقتطفات التالية يعاني كل من "وليام أرنولد برومفيلد" و "وليام كينيث لوفتوس" من عمى خطير في تحديد الجنس، في حين يعتبر "تشارلز ترويت" أن النساء يشكلن عرقاً منفصلاً.

---

[١] – هربرت فيفيان: "تونس والقراصنة الجدد من البربر"، ١٨٩٩، ص ٣٠٦.

يسيطر حالياً الذعر على طول وادي النيل ،والسبب أن عساكر "الباشا" منهمكون في القبض على الرجال في المدن والقرى وتجنيدهم بشكل إجباري... وفي الليلة الفائتة أرسلنا "محمداً و أحمد" إلى ضفاف النهر في المهمة المعتادة لإحضار الحليب، فوجدا المكان مهجوراً تماماً حيث فر الرجال من السكان إلى التلال لتفادي السوق الإلزامي، وخلفوا وراءهم النساء والأطفال فقط.[٢]

بعد انطلاقنا من الأهواز كانت "بندر غيل" هي محطتنا التالية، بعد أن مررنا بقرية عربية صغيرة وجدنا جميع سكانها مشغولين بجني المحصول؛ الرجال والأولاد والبقرات والحمير يدوسون على القمح بأقدامهم بصبر واجتهاد لدرسه، حيث كان المحصول وفيراً وقتها. وبعد القرية مباشرة تتدفق مياه نهر "قارون" عبر تربة من الطمي الخفيف التي تصلح لزراعة الحبوب، لكن من المشكوك فيه أن يكون الفلاحون هناك على علم بهذه الحقيقة.[٣]

في هذه الممرات المعتمة ينعطف المرء فجأة ليجد نفسه في شارع اصطفت على جانبيه الملابس القطنية الإنكليزية بألوانها الزاهية، والحقائب والمحافظ الجلدية المحلية الصنع، والبضائع المزخرفة معلقة أمام الدكاكين؛ في حين تنتصب فوق الشارع عريشة من القصب التفت حولها أغصان الكرمة الزاحفة لتصد حرارة الشمس القائظة. جلبة الأصوات هنا تصم الآذان- المغاربة، واليهود، والإسبان، والعرب، وأخيراً وليس آخراً النساء الملتفات بـ "الحَيْك" اللاتي يرتدين قبعات من القش يبلغ قطر الواحدة منها حوالي الياردة. الجميع يتصايحون ويشيرون بأيديهم أثناء الحديث لدرجة يظن المرء معها أن الأمر سينتهي بتبادل اللكمات؛ إذ أن الصفقات لا تتم دون مساومات وضجيج ليس له أي داع، لأن البائع يطلب دوماً سعراً أعلى بكثير من ذلك الذي ينوي القبول به.

---

[٢] - وليام ارنولد برومفيلد: "رسائل من مصر وسوريا"، ١٨٥٦، ص ١٥٠-١٥١.

[٣] - وليام كينيث لوفتوس: "رحلات وأبحاث، ١٨٥٧، ص ٢٩٢.

خصوصاً عندما يكون المشتري المحتمل "مسيحياً"، ولسان حاله يقول : "إذا لم أحصل على المطلوب فلن أخسر شيئاً، أما إذا فعلت فقد كسبت الكثير.[٤]

عندما زارت بعض النساء (كن مسيحيات بالصدفة) "السيد جيلوم ري" في مخيمه وهن يحملن هدايا من الفاكهة والجبن، كان من الطبيعي أن يفترض أن الأزواج هم الذين أرسلوهن.

في هذا الصباح، عندما كنا نفكك خيامنا، رأينا امرأتين قادمتين من البلدة وهما تحملان السلال. حسبنا أنهما قدمتا لبيعنا بعض المؤن، لكن كنا مخطئين، فقد كانتا من المسيحيات وحيث أنهما من ديننا نفسه، قدمتا لإحضار هدية كانت عبارة عن ثلاث سلال كبيرة من الإجاص المطبوخ على الفحم، و"الكريفون" والجبن المجفف، وذلك من أجل الوفاء، بطريقة من الطرق، بحقنا في أن تُحسن وفادتنا، تأثرنا بشدة بهذه المراعاة لمشاعرنا من أناس لم نعرفهم مطلقاً، أرسلوا لنا زوجاتهم وبناتهم يحملن المؤن، فقط لأننا مسيحيون وغريبون عن المنطقة.[٥]

صممت السيدة "ألبرت روجرز"، كمسيحية غيورة، على إنقاذ النساء المسكينات في الجزائر من الحياة الوضيعة التي يعشنها في كنف الإسلام. لكن وجدت أن حسها الجمالي قد أُهين بمظهر الزنجيات إلى حد جعلها تقدم الاقتراح اللامعقول التالي:

---

[٤] – والتر بيسانت (المحرر): "الأعمال الأدبية الباقية للراحل تشارلز. اف.تيرويت "، ١٨٧٧، ص ١٨٨–١٨٩.

[٥] – ام.ي.غيلوم ري: "رحلة إلى حوران بين عامي ١٨٦٣–١٨٦٤–١٩٦٥،" ص ٧١.

إن التسوق والزيارات في المدينة تعوضنا دائماً عن جوها الاجتماعي المغلق، ومع أنني قلباً وقالباً معادية للنظرية الداروينية، لكن من المؤكد أن عواطف المرء الأخوية تتوتر إلى حدها الأقصى حين يتعثر في زوايا الأزقة المسقوفة بالزنجيات يرتدين أثوابهن الزرقاء العصرية التي لا تتبدل، وإذا ما إخترن إرتداء الأزياء الإسلامية، وأخفين وجوههن المنفّرة، فسيوفرن على المرء العديد من الصدمات.[٦]

أما "ي.هـ.بالمر،" وهو زميل في كلية "سان جورج، كمبردج" فقد قام برحلتين إلى سيناء وفلسطين بين عامي ١٨٦٨–١٨٧٠ لهما علاقة بالاستكشاف ومسح المعدات الحربية. أظهر هذا العالم، الذي ادعى أنه مراقب حيادي، جهلاً مطبقاً بالأوضاع المحلية وحوّر في روايته كثيراً ليبين أن النساء العربيات لا يملكن أحاسيس طبيعية.

في "وادي عليات" كان هناك مخيم للبدو. وخلال وجودنا في الجوار حصلت حادثة وفاة في إحدى الخيام. كان عويل النساء في المناسبة عالياً وعاطفياً، ويمكن له أن يكون مؤثراً لو لم يكن مفعماً بالحيوية. رأيت والدة المتوفى وشقيقته تجلسان على جانب الطريق تولولان بشكل مروع. وبدت لي العجوز على وجه الخصوص، كمراقب حيادي، حزينة بصورة متميزة، وهي تنتظر باستمرار الفرصة للطم خديها بشكل لا شعوري. وحين نجحت في استثارة نفسها إلى أقصى حد، بدأت تعيد نواحها مرة أخرى وهي تصرخ بصوت حاد، "يابني، ويْن القاك!". وخلال بضعة ساعات من رحيله، دفن المتوفى باحترام في مقبرة مجاورة.[٧]

ترى هل كان الكاتب يوصي بإقامة ردهات استقبال للجنازة والمعزين في قلب الصحراء

---

[٦] – السيدة جي.البرت روجرز : "شتاء في الجزائر، ١٨٦٣–١٨٦٤"، ١٨٦٥، ص ٧١.

[٧] – ي.هـ.بالمر : "صحراء سفر الخروج"، ١٨٧١، الجزء الأول، ص ١٧٤.

حتى تمضي فترة كافية تليق بالمصاب ما بين الموت والدفـن؟! ادوارد بيكـر، روى قصـة عن قنصل فرنسي رفض دخول النساء إلى القنصلية لأنهن يسببن إزعاجاً لـه. أمـا "تومـاس لايل" فقد قدم في عشرينات القرن الحالي رواية مشابهة إنما عن دبلوماسي بريطاني "ملأت جوانحه أفكار الفروسية وحرمة النساء". لكن لحظه العاثر لم تكن المرأة التي تعامل معهـا" مخلوقاً رقيقاً مستكيناً «حجباً"، ولهـذا تملكـه فـوراً عـداؤه للنسـاء وهـو الوجـه المنـاقض للفروسية.

أمر السيد دوليـسبس، الذي كان مؤمنـاً بالانضباط الصـارم، بعـدم السـماح للنـساء بدخول القنصلية مهما كان العذر وذلك بـسبب إلحاحـهن المضـجر- وهـذا مصـدر إزعـاج كـبير في الشرق، حيث يأتين التماساً للعفو عن المجرمين الذين يستحقون العقاب.[8]

الحادثـة الغريبـة التاليـة تلقـي الضـوء علـى الحيـاة العائليـة عنـد الشـيعة المسـلمين: موظـف رسمـي حديـث العهـد بالوظيفـة مفعـم بـروح الفروسية والانتصـار للمـرأة، قدّمـت له إمـرأة تضع حجابـاً سميكـاً استرحاماً أثّـر فيـه بشـكل بـالغ إلى درجـة أن "فاطمـة" هـذه لم تجـد لهـا مـن معـين سـوى ا لله وهـذا الموظـف، فهربـت إليـه طلبـاً للعـون. كـانت امـرأة متزوجـة أنجبـت لزوجهـا خمسـة أولاد علـى الأقـل لكنهـا طـردت بوحشـية مـن منزلهـا. حـاولت العـودة إليـه، لا لـترى أولادهـا فقـط، بـل لتجمـع بعضـاً مـن حاجياتهـا الضروريـة. فهوجمـت بعنـف مـن قبـل الـزوج الـذي اعتـدى عليهـا بـالضرب المـبرح. تـأثر الموظـف المحـترم بشـدة، ومـع أنـه لا يفهـم العربيـة كثـيراً، لكـن مـا يفهمـه منهـا كـان كافيـاً لأن يعـرف أن المـرأة الماثلـة أمامـه هـي ضحيـة بائسـة لجريمـة ضـرب الرجـال لزوجـاتهم. صمـم علـى القيـام بخطـوة "عمليـة" يفهـم بهـا هـؤلاء العـرب الأنـذال شـيئاً واحـداً هـو أن الحكومـة البريطانيـة لـن تقـف مكتوفـة الأيـدي أمـام الاعتـداء علـى

---

[8] – أدوارد بي بي بيكر : "مصر وسوريا تحت حكم أخر خمسة سلاطين أتراك"، ١٨٧٦، الجزء الأول، ص ١٩٤.

الزوجات بالضرب. استدعي الزوج لمعرفة ما الذي يعنيه بهذه الوحشية. وحاول المترجم جاهداً شرح كيف أن تلك المرأة كاذبة ومن النوع السيء الأخلاق، وأنها في الحقيقة طلقت من زوجها قبل عدة شهور بسبب عقمها، وأن الزوج يحمل وثيقة طلاق لا يرقى إلى صحتها الشك صادرة عن المحكمة الشرعية، وأنه لم ير الزوجة منذ صدور الحكم وحتى هذه اللحظة. لكن صديقنا لم يقبل سماع أي عذر؛ فأمامه يقف مثال لأكثر أنواع البشر انحطاطاً وحقارة؛ الزوج الذي يضرب زوجته. فأصدر حكماً عليه بالسجن ثلاثة أشهر مع الأشغال الشاقة. لو أن "النبي" ظهر فجأة في سوق المدينة لما أثار مثل هذا الهياج واللغط. لم يكن هناك شك لدى الناس بأن الحاكم قد أُصيب بالجنون. تلك كانت الأحاديث التي شاعت وانتشرت في المقاهي. إنه أمر جلل. أساس حياتهم الاجتماعية تقوض وانهار بلحظة. أما أكد القرآن على لسان النبي نفسه "ص" أنه يجب ضرب الزوجات الناشذات! والغريب أن حقيقة كون التهمة ملفقة في هذه القضية بالذات لم تشغل بال الناس، لأن السؤال كان: "متى وكم من المرات ضرب كل منهم زوجته، وهل هي أيضاً سترسل للحاكم طالبة العون، وهل سيحكم علينا نحن أيضاً بالسجن لثلاثة أشهر مع الشغل؛ وأكثر من ذلك، كيف يمكن لنا أن نحافظ على أقل قدر ممكن من الانضباط في بيوتنا حتى لا تحدث مثل هذه الأمور"؟

بالطبع أطلق المترجم وعوداً كثيرة بتمزيق أي التماس قبل وصوله إلى الحاكم. لكن الموظف السيء الحظ وجد نفسه تحت أكداس من التماسات زوجات الرجال الذين عميت بصيرتهم عن مقابلة المترجم والتحدث إليه طبقت العقوبة نفسها على الجميع وعم الذعر كل مكان. لكن ا لله رحمن رحيم، وفي هذه الحالة، أنزل على الحاكم بلاء الملاريا. ومع هذا داوم على الحضور إلى مكتبه رغم أن رأسه كانت تتفجر ألماً. كان الحر شديداً، ومياه النهر تتدفق عبر مدخل المكتب، حيث أُبقي الباب مفتوحاً لدخول أية نسمة رطيبة. غاص الحاكم في مقعده وأخبر

المترجم بأنه لن يقبل أي استرحام ما عدا الذي تقدمه النساء يطلبن مساعدته لإنقاذهن من سوء المعاملة.كان بحق رجل،رقيق المعاملة مع اعتبار أن رأسه كانت عرضة لنوبات

من الألم امتد وخزها ليشمل جميع أنحاء جسمه في الوقت نفسه. عندها دخلت امرأة عليه. إن المرأة المهتاجة من أية جنسية كانت، يُعتبر لقاؤها محنة في الأوقات العادية. لكن حين تكون تلك المرأة عربية تعاني من الظلم فإنها تتحول إلى غضب يصرخ، ويستحسن ألا تقابلها وأنت مصاب بالصداع. كانت تريد تقديم التماس، وأتت بصحبة زوجها المسالم الضئيل الذي لا يبدو أن له أية أهمية. ثم بدأت الشكوى، وبخلال دقيقة واحدة تحولت إلى إعصار من الغضب. حيث تدفقت الكلمات من فمها بصوت يعلو ويعلو كل لحظة حتى وصل إلى الحد الذي لا تستطيع بعده النطق. وبدءاً من تلك اللحظة عم المكتب زعيق حاد متواصل. أمسك الحاكم برأسه المصدوعة متأوهاً وتمتم هاتفاً إلى المترجم بصوت خفيض : "دعها تتوقف، بحق الإله، دعها تتوقف!" لكن كل جهوده ذهبت هباء . وصحيح أنها توقفت برهة. لكن فقط لتلتقط أنفاسها وتستجمع قواها لتؤثر في الحاكم أكثر وتقنعه بعدالة قضيتها. غاب المسكين أثناء ذلك عن الوعي تقريباً، وارتفعت حرارته إلى أكثر من ١٠٤ درجات، وتراقصت أضواء سحرية أمام عينيه، وبدا وكأن جسده بأكمله قد أصابته الحمى التي تجتاح رأسه. توقفت المرأة لحظة فرفع رأسه قائلاً: "بحق الجحيم، ألق بها في النهر!" كانت تلك كلماته الأولى التي أمكن سماعها. وبالطبع حسب الزوج أن الحكم الرهيب قد صدر بحقه، وارتعد وهو يسأل عما قاله الحاكم. قدم المترجم ترجمة حرفية لكلمات الحاكم. فصاح الزوج "الحمد لله!". رأى الحاكم أمام عينيه كتلة ضخمة من الملابس تصطرع محتوياتها ويصدر عنها صوت حاد كالزعيق – وتبع ذلك دوي ارتطام جسم بالماء، ثم خيم السكون.

في تلك الليلة عمت الفرحة المقاهي، فقد انتهى العهد القصير لتسلط النساء، وتأكد الجميع بشكل كلي وحاسم أن النبي حقاً هو رسول الله![٩]

---

[٩] – توماس لايل : "بواطن وظواهر الأمور في بلاد الرافدين"، ١٩٢٣، ص ١٥٨–١٦٣.

"الـليدي هربرت" تؤمن أن من واجبها زيارة الجزائريات الذاويـات والمحتـاجـات للعطف في منازلهن وذلك للتخفيف من حِدّةِ الملل الذي يعانين منه.

لكن في النهاية يبقى وضع النساء في هذه البلاد مؤسفاً وباعثاً على الأسى، إذ لا يشـغل فـراغ حياتهن سوى الأكل والتدخين والأزياء والاستحمام. ونادراً ما تجد بينهن من تعـرف القـراءة أو الكتابة، والوقت يمر بطيئاً متثاقلاً بالنسبة لهن إلى درجـة أن أعظـم معـروف تصنعـه هـو القيام بزيارة لهن لقتل الوقت ولو لمدة نصف ساعة...[10]

"القس جي.روبنسـون ليـس" اختـار ادعـاء الجهـل التـام بالتركيبـة الطبقيـة للمجتمـع الإنكليزي في هذه الفقرة التي كتبها عن أهمية اللباس في فلسطين.

الاختلاف في الزي هذا قـد لا يفهـم تمامـاً في إنكلـترا، حيـث الثيـاب هنـاك ليـس لهـا أي مدلول، إذ يستحيل تقريباً تمييز شخص مـن آخـر مـن خـلال مظهـره الخـارجي، ولا يمكـن تحديد المكانة الاجتماعية عن طريـق الثيـاب، والـرداء ليـس دليـلاً علـى مهنـة صاحبـه، ولا يعرف بسهولة عما إذا كان عضواً في كنيسة معينة أو طائفة ما من لباسه.

في فلسطين كل شخص يُعرف بلباسه؛ سلالته وعقيدته والمركـز الاجتمـاعي الـذي يحتلـه، والجزء من البلاد الذي ينتمي إليه. إن التنوع الهائل في الأزيـاء الـذي نجـده في أحـد الشـوارع في"القدس" طافح بالمعلومات الثمينة عن الناس الذين يرتدونها. فأولئك الذين يلبسـون الثيـاب الرقيقة الناعمة الملمس هم من الأثرياء الأرستقراطيين، أما الكادحون فـيرتدون أثوابـاً خشـنة

[10] – الليدي هربرت : "بحثاً عن أشعة الشمس"، ١٨٧٢، ص ٢٦٢.

تشبه تلك التي كان يلبسها "يوحنا المعمدان" . ولا يبدل الناس ثيابهم في فلسطين، وهو أمر يريح بلا شك الرجال الذين لهم زوجات وبنات..."[11]

ادعى أكثر من كاتب امتلاك قوى سحرية قادرة على تفسير الأفكار حول النساء المتواريات عن الأنظار، إلا أن "ميركو اردماني" الذي طاف أرجاء ليبيا، فاق الكثيرين من زملائه في اختيار الكلمات . **"انظر إلى النساء العربيات وستقرأ على وجوههن المختفية معاناة آلاف السنين من العبودية..."**

كما رأينا من قبل، لا يمكن تبرئة الأوروبيات من التعصب العرقي. ففي الوقت الذي رثت فيه "ترو بردرج هول" لحال النساء في الشرق وضيق أفقهن،نقلت حواراً جرى في مؤتمر نسائي انعقد في عشرينات القرن الحالي. وإذا كانت قد تطرفت في رد فعلها على خطبة سابقة لإحدى الحاضرات، فإن المرء يخامره شعور بأن الرد عبارة عن شرح تقدمه امرأة حول معنى الحرية بالنسبة لامرأة أخرى تشترك معها في الانتماء نفسه- لكن ليس بعبارات أنثوية.

إن الحريم في الشرق، أو على الأصح "الحرملك"، هي كلمة مشتقة عن العربية وتعني المقدس أو المحرم. لكن بالنسبة لأوروبا وأمريكا يُعتبر "الحرملك" حافلاً بالطقوس السرية والتصرفات الشريرة، ولا يمكن الحديث عنه دون غمز ولمز. وفي الحقيقة لا يعني "الحريم" جمعاً من المحظيات، فهو ببساطة مكان تجتمع فيه النساء، ولا يسمح للرجال -فيما عد الزوج- بالدخول إليه، فالتقاليد رسخت اعتقاداً ثابتاً بضرورة وجود "الحريم" (في الشرق) كان من نتائجه ظهور وجهات نظر مروعة في ضيق أُفقها.

---

[11] - القس .جي.روبنسون : "حياة القرية في فلسطين" ، ١٩٠٥، ص ٥٨.

وفي مؤتمر نسائي عقد مؤخراً، تحدثت إحدى الأمريكيات عن الحرية التي تتمتع بها النساء من مواطناتها في المنزل، حيث ذكرت حقيقة تؤكد أن زوجها لا يفكر مطلقاً في الاعتراض على حقها في لقاء أي رجل غريب بمفردها، وأنها نادراً ما تتناول الشاي عند الأصيل دون بعض من أصدقائها الرجال؛ عند هذا انبرت لها امرأة فارسية وسألت بجدية تامة عن "كيفية تحديد هوية والد الأطفال بعد ذلك اللقاء؟.[١٢]

لا يمكن أن نجادل في حقيقة عدم تعاطف "غيرترود بل" مع النساء الغربيات، كما أنه أظهرت عدم اهتمام مذهل بالنساء الشرقيات حيث قُدمن في كتبها كشخوص مبهمة تنتقل داخلة وخارجة من الخيام لتقديم وجبات الطعام، بينما تقوم هي بالتحدث مع الرجال. المقطعان الأولان يظهران طبيعتها اللامبالية في أسوأ حالاتها؛ وفي المقطع الثالث تعترف بأن للنساء مشاكلهن الخاصة- لكن فقط حين يكن مواطنات البلد نفسه الذي تنتمي إليه.

بعد نصف ساعة نُصب مخيمنا على مسافة قريبة أكثر انخفاضاً فوق نجد معشب جميل. وبسرعة أحاط بنا العرب من كل جانب وباعونا دجاجة وبعض الحليب الذي كان حامض المذاق لذيذ الطعم يسمونه "اللبن". وفي الوقت الذي كنا نساوم فيه على الأسعار تجولت النساء والأطفال حولنا وأكلوا من العشب كالماعز تماماً. كانت النساء سافرات، يرتدين عباءات زرقاء من القطن يبلغ طول الواحدة منها ست ياردات تتجمع وتُثبت حول الرأس والخصر وتتدلى حتى القدمين. كانت وجوههن من الفم حتى أسفل الذقن موشومة باللون النيلي، وشعرهن معقوداً بشكل ضفيرتين طويلتين تتدليان على جانبي الرأس.[١٣]

---

[١٢] - ترو بريدج هول : "مصر في الظل" ، ١٩٢٨، ص ٥٨-٥٩.

[١٣] - *رسائل غيرترود بل* : ١٩٤٧، ص ٦٦.

النساء يستمتعن تماماً بزيارتنا. تحلقن بترقب حول خيمة "فتوح" ينتظران أية حفنة متناثرة من البلح، أو بضع لفافات من التبغ يقدمها لهن. أحضرن معهن قطعاً من القماش لتطريزه، وأقمن هنا استعداداً لحلول العصر. وحين قدمتُ بسرعة لتناول الغداء وجدت رجال العشيرة يعملون في حياكة قمصان جديدة هم بأمس الحاجة إليها. سألهم "فتوّح": "ألا تنسج نساؤكم القمصان لكم؟" فأجابوا، "وا لله إن نساءنا لا يعملن شيئاً سوى التزام الهدوء". أنا على ثقة بأنه ليس هنالك ما يسأل عن النساء أكثر من هذا.[١٤]

من المعلوم أن هنالك لحظات تشعر فيها المرأة بأن مصاعبها تزداد بسبب كونها أنثى. والليلة الماضية كان خدمي يستحقون الضرب المبرح، وهذا ما كانوا سيلاقونه لو أنني كنت رجلاً.[١٥]

قبل أن يغادر "لورنس غرافيتي – سميث" لاستلام مهامه كقنصل في الموصل عام ١٩٣٥، استشار "عقيداً" في الجيش عاش هناك سنين طويلة. وقلائل هم الرجال الغربيون الذين كانوا على شاكلة هذا الرجل العسكري في فظاظته حين يتحدث عن مشاعره تجاه النساء الشرقيات:

"النصيحة الجدية الوحيدة التي قدمها إلي، والتي تجسد خبرة سنين طويلة كانت: "إذا ما استخدمت امرأة كردية، فعلي الاحتفاظ بالبندقية إلى جانبي".[١٦]

في الفصل الأول من هذه المختارات هنالك فقرة مقتبسة من "مايكل آشر" الذي ذهب إلى السودان عام ١٩٧٩ ليعمل كمدرس، ثم انضم فيما بعد إلى "اليونيسيف" في "حملة الجمال" التي أرسلتها لإيصال المعونة إلى البدو القاطنين في المناطق النائية. ومثل كثير من الإنكليز

---

[١٤] – رسائل غيرترود بل : ١٩٤٧، ص ٢٣٧.

[١٥] – رسائل غيرترود بل : ١٩٤٧، ص ١٧٩.

[١٦] – الشرق الساطع : ١٩٧٠، ص ١٨٠.

قبله وقع في غرام الصحراء. وفي إحدى المناسبات حاول التعبير عن مشاعره لرجل من البد كان رفيقاً له في تلك الرحلة الطويلة الخطرة.

"نَظَر إلي دون أن يفهم وقال: "الصحراء ! إن الصحراء كالعاهرة".

الرجال في الشرق والغرب لا يختلفون كثيراً، لأن "مايكل أشر" حين قدم لوداع الصحراء لخص أحاسيسه تجاهها قائلاً:

> **كنت أنظر إلى الصحراء، الصحراء الموحشة التي عبرتها... إنها كالمرأة، تبدو في قمة حسنها لحظة الوداع......**[١٧]

[١٧] - بحثاً عن طريق الأربعين يوماً : ١٩٤٨، ص ٢٣٢.

من اصدارات الدار

- فرويد وبوذا.

"التحليل النفسي وبوذية زن"

ا- الآفاق القصّية.

"دراسة في المعلقات"

-الزمن الأبدي.

"الشعر الصوفي. الزمان. الفضاء. الرؤيا"

ا- قبلة المرأة العنكبوت.

" روايـــة "

إصدارات قادمة:

- جان جينه.

"مقالات ومقابلات"

- نيتشة مكافحاً ضد عصره.

- اغتيال رابين.

" الدين والقومية والعنف في اسرائيل"

- أثينا السوداء.

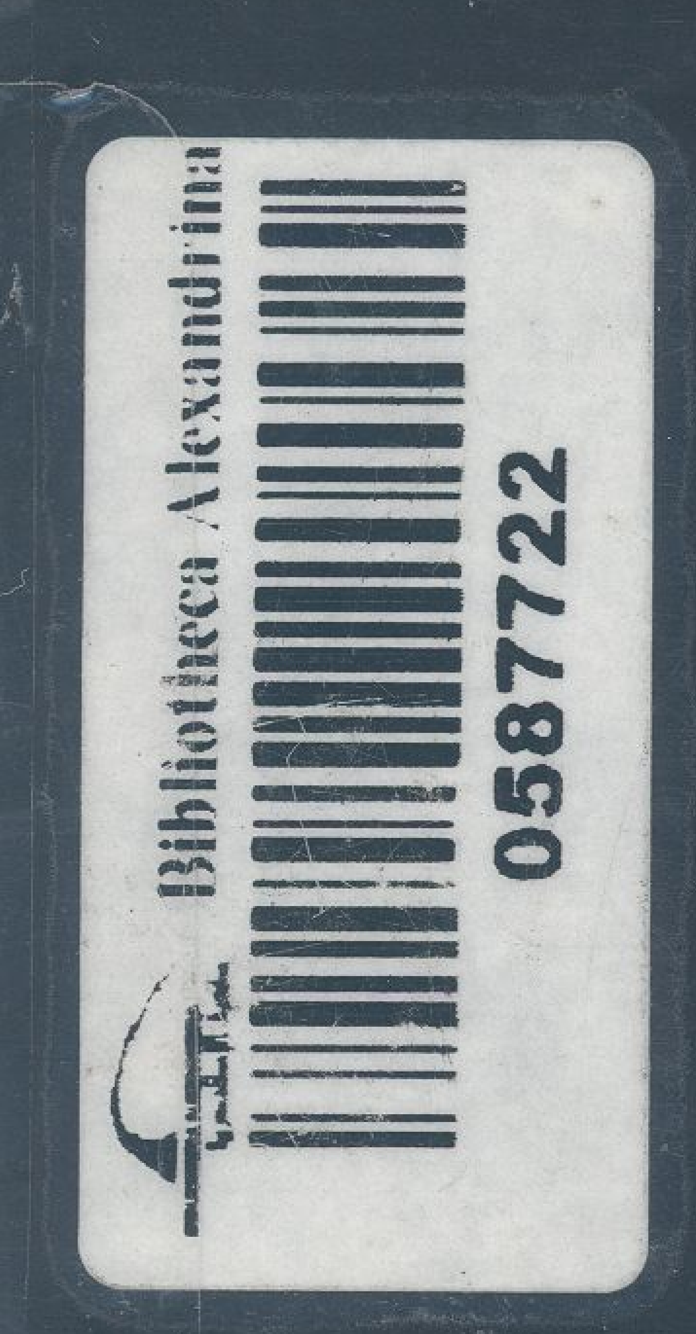
" الجذور الآفرو آسيوية للحضارة الأوربية "

تدقيق لغوي:

هيثم نشواتي

شكل الحجاب والحريم عبر قرون رمزين فتنت بهما أوروبا ونفرت منهما في آن معاً. فقد كونا عائقاً حال بين المراقب الغربي وبين رؤية النساء في الشرق والتواصل معهن مما ولد لديه شعوراً بالإحباط وسلوكاً عدوانياً من جهة، ومن جهة أخرى كانا حلما داعب خياله، ونوعا من "الفنتازيا"، وأملا بالمغامرة بحثاً عن الشهوة وعن الغريب والشاذ، بعد كل ما سمعه حول "الجمال من خلف الحجاب"، و "درة نساء الحريم".

ولم يختلف الأمر بالنسبة للأوروبيات حين زرن الشرق، فقد كن على نفس القدر من الغموض والعدائية، وكما فعل الرجال. نظرن إلى الأمور بمنظار أوروبي عرقي متعصب وإن اختلفت الأسباب كما سنرى لاحقاً.





دار نون للدراسات والنشر
اللاذقية - هـ. ٤١٤٧٤٢